



قام طالب بعمل بصريته
المطلوبة منه

د. أحمد أبو صالح
ص. ط. ط.



المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

مركز الدراسات العليا الإسلامية المسائية

د. محمد بن عبد الله
ص. ط. ط.

عبد الرحمن محمد البرادعي الأنصاري

موقف الملام من دعوة الرسل
فد قصص القرآن الكريم
وكيفية مواجهته

٢٠١٤

إعداد الطالب

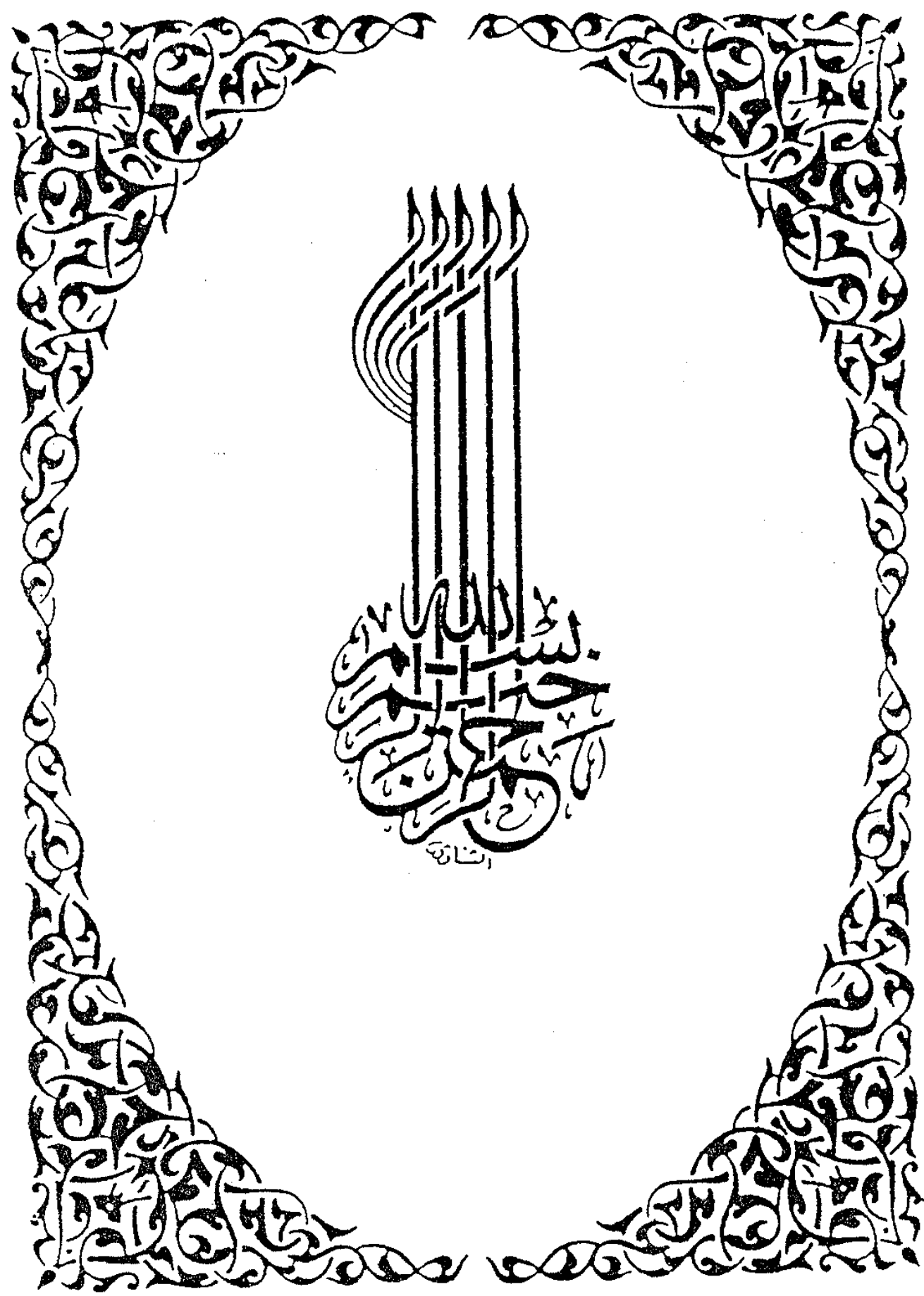
عبد الرحمن محمد علي البرادعي الأنصاري

إشراف

الأستاذ الدكتور/ أحمد أحمد أبو السعادات

المجلد الأول

١٩٩٤/٥١٤١٤ م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَالَّذِي يُضَوِّبُ الْمَوْتَى
إِن شَاءَ

ملخص الرسالة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه وبعد . .
فهذا بحث بعنوان (موقف المأ من دعوة الرسل في قصص القرآن الكريم وكيفية مواجهته) ويحتوي على مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة .
المقدمة : وأشتملت على سبب اختيار الموضوع ، ومنهج البحث ، وخطته .
التمهيد : واشتمل على تعريف المأ في اللغة، ومعانيه في القرآن الكريم ، كما اشتمل على أغراض القصص القرآني .

الباب الأول : معارضة المأ لدعوة الرسل عليهم السلام
وهذا الباب يعرض أصناف المأ من حيث موقفهم من الدعوة ، ثم يتناول العوامل التي أدت بالمأ المكذبين إلى عداوة الرسل عليهم السلام ، كما يتناول موقف عامة الناس من الدعوة ، وأسباب تأثرهم بالمأ المكذبين .

الباب الثاني : وسائل المأ في العمل ضد دعوة الرسل عليهم السلام .
ويعرض هذا الباب مجموعة من الشبهات التي أثارها المأ المستكبرون حول دعوة الله جل وعلا ، وحول الرسل عليهم السلام ، وحول المؤمنين ، كما يعرض أنواعا من المجابيات وصورا من الإيذاء التي تعرض لها الرسل عليهم السلام .
الباب الثالث : موقف الرسل عليهم السلام من عمل المأ ضدهم .
ويتناول معالم منهج الرسل عليهم السلام ، والتمثل في الالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى ، والاستعانة به ، والمضي في طريق الدعوة في ثبات ورفق وتجرد وتبرؤ من الكفر وأهله، مع التركيز على العقيدة ، بالإضافة إلى المحاجة وتوضيح الحقائق والرد على الشبهات ، والعمل على سلامة الدعوة وامتدادها ، وتربية المؤمنين على الصبر والثبات .
الخاتمة : وقد تضمنت مجموعة من الدروس المستفادة للعصر الحاضر ومن أبرزها :

- * ما حصل بالأمس من حرب للعقيدة يتكرر اليوم من جديد .
- * من الصفات الأساسية للدعاة : صحة المعتقد وسلامة المقصد ، سلامة المنهج ، العلم ، الرفق ، الصبر ، الثقة بوعده الله جل وعلا .
- * أهمية مراعاة الشمول والعموم في الدعوة إلى الإسلام .
- * البدء بالعقيدة والتركيز على معانيها ، مع الإعداد التربوي للمدعويين
- * ضرورة تصحيح المفاهيم والرد على الشبهات .
- * الدعوة بالقنوة من أنجح أساليب الدعوة .

عميد كلية الشريعة
د/محمد بن كامل السلمي

المشرف على البحث
د/أحمد أبو السعادات

الطالب
عبدالرحمن محمد البرادعي الأنصاري

شكر وتقدير

أحمد الله تعالى وأشكره عز وجل ، ثم أشكر والدتي ببارك الله في عمرها ، وأسبغ عليها ثوب الصحة والعافية ، ووالدي رحمه الله وغفر له وأجزل ثوابه ، وإن كنت لأستطيع رد جميلهما ، فإنني أسأل ربي تبارك وتعالى أن يجزيهما عني بفضلهم وإحسانه خير ماجازي والدين عن ولدهما . كما أشكر جامعة أم القرى على إتاحة فرصة الدراسات العليا المسائية ، فقد وجدت وزملائي من ذلك خيرا كثيرا والحمد لله .

وأخص بالشكر سعادة مدير مركز الدراسات العليا الإسلامية المسائية ، فضيلة الشيخ الدكتور عبد المحسن آل الشيخ ، على حسن اهتمامه ورعايته لأبنائه وإخوانه طلاب المركز .

كما أتقدم بوافر شكرى وتقديرى لفضيلة الشيخ المشرف ، الأستاذ الدكتور أحمد أبو السعادات ، فقد فتح لى قلبه وبيته ، وغمرنى بكرمه وأفادنى من علمه الكثير الكثير ، ومن جانب القدوة والأسوة فيه أكثر ، أحسبه كذلك ولاأزكى على الله أحدا ، ولقد كان لتوجيهات فضيلته وتشجيعه أبرز الأثر - بعد توفيق الله سبحانه - فى إنجاز هذا البحث وإتمامه وإذا لأملك له ثوابا إلا الدعاء فإننى أسأل ربي تبارك وتعالى أن يجزيه عني خير الجزاء ، وأن يبارك فى عمره ، ويجمع له بين خير الدنيا ونعيم الآخرة . وفى هذا المقام أيضا أشكر فضيلة شيخى الأستاذ الدكتور سليمان الصادق وفضيلة شيخى الأستاذ الدكتور عبد الحميد الأمين على تفضلهما بالموافقة على المناقشة وتسديد النقص والقصور مع كثرة مشاغلهم وأعبائهم وأسأل الله تعالى أن يجزيهما بفضلهم خير الجزاء .

كما أتقدم بوافر الشكر لكل من تتلمذت على يديه من أصحاب الفضيلة المشايخ ، وأسأل الله جل وعلا أن يجزيهم بفضلهم وإحسانه .

ولايفوتنى فى هذا المقام أفضا أن أشكر أهل بيتى على ماقدموه من عون ، ومابدلوه من جهد فى تهيئة الجو المناسب للبحث والاطلاع وأسأل الله عز وجل أن يجمع لى ولهم بين خيرى الدنيا والآخرة .

كما أشكر كل من أكرمنى بالمساهمة فى هذا البحث برأى أو تسديد أو معونة ، وأسأل الله تباركت أسماؤه أن يجزيهم عنى خير الجزاء .

ختاما أسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يرزقنا علما نافعا ، وعملا صالحا ، ونية خالصة ، إنه سميع مجيب ، وصلى الله وسلم على نبينا وسيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، والحمد لله رب العالمين .

المقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) .

{يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون}{(١)} .
{يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا}{(٢)} .

{يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا . يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما}{(٣)} .

أما بعد ، فبفضل من الله تعالى وإحسان ، وعون منه سبحانه وتوفيق أعددت هذا البحث لنيل درجة (الماجستير) ، وهو بعنوان :
(موقف الملاءمة من دعوة الرسل فى قصص القرآن الكريم وكيفية مواجهته) .

سبب اختيارى لهذا الموضوع :

من أسباب اختيارى لهذا الموضوع ما يلى :

أولا : رغبتى فى الاطلاع على دعوات الرسل عليهم السلام فى القرآن الكريم ، والإفادة الشخصية من هذا الموضوع ، باعتباره دافعا يدفع الباحث فى هذا المجال إلى تأمل كلام الله سبحانه ، وتدبر معانيه ، والرجوع إلى أمهات كتب التفسير والحديث .. وذلك مكسب عظيم .

(١) سورة آل عمران : آية ١٠٢

(٢) سورة النساء : آية ١

(٣) سورة الأحزاب : آية ٧٠-٧١

ثانيا : لقصص القرآن الكريم فوائد وأغراض ، ولورود أخبار الرسل في القرآن دروس وعبر :

{لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ..} (١).

ولذا أحببت أن أقف على بعض جوانب هذه العبر ، وذلك فيما يتعلق بمواقف الملأ ، ومجاہبتهم ضد الرسل عليهم السلام ، وموقف الرسل عليهم السلام من هذه المجاہبات .

ثالثا : قضية الرسل عليهم السلام هي قضية الدعوة إلى دين الله تعالى والتي يستمر في طريقها أتباع الرسل من الدعاة إلى الله جل وعلا إلى قيام الساعة ، ومن هنا كان لابد من أن يطلع الدعاة على حياة الرسل عليهم السلام ، وما تعرضوا له من كيد وإيذاء وتضليل ، وعلى منهجهم تجاه ذلك : {أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ..} (٢).

ومن ثم أحببت أن أشرك بجهود المقل في إبراز جانب من جوانب الدعوة في حياة الرسل عليهم السلام من خلال القصص القرآني ، سائلا الله تبارك وتعالى بالإخلاص والتوفيق .

منهج البحث :

يمكن إيجاز منهجى في البحث فيما يأتي :

أولا : دراسة كل جزء من أجزاء البحث دراسة موضوعية ، وذلك بالرجوع إلى ماورد من النصوص ذات العلاقة به ، وجمعها ، وتحليلها ، والتعليق عليها ، بما يفصل القضية المراد بيانها ، ويحدد معالمها .

ثانيا : رجعت في تفسير الآيات إلى مجموعة من أمهات كتب التفسير ، مع الابتعاد عما ورد فيها من الاسرائيليات المتعلقة بقصص الأنبياء السابقين عليهم السلام ، مكتفيا بما ورد من أخبارهم في القرآن الكريم .

(١) سورة يوسف عليه السلام : من آية ١١١

(٢) سورة الأنعام : آية ٩٠

ثالثا : قد يلاحظ القارىء تكرارا لبعض النصوص ، سواء كان النص آية أو حديثا أو أثرا ، وكان ذلك - فى نظرى - أمرا ضروريا ، ليكون كل فصل أو مبحث وحدة موضوعية مكتملة ، مع ارتباطها ببقية أجزاء البحث ذلك أن النص الواحد قد يشتمل على عدة شواهد يستفاد منها فى أكثر من موضع ، وبالتالي تتكرر النصوص بحسب النظرة للفوائد المستنبطة ، والمعانى المحتملة .

رابعا : من الملاحظ فى البحث كثرة الاستشهاد بقصص عدد من الرسل كنوح وهود وصالح وإبراهيم وشعيب وموسى عليهم السلام ، بالإضافة إلى رسولنا صلى الله عليه وسلم وذلك لكثرة ورود مواقف الملائم من هؤلاء الرسل عليهم السلام فى قصص القرآن الكريم ، وما قام به المعاندون من مظاهر المكر والكيد ، بينما يقل ذلك عن بعض الرسل عليهم السلام ، كعيسى بن مريم عليه السلام على سبيل المثال .

خامسا : موضوع البحث متعلق فى الأصل بقصص القرآن الكريم ، ومع ذلك فلم يكن لى أن أتجاوز سيرة رسولنا صلى الله عليه وسلم الواردة فى كتب السنة والسيرة ، ذلك أن السنة شارحة للقرآن ، ومبينة له ، ومفصلة لمجمله ، فإذا كان القرآن الكريم قد أجمل فى خير رسول الله صلى الله عليه وسلم وماتعرض له ، فإن السنة قد فصلت ذلك وأوضحته ، ومن ثم كان مما يلاحظ على بعض عناصر البحث أن الكثير من الأمثلة والمواقف ، من سيرة رسولنا صلى الله عليه وسلم ، وهذا أمر طبيعى يعود إلى كثرة المرويات عن حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوته ، بما لا يحصل بنفس الصورة عن الرسل السابقين عليهم السلام ، ومع ذلك فلم يكن مقصودى هو الاستيعاب لكل ماورد فى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمثلة على عناصر البحث ، بل آثرت الاكتفاء ببعض الأمثلة والمواقف ، حتى لا يغلب على البحث طابع السيرة النبوية الشريفة .

سادسا : حاولت في أسلوب الكتابة أن أجمع بين المنهج العلمى التوثيقى ، وبين المنهج الإنشائى الذى يهتم بصياغة العبارة ، بما يخاطب الوجدان ويبعث على التأمل والنظر .

سابعا : عزوت النصوص إلى مصادرها ، وذلك على النحو التالى :
* إذا كان النص آية من القرآن الكريم ذكرت في الهامش اسم السورة ثم رقم الآية .

* وإن كان النص حديثا نبويا أو رواية من مرويات السيرة عزوته إلى من خرج من المحدثين ، ممن تيسر لى الاطلاع على كتبهم ، فإن كان فى أحد الكتب الستة ذكرت اسم الكتاب والباب ، ثم رقم الجزء والصفحة وإن كان فى غيرها اكتفيت بذكر رقم الجزء والصفحة ، إلا أننى إذا وجدت النص فى الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بالعزو إليه ، مع ملاحظة أن اللفظ يكون لأول مصدر أذكره فى الهامش ، فإذا حصل خلاف ذلك بينته ، وإذا تكرر النص أحلت - غالبا - على الصفحة التى سبق تخريجه فيها ، ويلاحظ هنا أيضا أن النص قد لأورده فى الموضوع الواحد بتمامه ، بل أكتفى منه بالشاهد .

كما حاولت نقل حكم علماء الحديث على الرواية فى غير الصحيحين ، حسب ما تيسر لى ، وذلك كالتزمذى والهيثمى وابن حجر ، والحاكم مع موافقة الذهبى ، وكالألبانى من المعاصرين .

* وإذا كان النص من مراجع أخرى عزوته إلى مصدره فى الهامش ، بذكر اسم الكتاب ثم رقم الجزء والصفحة ، وإذا حصل شىء من الاختصار له بينت ذلك .

ثامنا : بينت معانى الكلمات التى تحتاج - فى نظرى - إلى إيضاح .
تاسعا : كتبت ترجمة مختصرة للتعريف بالأعلام الذين ورد ذكرهم فى البحث من الصحابة رضوان الله عليهم فمن بعدهم ، باستثناء المشهورين من الصحابة كالأخلفاء الأربعة ونحوهم ، وذلك فى ملحق مستقل .

عاشرا : وضعت في النهاية فهرس للبحث ، وهي كالتالى :

* فهرس الآيات القرآنية .

* فهرس الأحاديث النبوية .

* فهرس الأعلام .

* فهرس المراجع .

* فهرس الموضوعات .

خطة البحث :

تشتمل خطة البحث على مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة .

وأعرض ذلك على سبيل الإجمال فيما يلي :

المقدمة : وهي مايعرض الآن بين يدي القارىء الكريم ، متضمنة

سبب اختيار الموضوع ، وخطة البحث ، ومنهجه .

التمهيد : ويشتمل على مايلي :

أولا : التعريف بالملاء . بينت فيه معانى لفظ (الملاء) في اللغة ، مشتملا

على الاستدلال ببعض ماورد من ذلك في السنة الشريفة ، ثم ذكرت

استعمالات لفظ الملاء في القرآن الكريم ، وختمت ببيان المقصود منه في هذا

البحث ، باعتباره المعنى المستعمل غالبا في القصص القرآنى .

ثانيا : أغراض القصص في القرآن الكريم . ذكرت فيه معنى القصص ،

والمراد بقصص القرآن الكريم ، ثم عرضت بإيجاز بعض أهم الأغراض

للقصص القرآنى .

الباب الأول : معارضة الملاء لدعوة الرسل عليهم السلام . ويشتمل على

فصلين :

الفصل الأول : حال الملاء مع الدعوة ، والمؤثرات في ذلك .

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : الملاء والدعوة إلى الله .

وقد بينت فيه أصناف الملائم باعتبار مواقفهم من دعوة الرسل عليهم السلام ، وجعلت ذلك في أربعة مطالب :

المطلب الأول : الكفار المصرحون بالتكذيب والعداوة .

المطلب الثاني : المنافقون .

المطلب الثالث : المؤمنون .

المطلب الرابع : المتعاطفون من الكفار ، مع بقائهم على الكفر .

المبحث الثاني : أسباب عداوة الملائم لدعوة الرسل عليهم السلام .
وجعلت ذلك في عشرة مطالب :

المطلب الأول : الاستكبار .

المطلب الثاني : الخوف على المكانة ، والحشية على المنصب والجاه .

المطلب الثالث : تأثير بعض الملائم على بعض .

المطلب الرابع : الإصرار والعناد .

المطلب الخامس : الجهل .

المطلب السادس : الحسد .

المطلب السابع : التقليد .

المطلب الثامن : الترف والانهماك في الشهوات .

المطلب التاسع : إنكار البعث والجزاء .

المطلب العاشر : اتباع الهوى وكرهية الحق .

الفصل الثاني : أثر الملائم على عامة الناس ، وأسباب ذلك .

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : حال عامة الناس مع الدعوة إلى الله تعالى .

وقد بينت فيه أن الأصل في عامة الناس حين يتصلون بدعوة الرسل عليهم السلام ، ويدركون مقاصدها ، أنهم أقرب إلى الاستجابة والقبول ، ولذا كان المؤمنون بالرسل عليهم السلام - في الغالب - من عامة الناس ، ومع ذلك فإن الواقع يؤكد أن للملائم المكذبين تأثيراً لا يمكن إغفاله ، في صد الناس عن الاستجابة لدين الله تعالى .

المبحث الثانى : أسباب تأثر الناس بالملأ .
وجعلت ذلك فى أربعة مطالب :

المطلب الأول : الإغراء والترغيب .

المطلب الثانى : الإرهاب والتخويف .

المطلب الثالث : التلبيس والتضليل .

المطلب الرابع : الجهل وخفة الأحلام .

الباب الثانى : وسائل الملأ فى العمل ضد دعوة الرسل عليهم السلام .
ويشتمل على فصلين :

الفصل الأول : إثارة الشبهات . ويشتمل على تمهيد وثلاثة مباحث :

التمهيد : وقد بينت فيه المراد بالشبهات ، وهدف المضلين من إثارتها ،

وبعض السمات العامة لشبهات المكذبين فى القصص القرآنى ، ثم المقصود من التنويع فى هذا الفصل .

المبحث الأول : شبهات حول الدعوة . ويشتمل على ثلاث شبهات

أساسية من شبهات المضللين .

المبحث الثانى : شبهات حول الرسل عليهم السلام .

وقد قسمت هذه الشبهات إلى أربعة أقسام ، وذلك باعتبار الجانب

الذى يقصد التشكيك فيه لدى الرسل عليهم السلام ، وبينت هذه الأقسام

فى المطالب الأربع التالية :

المطلب الأول : الشبهات التى يقصد بها التشكيك فى الرسول عليه

السلام من جهة حاله فيما جاء به .

ويشتمل على أربع شبهات .

المطلب الثانى : الشبهات التى يقصد بها التشكيك فى الرسول عليه

السلام من جهة استحقاقه للرسالة ، وجدارته بالاتباع .

ويشتمل على ست شبهات .

المطلب الثالث : الشبهات التى يقصد بها التشكيك فى الرسول عليه

السلام من جهة إخلاصه .

- ويشتمل على أربع شبهات .
- المطلب الرابع : الشبهات التي يقصد بها التشكيك في الرسول عليه السلام من جهة منهجه وأسلوبه في الحياة ، وأثره في المجتمع .
- ويشتمل على ثلاث شبهات .
- المبحث الثالث : شبهات حول المؤمنين بالدعوة .
- ويشتمل على ثمان شبهات .
- الفصل الثاني : المجابهاة .
- ويشتمل على عشرة مباحث :
- المبحث الأول : الجحود المستمر والتكذيب بالآيات .
- المبحث الثاني : المساومة والترغيب .
- المبحث الثالث : الوعيد والتهديد .
- المبحث الرابع : الإيذاء النفسى .
- المبحث الخامس : الإيذاء البدنى .
- المبحث السادس : التضيق والملاحقة .
- المبحث السابع : اقتراح الآيات واستعجال الوعيد إمعانا في التعنت والعناد .
- المبحث الثامن : التخطيط والتآمر والإعداد للمواجهة .
- المبحث التاسع : التأثير السلبي على عامة الناس للحيلولة بينهم وبين الدعوة .
- المبحث العاشر : المواجهة الداخلية من المنافقين .
- ومن خلال هذه المباحث كشفت أنواع المجابهاة التي سلكها الملأ المستكبرون في مواجهة الرسل عليهم السلام ، والأساليب المتبعة في كل نوع وذكرت لكل منها مجموعة من الشواهد والأمثلة من دعوات الرسل عليهم السلام .



٢٦٢٧

(١١)

وحيث إن المنافقين يمثلون جبهة من جبهات العداء للإسلام والكيد لأهله ، بل هي جبهة بالغة الخطورة ، إذ أنها تتحرك من داخل المجتمع المسلم ، وتنسم حركتها ضد الدعوة بالمكر والتستر والخفاء ، فقد آثرت أن أفرد المبحث الأخير من هذا الفصل لفضح بعض أساليب المنافقين في المواجهة الداخلية للدعوة النبوية .

الباب الثالث : موقف الرسل عليهم السلام من عمل الملأ ضدهم ، ويشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : الالتجاء إلى الله سبحانه والاستعانة به .

الفصل الثاني : منهج الرسل عليهم السلام في دفع أعمال الملأ ضدهم . ويشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : المضى في طريق الدعوة .

وقد فصلت في هذا الجانب من منهج الرسل عليهم السلام من خلال المطالب الست التالية :

المطلب الأول : الثبات على الدعوة ، وعدم التأثر بالمساومة أو الوعيد .

المطلب الثاني : التركيز على التربية الإيمانية .

المطلب الثالث : التبرؤ من الكفر وأهله .

المطلب الرابع : التأكيد على نزاهة الدعوة وتجردها .

المطلب الخامس : الاتصال بالملأ بغية دعوتهم إلى الله تعالى .

المطلب السادس : الأصل في الدعوة اللين والتلطف والرفق .

المبحث الثاني : المحاجة والمحاورة ، وتوضيح الحقائق ، والرد على الشبهات .

وقد عرضت لذلك مجموعة من النماذج من خلال المطالب الخمس التالية :

المطلب الأول : من دعوة نوح عليه السلام .

المطلب الثاني : من دعوة هود عليه السلام .

المطلب الثالث : من دعوة إبراهيم عليه السلام .

المطلب الرابع : من دعوة موسى عليه السلام .

المطلب الخامس : من دعوة رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم .

المبحث الثالث : التخطيط لنجاح الدعوة وسلامتها ، ويشتمل على

ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : العمل على نجاح الدعوة وامتدادها .

المطلب الثاني : العمل على سلامة الدعوة وأمنها .

المطلب الثالث : الجهاد في سبيل الله تعالى .

الفصل الثالث : موقف الرسل عليهم السلام من المؤمنين بالدعوة فيما

ينبئهم الملأ ضدهم .

الخاتمة : دروس مستفادة للعصر الحاضر ، وتشتمل على مايلي :

أولاً : مقارنة بين الماضي والحاضر .

ثانياً : صفات الدعاة .

ثالثاً : وسائل الدعوة وأساليبها .

وختاماً أسأل الله تبارك وتعالى أن يرزقنا علماً نافعا ، وعملاً صالحاً ،

ونية خالصة ، رانه سميع مجيب ، وصلى الله وسلم على نبينا وسيدنا محمد

وعلى آله وصحبه ، والحمد لله رب العالمين .

(١٣)

التمهيد

ويشتمل على الآتى :

- (١) التعريف بالملأ
- (٢) أغراض القصص فى القرآن الكريم

تعريف الملائ

* الملائ في اللغة :

يرد لفظ (الملائ) في اللغة بمعان متعددة أذكر منها مايلي :

- (١) أشرف القوم ورؤساؤهم وذوو الجاه فيهم .
- قال في تهذيب اللغة : "الملائ مهموز مقصور : أشرف الناس ووجوههم" (١) . "الملائ الرؤساء" (٢) .
- ومنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعائه على رؤساء الكفر كأبي جهل وأشباهه "اللهم عليك الملائ من قريش" (٣) .
- وقوله عليه الصلاة والسلام : "إن الملائ قد بغوا علينا" (٤) .
- قال النووي : "هم أشرف القوم" (٥) .
- وفي الحديث القدسي "فيم يختصم الملائ الأعلى" (٦) والمراد الملائكة المقربون عليهم السلام (٧) .

- (١) تهذيب اللغة للأزهري ، طبعة دار الكاتب العربي عام ١٩٦٧م ٤٠٤/١٥ ، وينظر : لسان العرب لابن منظور ، طبعة دار المعارف ٤٢٥٢/٦ ، ترتيب القاموس المحيط للفيروز اباذى ، والترتيب للطاهر الزاوى ط ٣ ، دار الفكر ٢٧٤/٤ .
- (٢) تهذيب اللغة ٤٠٤/١٥ ، لسان العرب ٤٢٥٢/٦ ، وينظر تاج العروس للزبيدي ط ١٣٨٥/١٩٦٥ ٤٣٦/١ .
- (٣) الحديث رواه البخارى في كتاب فضائل الصحابة ، باب مالقى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المشركين بمكة ، ط ٣ ، ١٤٠٧هـ ، دار ابن كثير ١٣٩٩/٣ ، ومسلم في كتاب الجهاد ، باب مالقى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من أذى المشركين والمنافقين ، ط ٢ ، ١٣٩٢هـ ، دار إحياء التراث العربى ١٥٣/١٢ .
- (٤) الحديث رواه البخارى في كتاب التمنى ، باب قول الرجل لولا الله ما اهتدينا ٢٦٤٤/٦ ، ومسلم في كتاب الجهاد ، باب غزوة الأحزاب ١٧١/١٢-١٧٢ .
- (٥) شرح النووي على صحيح مسلم ١٧١/١٢ .
- (٦) الحديث رواه الترمذى في كتاب التفسير ، باب ومن سورة ص ، ط ٢ ، ١٤١٣هـ ، دار سحنون ٣٦٨/٥-٣٦٩ ، وقال هذا حديث حسن صحيح ، ورواه أحمد : الفتح الربانى ، ط ١ ، دار إحياء التراث العربى ٢٢٣/١٧-٢٢٤ ، والدارمى ، ط ٢ ، ١٤١٣هـ ، دار سحنون ٤٤٩/٢ .
- (٧) ينظر : النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ، ط ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، دار الفكر ٣٥١/٤ ، بلوغ الأمانى من أسرار الفتح الربانى للساعاتى ٢٢٣/١٧ .

وروى ابن إسحاق - وهو يحكى قصة بدر - قال :

"ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى اذا كان بالروحاء^(١) لقيه المسلمون يهنتون به بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين ، فقال لهم سلمة بن سلامة - كما حدثني به عاصم بن عمر بن قتادة ويزيد ابن رومان - ما الذى تهنتوننا به ؟ فوالله ان لقينا إلا عجائز صلعا^(٢) كالبدن المعقلة^(٣) فنحرنها ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : أى ابن أخى ، أولئك الملأ^(٤) .

قال ابن هشام : "الملأ : الأشراف والرؤساء"^(٥) .

وقال ابن الأثير : "أى أشراف قريش"^(٦) .

وجاء لفظ (الملأ) كذلك بمعنى الأشراف والسادة وذوى الجاه فى حديث ابن مسعود رضى الله عنه قال : "مر الملأ من قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده خباب وصهيب وبلال وعمار فقالوا يا محمد

(١) الروحاء : بفتح الراء المشددة وسكون الواو ، موضع على مسافة ثلاثين أو أربعين

ميلا من المدينة . ينظر : ترتيب القاموس المحيط ٤٠٩/٢ .

(٢) أى مشايخ عجزة عن الحرب ، والأصلع هو الذى انحسر الشعر عن رأسه .

النهاية ٤٧/٣ .

(٣) أى المشدودة بالعقال . النهاية ٢٨١/٣ .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ، ط/مكتبة زهران ، القاهرة ٢٥٣/٢ ، وأورده ابن كثير

فى البداية والنهاية نقلا عن ابن إسحاق ، ط/١ ، ١٤٠٨ هـ ، دار إحياء التراث

العربى ٣٧٢/٣ ، ورواه البيهقى فى دلائل النبوة عن موسى بن عقبة ، ط/١ ،

١٤٠٥ هـ ، دار الكتب العلمية ١٤٧/٣ وينظر : السيرة النبوية وأخبار الخلفاء لابن

حبان ، ط/١ ، ١٤٠٧ هـ ، مؤسسة الكتب الثقافية ص ١٨٣ ، المغازى للواقدى ،

ط/عالم الكتب ، بيروت ١١٦/١ ، السيرة الحلبية لعلى بن برهان الدين الحلبي ،

ط/١٩٨٠ هـ/١٩٨٠ م ٤٤٣/٢ ، سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد لمحمد بن

يوسف الصالحى ، ط/المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ٩٧-٩٨ .

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ٢٥٣/٢ .

(٦) النهاية ٣٥١/٤ ، وينظر : تهذيب اللغة ٤٠٤/١٥ ، لسان العرب ٤٢٥٢/٦ ، تاج

العروس ٤٣٦/١ .

أرضيت بهؤلاء" (١).

وفي حديث أنس رضى الله عنه يحكى قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة : "ثم أرسل إلى ملاً بنى النجار" (٢).
قال النووى : "يعنى أشرافهم" (٣).

وفي حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال : "إن الملاً من قريش اجتمعوا في الحجر فتعاقدوا باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ونائلة وأساف لو قد رأينا محمداً لقد قمنا إليه قيام رجل واحد فلم نفارقه حتى تقتله فأقبلت ابنته فاطمة رضى الله تعالى عنها تبكى حتى دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت هؤلاء الملاً من قريش قد تعاقدوا عليك لو قد رأوك لقد قاموا إليك فقتلوك ... " (٤).

وفي أصل (الملاً) بهذا المعنى وجوه :

منها : أن الأصل فيه الملىء ، من قولهم ملاً الرجل يملاً ملاءة فهو ملىء ، فوصفوا بذلك لأنهم ملئوا شرفاً ، أو عقولاً راجحة ، أو بما يطلب ويتغنى منهم ، أو وصفوا بذلك لأنهم يملاًون العيون مهابة ، والمجالس بهاء والأكف نوالاً .

(١) الحديث رواه أحمد : الفتح الربانى ١٣٧/١٨ ، وابن جرير : تفسير الطبرى ، ط/٢ ، ١٣٧٣ هـ ، مطبعة مصطفى البابى ٢٠٠/٧ ، والواحدى فى أسباب النزول ، ط/٢ ، ١٤٠٤ هـ ، دار القبلة ص ٢١٣ . قال الهيثمى فى مجمع الزوائد : رجال أحمد رجال الصحيح غير كُردوس وهو ثقة (بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد) ، ط/١٣١٣ هـ دار الفكر ٨٨/٧ .

(٢) الحديث رواه البخارى فى كتاب فضائل الصحابة ، باب مقدم النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة ١٤٣٠/٣-١٤٣١ ، ومسلم فى كتاب المساجد ٦/٥-٧ .

(٣) شرح النووى على صحيح مسلم ٧/٥ .

(٤) الحديث رواه أحمد : الفتح الربانى ٢٢٣/٢٠ . قال أحمد شاکر : إسناده صحيح . المسند ، ط/٤ ، ١٣٧٣ هـ ، دار المعارف ٢٦٩/٤ ، وقال الهيثمى : رواه أحمد بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح . مجمع الزوائد ٤١٧/٨ ، ورواه الحاكم وصححه ، ووافقه الذهبى ، ينظر المستدرك على الصحيحين للحاكم ، ط/١ ، ١٤١١ هـ ، دار الكتب العلمية ٢٦٨/١ .

ومنها : أنه مأخوذ من قولهم فلان ملء بكذا أى مطيق له قادر عليه فوصفوا بذلك لأنهم قادرون على مايراد منهم من كفاية الأمور وترتيب المهمات (١).

و(الملاء) اسم جمع ، غير أنه يختلف - كما فى لسان العرب - عن (رهط) و(قوم) ونحوهما من أسماء الجمع ، على اعتبار أن لفظ (مالى) وإن لم يجمع جمع تكسير على (ملاء) إلا أنه من لفظه على كل حال . قال فى لسان العرب : "ليس الملاء من باب رهط وإن كانا اسمين للجمع ، لأن رهطا لا واحد له من لفظه ، والملاء وإن كان لم يكسر مالى عليه فإن مائتا من لفظه" (٢).

"حكى أحمد بن يحيى : رجل مالىء : جليل يملأ العين بجهرته (٣) ، وشاب مالىء العين : إذا كان فخما حسنا ، ويقال : فلان أملاء لعيني من فلان ، أى أتم فى كل شىء منظرا وحسنا ، وهو رجل مالىء للعين إذا أعجبك حسنه وبهجته" (٤).

ويجمع (الملاء) على (أملاء) (٥).

(٢) الجماعة من الناس مطلقا .

قال الجوهري : "والملاء الجماعة" (٦).

(١) ينظر : لسان العرب ٤٢٥٢/٦-٤٢٥٣ ، التفسير الكبير للفخر الرازى ، ط/١ ، ١٣٥٧ هـ ، المطبعة البهية المصرية ٢١١/١٧-٢١٢، ١٨١/٦ ، تفسير أبى السعود ، ط/دار إحياء التراث العربى ، بيروت ٢٠٠/٤ ، تفسير روح المعانى ، ط/١٤٠٣ هـ ، دار الفكر ٣٦/١٢ .

(٢) لسان العرب ٤٢٥٢/٦ ، وينظر تاج العروس ٤٣٦/١ .

(٣) الجهر بضم الجيم هيئة الرجل وحسن منظره . ينظر ترتيب القاموس المحيط ٥٤٦/١

(٤) تاج العروس ٤٣٧/١-٤٣٨ .

(٥) لسان العرب ٤٢٥٢/٦ .

(٦) الصحاح للجوهري ، ط/٢ ، ١٣٩٩ هـ ، دار العلم ٧٣/١ ، وينظر : ترتيب القاموس المحيط ٢٧٤/٤ ، تاج العروس ٤٣٦/١ .

ومنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثه عن نبي الله موسى عليه السلام : "حتى انتهى إلى ملاء من بني إسرائيل" (١).

وقوله عليه الصلاة والسلام : "بينما موسى في ملاء من بني إسرائيل" (٢).

وفي الحديث القدسي "أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملاء ذكرته في ملاء خير منهم" (٣).

قال ابن حجر : "قوله (وإن ذكرني في ملاء) بفتح الميم واللام ، مهموز أي جماعة" (٤).

(٣) الخلق .

قال في تهذيب اللغة : "والملاء أيضا الخلق . يقال : أحسن ملائك أيها الرجل ، وأحسنوا أملاءكم" (٥).

ومنه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم "أحسنوا الملاء كلكم سيروى" (٦).

(١) الحديث رواه البخارى في كتاب الأنبياء ، باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام ١٢٤٩/٣ ، ومسلم في كتاب الفضائل ، باب فضائل موسى عليه السلام ١٢٧/١٥ .

(٢) الحديث رواه البخارى في كتاب الأنبياء ، باب حديث الخضر مع موسى عليه السلام ١٢٤٦/٣ ، ومسلم في كتاب الفضائل ، باب من فضائل الخضر عليه السلام ١٤٧/١٥ .

(٣) الحديث رواه البخارى في كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى {ويذكركم الله

نفسه} ٢٦٩٤/٦ ، ومسلم في كتاب الذكر ، باب الحث على ذكر الله تعالى ٣/١٧ .

(٤) فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلاني ، ط/١ ، ١٤٦٠ هـ ، دار الكتب العلمية ٤٧٦/١٣ .

(٥) تهذيب اللغة ٤٠٤/١٥ ، وينظر : الصحاح ٧٣/١ ، لسان العرب ٤٢٥٣/٦ .

(٦) الحديث رواه مسلم في كتاب المساجد ، باب قضاء الصلاة الفائتة ١٨٨/٥ .

قال النووي : "الملا بفتح الميم واللام وآخره همزة ، وهو منصوب ، مفعول أحسنوا ، والملا الخلق والعشرة . يقال ما أحسن ملا فلان أى خلقه وعشرته" (١).

(٤) التشاور ، والتتابع على الرأى ، والاجتماع على الأمر. (٢)

يقال "ما كان هذا الأمر عن ملا منا أى تشاور واجتماع" (٣).

ومنه قول أبى سفيان يوم أحد "قد كانت فى القوم مثلة ، وإن كانت

لعن غير ملا منا" (٤). "أى عن غير تشاور من أشرافنا وجماعتنا" (٥).

(٥) الطمع. (٦)

(٦) الظن. (٧)

* الملا فى القرآن الكريم :

ورد لفظ (الملا) فى القرآن الكريم فى ثلاثين موضعا ، وفيما يلي

ذكرها :

قال الله تبارك وتعالى :

{ألم تر إلى الملا من بنى إسرائيل من بعد موسى ...} (٨)

{قال الملا من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين} (٩)

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٨٨/٥ ، وينظر النهاية ٣٥١/٤ .

(٢) ينظر : ترتيب القاموس المحيط ٢٧٤/٤ ، تاج العروس ٤٣٥/١ .

(٣) لسان العرب ٤٢٥٣/٦ ، تاج العروس ٤٣٥/١ .

(٤) من حديث رواه أحمد : الفتح الربانى ، ٥٦/٢١ ، وأورده ابن كثير فى التفسير ،

ط/٥١٤٠٢ ، دار المعرفة ٤١٢/١-٤١٣ .

(٥) بلوغ الأمانى من أسرار الفتح الربانى ٥٦/٢١ .

(٦) ينظر : ترتيب القاموس المحيط ٢٧٤/٤ ، لسان العرب ٤٢٥٣/٦ ، تاج العروس

٤٣٦/١ .

(٧) نفس المصادر والصفحات .

(٨) سورة البقرة : من آية ٢٤٦

(٩) سورة الأعراف : آية ٦٠

{قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين}{(١)}

قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا ...}{(٢)}

{قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب ...}{(٣)}

{وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون}{(٤)}

{ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه ...}{(٥)}

{قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم}{(٦)}

{وقال الملأ من قوم فرعون أئذ موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض..}{(٧)}

{ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه ...}{(٨)}

{فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم ...}{(٩)}

{وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً فى الحياة الدنيا...}{(١٠)}

{فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا ...}{(١١)}

{ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ...}{(١٢)}

-
- | | |
|------|-----------------------------------|
| (١) | سورة الأعراف : آية ٦٦ |
| (٢) | سورة الأعراف : من آية ٧٥ |
| (٣) | سورة الأعراف : من آية ٨٨ |
| (٤) | سورة الأعراف : آية ٩٠ |
| (٥) | سورة الأعراف : من آية ١٠٣ |
| (٦) | سورة الأعراف : آية ١٠٩ |
| (٧) | سورة الأعراف : من آية ١٢٧ |
| (٨) | سورة يونس عليه السلام : من آية ٧٥ |
| (٩) | سورة يونس عليه السلام : من آية ٨٣ |
| (١٠) | سورة يونس عليه السلام : من آية ٨٨ |
| (١١) | سورة هود عليه السلام : من آية ٢٧ |
| (١٢) | سورة هود عليه السلام : من آية ٣٨ |

{ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه ...} (١)
{وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع
سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا
تعبرون} (٢).

{فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم ...} (٣)

{وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة ...} (٤)

{ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون
وملئه ...} (٥)

{قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم} (٦)

{قالت يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم} (٧)

{قالت يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ...} (٨)

{قال يا أيها الملأ أياكم يأتينى بعرشها ...} (٩)

{وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك
ليقتلوك ...} (١٠)

{أسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك
من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوما
فاسقين} (١١)

(١) سورة هود عليه السلام : من الآيات ٩٦-٩٧

(٢) سورة يوسف عليه السلام : آية ٤٣

(٣) سورة المؤمنون : من آية ٢٤

(٤) سورة المؤمنون : من آية ٣٣

(٥) سورة المؤمنون : من الآيات ٤٥-٤٦

(٦) سورة الشعراء : آية ٣٤

(٧) سورة النمل : آية ٢٩

(٨) سورة النمل : من آية ٣٢

(٩) سورة النمل : من آية ٣٨

(١٠) سورة القصص : من آية ٢٠

(١١) سورة القصص : آية ٣٢

{وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى ...} (١)

{لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب} (٢)

{وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد} (٣)

{قل هو نأب عظيم . أنتم عنه معرضون . ما كان لى من علم بالملأ الأعلى

إذ يختصمون} (٤)

{ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إني رسول رب

العالمين} (٥)

ويمكن إيجاز معانى لفظ (الملأ) فى هذه الآيات الكريمة فيما يلى :

(١) ذوو الجاه والصدراة من الأشراف والسادة ، والرؤساء والكبراء ، والقادة والزعماء .

وهذا الاستعمال هو الغالب فى القرآن الكريم ، ويتضح ذلك جليا فى

كثير من الآيات السابقة كقوله سبحانه :

{قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين} (٦)

وقوله تعالى :

{قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن

منهم} (٧)

وقوله تعالى :

{قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك

من قريتنا ...} (٨)

(١) سورة القصص : من آية ٣٨

(٢) سورة الصافات : آية ٨

(٣) سورة ص : آية ٦

(٤) سورة ص : آية ٦٧-٦٩

(٥) سورة الزخرف : آية ٤٦

(٦) سورة الأعراف : آية ٦٠

(٧) سورة الأعراف : من آية ٧٥

(٨) سورة الأعراف : من آية ٨٨

وقوله جل شأنه :

{قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم} (١)

وقوله تبارك وتعالى :

{فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن

يفتتهم}... (٢)

وقوله عز وجل :

{فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا}... (٣)

وقوله تعالى :

{فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم}... (٤)

وقوله سبحانه :

{وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى

الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم}... (٥)

وقوله تباركت أسماؤه :

{قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم} (٦)

وقوله سبحانه وتعالى :

{وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأترون بك

ليقتلوك}... (٧)

وقوله عز وجل :

-
- (١) سورة الأعراف : آية ١٠٩
 - (٢) سورة يونس عليه السلام : من آية ٨٣
 - (٣) سورة هود عليه السلام : من آية ٢٧
 - (٤) سورة المؤمنون : من آية ٢٤
 - (٥) سورة المؤمنون : من آية ٣٣
 - (٦) سورة الشعراء : آية ٣٤
 - (٧) سورة القصص : من آية ٢٠

{وانطلق الملائ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتم إن هذا لشيء يراد} (١)
وأذكر هنا بعض كلام المفسرين في تفسير لفظ (الملائ) في بعض هذه
الآيات الكريمة :

يقول القرطبي في قوله تعالى : {قال الملائ من قومه إنا لنراك في ضلال
مبين} (٢):

"الملائ أشرف القوم ورؤساؤهم" (٣). وقال في التسهيل : "أشرف
الناس" (٤). وقال النسفي : "الأشرف والسادة" (٥). وقال الزجاج : "هم
الرؤساء والأشرف" (٦). وقال الفخر الرازي : "قال المفسرون (الملائ) الكبراء
والسادات الذين جعلوا أنفسهم أصدقاء الأنبياء ، والدليل عليه أن قوله (من
قومه) يقتضى أن ذلك الملائ بعض قومه ، وذلك البعض لا بد وأن يكونوا
موصوفين بصفة لأجلها استحقوا هذا الوصف ، وذلك بأن يكونوا هم الذين
يملاؤن صدور المجالس وتمتلئ القلوب من هيبتهم وتمتلئ الأبصار من
رؤيتهم وتتوجه العيون في المحافل إليهم ، وهذه الصفات لا تحصل إلا في
الرؤساء ، وذلك يدل على أن المراد من الملائ الرؤساء والأكابر" (٧).

وقال أبو السعود في قول الله سبحانه : {قال الملائ من قوم فرعون إن
هذا لساحر عليم} (٨): "أى الاشراف منهم وهم أصحاب مشورته" (٩)، وقال

-
- (١) سورة ص : آية ٦
 - (٢) سورة الأعراف : آية ٦٠
 - (٣) تفسير القرطبي ، ط/١ ، ١٤٠٨ هـ ، دار الكتب العلمية ١٤٩/٧ .
 - (٤) التسهيل لعلوم التنزيل لمحمد بن جزى الكلبي ، ط/٢ ، ١٣٩٣ هـ ، دار الكتاب
العربي ٣٦/٢ .
 - (٥) تفسير النسفي ، ط/دار الكتاب العربي ، بيروت ٥٤٦/١ .
 - (٦) معاني القرآن واعرابه للزجاج ، ط/١ ، ١٤٠٨ هـ ، عالم الكتب ٣٤٦/٢ ، وينظر
معاني القرآن الكريم لأبي جعفر النحاس ، ط/١ ، ١٤٠٨ هـ ٤٦/٣ .
 - (٧) التفسير الكبير ١٥٠/١٤ .
 - (٨) سورة الأعراف : آية ١٠٩
 - (٩) تفسير أبي السعود ٢٥٩/٣ .

ابن قتيبة : "أشرفهم ووجوههم" (١)، وقال الألوسى : "أى الأشراف منهم وهم أهل مشورته ورؤساء دولته" (٢).

وقال ابن كثير فى قوله تعالى : {فقال الملائ الذين كفروا من قومه مانراك إلا بشرا مثلنا ...} (٣) : "الملائ هم السادة والكبراء" (٤)، وقال أبو جعفر النحاس "الملائ الرؤساء" (٥)، وقال الزجاج : "رؤساء القوم وكبرائهم" (٦)، وقال ابن جرير : "الكبراء من قوم نوح وأشرفهم" (٧).

وقال أبو حيان فى قوله عز وجل : {فقال الملائ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم ...} (٨) : "أى كبراء الناس وعظماؤهم" (٩)، وقال الألوسى : "أى الأشراف" (١٠)، وقال ابن كثير : "هم السادة والأكابر منهم" (١١).

وقال ابن جرير فى قوله جل شأنه : {وانطلق الملائ منهم ...} (١٢) : "انطلق الأشراف من هؤلاء الكافرين من قريش" (١٣)، وقال ابن كثير : "هم سادتهم وقادتهم ورؤساءهم وكبرائهم" (١٤)، وقال الشوكانى : "المراد بالملائ الأشراف كما هو مقرر فى غير موضع من تفسير الكتاب العزيز" (١٥).

-
- (١) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ، ط/ ١٣٩٨هـ ، دار الكتب العلمية ص ١٧١ .
 - (٢) تفسير روح المعانى ٢١/٩ .
 - (٣) سورة هود عليه السلام : من آية ٢٧
 - (٤) تفسير ابن كثير ٤٤٢/٢ .
 - (٥) معانى القرآن لأبى جعفر النحاس ٣٤١/٣ .
 - (٦) معانى القرآن للزجاج ٤٧/٣ .
 - (٧) تفسير الطبرى ٢٦/١٢ .
 - (٨) سورة المؤمنون : من آية ٢٤
 - (٩) تفسير البحر المحيط ، ط/ ٢ ، ١٤٠٣هـ ، دار الفكر ٤٠٢/٦ .
 - (١٠) تفسير روح المعانى ٢٥/١٨ .
 - (١١) تفسير ابن كثير ٢٤٣/٣ .
 - (١٢) سورة ص : من آية ٦
 - (١٣) تفسير الطبرى ١٢٦/٢٣ .
 - (١٤) تفسير ابن كثير ٢٧/٤ .
 - (١٥) تفسير فتح القدير للشوكانى ، ط/ ٢ ، ١٣٨٣هـ ، مطبعة مصطفى البابى ٤٢١/٤ .

(٢) القوم والجماعة مطلقا ، أو الطائفة من القوم .

وهذا المعنى أوردته بعض المفسرين بيانا للفظ (الملا) في بعض الآيات ،
كقوله تعالى في قصة سليمان عليه السلام :

{قال يا أيها الملا أياكم يأتي بعرشها ...} (١)

قال ابن كثير : "جمع من عنده من الجن والإنس ممن تحت
يده..." (٢) ، وقال صاحب التسهيل : "والملا جماعة من الجن والإنس" (٣) .

وقوله تعالى في قصة موسى عليه السلام :

{.. فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه ...} (٤) :

قال ابن كثير : "أى قومه" (٥) .

وقوله عز وجل :

{وقال فرعون يا أيها الملا ما علمت لكم من إله غيرى ...} (٦) :

ففرعون يخاطب بمقولته الجموع من قومه كما أوضح ابن كثير (٧) .

وهذا التفسير للفظ (الملا) في هذه الآيات ليس متفقا عليه بين

المفسرين ، فهناك من يجعل المراد بالملا هنا أيضا الأشراف والسادة (٨) .

(٣) الملائكة عليهم السلام .

وذلك في آيتين كريميتين قيد فيهما لفظ (الملا) بوصف (الأعلى) للدلالة

على الملائكة عليهم السلام .

(١) سورة النمل : من آية ٣٨

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٣٦٣ .

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٣/٩٦ .

(٤) سورة القصص : من آية ٣٢

(٥) تفسير ابن كثير ٣/٣٨٨ .

(٦) سورة القصص : من آية ٣٨

(٧) ينظر تفسير ابن كثير ٣/٣٩٠ .

(٨) ينظر تفسير الطبرى ١٩/١٦٥ ، ٢٠/٧٤ ، ٢٠/٧٧ .

والآيتان هما قول الله سبحانه :

{لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى ...} (١)

وقوله جل وعلا على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم :

{مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ} (٢)

روى ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : الملائكة الأعلى :
الملائكة (٣). وكذلك قال قتادة (٤).

وقال البغوى : "الملائكة الأعلى هم الملائكة لأنهم فى السماء" (٥).

وفى ما أوردته من المعانى تنحصر استعمالات لفظ (الملائكة) فى القرآن

الكريم ، وأما السنة الشريفة فقد سبق عرض نماذج منها أثناء الحديث عن
تعريف الملائكة فى اللغة .

والمقصود بلفظ (الملائكة) فى هذا البحث هو المعنى الذى غلب استعماله

فى قصص القرآن الكريم ، وانتشر إيرادها فى كتب التفسير بيانا للفظ (الملائكة)
والذى صدرت به المعانى الثلاث للفظ (الملائكة) فى القرآن الكريم .

وعلى هذا فالملائكة هم الذين لهم بروز وتصدر فى أقوامهم ، وشرف

ومكانة فى مجتمعاتهم ، ونفوذ وسيادة فى أوطانهم ، أو ينظر الناس اليهم

هذه النظرة حسب التصورات والأعراف والمفاهيم القائمة ، ويشعر العامة أن

لهؤلاء القدرة على التأثير فى مجريات الأحداث والاستحقاق لقيادة الناس فى

المجتمع ، ومنهم من يكون ممسكا فى الواقع بمقاليد السلطة ومتوليا مناصب

الرئاسة والزعامة فى المجتمع .

(١) سورة الصافات : من آية ٨

(٢) سورة ص : آية ٦٩

(٣) ينظر تفسير الطبرى ١٨٣/٢٣ .

(٤) ينظر تفسير الطبرى ١٨٤/٢٣ .

(٥) تفسير البغوى ، ط/٢ ، ١٤٠٧هـ ، دار المعرفة ٢٣/٤ ، وينظر : تفسير القرطبي

١٤٧/١٥ ، تفسير ابن كثير ٣/٤ .

وحيثما يطلق عليهم القرآن الكريم لفظ (الملا) فإنما هو من قبيل بيان الواقع ، وذكر الأمر القائم ، بغض النظر عن استحقاقهم لوصف الشرف والسيادة أو عدمه ، وقريب من ذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعث كتابه إلى هرقل وفيه :

"من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم" (١).

فإطلاق الرسول صلى الله عليه وسلم على هرقل بأنه (عظيم الروم) ليس من باب الحكم باستحقاقه لهذا الوصف ، وإنما هو من باب بيان الواقع فهو عظيم عند قومه : يعظمونه ويهابونه ، كما قال ابن حجر : "المراد من تعظمه الروم وتقدمه للرياسة عليها" (٢).

وكذلك إطلاق لفظ (الملا) في القرآن الكريم على المتصدرين من أقوام الرسل عليهم السلام إنما هو بيان للحال وتقرير للواقع (٣).

(١) الحديث رواه البخارى في كتاب بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ٧/١-٩ ، ومسلم في كتاب الجهاد ، باب كتب النبي صلى الله عليه وسلم ١٢/١٠٣-١١١ .

(٢) فتح البارى ٢٧٩/٨ .

(٣) ينظر أصول الدعوة لعبد الكريم زيدان ، ط/٣ ، ١٩٧٦/٥١٣٩٦م ص ٣٦٦ .

أغراض القصص في القرآن الكريم

* معنى القصص في اللغة :

(القصص) بفتح القاف و(القَصَّ) مصدران مترادفان للفعل (قَصَّ) أى

تتبع .

قال في تهذيب اللغة : "يقال قصصت الشيء إذا تتبعته أثره شيئاً بعد شيء ، ومنه قوله تعالى : {وقالت لأخته قصيه ...} (١) أى اتبعى أثره " .
"وأصل القص اتباع الأثر . يقال خرج فلان قصصاً في أثر فلان وقصصاً ، وذلك إذا اقتص أثره" (٢) .

وقال في لسان العرب : "القصة الخبر" ، "والقصة الأمر والحديث" ،
"والقصص بفتح القاف الخبر المقصوص ، وضع موضع المصدر حتى صار أغلب عليه ، والقصص بكسر القاف جمع القصة التي تكتب" ، "والقصص البيان" (٣) . ومنه قول الله سبحانه : {نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ...} (٤) أى "نبين لك أحسن البيان" (٥) .
"وقيل للقاص يقص القصص لاتباعه خبراً بعد خبر ، وسوقه الكلام سوقاً" (٦) .

* المراد بقصص القرآن الكريم :

يراد بالقصص القرآني ما أخبر الله تعالى به في القرآن الكريم من أنباء الأمم الغابرة ، والأنبياء السابقين عليهم السلام ، والحوادث الواقعة في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧) .

(١) سورة القصص : من آية ١١

(٢) تهذيب اللغة ٢٥٦/٨ .

(٣) لسان العرب ٣٦٥١/٥ .

(٤) سورة يوسف عليه السلام : من آية ٣

(٥) ترتيب القاموس المحيط ٦٣٢/٣ ، معاني القرآن للزجاج ٨٨/٣ .

(٦) تهذيب اللغة ٢٥٦/٨ .

(٧) ينظر مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ، ط/٣ ، ١٩٧٣/٥١٣٩٣ ، ص ٣٠٦ ،

بحوث في قصص القرآن للسيد عبد الحافظ عبد ربه ، ط/١ ، دار الكتاب اللبناني

ص ٤٤-٤٨ .

* أغراض القصص القرآني :

لم يكن إيراد القصص في القرآن الكريم بهذا الكم الكبير ، وبهذا التكرار والتنويع أمرا قائما على العبث والاستطراد - حاشاه سبحانه وتعالى - وليس المقصود منه مجرد التسلية الذهنية ، بل كان القصص القرآني وسيلة لتبليغ دين الله تعالى على لسان نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ودعوة الناس إلى توحيد الله وعبادته .

فالقصة في القرآن ليست عملا فنيا مستقلا في موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه - كما هو الشأن في القصة الفنية الحرة التي ترمى إلى أداء غرض فني طليق - إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه الدينية .

والقرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شيء ، والقصة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها^(١).

وأهداف القصص في القرآن الكريم على التفصيل كثيرة^(٢) ، ويمكن تلخيص أهم هذه الأهداف والأغراض فيما يلي :

(١) التفكير والاعتبار ، وتلقى الدروس والعظات .

ويتضح هذا الغرض جليا في قول الله تبارك وتعالى :

{لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ...}(٣)

فصاحب العقل السليم حين يستمع إلى القصة في القرآن الكريم يأخذ العبرة ، ويستلهم الدرس ، ويتعظ ويتأثر ، ويقيس نفسه بحال أولئك السابقين فيعلم "أن من عمل مثل أعمالهم جوزى مثل جزائهم ليحذر أن يعمل مثل أعمال الكفار وليرغب في أن يعمل مثل أعمال المؤمنين أتباع الأنبياء"^(٤).

(١) التصوير الفني في القرآن لسيد قطب ، ط/١٢ ، دار الشروق ص ١٤٣ .

(٢) ينظر بحوث في قصص القرآن ص ٨٧-١٢١ .

(٣) سورة يوسف عليه السلام : من آية ١١١

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ط/مكتبة المعارف ، الرباط ٢٠/١٣ .

ومن أجل هذا التفكير والاعتبار أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقص على أهل مكة ما ينزل عليه من القصص { ... فاقصص القصص لعلمهم يتفكرون }^(١)، وخاطبه كذلك بقوله عز وجل :

{ ... وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين }^(٢).

يقول ابن كثير فى تفسير الآية : " فى هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء وكيف أنجاهم الله والمؤمنين بهم وأهلك الكافرين جاءك فيها قصص حق ونبأ صدق وموعظة يرتدع بها الكافرون وذكرى يتذكر بها المؤمنون " ^(٣).

(٢) تثبيت قلب الرسول صلى الله عليه وسلم وتسليته عليه الصلاة والسلام . وذلك وعد الله تعالى فى قوله سبحانه :

{ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ... }^(٤)

يقول ابن كثير : " يقول تعالى : وكل أخبار نقصها عليك من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أمهم وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى وكيف نصر الله حزبه المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين ، كل هذا مما نثبت به فؤادك يا محمد ، أى قلبك ، ليكون لك بمن مضى من إخوانك المرسلين أسوة " ^(٥).

فقد كان عليه الصلاة والسلام يتعرض لأصناف من الأذى ، فيحزن لحال قومه ويأسى ، فتنزل عليه الآيات بقصص من سبق من إخوانه الرسل عليهم السلام فتكون على قلبه بردا وسلاما ، تشيع فيه الطمأنينة ، وتسليه وتخفف عنه ، وترفع من همته ، وتشحذ عزيمته صلى الله عليه وسلم ، وتزيده فى الدعوة ثباتا وتشميرا ، وصبرا وتحملا لما يقاسيه من أذى المكذبين والمعاندين .

(١) سورة الأعراف : من آية ١٧٦

(٢) سورة هود عليه السلام : من آية ١٢٠

(٣) تفسير ابن كثير ٤٦٥/٢ - ٤٦٦ .

(٤) سورة هود عليه السلام : من آية ١٢٠

(٥) تفسير ابن كثير ٤٦٥/٢ .

(٣) التأكيد على وحدة الرسالات فى الأصل والأساس ، وهو الدعوة إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له .

وفى هذا يقول الله سبحانه :

{وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} (١)

ويقول عز وجل :

{ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ...} (٢)

ويقول جل شأنه :

{شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به

إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ...} (٣)

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الأنبياء إخوة لعلات

أمهاتهم شتى ودينهم واحد" (٤).

فدين الأنبياء عليهم السلام واحد ، وهو توحيد الله سبحانه وعبادته

وحده ، وإن اختلفت بعد ذلك الشرائع وتنوعت المناهج .

هذه الحقيقة واضحة فى قصص الرسل عليهم السلام فى القرآن الكريم

ففى قصة نوح عليه السلام يقول الله تبارك وتعالى :

{لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله

غيره...} (٥).

(١) سورة الأنبياء عليهم السلام : آية ٢٥

(٢) سورة النحل : من آية ٣٦

(٣) سورة الشورى : من آية ١٣

(٤) الحديث رواه البخارى فى كتاب الأنبياء ، باب {واذكر فى الكتاب مريم اذ انتبذت

من أهلها...} ١٢٧٠/٣ ، ومسلم فى كتاب الفضائل ، باب فضائل عيسى عليه

السلام ١١٩/١٥ .

قال ابن حجر : "العلات بفتح المهملة الضائر ، وأصله أن من تزوج امرأة ثم

تزوج أخرى كأنه عل منها ، والعلل الشرب بعد الشرب ، وأولاد العلات

الاخوة من الأب وأمهم شتى" . فتح البارى ٦/٦٠٥ .

(٥) سورة الأعراف : من آية ٥٩

وفي قصة هود عليه السلام :

{وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره...} (١).

وفي قصة صالح عليه السلام :

{وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره...} (٢).

وفي قصة إبراهيم عليه السلام :

{وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله...} (٣).

وفي قصة شعيب عليه السلام :

{وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره...} (٤).

وبذلك تتضح "حقيقة وحدة العقيدة من لدن نوح أبي البشر الثاني ،

فهى هى ، والتعبير عنها يكاد يكون هو التعبير" (٥).

يقول ابن كثير : "الاسلام هو دين الأنبياء جميعا من أولهم إلى

آخرهم وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهلهم كما قال تعالى : {... لكل

جعلنا منكم شرعة ومنهاجا...} (٦). قال ابن عباس : سبيلا وسنة ، فهذا نوح

يقول : {.. وأمرت أن أكون من المسلمين} (٧)، وقال تعالى عن إبراهيم الخليل :

{إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه

ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون} (٨).

وقال يوسف : {رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث

(١) سورة الأعراف : من آية ٦٥

(٢) سورة الأعراف : من آية ٧٣

(٣) سورة العنكبوت : من آية ١٦

(٤) سورة الأعراف : من آية ٨٥

(٥) فى ظلال القرآن لسيد قطب ، ط/١٢ ، ١٤٠٦هـ ، دار العلم ١٨٨٠/٤ .

(٦) سورة المائدة : من آية ٤٨

(٧) سورة يونس عليه السلام : من آية ٧٢

(٨) سورة البقرة : آية ١٣١-١٣٢

فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى
بالصالحين} (١)

وقال موسى : {.. يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم
مسلمين} (٢)

وقال السحرة : {.. ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين} (٣)

وقالت بلقيس : {.. رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب
العالمين} (٤)

وقال تعالى :

{إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا ...} (٥)

وقال تعالى : {وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى و برسولى قالوا
آمنا واشهد بأننا مسلمون} (٦)

وقال خاتم الرسل وسيد البشر صلى الله عليه وسلم :

{.. إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له

وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين} (٧)

أى من هذه الأمة" (٨).

(٤) إثبات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فى رسالته .

يقول سيّد قطب : "كان من أغراض القصة إثبات الوحي والرسالة ،

فمحمد صلى الله عليه وسلم لم يكن كاتباً ولا قارئاً ، ولا عرف عنه أنه يجلس

(١) سورة يوسف عليه السلام : آية ١٠١

(٢) سورة يونس عليه السلام : من آية ٨٤

(٣) سورة الأعراف : من آية ١٢٦

(٤) سورة النمل : من آية ٤٤

(٥) سورة المائدة : من آية ٤٤

(٦) سورة المائدة : من آية ١١١

(٧) سورة الأنعام : من الآيات ١٦٢-١٦٣

(٨) تفسير ابن كثير ٤٢٥/٢ .

إلى أحبار اليهود والنصارى ، ثم جاءت هذه القصص في القرآن وبعضها جاء في دقة وإسهاب - كقصص إبراهيم ويوسف وموسى وعيسى - فورودها في القرآن اتخذ دليلا على وحي يوحى" (١).

ويقول أيضا : "فهذا القصص غيب من الغيب ما كان يعلمه النبي وما كان معلوما لقومه ولا متداولاً في محيطه ، إنما هو الوحي من لدن حكيم خبير" (٢).

ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم بعد عرض قصة نوح عليه السلام :

{تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا...} (٣)

وبعد قصة يوسف عليه السلام :

{ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون} (٤)

يقول الشوكاني في تفسيره : "وإذا لم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لديهم عند أن فعلوا ذلك انتفى علمه بذلك مشاهدة ، ولم يكن بين قوم لهم علم بأحوال الأمم السالفة ولا خالطهم ولا خالطوه ، فانتفى علمه بذلك عن طريق الرواية عن الغير ، فلم يبق لعلمه بذلك طريق إلا مجرد الوحي من الله سبحانه" (٥).

ويقول تبارك وتعالى بعد عرض قصة موسى عليه السلام مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم كذلك :

(١) التصوير الفني في القرآن ص ١٤٥ .

(٢) في ظلال القرآن ٤/١٨٨٠ .

(٣) سورة هود عليه السلام : من آية ٤٩

(٤) سورة يوسف عليه السلام : آية ١٠٢

(٥) تفسير فتح القدير ٣/٥٨ .

{وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من
الشاهدين} (١)

{... وما كنت ثاويا في أهل مدين ...} (٢)

{وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ...} (٣)

فرسولنا عليه الصلاة والسلام لم يكن حاضرا مع موسى وشعيب
عليهما السلام يحكى قصتيهما عن مشاهدة مباشرة ، ولكنه الوحي الإلهي
يتنزل عليه صلى الله عليه وسلم بقصص أولئك السابقين من الرسل عليهم
السلام .

ويخاطب الله تعالى أيضا رسوله صلى الله عليه وسلم بعد ذكر امرأة
عمران وزكريا ومريم عليهم السلام :

{ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم
يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون} (٤).

كما يخاطبه سبحانه على وجه الامتنان عليه صلى الله عليه وسلم بإيراد
القصص الذى ماكان له صلى الله عليه وسلم به من علم لولا وحي ربه
تباركت أسماؤه :

{نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت
من قبله لمن الغافلين} (٥)

{كذلك نقص عليك من أنباء ماقد سبق ...} (٦)

{ذلك من أنباء القرى نقصه عليك ...} (٧)

-
- (١) سورة القصص : آية ٤٤
 - (٢) سورة القصص : من آية ٤٥
 - (٣) سورة القصص : من آية ٤٦
 - (٤) سورة آل عمران : آية ٤٤
 - (٥) سورة يوسف عليه السلام : آية ٣
 - (٦) سورة طه : من آية ٩٩
 - (٧) سورة هود عليه السلام : من آية ١٠٠

إن قصص القرآن الكريم بمثابة دليل وشاهد على صحة نبوته عليه الصلاة والسلام وصدق رسالته ، إذ أنه صلى الله عليه وسلم "كان أمياً ومطالع كتاباً ولا تلمذ أستاذاً فإذا ذكر هذه القصص على الوجه من غير تحريف ولا خطأ دل ذلك على أنه إنما عرفها بالوحي من الله ، وذلك يدل على صحة نبوته" (١).

(٥) بث الطمأنينة وإلقاء السكينة فى نفوس المؤمنين بشكل عام ، والدعاة بشكل خاص ، فى حياته صلى الله عليه وسلم ، أو بعده على مر الأجيال وذلك حين يعلمون من خلال القصص القرآنى أنهم ليسوا وحدهم فى هذا الطريق ، طريق الإيمان ، وطريق الدعوة إلى الله سبحانه ، وإنما هناك من سبقهم فى موكب الإيمان الطويل ، موكب الرسل عليهم السلام وأتباعهم الممتد عبر التاريخ ، صبروا فكانت العاقبة لهم بإذن من الله سبحانه وتقدير. ومن ثمَّ يستأنس المؤمنون ، ويرتاح بال الدعوة ، ويفتح لهم باب الأمل العريض ، والثقة بالحق الذى يحملون ، والنصر الذى يرجون . "لقد كان هذا القصص ينتزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مكة ، والقلعة المؤمنة معه محصورة بين شعابها ، والدعوة الإسلامية مجمدة فيها والطريق شاق طويل لا يكاد المسلمون يرون له نهاية فكان هذا القصص يكشف لهم عن نهاية الطريق ويريهم معالمه فى مراحل جميعها ، ويأخذ بأيديهم ، وينقل خطاهم فى هذا الطريق وقد بات لاجباً (٢) موصولاً بموكب الدعوة الكريم على مدار التاريخ البشرى ، وبات بهذا الركب الكريم مأنوساً مألوفاً ، لاموحشاً ولاخوفاً . إنهم زمرة من موكب موصول فى طريق معروف ، وليسوا مجموعة شاردة فى تيه مقطوع" (٣).

(١) التفسير الكبير ١٤/١٤٦ .

(٢) أى واضحاً . ينظر لسان العرب ٥/٤٠٠٣ .

(٣) فى ظلال القرآن ٤/١٩٤٨ .

(٦) التأكيد على سنن الله فى الأمم والمجتمعات ، وتحققها فى واقع البشر ، لا تتخلف ولا تحابى ولا تحيد .

تجد ذلك واضحا فى القصص القرآنى فى حكاية حال الرسل عليهم السلام مع أقوامهم ، حيث يتحقق فى النهاية الوعد للمؤمنين : { .. والعاقبة للمتقين }^(١) ، والوعيد للمكذبين مع اختلاف المظاهر والأشكال لهذا الوعيد : { فكلما أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا ... }^(٢) .

ويكاد يتكرر ذلك فى كل قصة من قصص الرسل عليهم السلام . يقول الله سبحانه فى قصة نوح عليه السلام :

{ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون . فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين }^(٣)

ويقول سبحانه فى قصة هود عليه السلام :

{ ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ }^(٤) .

ويقول عز وجل فى قصة صالح عليه السلام :

{ فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوى العزيز . وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين }^(٥) .

ويقول تعالى فى قصة شعيب عليه السلام :

-
- (١) سورة الأعراف : من آية ١٢٨
 - (٢) سورة العنكبوت : من آية ٤٠
 - (٣) سورة العنكبوت : آية ١٤-١٥
 - (٤) سورة هود عليه السلام : آية ٥٨
 - (٥) سورة هود عليه السلام : آية ٦٦-٦٧

إولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين} (١).

وغير ذلك كثير فى القرآن الكريم ، كله شواهد واقعية من التاريخ على تحقق السنن الإلهية فى الحياة الإنسانية .
(٧) التأسى والاقتداء .

فالقصاص القرآنى ينتزل ليتأسى الرسول صلى الله عليه وسلم وأتباعه المؤمنون على توالى الأجيال والقرون بمن سبق فى موكب الدعوة والإيمان من الرسل عليهم السلام وأتباعهم .
يقول الله عز وجل مخاطبا رسوله صلى الله عليه وسلم بعد ذكر عدد من الرسل عليهم السلام :

{أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده...} (٢).
"أى اقتد واتبع ، وإذا كان هذا أمرا للرسول صلى الله عليه وسلم فأمتته تبع له فيما يشرعه ويأمرهم به" (٣).

ويخاطب الله سبحانه كذلك رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله :
{ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبال المرسلين} (٤).

يقول ابن كثير : "أى من خبرهم كيف نصرنا وأيدوا على من كذبهم من قومهم فلك فيهم أسوة بهم وقدوة" (٥).

وفى الدعوة إلى الاقتداء والتأسى يقول الله تعالى أيضا :
{فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل...} (٦).

(١) سورة هود عليه السلام : آية ٩٤

(٢) سورة الأنعام : من آية ٩٠

(٣) تفسير ابن كثير ١٥٥/٢ .

(٤) سورة الأنعام : آية ٣٤

(٥) تفسير ابن كثير ١٣٠/٢ .

(٦) سورة الأحقاف : من آية ٣٥

ويقول سبحانه :

{قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه ...} (١).

ويقول عز وجل :

{لقد كان لكم فىهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ...} (٢).

وكما تأسى الرسول صلى الله عليه وسلم واقتدى بإخوانه المرسلين عليهم السلام فإن المؤمنين على مر العصور يجدون فى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة والقدوة ، قال تبارك وتعالى :

{لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا} (٣).

وهكذا فإن القصص القرآنى متنوع الدروس والعظات ، متجدد العبر على مر العصور والأجيال ، يجد فيه كل جيل ما يتعظ به ويعتبر ، لو قرأه بتفكر وتدبر .

يقول صاحب الظلال : "إن هذا القرآن الكريم ليس مجرد كلام يتلى ولكنه دستور شامل ، دستور للتربية ، كما أنه دستور للحياة العملية ، ومن ثم فقد تضمن عرض تجارب البشرية بصورة موحية على الجماعة المسلمة التى جاء لينشئها ويرببها ، وتضمن بصفة خاصة تجارب الدعوة الإيمانية فى الأرض من لدن آدم عليه السلام ، وقدمها زادا للأمة المسلمة فى جميع أجيالها ، وتجاربها فى الأنفس ، وتجاربها فى واقع الحياة كى تكون الأمة المسلمة على بينة من طريقها وهى تتزود لها بذلك الزاد الضخم وذلك الرصيد المتنوع ، ومن ثم جاء القصص فى القرآن بهذه الوفرة وبهذا التنوع وبهذا الإيجاء" (٤).

(١) سورة الممتحنة : من آية ٤

(٢) سورة الممتحنة : من آية ٦

(٣) سورة الأحزاب : آية ٢١

(٤) فى ظلال القرآن ١/٢٥٥ .

الباب الأول

معارضة المملأ لدعوة الرسل عليهم السلام

ويشتمل على فصلين :

الفصل الأول :

حال المملأ مع الدعوة والمؤثرات فى ذلك

الفصل الثانى :

أثر المملأ على عامة الناس وأسباب ذلك

الفصل الأول

حال الملمأ مع الدعوة والمؤثرات فحد ذلك

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول :
الملمأ والدعوة إلى الله

المبحث الثاني :
أسباب عداوة الملمأ لدعوة الرسل عليهم السلام

المبحث الأول الملا والدعوة إلى الله

من خلال التأمل في قصص الأنبياء عليهم السلام يمكن تقسيم الملا بالنظر إلى مواقفهم من دعوة الرسل عليهم السلام إلى أصناف أربعة يمكن عرضها في المطالب التالية :

- المطلب الأول : الكفار المبرحون بالتكذيب والعداوة .
- المطلب الثاني : المنافقون .
- المطلب الثالث : المؤمنون .
- المطلب الرابع : المتعاطفون من الكفار (مع بقائهم على الكفر) .

المطلب الأول الكفار المصرحون بالتكذيب والعداوة

وهذا الصنف هو الغالب في تاريخ الأنبياء عليهم السلام ، فإن من يتتبع - من خلال القصص القرآني - أحوال الأمم مع الرسل عليهم السلام يتبين له أن الملائكة - في الغالب - كانوا في طليعة المكذبين للرسول عليهم السلام ، وفي مقدمة المناهضين المجاهدين للدعوة الربانية في طريقها الطويل ، وعلى رأس المعاندين المنكرين للرسالات ، المترصدين للدعاة إلى دين الله سبحانه وتعالى بكل مايتأتى لهم من مكر وكيد ، أو شبهة وتلبيس ، أو مجابهة وتهديد .

ذلك أن الملائكة لديهم من الامتيازات بين أقوامهم ، والمكانة في عشائرتهم ، والسلطة والنفوذ في مجتمعاتهم ، والتوسع في شهواتهم ، مايجشون عليه من الزوال إن هم استجابوا لمنهج الله تعالى الذي جاء به الرسل عليهم السلام ، والذي يجعل الأمر كله لله سبحانه ، يتساوى الناس بين يديه ، ويسير الجميع حسب ضوابطه وتعاليمه ، فتثور لدى الملائكة - في الغالب - عوامل نفسية من الكبر والحسد والعداوة تكون لديهم حاجزا منيعا من الدخول في دائرة الايمان ، والمساواة حينئذ في ذلك بأتباعهم ، فيزعجهم أن يجدوا من ينافسهم السيادة والصدارة ، ويقلل من مكانتهم ، ومن الهالة التي أحاطوا بها أنفسهم أمام العامة من الناس ، كما يجشون من منهج الرسل عليهم السلام على عالم الشهوة الذي يعيشونه بكل صورته ومظاهره أن ترد عليه القيود فتضيع عليهم متعا يحيون بها ويعيشون لها .

هذا العداء المستحکم من الملائكة - في الغالب - للرسول عليهم السلام واضح في القرآن الكريم .

ففى قصة نوح عليه السلام فى سورة الأعراف يقول الله تعالى :

{لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره
إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال
مبين}{(١)} .

ومن خلال هذه الآيات الكريمة تتضح مسارعة الملأ الى الكفر والالتهام
المباشر لنوح عليه السلام بالضلال المبين .

وفى سورة هود عليه السلام يبين الله تعالى اتجاه الملأ الى إثارة
الشبهات حول نوح عليه السلام وازدراء أتباعه المؤمنين :

{ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إني لكم نذير مبين . أن لا تعبدوا إلا الله إني
أخاف عليكم عذاب يوم أليم . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا
بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بآدى الرأى وما نرى لكم علينا من
فضل بل نظنكم كاذبين}{(٢)} .

وصور أخرى من الالتهامات والشبهات يصدرها الملأ حول نوح عليه
السلام نلاحظها فى سورة المؤمنون :

{ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره
أفلا تتقون . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن
يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ماسمعا بهذا فى آباءنا الأولين . إن هو
إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين}{(٣)} .

ويشتكى نوح عليه السلام إلى ربه مكر الملأ من قومه وكيدهم :
{قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزدده ماله وولده إلا خسارا .
ومكروا مكرا كبيرا}{(٤)} .

-
- (١) سورة الأعراف : آية ٥٩-٦٠
(٢) سورة هود عليه السلام : آية ٢٥-٢٧
(٣) سورة المؤمنون : آية ٢٣-٢٥
(٤) سورة نوح عليه السلام : آية ٢١-٢٢

فهم لا يكتفون بالضلال في أنفسهم بل يكملون فجورهم بإضلال الناس وإبعادهم عن طريق الحق والهدى {وقد أضلوا كثيرا...} (١). "أى أضل كبرائؤهم كثيرا من أتباعهم" (٢).

ويتكرر الحال في قصة هود عليه السلام ، فيإدار الملائ إلى اتهامه بالكذب والسفاهة ، كما في قول الله تعالى :

{والى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلاتتقون . قال الملائ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين} (٣).

ويكررون شبهة من سبقهم من الملائ في عهد نوح عليه السلام حول بشرية الرسول وخلوه من الامتيازات التى تؤهله للرياسة ، ولذا فمتابعته سبب للخسران المبين :

{وقال الملائ من قومه الذين كفروا وكذبوا بقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون . ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنا إذا لخاسرون} (٤).

وفى قصة صالح عليه السلام يظهر استكبار الملائ من قومه ومحاولاتهم فى التأثير على المؤمنين :

{قال الملائ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون} (٥).

والحال نفسه فى قصة شعيب عليه السلام ، قال تعالى :

-
- (١) سورة نوح عليه السلام : من آية ٢٤
 (٢) تفسير القرطبي ٢٠٠/١٨ .
 (٣) سورة الأعراف : آية ٦٥-٦٦
 (٤) سورة المؤمنون : آية ٣٣-٣٤ والآيات تتناول قصة عاد قوم هود عليه السلام فى قول عدد من المفسرين . ينظر تفسير البغوى ٣٠٨/٣ ، التفسير الكبير ٩٧/٢٣ ، زاد المسير ، ط ١/ ، ١٤٠٧ هـ ، دار الفكر ٣٢١/٥ ، تفسير أبى السعود ١٣٢/٦ .
 (٥) سورة الأعراف : آية ٧٥-٧٦

{قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا ...} (١).
وقال سبحانه :

{وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون} (٢).

وتبرز العداوة وتوضح صور المجابهة من الملأ للدعوة فى قصة موسى عليه السلام :

{قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون} (٣).

{وقال الملأ من قوم فرعون أئذ موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم وإنما فوقهم قاهرون} (٤).
{ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك ياموسى مسحوراً} (٥).

{قال أجبنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى} (٦).

فموسى عليه السلام فى نظر فرعون ومن حوله من الملأ مسحور تارة ، وتارة أخرى ساحر ، وهو عليه السلام عندهم من المفسدين فى الأرض ينشر الفتنة ، ويطلب الزعامة .

والآيات كثيرة فى القصص القرآنى تبين واقع فرعون ومن يشد أزره من الملأ ، وتذكر مواقفهم من موسى عليه السلام ودعوته ، فمن ذلك - إضافة إلى ما سبق - قول الله تبارك وتعالى :

(١) سورة الأعراف : من آية ٨٨

(٢) سورة الأعراف : آية ٩٠

(٣) سورة الأعراف : آية ١٠٩-١١٠

(٤) سورة الأعراف : آية ١٢٧

(٥) سورة الاسراء : آية ١٠١

(٦) سورة طه : آية ٥٧

{ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوماً عالين . فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون}{(١)} .

{قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون}{(٢)} .

{وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين}{(٣)} .

{ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب}{(٤)} .

{وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسُلطان مبين . فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون}{(٥)} .

{وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد}{(٦)} .

وغير ذلك من الآيات كثير .

وكذلك حال الملأ من قريش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يواجهونه بالإيذاء والسخرية ، وبالتكذيب والاتهام ، والترويح للشبهات كما قال عز وجل :

{وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد . ماسمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق . أنزل عليه الذكر من بيننا...}{(١)}

(١) سورة المؤمنون : آية ٤٥-٤٧

(٢) سورة الشعراء : آية ٣٤-٣٥

(٣) سورة العنكبوت : آية ٣٩

(٤) سورة غافر : آية ٢٣-٢٤

(٥) سورة الذاريات : آية ٣٨-٣٩

(٦) سورة غافر : آية ٢٦

(٧) سورة ص : من الآيات ٦-٨

وهكذا تنكرر هذه الحقيقة ، ويتكرر هذا الموقف المعادى من الملأ - في معظمهم - مع كل رسول يبعثه الله تعالى ليدعو الناس إلى عبادة الله وحده والبراءة من عبودية ماسواه .

ويؤكد القرآن ذلك ، يقول الله سبحانه وتعالى :

{وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون} (١).

يقول الألوسي : "والكلام مسوق لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم مما ابتلى به من مخالفة مترفي قومه وعداوتهم له عليه الصلاة والسلام وتخصيص المترفين بالتكذيب لأنهم في الأغلب أول المكذبين للرسول عليهم السلام" (٢).

ويقول ابن كثير في معنى الآية الكريمة : {وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون} وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة ، وقال قتادة هم جبابرتهم وقادتهم ورؤوسهم في الشر {إنا بما أرسلتم به كافرون} أي لا تؤمن به ولا تتبعه" (٣).

ويقول عز وجل :

{وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قال أولوا جئتمكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون} (٤).

فالإصرار على الكفر والتكذيب سمة غالبية على الملأ المترفين في كل دعوة ومع كل رسول .

ويقول سبحانه مبينا أن ذلك ابتلاء من الله عز وجل للمرسلين عليهم السلام :

-
- (١) سورة سبأ : آية ٣٤
(٢) تفسير روح المعاني ١٤٧/٢٢ .
(٣) تفسير ابن كثير ٥٤٠/٣ .
(٤) سورة الزخرف : آية ٢٣-٢٤

{وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ومايمكرون إلا بأنفسهم ومايشعرون}{(١)}.

"يقول تعالى وكما جعلنا فى قرينتك يا محمد أكابر من المجرمين ورؤساء ودعاة إلى الكفر والصد عن سبيل الله وإلى مخالفتك وعداوتك كذلك كانت الرسل من قبلك يبتلون ثم تكون لهم العاقبة"(٢).

وفى خبر أبى سفيان حين سأله هرقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان من ضمن أسئلة هرقل (قال أيتبعه أشرف الناس أم ضعفاؤهم؟ قال : قلت بل ضعفاؤهم) وفى نهاية الحوار علق هرقل على تلك الإجابات من أبى سفيان ، فكان مما قال : "وسألتك عن أتباعه أضعفاؤهم أم أشرفهم فقلت بل ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل"(٣).

يقول ابن كثير : "الواقع غالبا أن من يتبع الحق ضعفاء الناس والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته"(٤).

(١) سورة الأنعام : آية ١٢٣

(٢) تفسير ابن كثير ١٧٢/٢ .

(٣) الحديث رواه البخارى فى كتاب التفسير ، باب {قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة

سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله} ١٦٥٧/٤-١٦٥٨ ، ومسلم فى كتاب الجهاد ،

باب كتب النبى صلى الله عليه وسلم ١٠٥/١٢-١٠٦ .

(٤) تفسير ابن كثير ٤٤٢/٢ .

المطلب الثاني المنافقون

مما تجدر الإشارة إليه ونحن بصدد بيان حال الملائم مع الدعوة أن هناك من الملائم من دخل في دين الله نفاقاً ، إذ جبن أن يجابه الدعوة علناً ، ويحارب الدين جهاراً ، ففضل أن يفجره من الداخل بأن يتظاهر بالدخول في الإسلام ، ويصرح بكلمة الإيمان ثم يتحرك بعد ذلك وقد اطمأن الناس له لينفس عن حقه الدفين ، فيثير الشبهة ، وينشر الاتهام ، ويجابه من داخل الصف ، ويتمالاً مع أعداء الدعوة خارج الصف المسلم . وهذا الصنف خطورته على الدعوة أكبر وأعظم ، وأثره السلبي على المؤمنين أشد وأطم .

وفيما يلي أذكر مثاليين لمن سلك طريق النفاق من الملائم المعاندين :
* قارون : (١)

كان قارون من بني إسرائيل كما تشير الآية الكريمة :
{إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ...} (٢).

وكان مترفاً واسع الغنى جزيل المال كما صرح القرآن بذلك في قول
الله سبحانه :

{... وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ...} (٣).
ومع كونه من بني إسرائيل إلا أنه آثر السير في ركاب فرعون ، وسلوك منهجه واقتفاء أثره كما قال ابن كثير : "لم يكن في بني إسرائيل من يخاف منه أن يفتن عن الإيمان سوى قارون فإنه كان من قوم موسى فبغى عليهم لكنه كان طاوياً إلى فرعون متصلاً به متعلقاً بجباله" (٤).

(١) هو - كما قيل - قارون بن يصهر بن قاهث ، ابن عم موسى عليه السلام .
ينظر : تفسير الطبري ١٠٥/٢٠ ، تفسير البغوي ٤٥٤/٣ ، فتح الباري ٥٥٣/٦ .
(٢) سورة القصص : من آية ٧٦
(٣) سورة القصص : من آية ٧٦
(٤) تفسير ابن كثير ٤٢٨/٢ .

والشابت في القرآن الكريم أنه كان عدوا لموسى عليه السلام كافرا برسالته مجابها له ومناهضا .

وهناك موضعان في القرآن الكريم يقرن الله عز وجل فيهما قارون وفرعون وهامان مما يدل على أنه كان من الأكابر وأصحاب الشأن في العداوة والكيد لموسى عليه السلام ولدعوته .
يقول الله تعالى :

{وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين} (١).

ويقول عز وجل :

{ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب} (٢).

فالآيات تجعل موقف قارون هو نفسه موقف فرعون وهامان في التكذيب والاستكبار . قال القرطبي : "خصهم بالذكر لأن مدار التدبير في عداوة موسى كان عليهم ، وفرعون الملك ، وهامان الوزير ، وقارون صاحب الأموال والكنوز ، فجمعه الله معهما لأن عمله في الكفر والتكذيب كأعمالهما" (٣). وقال الشوكاني : "خصهم بالذكر لأنهم رؤساء المكذبين بموسى" (٤).

والسؤال هنا : هل كان قارون صريحا في الكفر والعناد ، والعداوة والمجابهة ، أم كان منافقا يستتر بالإيمان في الظاهر ، وهو في الباطن كافر محارب لله عز وجل ولرسوله موسى عليه السلام؟

يشير كلام كثير من المفسرين إلى أن قارون كان منافقا يبطن الكفر ويظهر الإيمان . ويحتمل أنه كان في بداية الأمر مصرحا بالكفر والعداوة ،

(١) سورة العنكبوت : آية ٣٩

(٢) سورة غافر : آية ٢٣-٢٤

(٣) تفسير القرطبي ١٥/١٩٩ .

(٤) تفسير فتح القدير ٤/٤٨٨ .

ولما رأى أن اتجاه بني إسرائيل - وهو منهم - كان هو الدخول في دين الله سبحانه ، آثر عند ذلك أن يستتر بالإيمان نفاقا ويناهض موسى عليه السلام ودعوته من الداخل كما فعل أمثاله في عهد رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم .

روى عن قتادة وغيره أن قارون "نافق كما نافق السامري" (١).
 وذكر ابن كثير أن "قارون كان كافرا في الباطن منافقا في الظاهر" (٢).
 ومن ثمَّ يمكن - إن صح هذا الرأي - أن نعتبر قارون صورة من صور النفاق في تاريخ الرسل عليهم السلام ، يظهر الإيمان ويصرح به مادام هو الاتجاه العام لدى قومه (بني إسرائيل) ، في الوقت الذي يتحرك فيه للقضاء على الدعوة وإيذاء موسى عليه السلام واتهامه بالأباطيل ، يساعده على ذلك السعة ووفرة المال ، التي دفعته إلى الغرور والاستكبار ، واحتقار المؤمنين من عباد الله ، والرفض لنصح الناصحين من قومه كما قال عز وجل :
 { ... إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين . قال إنما أوتيته على علم عندي... } (٣).

* عبد الله بن أبي سلول (٤)

(رأس النفاق في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم):

كان من أشرف الخزرج وساداتها وعظمائها ، بل يقول ابن إسحاق :
 "قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة - كما حدثني عاصم بن عمر

(١) ينظر : تفسير الطبرى ١٦٠/٢٠ ، تفسير ابن كثير ٣/٣٩٩ ، تفسير البغوى ٣/٤٥٤ ، تفسير أبي السعود ٧/٢٤ .

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير ، ط/٣ ، ١٤٠٨ هـ ، مكتبة الطالب الجامعى ٢/٤٨٦ .

(٣) سورة القصص : من الآيات ٧٦-٧٨

(٤) سلول : بفتح السين وضم اللام الأولى وتخفيفها ، المغنى ص ١٣١ ، قال السهيلي : "سلول : هى أم أبى" . ينظر الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام لأبى القاسم السهيلي ، طبعة دار الفكر ، بيروت ٣/١٤ .

ابن قتادة - وسيد أهلها عبد الله بن أبي سلول ، لا يختلف عليه في شرفه اثنان ، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين حتى جاء الإسلام غيره" (١).

و"كان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم ، فجاءهم الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم وهم على ذلك ، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن (٢) ورأى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استلبه ملكا" (٣).

أعلن عبد الله بن أبي في بادئ الأمر عداوته ، وأظهر بغضه وكراهته وصرح بموقفه .

فعن أسامة بن زيد رضى الله عنهما "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب على حمار ، عليه قطيفة فدركية" (٤) ، وأسامة وراءه ، يعود سعد ابن عبادة في بني الحارث بن الخزرج ، قبل وقعة بدر ، فسارا حتى مرا بمجلس فيه عبد الله بن أبي ابن سلول ، وذلك قبل أن يسلم (٥) عبد الله بن أبي ، فإذا المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود ، وفي المسلمين عبد الله بن رَوَاحَة ، فلما غشيت المجلس عَجَاجَة (٦) الدابة ، خمر (٧) ابن أبي أنفه بردائه وقال : لاتغبروا علينا ، فسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم وقف ، فزل فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن ، فقال

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١٩٢/٢ (مع اختصار يسير) .

(٢) ضغن : أى حقد ، والضغن : الحقد والعداوة والبغضاء .

ينظر لسان العرب ٢٥٩٢/٤ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١٩٢/٢-١٩٣ .

(٤) "أى كساء غليظ منسوب إلى فدك بفتح الفاء والذال وهى بلد مشهور على

مرحلتين من المدينة" . فتح البارى ٢٩٣/٨ .

(٥) "أى قبل أن يظهر الإسلام" . فتح البارى ٢٩٣/٨ .

(٦) "عجاجة الدابة هو ما ارتفع من غبار حوافرها" . شرح النووى على صحيح مسلم

١٥٨/١٢ .

(٧) "أى غطى" . فتح البارى ٢٩٣/٨ .

له عبد الله بن أبي سلول : أيها المرء ، لأحسن مما تقول إن كان حقا فلاتؤذنا به في مجالسنا ، فمن جاءك فاقصص عليه . قال عبد الله بن رَوَاحَة بلى يارسول الله ، فاغشنا في مجالسنا ، فإنا نحب ذلك ... " (١) .

ونلاحظ هنا صراحة ابن أبي في الموقف من رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ووضوحه في المجابهة ، ولكن ذلك الأسلوب تغير وتبدل بعد غزوة بدر حين رأى ابن أبي الانتصار الفاصل للمسلمين في تلك المعركة ، وماحصل فيها من القتل والأسر للكبراء من قريش ، ورأى الموقف القوى لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة وإقبال الناس عليه ودخولهم في دين الله سبحانه وأن التوجه العام قد أصبح لصالح الاسلام .

لما شاهد رأس النفاق ذلك آثر أن يغير أسلوبه في حرب الإسلام ومواجهة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخل في الإسلام نفاقا ليتمكن من التحرك بحرية ، وفي قلبه مافيه من الحقد والضعينة .

ففي حديث أسامة من رواية البخارى المذكورة آنفا " فلما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرا فقتل الله بها من قتل من صناديد الكفار وسادة قريش ، ففَقَلَ (٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه منصورين غائمين ، معهم أسارى من صناديد (٣) الكفار وسادة قريش ، قال ابن أبي سلول ومن معه من المشركين عبدة الأوثان : هذا أمر قد تَوَجَّهَ (٤) ، فبايعوا (٥) رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام ، فأسلموا " (٦) .

-
- (١) الحديث رواه البخارى في كتاب الأدب ، باب كنية المشرك ٢٢٩٢/٥-٢٢٩٣ ، ومسلم في كتاب الجهاد ، باب مالقى النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمتناقفين ١٥٧/١٢-١٥٩ .
- (٢) أى عاد . ينظر النهاية في غريب الحديث ٩٢/٤ .
- (٣) " جمع صناديد بكسر ثم سكون وهو الكبير في قومه " . فتح البارى ٢٩٥/٨ .
- (٤) " أى ظهر وجهه " . فتح البارى ٢٩٥/٨ .
- (٥) " بلفظ الماضى ، ويحتمل أن يكون بلفظ الأمر والله أعلم " . فتح البارى ٢٩٥/٨ .
- (٦) رواه البخارى في كتاب الأدب ، باب كنية المشرك ٢٢٩٣/٥ .

وقد يكون من أسباب تظاهرة بالإسلام - إضافة إلى ما سبق - أن يبقى على مكانته عند قومه ، وشرفه ومقامه بينهم ، كما يقول صاحب الظلال في مقدمة تفسيره لسورة البقرة وهو يقارن بين وضع الإسلام في مكة ووضعه في المدينة ، فقد ذكر أن الإسلام في المدينة أصبح "قوة يحسب حسابها كل أحد ويضطر لمصانعتها كثيرا أو قليلا ، وبخاصة بعد غزوة بدر وانتصار المسلمين فيها انتصارا عظيما ، وفي مقدمة من كان مضطرا لمصانعتها نفر من الكبراء دخل أهلوههم وشيعتهم في الإسلام ، وأصبحوا هم ولا بد لهم لكي يحتفظوا بمقامهم الموروث بينهم وبمصلحتهم كذلك أن يتظاهروا باعتناق الدين الذي اعتنقه أهلهم وأشياعهم ، ومن هؤلاء عبد الله بن أبي ابن سلول الذي كان قومه ينظمون له الخرز ليتوجوه ملكا عليهم قبيل مقدم الإسلام على المدينة" (١).

ويقول في مقدمة تفسيره لسورة آل عمران : "كانت غزوة بدر الكبرى قد وقعت وكتب الله فيها النصر للمسلمين على قريش ، وكان هذا النصر بظروفه التي تم فيها والملابسات التي أحاطت به تبدو فيه رائحة المعجزة الخارقة ، ومن ثم اضطر رجل كعبد الله بن أبي ابن سلول من عظماء الخزرج أن ينزل عن كبريائه وكرهاته لهذا الدين ونيبه صلى الله عليه وسلم وأن يكتب حقه وحسده للرسول الكريم وأن ينضم - منافقا - للجماعة المسلمة وهو يقول : هذا أمر قد توجه ، أى ظهرت له وجهة ، وهو ماض فيها لايرده عنها راد .

بذلك وجدت بذرة النفاق في المدينة ، وأصبحت مجموعة من الرجال ومن ذوى المكانة فيهم مضطرة إلى التظاهر بالإسلام ، والانضمام إلى المجتمع المسلم بينما هي تضم في نفسها الحقد والعداء للإسلام والمسلمين ، وتتربص بهم الدوائر ، وتتلمس الثغرات في الصف ، وتتربص بالأحداث التي تضعف قوى المسلمين أو تزعزع الصف المسلم ليظهروا كوامن صدورهم أو ليضربوا

ضربة الإِجْهَازِ إِذَا كَانَ ذَلِكَ فِي مَكْنَتِهِمْ" (١).

وسأورد - بمشيئة الله تعالى - في الفصل الثاني صوراً ومظاهر لهذا
العداء وهذه الحرب المستترة .

(١) في ظلال القرآن ١/٣٤٤-٣٤٥ (مع اختصار يسير) .

المطلب الثالث المؤمنون

ماورد فيما مضى من تقرير لحقيقة معارضة الملائكة لدعوة الرسل عليهم السلام ، لاينفى وجود طائفة من الملائكة آمنوا بالله تعالى وصدقوا المرسلين ، وتغلبوا بتوفيق ربهم سبحانه على الحواجز النفسية ومايسوله الشيطان من اعتبارات تحول دون الاستجابة لداعى الإيمان .

وأشير فيما يلى - بإيجاز - إلى بعض أولئك المؤمنين (١) :
* مؤمن آل فرعون : (٢)

كان لهذا الرجل الصالح شرف ومكانة وجاه فى آل فرعون ، ومما يدل على ذلك أن فرعون لم يتعرض له مباشرة بسوء لما أبدى رأيه فى دعوة موسى عليه السلام ، بل ترك له المجال ، واستمع لكلامه وهو يجادل ويحاور ، وينافح عن نبي الله موسى عليه السلام ، ويعلمن وجهة نظره فى الدعوة والرسالة (٣) .

أسلم هذا الرجل وجهه لله تعالى ، وآمن بموسى عليه السلام ، وكنم إيمانه خوفاً من بطش فرعون وطغيانه .

ولما استمع إلى فرعون وهو يشاور الملائكة مبدياً رغبته فى قتل موسى عليه السلام كما قال الله عز وجل :

(١) ذُكِرَ فى أخبار عاد وثمود فى بعض كتب التفسير إيمان مرثد بن سعد من أشرف عاد وأمائهم ، وجندع بن عمرو أحد رؤساء ثمود .

ينظر : تفسير الطبرى ٢١٩/٦ ، تفسير البغوى ١٧١/٢ ، ١٧٦ ، تفسير ابن كثير ٢٢٨/٢ ، تفسير القاسمى ، ط/٢ ، ٥١٣٩٨ ، دار الفكر ١٧٥/٧ ، قصص الأنبياء لابن كثير ١٤٤/١ .

(٢) ذكر بعض المفسرين أنه كان ابن عم فرعون .
ينظر : تفسير ابن كثير ٧٧/٤ ، تفسير الطبرى ٥٨/٢٤ ، قصص الأنبياء لابن كثير ٣٨٩/٢ .

(٣) ينظر تفسير الطبرى ٥٨/٢٤ .

{وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم
أو أن يظهر فى الأرض الفساد}{(١)}

أراد ذلك الرجل المؤمن أن يكون له دور فى حماية نبي الله موسى
عليه السلام ، والذب عنه ، وإظهار مافى دعوته من الحق والهدى ، وإبراز
مافيه من الخير والنجاة ، والسلامة والفلاح فى الدنيا والآخرة ، فتحرك
لذلك فى ذكاء وحكمة وخاطبهم بمقولته التى حكاها القرآن الكريم :

{وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول
ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا
يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب}{الآيات (٢)} .
* ملكة سبأ : (٣)

دعاها نبي الله سليمان عليه السلام إلى الإسلام وعبادة الله وحده ،
كما قال الله تبارك وتعالى على لسانها تخاطب أشراف قومها ورجال دولتها :
{قالت يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم . إنه من سليمان وإنه بسم
الله الرحمن الرحيم . ألا تعلقو علىّ وأتوني مسلمين}{(٤)} .

وبعد استشارتها الملأ من حولها رأت أن تبعث إلى سليمان عليه
السلام بهدية عظيمة تختبر بها وضعه وحاله ، وتتحقق بها من أمره :
{وإنى مرسله اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون}{(٥)} .

وحين اتضح لها - بعد توفيق الله تعالى وهدايته - أن سليمان عليه
السلام صاحب نبوة ورسالة ، لارجل دنيا أو طالب شهوة ، توجهت إلى
سليمان عليه السلام ، وهناك أعلنت إسلامها وتبرئها مما سلف من الشرك

(١) سورة غافر : آية ٢٦

(٢) سورة غافر : آية ٢٨-٤٤

(٣) واسمها بلقيس كما فى تفسير ابن كثير ٣/٣٦٠ ، وتفسير البغوى ٣/٤١٤ ، وزاد
المسير ٦٤/٦ .

(٤) سورة النمل : آية ٢٩-٣١

(٥) سورة النمل : آية ٣٥

وعبادة الشمس من دون الله تعالى {.. قالت رب إنى ظلمت نفسي وأسلمت
مع سليمان لله رب العالمين} (١).
* أَصْحَمَةَ ، النجاشي : (٢)

وهو الذى أجاز أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجروا
إلى الحبشة فرارا بدينهم ، فأكرمهم وآواهم ، وأحسن جوارهم ، ووفر لهم
الحماية والأمن ، فعاشوا فى كنفه مدة من الزمن مطمئنين آمنين .
وقد ثبت إسلامه رضى الله عنه ، ولما مات نعاه رسول الله صلى الله
عليه وسلم لأصحابه رضى الله عنهم .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
نعى لهم النجاشي صاحب الحبشة فى اليوم الذى مات فيه وقال : "استغفروا
لأخيكم" (٣).

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما "أن النبى صلى الله عليه
وسلم صلى على أصحمة النجاشي" (٤).
* الطفيل بن عمرو الدوسى :

كان من أشرف دوس وسادتها وأكابرها .
قدم مكة والتقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستمع إليه ،
فأسلم عن قناعة ويقين ، ثم عاد إلى دوس يدعوهم إلى دين الله الذى آمن

(١) سورة النمل : آية ٤٤

(٢) النجاشي لقب لكل من ملك الحبشة ، و(أصحمة) بفتح الهمزة واسكان الصاد
وفتح الحاء ، اسم علم لهذا الملك الصالح ، قال ابن قتيبة وغيره : معناه بالعربية
عطية .

ينظر : شرح النووى على صحيح مسلم ٢٢/٧-٢٣ ، الروض الأنف ٧٩/٢ .
(٣) رواه البخارى فى كتاب فضائل الصحابة ، باب موت النجاشي ١٤٠٨/٣ ، ومسلم
فى كتاب الجنائز ، باب فضل الصلاة على الجنازة ٢٢/٧ .

(٤) رواه البخارى فى كتاب فضائل الصحابة ، باب موت النجاشي ١٤٠٨/٣ ، ومسلم
فى كتاب الجنائز ، باب فضل الصلاة على الجنازة ٢٢/٧ .

به ، ولما أبطأوا في الاستجابة له جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم متأثرا يشكو إليه الحال .

فعن أبي هريرة رضى الله عنه قال جاء الطفيل بن عمرو إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن دوسا قد هلكت ، عصت وأبت ، فادع الله عليهم ، فقال عليه الصلاة والسلام : "اللهم اهد دوسا ، وأت بهم" (١). وعاد الطفيل رضى الله عنه إلى دوس ليكون له - بعد توفيق الله تعالى - دور وسبب في هداية الكثيرين في أوساط قبيلته .

وكان رضى الله عنه حريصا على نصرة الرسول صلى الله عليه وسلم وخدمة الدعوة . فعن جابر رضى الله عنه "أن الطفيل بن عمرو الدوسى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله هل لك فى حصن حصين ومَنَعَة (٢) - قال : حصن كان لدوس فى الجاهلية - فأبى ذلك النبي صلى الله عليه وسلم للذى ذَخَرَ (٣) الله للأَنْصار" (٤).

وقد كان لإسلام الطفيل رضى الله عنه قصة ذكرها ابن إسحاق فقال : "كان الطفيل بن عمرو الدوسى يحدث : أنه قدم مكة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بها ، فمشى إليه رجال من قريش - وكان الطفيل رجلا شريفا شاعرا لبيبا - فقالوا له ياطفيل ، إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد أعضل بنا (٥) ، وقد فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبين الرجل

(١) رواه البخارى فى كتاب المغازى ، باب قصة دوس ١٥٩٦/٤ ، ومسلم فى فضائل الصحابة رضى الله عنهم ، باب من فضائل غفار وأسلم ٧٧/١٦ .
(٢) "يقال : فلان فى مَنَعَة ، أى فى قوم يحمونه ويمنعونه . لسان العرب ٤٢٧٦/٦ - ٤٢٧٧ .

(٣) ذَخَرَ الشيء أى اختاره . ينظر ترتيب القاموس المحيط ٢٥١/٢ .
(٤) رواه مسلم فى كتاب الايمان ، باب الدليل على أن قاتل نفسه لا يكفر ١٣٠/٢ .
(٥) أى ضاقت علينا الحيل فى أمره . ينظر النهاية فى غريب الحديث ٢٥٤/٣ .

وبين زوجته ، وأنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمنه ^ت ولا تسمعن منه شيئا .

قال : فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئا ولا أكلمه ، حتى حشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفاً (١) فرقا (٢) من أن يبلغني شيء من قوله ، وأنا لأريد أن أسمعه .

قال : فغدوت إلى المسجد ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي عند الكعبة . قال : فقمتم منه قريبا ، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله ، قال : فسمعت كلاما حسنا ، قال : فقلت في نفسي : واثكل أمي ، والله إنى لرجل لبيب شاعر وما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فإن كان الذي يأتي به حسنا قبلته ، وإن كان قبيحا تركته .

قال : فمكثت حتى انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته فاتبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه ، فقلت : يا محمد ، إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا ، للذي قالوا ، فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك ، فسمعته قولاً حسناً ، فاعرض عليّ أمرك . قال : فعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم الإسلام ، وتلا على القرآن ، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ولا أمراً أعدل منه ، قال : فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، وقلت يانبي الله إنى امرؤ مطاع في قومي وأنا راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام ... " (٣) .

(١) الكرسف بضم الكاف وسكون الراء وضم السين : القطن . النهاية في غريب الحديث ١٦٣/٤ ، ترتيب القاموس ٣٧/٤ .

(٢) "الفرق بالتحريك : الخوف والفرع" . النهاية في غريب الحديث ٤٣٨/٣ .

(٣) خير إسلام الطفيل بن عمرو رواه ابن إسحاق دون إسناد : السيرة النبوية ٣٠٧/١ وأورده ابن القيم في زاد المعاد نقلاً عن ابن إسحاق ، ط/٨ ، ١٤٠٥ هـ ، مؤسسة الرسالة ٦٢٤/٣-٦٢٥ ، وأورده ابن الجوزي في صفة الصفوة ، ط/٣ ، ١٤٠٥ هـ ، دار المعرفة ٦٠٠/١-٦٠١ ، والحلي في سيرته ٦٩/٢-٧٠ ، ورواه البيهقي في الدلائل عن ابن إسحاق ٣٦٠/٥-٣٦١ ، وأورده ابن كثير في البداية والنهاية نقلاً عن ابن إسحاق ١٢٣/٣-١٢٤ ثم قال في نهاية الخبر :

= هكذا ذكر محمد بن إسحاق قصة الطفيل بن عمرو مرسله بلا إسناد ، ولخبره شاهد في الحديث الصحيح ، وينظر كذلك طبقات ابن سعد ، طبعة دار صادر ، =

* أُسَيْدُ بْنُ حَضِيرٍ :

* سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ :

كان لهما في الأوس شرف وسيادة ورياسة ، وتم إسلامهما رضى الله عنهما ، إذ أكرمهما الله تعالى بالهداية على يد مَصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ رضى الله عنه ، فكان ذلك سببا في إسلام الكثيرين - بفضل الله - تأثرا وتأسيا بهما . قال ابن إسحاق : "حدثني عبيد الله بن المغيرة بن معيقب (١) ، وعبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن أسعد بن زُرَّارة (٢) خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بنى الأشهل ، ودار بنى ظفر - وكان سعد بن معاذ ابن خالة أسعد بن زرارة - فدخل حائطا (٣) من حوائط بنى ظفر ، فجلسا في الحائط واجتمع اليهما رجال ممن أسلم ، وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير (٤) يومئذ سيدا قومهما من بنى عبد الأشهل ، وكلاهما مشرك على دين قومه ، فلما سمعا به قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير : لأبالك ، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما وانهما عن أن يأتيا دارينا ، فإنه لولا أسعد بن زُرَّارة منى حيث ماقد علمت كفيتك ذلك ، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدا ، قال : فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما ، فلما رآه أسعد بن زارة قال لمصعب بن عمير : هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه ، قال مصعب : إن يجلس أكلمه ، قال فوقف عليهما متشتما (٥) ، فقال : ماجاء بكما إلىنا تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا

- = بيروت ٢٣٧/٤-٢٣٨ ، وسبل الهدى والرشاد ٥٤٨/٢-٥٤٩ ، الإصابة لابن حجر ط/دار نهضة مصر ، القاهرة ٥٢١/٣ ، الاستيعاب لابن عبد البر ، ط/مطبعة نهضة مصر ، القاهرة ٧٥٩/٢-٧٦٢ .
- (١) معيقب : بضم الميم وفتح العين وسكون الياء وكسر القاف ، على التصغير . تقريب التهذيب ص ٣٧٤ .
- (٢) زرارة : بضم الزاى وتخفيف الراء . المغنى ص ١١٨ .
- (٣) الحائط : "الستان من النخيل إذا كان عليه حائط وهو الجدار" . النهاية فى غريب الحديث ٤٦٢/١ .
- (٤) أسيد : بضم الهمزة وفتح السين ، على التصغير ، وحضير : بضم الحاء وفتح الضاد . تبصير المنتبه ١٥/١ ، تكملة الاكمال ٤٣٠/٢ .
- (٥) أى ينال منهما سبا وشتما ، من شتمه يشتمه إذا سبه . ينظر ترتيب القاموس المحيط ٦٧٢/٢ .

إن كانت لكما بأنفسكما حاجة ، فقال له مصعب : أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمرا قبلته وإن كرهته كف عنك ماتكره؟ قال : أنصفت ، ثم ركز حربته وجلس إليهما ، فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن ، فقالا فيما يذكّر عنهما : والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم ، في إشرافه وتسهله (١) ثم قال : ما أحسن هذا الكلام وأجمل ، كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالوا له : تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلى ، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه ، وتشهد شهادة الحق ، ثم قام فركع ركعتين . ثم قال لهما : إن ورأى رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ، وسأرسله إليكما الآن ، سعد بن معاذ ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلا قال : أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم ، فلما وقف على النادى قال له سعد : ما فعلت؟ قال : كلمت الرجلين ، فوالله مارأيت بهما بأسا ، وقد نهيتهما ، فقالا : نفعل ما أحببت ، وقد حدثت أن بنى حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زُرارة ليقتلوه وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك ، ليخفروك (٢) ، قال : فقام سعد مغضبا مبادرا تخوفا للذي ذكر له من بنى حارثة ، فأخذ الحربة من يده ثم قال : والله ما أراك أغنيت (٣) شيئا ، ثم خرج إليهما ، فلما رآهما سعد مطمئنين ، عرف سعد أن أسيدا إنما أراد منه أن يسمع منهما ، فوقف عليهما متشتما ، ثم قال لأسعد بن زرارة : يا أبا أمامة أما والله لولا ما بيني وبينك من القرابة مارمت هذا منى (٤) أتغشنا في دارينا بما نكره - وقد قال أسعد بن زرارة

(١) أى ارتياحه وانبساطه (والسهولة ضد الحزونة) . لسان العرب ٢١٣٤/٣ .

(٢) لينتهكوا ذمتك وينقضوا عهدك ، يقال : أخفرت الرجل إذا نقضت عهده وذمامه . النهاية فى غريب الحديث ٥٢/٢ .

(٣) أى نفعت بشيء من الغناء بالفتح أى النفع . ينظر لسان العرب ٣٣٠٩/٥ .

(٤) من رام الشيء : أى طلبه ، والمراد : ما بلغته ولا تمكنت منه . ينظر لسان العرب

لمصعب بن عمير : أى مصعب ، جاءك والله سيد من وراءه من قومه ، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان - قال : فقال له مصعب : أو تقعد فتسمع ، فإن رضيت أمرا ورغبت فيه قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ماتكره؟ قال سعد : أنصفت . ثم ركز الحربة وجلس ، فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن . قالوا : فعرفنا والله فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم ، لإشراقه وتسهله ، ثم قال لهما : كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم فى هذا الدين؟ قال : تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك وتشهد شهادة الحق ثم تصلى ركعتين ، قال : فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وتشهد شهادة الحق ، ثم ركع ركعتين ، ثم أخذ حربته فأقبل عامدا^(١) إلى نادى قومه ومعه أسيد بن حضير قال : فلما رآه قومه مقبلا قالوا : نلخف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذى ذهب به من عندهم ، فلما وقف عليهم قال : يا بنى عبد الأشهل كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا : سيدنا وأوصلنا وأفضلنا رأيا وأيمننا نقيبة^(٢) ، قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله ، قال : فوالله ما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما ومسلمة^(٣) .

* عبد الله بن سلام : (٤)

من أحبار يهود وسادتهم ، قال ابن حجر : "كان من المشهورين بالرياسة فى اليهود عند قدوم النبى صلى الله عليه وسلم"^(٥) .

(١) عمد الشيء : أى قصده . ينظر ترتيب القاموس المحيط ٣٠٧/٣ .

(٢) "رجل ميمون النقيبة : مبارك النفس مظفر" . لسان العرب ٤٥١٤/٦ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٣٨/٢-٤١ ، وأورده ابن كثير فى البداية والنهاية نقلا عن ابن إسحاق ١٨٥-١٨٧ ، وكذلك هو فى السيرة الحلبية ١٧٠/٢-١٧١ ، ورواه البيهقى فى الدلائل من طريق ابن إسحاق بتمامه ٤٣٨/٢-٤٤٠ ، وينظر طبقات ابن سعد ٤٢٠/٣-٤٢١ ، سبل الهدى والرشاد ٢٧٢/٣-٢٧٤ .

(٤) عبد الله بن سلام : بتخفيف اللام . تلخيص المتشابه ٢٨/١ ، وكان اسمه الحصين فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله . ينظر : سنن ابن ماجه ، كتاب الأدب ، باب تغيير الأسماء ١٢٣٠/٢ ، السيرة النبوية لابن هشام ١١٣/٢ ، صفة الصفوة ٧١٨/١-٧١٩ ، فتح البارى ١٦٣/٧ .

(٥) فتح البارى ٣٥٠/٧ ، وينظر السيرة النبوية لابن هشام ١١٣/٢ .

كان حريصا على رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم والجلوس رآيه ولما سمع منه وعرف أن ماجاء به عليه الصلاة والسلام هو الحق سارع رآي الاستجابة له ، والإيمان برسالته ، والانضمام إلى دعوته عليه الصلاة والسلام.

يقول رضى الله عنه : "لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة انجفل الناس رآيه (١) ، وقيل : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فجئت فى الناس لأنظر رآيه ، فلما استثبت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب ... " (٢).

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : "سمع عبد الله بن سلام بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى أرض يجتري (٣) ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : رانى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى : فما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما يتزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال : "أخبرنى بهن جبريل آنفا" قال : جبريل؟ قال : "نعم" ، قال : ذاك عدو اليهود من الملائكة ، فقرأ هذه الآية {من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله} (٤) ، أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام أهل الجنة فزيادة كبد حوت (٥) ، وإذا

(١) "أى ذهبوا مسرعين نحوه" . النهاية فى غريب الحديث ٢٧٩/١٥ .

(٢) الحديث رواه الترمذى فى كتاب صفة القيامة ٦٥٢/٤ وقال : هذا حديث صحيح ، وابن ماجه فى كتاب الأطعمة ، باب إطعام الطعام ، ط/دار الكتب العلمية ١٠٨٣/٢ ، والحاكم فى المستدرک ١٤/٣ وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٥٣١/٢ ، وصححه الألبانى : صحيح سنن ابن ماجه ٢٢٢/٢ .

(٣) "بالحاء المعجمة والفاء : أى يجتري من الثمار" . فتح البارى ٣٢٠/٧ .

(٤) سورة البقرة : آية ٩٧

(٥) "الزيادة هى القطعة المنفردة المعلقة فى الكبد ، وهى فى المطعم فى غاية اللذة" .

فتح البارى ٣٤٧/٧ .

سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد^(١)، وإذا سبق ماء المرأة نزع^(٢). قال
 أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنك رسول الله ، يارسول الله ، إن اليهود
 قوم بهت^(٣)، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني ، فجاءت
 اليهود ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "أى رجل عبد الله فيكم" قالوا :
 خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا . قال : "أرأيتم إن أسلم عبد الله بن
 سلام" فقالوا : أعاده الله من ذلك ، فخرج عبد الله فقال : أشهد أن لا إله
 إلا الله ، وأن محمدا رسول الله . فقالوا شرنا وابن شرنا ، وانتقصوه ، قال
 فهذا الذي كنت أخاف يارسول الله^(٤) .
 * ثَمَامَةُ بْنُ أَثَالٍ : (٤)

ولإسلامه رضى الله عنه قصة يرويها أبو هريرة رضى الله عنه فيقول
 "بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خيلا قبل نجد ، فجاءت برجل من بني
 حنيفة يقال له ثمامة بن أثال ، سيد أهل اليمامة ، فربطوه بسارية من
 سواري المسجد فخرج إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "ماذا
 عندك يا ثمامة؟" فقال : عندي يا محمد خير ، إن تقتل تقتل ذا دم^(٥)، وإن
 تنعم تنعم على شاكرك ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ماشئت ، فتركه
 رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان بعد الغد فقال : "ما عندك يا ثمامة؟"
 قال : قلت لك : إن تنعم تنعم على شاكرك ، وإن تقتل تقتل ذا دم وإن

(١) "بالنصب على المفعولية أى جذبه اليه" . فتح البارى ٣٤٨/٧ .

(٢) بهت : بضم الباء والهاء ، ويجوز إسكانها : جمع بهيت ، وهو الذى يبهت

السامع بما يفتره عليه من الكذب . ينظر فتح البارى ٣٤٨/٧ .

(٣) رواه البخارى فى كتاب التفسير ، باب قوله {من كان عدوا لجبريل} ١٦٢٨/٤ .

(٤) ثمامة بن أثال : بضم الثاء ، وأثال : بضم الهمزة وتخفيف الثاء . تهذيب الأسماء

١٤٠/١ ، تكملة الإكمال ١١٥/١ .

(٥) قال القاضى عياض : معناه إن تقتل تقتل صاحب دم لدمه موقع يشفى بقتله

قاتله ، ويدرك قاتله به ثأره ، أى لرياسته وفضيلته ، وحذف هذا لأنهم يفهمونه

فى عرفهم . ينظر شرح النووى على صحيح مسلم ٨٧/١٢ .

كنت تريد المال فسل تعط منه ماشئت ، فتركه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان من الغد فقال : "ماذا عندك يا ثمامة؟" فقال : عندي ماقلت لك : إن تنعم تنعم على شاكر ، وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ماشئت . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أطلقوا ثمامة" ، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ، ثم دخل المسجد فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، يا محمد ، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلىَّ من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلىَّ ، والله ما كان دين أبغض إلىَّ من دينك فأصبح دينك أحب الدين كله إلىَّ ، والله ما كان من بلد أبغض إلىَّ من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إلىَّ ، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى؟ فبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره أن يعتمر . فلما قدم مكة قال له قائل : أصبوت؟ قال : لا ولكني أسلمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا والله ما يأتاكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم" (١).

(١) رواه البخارى فى كتاب المغازى ، باب وفد بنى حنيفة ٤/١٥٨٩ ، ومسلم - واللفظ له - فى كتاب الجهاد ، باب ربط الأسير ١٢/٨٧-٨٩ .

المطلب الرابع المتعاطفون من الكفار [مع بقائهم على الكفر]

من الملامن بقى على كفره ، ورفض الاستجابة لدعوة الله تعالى ، والدخول فى دينه سبحانه ، ومع ذلك فقد كان فى موقفهم نوع تعاطف مع القائلين على الدعوة ، يصل أحيانا إلى الحماية والنصرة ، دافعهم إلى ذلك عصبية قبلية ، أو حمية عشائرية ، أو معرفة للحق واقتناع به ، ثم يمنعهم بعد ذلك من الإيمان عوامل نفسية كالخوف على المكانة والسيادة ، أو الخشية من أصحاب النفوذ من حولهم ، أو الرغبة فى مسايرة المجتمع الكافر ، أو الحذر من الاتهام بالخروج عن العقيدة السائدة والمنهج المألوف ، إلى غير ذلك من الأسباب .

وهناك أمثلة من هذا الصنف برزت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومنهم :

* أبو طالب (عم رسول الله صلى الله عليه وسلم) :

و"كان شريفا معظما فى قريش ، مطاعا فى أهله وأهل مكة ، لا يتجاسرون على مكاشفته بشىء من الأذى" (١).

أبى أبو طالب أن يستجيب لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومع ذلك فقد قدم له وعدا بالحماية ، وكان مما قال له - كما يقول ابن إسحاق - "أى ابن أخى ، إني لأستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يخلص إليك بشىء تكرهه ما بقيت" (٢).

"أذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت فوالله لأسلمك لشيء أبدا" (٣).

(١) زاد المعاد ٢٢/٣ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١٩٠/١ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢٠١/١ .

ونفذ أبو طالب ما التزم به ، فقد كان يدافع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينصره - بقدر من الله تعالى - ويقوم بدوره أمام الملأ من قريش .

قال ابن إسحاق : "وَحَدَّبَ (١) على رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه أبو طالب ومنعه وقام بدوره" (٢).

وتحمل من أجل موقفه العنت والحرَج ، والضغط المعنوي المستمر . ولما مات أبو طالب وجد الملأ من قريش الفرصة والسعة في الأمر ليتحركوا في إيذائه عليه الصلاة والسلام بما لم يتمكنوا من قبل .

يقول ابن إسحاق : "فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب" (٣).
* هَرَقْل ، عَظِيمُ الرُّومِ :

والذى بعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا يتضمن دعوته إلى الإسلام ، فأبدى هرقل حينها تعاطفا مع الدعوة ، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأظهر اقتناعا بالحق في دعوته ، ورغبة في اللقاء به عليه الصلاة والسلام .

ويبدو هذا الموقف من هرقل في كلماته التي خاطب بها أبا سفيان إثر استدعائه له أثناء وجوده في الشام ، فقد قال له بعد حوار طويل حول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن كان ماتقول حقا فسيملك موضع قدميَّ هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أني

(١) "أصل الحدب الخناء في الظهر ثم استعير فيمن عطف على غيره ورق له" . الروض الأنف ٧/٢ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١٩٩/١ ، وأورده ابن كثير في البداية والنهاية نقلا عن ابن إسحاق ٦٢/٣ ، وينظر زاد المعاد ٢٢/٣ ، سبل الهدى والرشاد ٤٣٦/٢ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢٢/٢ ، وأورده ابن كثير في البداية والنهاية نقلا عن ابن إسحاق ١٥١/٣ .

أعلم أني أخلص إليه لتجشمت (١) لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه " (٢) .

ومع هذه الكلمات فقد آثر هرقل البقاء على دينه خشية على دنياه ، كما قال النووي : " وإنما شح في الملك ورغب في الرياسة فأثرها على الإسلام " (٣) .

(١) "أى تكلفت الوصول إليه" . فتح الباري ٥٠/١ .

(٢) الحديث رواه البخاري في كتابه بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي إلى

رسول الله صلى الله عليه وسلم ٧/١-٩ ، ومسلم في كتاب الجهاد ، باب كتب

النبي صلى الله عليه وسلم ١٢/١٠٣-١١١ .

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ١٢/١٠٧ .

(٧٢)

المبحث الثاني

أسباب عداوة الممّاء لدعوة الرسل عليهم السلام

ذكرت - سابقا - أن الغالب على الملأ تكذيب الرسل عليهم السلام ،
والوقوف في وجه الدعوة بكل وسيلة ، ومجابهتهم في كل طريق .
هؤلاء الملأ المكذبون ، والكبراء الكافرون لم يمنعهم من الإسلام
والاستجابة للمرسلين غموض في الدعوة ، أو التباس في أمر الرسالة ، ولم
يدفعهم إلى الجحود والعداء الصريح شك في شخصية الرسول عليه السلام ،
فإن الرسل عليهم السلام اختارهم الله تعالى من صفوة الخلق ، ومن
أشرفهم نسا ، وكان كل رسول يبعث إلى قومه ، يعرفون نسبه ، ويعلمون
صدقه وأمانته ، ثم هم بعد ذلك مؤيدون من الله عز وجل بالآيات البيّنات
والمعجزات الواضحات ، بحيث تقوم الحجة ، ويتضح الأمر دون لبس أو
غموض .

إن المانع لهم من الإيمان بعيد كل البعد عن قضية الوضوح في الدعوة
أو الصدق في الرسول ، فتلك الأمور لديهم واضحة ، والأمر فيها منته
لا تنقصه الحجة ، ولا يعوزه الدليل . ولكن الموانع منهم وفيهم ، والحواجز
بينهم وبين الإسلام إنما وضعوها هم لحاجة في أنفسهم ، فاتخذوا موقف
العداء والتكذيب ، والحرب والمجابهة لرسول الله عليهم السلام ، وهم في
ذات الوقت يعلمون في قرارة نفوسهم أن ماجاءت به الرسل هو الحق ، وأن
المسألة مسألة وحى ينزل من السماء ، يبلغه الرسل الصادقون عليهم السلام
لا كذب فيه ولا ادعاء .

ولذا قال موسى عليه السلام في خطاب فرعون كما حكى القرآن
الكريم :

{قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر...} (١).
أى لقد كان مستقرا في علمك ، واضحا في قرارة نفسك ، أن هذه
الآيات ما أنزلها إلا الله تبارك وتعالى لتكون بصائر أى حججا وأدلة على

صدق ماجئتك به" (١).

فالخطاب "على سبيل التوبيخ ، أى أنت بحال من يعلم هذا ، وهى من
الوضوح بحيث تعلمها" (٢).

ويؤكد الله سبحانه تلك الحقيقة فى معرض تسليته لرسوله محمد عليه
الصلاة والسلام ، فيقول عز وجل :

{قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون ، فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات
الله يجحدون} (٣).

"والجحد فى اللغة : إنكارك بلسانك ماتستيقنه نفسك" (٤).

فالواضح أنهم قدموا الكفر والتكذيب وقرروه ، ثم بدأوا بعد ذلك
ببحثون عن علل واهية وشبه باطلة لتكون أساسا ومبررا لما قرروه سابقا ،
وتلك غاية الشر والضلال . ولهذا الواقع من الملاء الكافرين أسبابه ، ولهذه
العداوة دوافعها ، ولذلك المكر والكيد عوامله وبواعثه ، وسأذكر - بمشيئة
الله تعالى - أهم هذه البواعث والأسباب (٥) فى المطالب التالية :

المطلب الأول : الاستكبار .

المطلب الثانى : الخوف على المكانة والحشية على المنصب والجاه .

المطلب الثالث : تأثير بعض الملاء على بعض .

المطلب الرابع : الإصرار والعناد .

المطلب الخامس : الجهل .

المطلب السادس : الحسد .

المطلب السابع : التقليد .

(١) تفسير ابن كثير ٦٧/٣ .

(٢) تفسير البحر المحيط ٨٦/٦ .

(٣) سورة الأنعام : آية ٣٣ .

(٤) تفسير غريب القرآن ص ٢٧ .

(٥) بين هذه الأسباب نوع تداخل ، فالسبب الواحد يمكن أن يكون سببا ودافعا وفى
نفس الوقت يمكن أن يكون نتيجة لسبب وباعث آخر .

(٧٥)

- المطلب الثامن : الترف والانهماك في الشهوات .
- المطلب التاسع : إنكار البعث والجزاء .
- المطلب العاشر : اتباع الهوى وكراهية الحق .

المطلب الأول الاستكبار

وصف الله تبارك وتعالى الملائم المكذبين بهذا الوصف في مواضع كثيرة من القرآن الكريم .

ومن ذلك قول الله عز وجل عن الملائم من قوم صالح عليه السلام :
{قال الملائم الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم
أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون . قال الذين
استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون} (١).

ويلاحظ في الآيات تكرر وصفهم بالاستكبار مرتين لتقرير هذا الوصف
وتأكيد ملازمته لهم ، والإشعار بأن مافي نفوسهم من الكبرياء هو الذي
أودى بهم إلى الإنكار للرسالة ، والتكذيب بالرسول عليه السلام ،
والاحتقار والاستضعاف للمؤمنين .

قال الألوسي في تفسير الآيات : "وأعيد الموصول مع صلته مع كفاية
الضمير إيذانا بأنهم قالوا ماقالوه بطريق العتو والاستكبار" (٢).

ولذلك قال تعالى عنهم في مواضع أخرى :

{ففتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون} (٣).

{ففقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ...} (٤).

أى "استكبروا عن امثاله" (٥).

(١) سورة الأعراف : آية ٧٥-٧٦

(٢) تفسير روح المعاني ١٦٤/٨ .

(٣) سورة الذاريات : آية ٤٤

(٤) سورة الأعراف : من آية ٧٧

(٥) تفسير البيضاوى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) لأبى سعيد عبد الله بن عمر

البيضاوى ، ط/١ ، ١٤٠٨ هـ ، دار الكتب العلمية ٤٣١/٢ .

ويتكرر وصف الملاً بالاستكبار في قصة شعيب عليه السلام ، كما في قوله تعالى :

{قال الملاً الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو نتعودن في ملتنا ...} (١).

فالاستكبار والغطرسة (٢) هي التي دفعت بالملاً أن يتجهوا الى هذا التهديد الصريح {لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا} .

والكفر في عاد سببه كذلك الاستكبار ، كما يقول الله عز وجل عنهم :

{فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة...} (٣).

ويلاحظ أن الآية بينت باعثهم الى الاستكبار ، وهو شعورهم بشيء من القوة {وقالوا من أشد منا قوة} كما ختمت الآية بتقرير نتيجة الاستكبار وهي الجحود بآيات الله {وكانوا بآياتنا يجحدون} .

فليس الحال نقصاناً في البراهين ، أو ضعفاً في الدليل ، بل الواقع أنهم كانوا يعرفون أن الرسول حق ، وأن آيات الله حق ، ولكن العلة الأصيلة هي الاستكبار الذي أودى بهم الى الجحود .

وهذا نبى الله نوح عليه السلام يشتكى الى ربه سبحانه استكبار المستكبرين ، كما يحكى القرآن الكريم :

{وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً} (٤).

"أى عظيماً بالغاً الى النهاية القصوى" (٥).

-
- (١) سورة الأعراف : من آية ٨٨
 (٢) "الغطرسة : الإعجاب بالنفس ، والتطاول على الأقران ، والتكبر" . ترتيب القاموس المحيط ٤٠٢/٣ .
 (٣) سورة فصلت : من آية ١٥
 (٤) سورة نوح عليه السلام : آية ٧
 (٥) التفسير الكبير ١٣٦/٣٠ .

فالملا من قوم نوح عليه السلام بلغوا في الاستكبار غايته ، وكان من نتائجه ذلك التكذيب المتواصل ، والمكر الرهيب (١) ، كما كان من مظاهره الانتقاص من قيمة الرسول عليه السلام وازدراء (٢) من حوله من المؤمنين ، كما قال الله تبارك وتعالى :

{فقال الملا الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك الا الذين هم اراذلنا ...} (٣).

فهم يسمون أتباع نوح عليه السلام (أراذل) لأنهم فقراء ليسوا من أصحاب الغنى والجاه فينظرون إليهم نظرة احتقار وازدراء ، ويغمطونهم (٤) في استعلاء وكبرياء .

ويكتمل الموقف بمطالبتهم لنوح عليه السلام أن يطردهم من حوله حتى يتسنى (٥) لهم ، وهم الملا الكبراء - أن يفكروا في الإقبال عليه وعلى دعوته ، وكان الجواب ما حكاه القرآن :

{.. وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ...} (٦).

{وما أنا بطارد المؤمنين . إن أنا إلا نذير مبين} (٧).

وكذلك يفعل كبراء قريش حين يطالبون رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطرد فقراء المؤمنين .

فعن سعد رضى الله عنه قال : "كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ستة

(١) أى المخيف ، من رهب : أى خاف . ينظر لسان العرب ١٧٤٨/٣ .

(٢) "الازدراء : الاحتقار والانتقاص والعيب" . لسان العرب ١٨٣٠/٣ .

(٣) سورة هود عليه السلام : من آية ٢٧

(٤) أى يحتقرونهم ، قال فى لسان العرب : "غمط الناس : احتقارهم والازدراء بهم

وما أشبه ذلك ، وغمط الناس غمطا : احتقارهم واستصغارهم" . ٣٣٠٠/٥ .

(٥) أى يتيسر ، "يقال : سنيت الشيء اذا فتحته وسهلته ، وتسنى لى كذا أى تيسر

وتأق" . لسان العرب ٢١٢٩/٣ .

(٦) سورة هود عليه السلام : من آية ٢٩

(٧) سورة الشعراء : آية ١١٤-١١٥

نفر فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم : اطرده هؤلاء لا يجترئون علينا... (١).

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : "مر الملاء من قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده خباب وصهيب وبلال وعمار ، فقالوا يا محمد ، أرضيت بهؤلاء؟" (٢)

وفي رواية ابن جرير : "... فقالوا يا محمد ، أرضيت بهؤلاء من قومك أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا ، أنحن نكون تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم عنك ، فلعلك إن طردتهم أن نتبعك ، فتزلت هذه الآية {ولاتطردهم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين . وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين} (٣)" (٤).

ومظهر آخر يقرر الاستكبار في نفوس الملاء المكذبين ، يبينه الله سبحانه في قوله :

{كذبت ثمود بالنذر . فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر} (٥).

{ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه

(١) الحديث رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة رضى الله عنهم ، باب في فضل سعد ابن أبي وقاص رضى الله عنه ١٨٧/١٥ .

(٢) الحديث رواه أحمد : الفتح الرباني ١٣٧/١٨ ، والواحدى في أسباب النزول ص ٢١٣ . قال الهيثمي : رجال أحمد رجال الصحيح غير كَرْدُوس وهو ثقة .
مجمع الزوائد ٨٨/٧ .

(٣) سورة الأنعام : آية ٥٢-٥٣

(٤) تفسير الطبرى ٢٠٠/٧ . قال شاكر : إسناده صحيح ٣٦/٦ (طبعة دار المعارف) .

(٥) سورة القمر : آية ٢٣-٢٤

فاستكبروا وكانوا قوماً عالين . فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون {١}.

فهم لكبريائهم لا يريدون أن يتأملوا في الدعوة وما تحمله من الحق ، وإنما يتجهون إلى شخص الداعية {أبشرا منا واحداً نتبعه} ، {أنؤمن لبشرين مثلنا} .

"إنها شبهة واهية لا تقوم إلا في النفوس المنحرفة ، النفوس التي لا تريد أن تنظر في الدعوى لترى مقدار ما فيها من الحق والصدق ، ولكن إلى الداعية فتستكبر عن اتباع فرد من البشر مخافة أن يكون في اتباعها له إيثار وتعظيم ، وهي تستكبر عن الإذعان والتسليم" {٢}.

ومن أولئك الملاء المكذبين الذين بلغوا في الاستكبار غايته ، وفي العتو نهايته ، فرعون ومن حوله من الأكابر المنتفذين ، والذين قال الله تعالى في شأنهم :

{واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق ...} {٣}.

لقد كان الاستكبار موقف فرعون الدائم والمستمر ، يقرر ذلك قول الله جل وعلا :

{ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين} {٤}.

{ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوماً عالين} {٥}.

{... وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين} {٦}.

-
- (١) سورة المؤمنون : آية ٤٥-٤٧
 (٢) في ظلال القرآن ٦/٣٤٣٢ .
 (٣) سورة القصص : من آية ٣٩
 (٤) سورة يونس عليه السلام : آية ٧٥
 (٥) سورة المؤمنون : آية ٤٥-٤٦
 (٦) سورة يونس عليه السلام : آية ٨٣

﴿إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين﴾ (١).

﴿ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين . من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين﴾ (٢).

ويستمر الاستكبار مع ورود الآيات البيّنات ، وتوالى المعجزات الواضحات ، ونزول العقوبات المنذرات :

﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين﴾ (٣).

﴿وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين﴾ (٤).

ويبرز كبرياء فرعون حين يجمع الجماهير لينادى فيهم مشيرا إلى عظمته وقوته ، وضعف موسى عليه السلام وهوانه - فى زعمه - :

﴿ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون . أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين﴾ (٥).

بل يصل الاستكبار بفرعون غايته حين يتعاضم على الله سبحانه فيدعى الألوهية للعباد :

﴿وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى ...﴾ (٦).

-
- (١) سورة القصص : آية ٤
(٢) سورة الدخان : آية ٣٠-٣١
(٣) سورة الأعراف : آية ١٣٣
(٤) سورة العنكبوت : آية ٣٩
(٥) سورة الزخرف : آية ٥١-٥٢
(٦) سورة القصص : من آية ٣٨

{فحشر فنأدى . فقال أنا ربكم الأعلى}{(١)}.

مع أن فرعون وملاه في دواخل نفوسهم متيقنون عارفون عالمون
بصدق موسى عليه السلام وأنه رسول من رب العالمين حقا .
ذلك ما يقرره القرآن عنهم :

{فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها
أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين}{(٢)}.

فليس البرهان هو الذى ينقصهم ، وليس الدليل هو الذى يعوزهم ،
وليس الاقتناع بأن موسى عليه السلام على الحق هو الذى ينتظرونه .
كلا فقد أصدروا قرارهم وأجمعوا أمرهم على أن لا يستجيبوا للهدى
وأن لا يقبلوا الحق مهما جاءهم من أى طريق .

إنه "الكبر الذى يمنعهم من الإسلام خيفة أن يرجعوا عبادا لله كسائر
العباد ، فهم يطلبون امتيازا ذاتيا يحفظ لهم خصوصيتهم بين الأتباع ، ويكبر
عليهم أن يؤمنوا للنبي فيسلموا له ، وقد تعودوا أن يكونوا في مقام
الربوبية للأتباع ، وأن يشرعوا فيقبلوا منهم التشريع ، وأن يأمرهم
فيجدوا منهم الطاعة والخضوع" (٣).

ويحذو (٤) كبراء قريش حذو السابقين من الملائكة الكذابين ، فيمنعهم الكبر
من الإيمان ويستحقون بذلك وصف الله لهم في قوله تبارك وتعالى :
{بل الذين كفروا فى عزة وشقاق}{(٥)}.

والعزة هنا ليست العزة الإيجابية بالحق وسلوك طريق الرشد ، ولكنها
عزة بالباطل وحمية وتكبر (٦) دفعهم إلى رفض الحق ومناهضة الدعوة وتجاهل

(١) سورة النازعات : آية ٢٣-٢٤

(٢) سورة النمل : آية ١٣-١٤

(٣) فى ظلال القرآن ١٢٠٢/٣ .

(٤) حذو : أى فعل فعله . ينظر ترتيب القاموس المحيط ٦٠٩/١ .

(٥) سورة ص : آية ٢

(٦) ينظر زاد المسير فى علم التفسير لأبى الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد الجوزى

ط / ١ ، ١٤٠٧ هـ ، دار الفكر ٣١٨/٦ .

الحجج البينات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم :

{ويل لكل أفاك أثيم . يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها...}{(١)} .

والاستكبار كذلك هو باعثهم إلى إثارة الشبهات ، والمجادلة بالباطل بلا حجة ولا برهان ، دفعا للحق ، وصدًا عن سبيله .

{إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه...}{(٢)} .

{ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق}{(٣)} .

"وثنى العطف كناية عن التكبر" (٤) . و"العطف : الجانب ، وعطفا الرجل : جانبه عن يمين وشمال ... والمعنى : ومن الناس من يجادل بغير علم متكبرا" (٥) .

ومن مظاهر الاستكبار أيضا لدى هؤلاء : التعنت في الاقتراحات والمطالب كما في قول الله سبحانه :

{وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا}{(٦)} .

(١) سورة الجاثية : من الآيات ٧-٨

(٢) سورة غافر : من آية ٥٦

(٣) سورة الحج : آية ٨-٩

(٤) تفسير البضاوى ٨٤/٢ .

(٥) زاد المسير ٢٨١/٥ (مع اختصار) ، والآيات نزلت - كما ذكر كثير من المفسرين -

في النضر بن الحارث . ينظر : تفسير الطبرى ١٢٠/١٧ ، تفسير القرطبي ١٢/١٢ ،

تفسير البغوى ٢٧٦/٣ ، زاد المسير ٢٨١،٢٧٨/٥ .

(٦) سورة الفرقان : آية ٢١

ومن مظاهره كذلك البحث عن ميرر للكفر ، وسبب للعداوة ، يعلنونه للعامة مع معرفتهم التامة بأن محمدا هو الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم ، كما فعل الوليد بن المغيرة - أحد رؤساء قريش - فتزل فيه (١) قول الله تبارك وتعالى :

{سأرهقه صعودا . إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر} (٢).

فهو الاستكبار إذن يمنعهم من الاتباع ، لاقلة البراهين ، ولاضعف الأدلة .

روى ابن أبي حاتم عن أبي يزيد المدني "أن النبي صلى الله عليه وسلم لقي أبا جهل فصافحه ، فقال له رجل : ألا أراك تصافح هذا الصابىء؟ فقال والله إنى لأعلم إنه لنبي ولكن متى كنا لعبد مناف تبعا؟ وتلا أبو يزيد {فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون} (٣)" (٤).

"أى ينكرونها بالسنتهم وهم مستيقنون أنك لم تكذب ولم تأت بها إلا عن الله تبارك اسمه" (٥).

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : "مرض أبو طالب فجاءته قريش ، وجاءه النبي صلى الله عليه وسلم وعند أبي طالب مجلس رجل ، فقام أبو جهل كى يمنعه (٦) ، وشكوه إلى أبي طالب ، فقال يا ابن أخي

(١) روى ابن جرير نزول الآيات في الوليد عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد والضحاك . تفسير الطبرى ١٥٢/٢٩ ، وينظر تفسير ابن كثير ٤٤٢/٤ .

(٢) سورة المدثر : آية ١٧-٢٥

(٣) سورة الأنعام : من آية ٣٣

(٤) ينظر تفسير ابن كثير ١٢٩/٢ .

(٥) تفسير غريب القرآن ص ٢٨ .

(٦) "الظاهر أن أبا جهل فعل ذلك خشية أن يجلس فيه النبي صلى الله عليه وسلم فيكون له صدارة المجلس ويؤثر على أبي طالب فيرق له فوثب فجلس في ذلك المجلس" . بلوغ الأمانى ٢٥٨/١٨ .

ما تريد من قومك؟ قال : إني أريد منهم كلمة واحدة ، تدين^(١) لهم بها العرب ، وتؤدى إليهم العجم الجزية ، قال : كلمة واحدة؟ قال كلمة واحدة ، قال : يا عم يقولوا لا إله إلا الله فقالوا : إلها واحدا ، ماسمنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق ، قال : فتزل فيهم القرآن {ص والقرآن ذى الذكر . بل الذين كفروا فى عزة وشقاق} إلى قوله : {ماسمنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق} (٢) (٣) .

وصدق فيهم قول الله جل شأنه :

{إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون} (٤) .

{... بل لجوا فى عتو ونفور} (٥) .

يقول صاحب الظلال : "واضح أن الكبر النفسى ، وما اعتاده الأكابر من الخصوصية بين الأتباع ، ومظهر هذه الخصوصية هو الأمر منهم والطاعة والاتباع من الأتباع ، واضح أن هذا من أسباب تزيين الكفر فى نفوسهم ، ووقوفهم من الرسل والدين موقف العداء" (٦) .

(١) "أى تطيعهم وتخضع لهم" . النهاية فى غريب الحديث ١٤٨/٢ .

(٢) سورة ص : آية ١-٧

(٣) رواه الترمذى فى كتاب تفسير القرآن ، باب ومن سورة ص ٣٦٥/٥-٣٦٦ وقال :

هذا حديث حسن ، وأحمد : الفتح الربانى ٢٥٨/١٨-٢٥٩ ، قال أحمد شاكر :

أسناده صحيح . المسند ٣/٣١٤ ، والحاكم فى المستدرک وقال : هذا حديث صحيح

الاسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى ٤٦٩/٢ ، وابن جرير : تفسير الطبرى

١٢٥/٢٣ ، والواحدى فى أسباب النزول ص ٣٨٦ ، والبيهقى فى الدلائل ٣٤٥/٢

وينظر : البداية والنهاية ١٥١/٣-١٥٣ ، تفسير ابن كثير ٢٧/٤-٢٨ .

(٤) سورة الصافات : آية ٣٥

(٥) سورة الملك : من آية ٢١

(٦) فى ظلال القرآن ١٢٠٢/٢ .

المطلب الثاني الخوف على المكانة والخشية على المنصب والجاه

لقد كان من أسباب عداوة الملأ المكذبين للرسول عليهم السلام خوفهم على مكانتهم أن تتحول ، وسيادتهم ورياستهم أن تنتهي ، وسلطانهم وخضوع الجماهير لهم أن يزول .

وأصبح هذا الشعور النفسى وهذه الخشية حاجزا بينهم وبين اتباع الرسول عليهم السلام ، ودافعا قويا ليقفوا موقف التكذيب ، وينهجوا مع الرسول عليهم السلام منهج العداوة والكيد والمجابهة .

ويلخص هذا الشعور كلمات المثنى بن حارثة - أحد أكابر بني شيبان بن ثعلبة - حين عرض عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه ، ودعاهم إلى دين الله سبحانه ، إذ قال المثنى في إجابته : " .. وإنا إنما نزلنا على عهد أخذه^(١) علينا أن لا نحدث حدثا ولا نؤوى محدثا ، وإني أرى أن هذا الأمر الذى تدعوننا إليه ياقرشى مما يكره الملوك ، فإن أحببت أن تؤويك وننصرك مما يلى مياه العرب فعلنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما سأتم في الرد إذ أفصحتم بالصدق ، وإن دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه ... " ^(٢) .

ويمكن تحليل الأساس الذى يقوم عليه هذا الشعور فى نفوس الملأ والرؤساء المكذبين فيما يلى :

-
- (١) الضمير يعود إلى كسرى .
 (٢) الحديث بطوله رواه البيهقى فى الدلائل عن على بن أبى طالب رضى الله عنه ٤٢٢/٢-٤٢٧ ، وابن حبان فى السيرة النبوية ص ٩٣-١٠١ ، وأورده ابن كثير فى البداية والنهاية ١٧٣/٣-١٧٧ ، وذكره ابن حجر فى الفتح مختصرا ٢٧٩/٧ ، وأشار إلى حسن اسناده فقال : وقد أخرج الحاكم وأبو نعيم والبيهقى فى الدلائل بأسناد حسن عن ابن عباس : حدثنى على بن أبى طالب ... وينظر السيرة الحلبية ١٥٥/٢-١٥٧ ، سبل الهدى والرشاد ٥٩٦/٢ .

أولاً : يتصور الملائكة المكذبون أن قبولهم لدين الله تعالى ، واتباعهم للرسول عليهم السلام فيه ذلة لهم ، ونقص في مكانتهم ، وإشراك للرسول عليهم السلام في الزعامة والسيادة ، وإدخال لهم في دائرة النفوذ وذوى الأتباع ، بل إن الاستجابة ستجعل منهم تابعين للرسول عليهم السلام ، بينما هم يرون أنفسهم زعماء وسادة متبوعين .
وهذا ما يرفضونه بشدة ، ويثيرون من أجله حول الرسول الشبهة ، ويكيدون له المكيدة .

ولننظر مثلاً في قول الله سبحانه وتعالى عن الملائكة من قوم نوح عليه السلام :

{فقال الملائكة الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم...} (١).

"أى يسودكم ويشرف عليكم بأن يكون متبوعاً ونحن له تبع" (٢). فهم يخافون من أن تنتشر دعوة نوح عليه السلام فتكون له سيادة وزعامة ، ويكون له أتباع ، بل سيكونون هم - لو آمنوا - أتباعاً للحق الذى يحمله نوح عليه السلام ، وهذا ما لا يرغبونه على كل حال .
والأمر نفسه يتكرر مع صالح عليه السلام :

{فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر . ألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر} (٣).

قال ابن كثير : "يقولون لقد خبنا وخسرنا ان سلمنا كلنا قيادنا لو احد منا" (٤).

ويقول القرطبي : "قوله تعالى {ألقى الذكر عليه من بيننا} أى خصص بالرسالة من بين آل ثمود وفيهم من هو أكثر مالا وأحسن حالا ، وهو

(١) سورة المؤمنون : من آية ٢٤

(٢) تفسير القرطبي ٨٠/١٢ ، وينظر تفسير البغوى ٣٠٧/٣ .

(٣) سورة القمر : آية ٢٤-٢٥

(٤) تفسير ابن كثير ٢٦٥/٤ .

استفهام معناه الإنكار {بل هو كذاب أشر} أى ليس كما يدعيه ، وإنما يريد أن يتعاضم ويلتمس التكبر علينا من غير استحقاق" (١).

وقال الرازى فى قولهم (أشر) : "استغنى وبطر وطلب الرياسة عليكم وأراد اتباعكم له" (٢).

فصالح عليه السلام - فى نظرهم - ليس من السادة ولامن الأكابر ، فكيف يعطون موافقتهم له لينال السيادة ويكون له الأتباع؟ بل ويشاركون هم فى هذا الاتباع؟

وعلى آثارهم يقتدى الملائم الكذوبون فى عهد موسى عليه السلام إذ يعلنون أنه ليس بالامكان إعطاء الفرصة لموسى وهارون عليهما السلام لينالا زعامة وسيادة ورياسة :

{قالوا أجبنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين} (٣).

والمراد بالكبرياء هنا العظمة والرياسة (٤).

فهم يعللون مكابرتهم للحق وجحودهم لما جاء به موسى عليه السلام بأمرين أحدهما خوفهم على الرياسة الدنيوية التى يحرصون على ثباتها ويجدون فى بقائها ، لأن "النبي إذا اعترف القوم بصدقه صارت مقاليد أمر أمته إليه فصار أكبر القوم" (٥).

وهذا - فى خطتهم - مالا يمكن أن يكون ، ولا بد من مجابته ، ولذا أعلن فرعون أمام موسى عليه السلام :

-
- (١) تفسير القرطبي ٩٠/١٧ .
 (٢) التفسير الكبير ٥١/٢٩ ، وينظر : تفسير البغوى ٢٦٢/٤ ، تفسير البحر المحيطة ١٨٠/٨ .
 (٣) سورة يونس عليه السلام : آية ٧٨
 (٤) ينظر تفسير ابن كثير ٤٢٦/٢ .
 (٥) التفسير الكبير ١٤٢/١٧ .

{قال أجتتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى . فلنأتينك بسحر مثله...}{(١)}.

"والمعنى جئت لتوهم الناس أنك جئت بآية توجب اتباعك والإيمان بك حتى تغلب على أرضنا وديارنا" (٢).

فمسألة النبوة والدعوة في نظر فرعون "تمهيد للاستيلاء على الحكم والأرض" (٣).

وفي عهد رسولنا صلى الله عليه وسلم أيضا يرى الكبراء المكذبون في شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم من ينافسهم أمر الرياسة والزعامة، ولذلك يرفضون الاستجابة للحق الذى يحمله عليه الصلاة والسلام .

يقول سيد قطب وهو يتحدث عن أسباب الاصطدام بين دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش وأوضاعها :

"كانت هناك الاعتبارات الاجتماعية التى دعت بعضهم أن يقول كما حكى عنهم القرآن الكريم :

{.. لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم}{(٤)}.

والقريتان هما مكة والطائف ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع شرف نسبه ، وأنه فى الذؤابة (٥) من قريش لم تكن له مشيخة فيهم ولارياسة قبل البعثة بينما كان هناك مشيخة قريش ومشيخة ثقيف وغيرهما فى بيئة تجعل للمشيخة والرياسة القبلية كل الاعتبار فلم يكن من السهل

(١) سورة طه : من الآيات ٥٧-٥٨

(٢) تفسير القرطبي ١١/١٤٢ .

(٣) فى ظلال القرآن ٤/٢٣٤٠ .

(٤) سورة الزخرف : من آية ٣١

(٥) أى من أهل الشرف فيها ، والذؤابة فى الأصل هى الشعر المصفور من شعر الرأس ، وذؤابة الجبل أعلاه ، ثم استعير للعز والشرف والمرتبة . ينظر النهاية فى غريب الحديث ٢/١٥١ .

الانقياد خلف محمد صلى الله عليه وسلم من هؤلاء المشيخة" (١).

ولذا تواصلوا فيما بينهم بالوقوف موقف التكذيب والإصرار على
الوضع القائم حتى لاتضيع المكانة والزعامة :

{وانطلق الملاء منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء
يراد} (٢).

"أى إن هذا القول الذى يقول محمد ويدعونا إليه من قول لا إله إلا
الله شيء يريد مننا محمد يطلب به الاستعلاء علينا وأن نكون له فيه أتباعا
ولسنا مجيبه إلى ذلك" (٣).

فهى "كلمة تحذير . أى إنما يريد محمد بما يقول الانقياد له ليعلو علينا
ونكون له أتباعا فيتحكم فينا بما يريد فاحذروا أن تطيعوه" (٤).

وهكذا نجد الواحد من الملاء المكذبين يعتبر الدعوة الصادقة و"النصح
الخالص افتياتا" (٥) على سلطانه ونقصا من نفوذه ومشاركة له فى النفوذ
والسلطان" (٦).

ويحسن هنا أن أذكر أن من الأكابر فى عهده عليه الصلاة والسلام من
جعل الزعامة والسيادة - لشدة حرصه عليها - هى القضية التى يساوم عليها
فى مسألة الدخول فى الدين والاستجابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .
ومن هؤلاء عامر بن الطفيل (٧) :

فعن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث خاله ،

(١) فى ظلال القرآن ٣٦٥٢/٦ .

(٢) سورة ص : آية ٦

(٣) تفسير الطبرى ١٢٦/٢٣ .

(٤) تفسير القرطبي ١٠٠/١٥ .

(٥) "يقال لكل من أحدث شيئا فى أمرك دونك : قد افتات عليك فيه" . لسان العرب

٣٤٨١/٥ .

(٦) فى ظلال القرآن ٣٠٨٠/٥ .

(٧) عامر بن الطفيل : بضم الطاء وفتح الفاء . المغنى ص ١٥٨ .

أخا لأُم سَلِيم ، في سبعين راكبا^(١) ، وكان رئيس المشركين عامر بن الطفيل خير^(٢) بين ثلاث خصال فقال : يكون لك أهل السَّهْل ولى أهل المدَر^(٣) ، أو أكون خليفتك ، أو أغزوك بأهل غطفان بألف وألف ؟ ... " (٤) .
ومنهم مسيلمة الكذاب^(٥) .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قدم مسيلمة الكذاب على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن جعل لى محمد الأمر^(٦) من بعده تبعته ، وقدمها^(٧) فى بشر كثير من قومه ، فأقبل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه ثابت بن قيس بن شماس ، وفى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعة جريد ، حتى وقف على مسيلمة فى أصحابه ، فقال : " لو سألتنى هذه القطعة ما أعطيتكها ، ولن تعدو أمر الله فىك ، ولئن أدبرت ليعقرنك^(٨) الله ... " (٩) .

وفى رواية : " ... فوقف عليه فكلمه ، فقال له مسيلمة : إن شئت خلىنا بينك وبين الأمر ثم جعلته لنا بعدك ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم " لو سألتنى هذا القضيب ما أعطيتك ... " (١٠) .

(١) ستأقى قصتهم ان شاء الله تعالى .

(٢) أى خير النبى صلى الله عليه وسلم حين أتاه . ينظر فتح البارى ٤٩٢/٧ .

(٣) أى المدن والبلاد ، جمع مدرة . ينظر : النهاية فى غريب الحديث ٣٠٩/٤ ، لسان العرب ٤١٥٩/٦ .

(٤) الحديث رواه البخارى فى كتاب المغازى ، باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان وبئر معونة ١٥٠١/٤ .

(٥) مسيلمة بن ثمامة ، من بنى حنيفة ، وكان يقال له رحمان اليمامة لعظم قدره فيهم ينظر فتح البارى ١١٢/٨ .

(٦) "أى الخلافة" . فتح البارى ١١٢/٨ .

(٧) أى المدينة .

(٨) أى ان خالفت الحق وأدبرت عن طاعتي أهلكك الله تعالى . ينظر : فتح البارى ١١٣/٨ ، شرح النووى على صحيح مسلم ٣٣/١٥ .

(٩) الحديث رواه البخارى فى كتاب المغازى ، باب وفد بنى حنيفة ١٥٩٠/٤ ، ومسلم فى كتاب الرؤيا ٣٣/١٥ .

(١٠) صحيح البخارى ، كتاب المغازى ، باب قصة الأسود العنسى ١٥٩٢-١٥٩١/٤ .

فمسألة السيادة والرياسة عند هؤلاء وأمثالهم هي الأساس الذي يقيمون عليه موافقتهم أو مخالفتهم للرسول عليه الصلاة والسلام ، ومنه ينطلقون في تحديد موقفهم من قضية النبوة والرسالة ، بعيدا عن النظر والتأمل فيما تحمله الدعوة نفسها من العقائد والمبادئ والأفكار .

وكذلك فإن من أولئك الملأ في عهده عليه الصلاة والسلام من كان يصرح أحيانا باقتناعه بصدق رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ويشنى عليه وعلى دعوته ، ومع ذلك يبقى على كفره ، ويرفض الاستجابة للدعوة خوفا على المنصب أن يفقده ، أو الرياسة أن يحرم منها .

كان من أولئك هرقل عظيم الروم ، فقد قال لأبي سفيان - بعد حوار طويل حول شخصية رسول الله عليه الصلاة والسلام ودعوته :

"إن يك ما تقول فيه حقا فإنه نبي ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أك أظنه منكم ، ولو أني أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ، وليبلغن ملكه ماتحت قدمي" (١) .

هذه الكلمات من هرقل تفيض بالثناء على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتؤكد الصدق في نبوته ، إلا أن هرقل لم يخط بعد تلك الكلمات خطوة نحو الإسلام ، إذ غلبت في نفسه نوازع الحرص على المنصب وشهوة الرياسة ، وخصوصا حين تأكد له أن من حوله من ذوى النفوذ يعارضون السير في هذا الاتجاه .

ففي رواية البخارى : "فدعا هرقل عظماء الروم فجمعهم في دار له ، فقال : يامعشر الروم ، هل لكم في الفلاح والرشد آخر الأبد ، وأن يثبت لكم ملككم؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش (٢) إلى الأبواب ، فوجدوها قد

(١) الحديث رواه البخارى في كتاب التفسير ، باب إقل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله { ١٦٥٧-١٦٥٩ } ، ومسلم في كتاب الجهاد ، باب كتب النبي صلى الله عليه وسلم ١٢/١٠٣-١١١ .

(٢) حاصوا : "أى نفروا ، وشبههم بالوحوش لأن نفرتها أشد من نفرة البهائم الإنسانية" . فتح البارى ١/٥٩ .

غلقت ، فقال : علىَّ بهم ، فدعا بهم فقال : إني إنما اختبرت شدتكم على دينكم فقد رأيت منكم الذى أحببت ، فسجدوا له ورضوا عنه "(١).

والغرض من إيراد الخبر هنا ملاحظة الحاجز الذى منع هرقل من الاستجابة لدين الله تعالى ، وماذا كان إلا خشيته على الملك أن يسلب منه ، والزعامة أن يفقدها كما قال النووى : "إنما شح فى الملك ورغب فى الرياسة فأثرها على الإسلام"(٢).

ومن أولئك أيضا أبو حارثة بن علقمة أحد زعماء نصارى نجران وأكابر أساقفتهم .

قال ابن إسحاق : "قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نصارى نجران ، ستون راكبا ، فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم ، وفى الأربعة عشر منهم ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم : العاقب ، أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم والذى لا يصدرون إلا عن رأيه ، واسمه عبد المسيح ، والسيد ، ثمّالهم (٣) وصاحب رحلهم ومجتمعهم ، واسمه الأيهم ، وأبو حارثة بن علقمة ، أحد بنى بكر بن وائل ، أسقفهم (٤) وحرهم وإمامهم وصاحب مدراسهم (٥).

وكان أبو حارثة قد شرف فيهم ، ودرس كتبهم ، حتى حسن علمه فى دينهم ، فكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه ومولوه وأخدموه

(١) صحيح البخارى ، كتاب التفسير ، باب {قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء} . ١٦٥٩/٤ .

(٢) شرح النووى على صحيح مسلم ١٠٧/١٢ .

(٣) بكسر الشاء : الذى يقوم بأمرهم ويشرف على شؤونهم . ينظر ترتيب القاموس المحيط ٤١٩/١ .

(٤) الأسقف : بضم الهمزة وسكون السين وضم القاف وتشديد الفاء عالم رئيس من علماء النصارى ورؤسائهم ، فهى إحدى مراتب الرياسة الدينية عند النصارى : فوق القسيس ودون المطران . ينظر : النهاية فى غريب الحديث ٣٧٩/٢ ، ترتيب القاموس المحيط ٥٨١/٢ .

(٥) المدراس : البيت الذى يدرسون فيه ، ويطلق كذلك على صاحب دراسة كتبهم . ينظر : النهاية فى غريب الحديث ١١٣/٢ ، فتح البارى ٣٩٣/١٢ .

وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات ، لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم .

فلما وجهوا^(١) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من نجران جلس أبو حارثة على بغلة له موجهة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى جنبه أخ له يقال له : كُوز بن علقمة^(٢) ، فعثرت بغلة أبي حارثة ، فقال كوز : تعس الأبعد ، يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له أبو حارثة : بل أنت تعست ، فقال : ولم يا أخي ؟ قال : والله إنه للنبي الذي كنا ننتظره فقال له كوز : ما يمنعك منه وأنت تعلم هذا ؟ قال : ما صنع بنا هؤلاء القوم ، شرفونا ومولونا وأكرمونا ، وقد أبوا إلا خلافه^(٣) ، فلو فعلت نزعوا منا كل ماترى ، فأضمر عليها منه أخوه كُوز بن علقمة ، حتى أسلم بعد ذلك فهو كان يحدث عنه هذا الحديث فيما بلغني^(٤) .

فالحاجز الذي حال بين أبي حارثة وبين الاستجابة لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم - مع تصريحه بصحة نبوته عليه الصلاة والسلام - هو الخوف على المكانة التي هيأها له ملوك الروم من أن تنتزع منه ، فيضيع عليه الشرف ، وتزول عنه السيادة والمنصب والزعامة .

لم ينفرد أبو حارثة - وهو صاحب الرياسة الدينية - بهذا المنهج وحده فقد شاركه الكثيرون من أئمة اليهود ورهبان^(٥) النصراني^(٦) السير في هذا

(١) المعنى : توجهوا ، أو ولوا وجوههم . ينظر لسان العرب ٤٧٧٦/٦ .

(٢) كوز : بضم الكاف وسكون الواو . ينظر : المؤلف والمختلف ١٩٨٣/٤ ، تلخيص المتشابه ٧٨٠/٢ .

(٣) يعنى مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ١٧٩/٢-١٨٠ ، وينظر : دلائل النبوة للبيهقي ٣٨٢/٥-٣٨٣ ، البداية والنهاية ٦٧/٥-٦٨ ، زاد المعاد ٦٢٩/٣-٦٣٠ ، تفسير ابن كثير ٣٦٨/١ ، الإصابة ٥٨٥/٥ .

(٥) أى علماء اليهود ، جمع حبر بكسر الحاء وفتحها . ينظر لسان العرب ٧٤٩/٢ .

(٦) أى عباد النصراني ، جمع راهب ، وهو المتعبد . ينظر لسان العرب ١٧٤٨/٣ .

الاتجاه متناقضين مع ماتستيقنه نفوسهم من صدق رسول الله عليه الصلاة والسلام وصحة رسالته .

وماذاك منهم إلا خوف على مناصبهم الدينية ، ومكانتهم الاجتماعية بين عامتهم ، ومايجبونه بناء على تلك الرياسة من الأموال ، ومايحوزونه من الشهوات .

يقول الله جل وعلا :

{ياأيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ...} (١).

{وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وماهو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وماهو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون} (٢).

{فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مايكسبون} (٣).

ويقول سبحانه وتعالى :

{إن الذين يكتُمون ماأنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ماياكلون فى بطونهم إلا النار ولايكلمهم الله يوم القيامة ولايزكيهم ولهم عذاب أليم} (٤).

قال البغوى : "نزلت فى رؤساء اليهود وعلمائهم ، كانوا يصيبون من سفلتهم (٥) الهدايا والمآكل ، وكانوا يرجون أن يكون النبى المبعوث منهم ولما بعث محمد صلى الله عليه وسلم من غيرهم خافوا ذهاب مآكلهم وزوال

(١) سورة التوبة : من آية ٣٤

(٢) سورة آل عمران : آية ٧٨

(٣) سورة البقرة : آية ٧٩

(٤) سورة البقرة : آية ١٧٤

(٥) السفلة : عوام الناس وغوغاؤهم ، ويقابلهم العلية من القوم . ينظر لسان العرب

رياستهم ، فعمدوا إلى صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فغيروها" (١).
 ثانيا : يعلم المكذبون للرسول عليهم السلام من ذوى الرياسة وأصحاب
 السلطة أن سيادتهم ورياستهم إنما تقوم على أساس باطل ، وأن زعامتهم
 وسلطانهم إنما يعتمد على أصل هش مهترى ، ومن ثم فإنهم يخشون من
 دعوة الرسول عليهم السلام أن تعيد الحق إلى نصابه (٢) ، وتزهق به الباطل
 الذى به ينتشثون ، فتساقط زعاماتهم ، وينتهى سلطانهم ، وتزول سيادتهم .
 وأيضا فإن استعبادهم للناس ، وتحكمهم فيهم ، وخضوع الأتباع لهم
 فيما يخللون ويحرمون سواء كانوا أصحاب رياسة دنيوية كفرعون وأمثاله أو
 أصحاب رياسة دينية كالأخبار والرهبان الذين حكى الله عز وجل
 استعبادهم للعامة ، وعبادة الأتباع لهم ، فى قوله تبارك وتعالى :
 {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ...} (٣).

كل ذلك التحكم والاستعباد لن يكون له بقاء إذا انتشرت دعوة
 الرسول عليهم السلام والتي تعلن أول ماتعلن أن العبودية فى الأرض هى
 لله وحده دون سواه ، وأن أول توجيهات الدعوة :
 {اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ...} (٤).

وهذا بطبيعة الحال يجيف الملاء المكذبين ، والكبراء المعاندين ، لأنه
 يفسد عليهم جبروتهم وطغيانهم واستعبادهم للبشر ، ويضيع عليهم ما حققوه
 من مكاسب - حسب تصورهم - يتيح لهم أن يخللوا ما حرم الله فيحله
 الناس ، ويحرموا ما أحل الله فيحرمه الناس ، وأن يشرعوا فيجدوا الاتباع ،
 ويأمروا فيجدوا الامتثال دون ضوابط أو قيود .

(١) تفسير البغوى ١٤١/١ ، وينظر : تفسير ابن كثير ٢٠٦/١ ، زاد المسير ١٥٨/١ ،

لباب النقول للسيوطى ، ط/١ ، ١٩٧٨م ، دار إحياء العلوم ص ٣٢ .

(٢) "النصاب : الأصل والمرجع ... ونصاب كل شىء أصله" . لسان العرب ٤٤٣٧/٦ .

(٣) سورة التوبة : آية ٣١

(٤) سورة الأعراف : آية ٥٩

وبالتالى فهم يعتبرون دعوة الرسل عليهم السلام خطرا يتهدد زعامتهم وسلطانهم ووجودهم .

قال فى الظلال : "والملاّ آخر من يؤمن بدعوة تجردهم من السلطان فى الأرض وترده إلى إله واحد هو رب العالمين" (١).

إن الملاّ المكذبين يرون فى كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) أو ما يتضمن معناها من الكلمات خطرا على المكانة التى يتبؤونها ، والقداسة التى يحيطون أنفسهم بها ، لهم الأمر والنهى ، والطاعة والخضوع ، قرارهم صائب لا خطأ فيه ، وتصرفهم هو الحق الذى لامرية فيه ، لا ترد لهم كلمة ، ولا يناقش لهم رأى .

ذلك أنهم يدركون معنى كلمة التوحيد ، وأنها ترد العبودية فتجعلها لله وحده ، وترد التحليل والتحرير فتجعله لله سبحانه وحده ، وترد الطاعة المطلقة والخضوع والتسليم فتجعله لله سبحانه وحده ، وترفض الآلهة المزعومة التى تعبد فى الأرض كلها ، وتفرد الله جل شأنه بالألوهية والعبادة ، والتوجه والخضوع . وهذا ما جعل الملاّ من قريش يقفون موقف الرفض لما طلب منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقولوا (لا إله إلا الله) .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : "لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش منهم أبو جهل فقالوا ياأبا طالب ، ابن أخيك يشتم آلهتنا ، يقول ويقول ، ويفعل ويفعل ، فأرسل إليه فأنهه ، قال : فأرسل إليه أبو طالب ، وكان قرب أبى طالب موضع رجل فخشى أبو جهل إن دخل النبى صلى الله عليه وسلم على عمه أن يكون أرق له عليه ، فوثب فجلس فى ذلك المجلس ، فلما دخل النبى صلى الله عليه وسلم لم يجد مجلسا إلا عند الباب فجلس ، فقال أبو طالب : يا ابن أخى ، إن قومك يشكونك ، يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول وتفعل وتفعل ، فقال : يا عم رانى

أريدهم على كلمة واحدة تدين لهم بها العرب ، وتؤدى إليهم بها العجم الجزية ، قالوا : وماهى ؟ نعم وأبيك عشرا . قال : (لا إله إلا الله) ، قال : فقاموا وهم ينفضون ثيابهم وهم يقولون : [أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب] (١) (٢) .

لقد كانوا يفهمون "أن شهادة أن لا إله إلا الله ثورة على الحاكمين بغير شرع الله" (٣) وأنها تحمل في طياتها الإلغاء لكل الآلهة المزيفة من دون الله سبحانه ، ولذا أحسوا بخطورة دعوته صلى الله عليه وسلم على مراكزهم الباطلة .

"إن الأرض لله ، والعباد لله ، فإذا ردت الحاكمية في أرض لله فقد خرج منها الطغاة الحاكمون بغير شرع الله ، أو خرج منها الأرباب المتألهون الذين يزاولون خصائص الألوهية بتعبيد الناس لشريعتهم وأمرهم وخرج منها المملأ الذين يوليهم الأرباب المناصب والوظائف الكبرى فيعبدون الناس لهذه الأرباب" (٤) .

"وما يمكن أن يسمح الطاغوت بإعلان كلمة لا إله إلا الله ، أو أن الله هو رب العالمين ، إلا حين تفقد هذه الكلمة مدلولها الحقيقى ، وتصبح مجرد كلمات لامدلول لها ، وهى فى مثل هذه الحالة لاتؤذيه لأنها لاتعنيه ، فأما حين تأخذ عصبية من الناس هذه الكلمات جدا بمدلولها الحقيقى فإن الطاغوت لا يطيق هذه العصبية" (٥) ، بل يحاربها ويحاربها بشدة ، وهذا ما فعله المملأ المستكبرون فى كل جيل ، ومع كل رسول من الرسل عليهم السلام . ومن أبرز الأمثلة على ذلك فى القصص القرآنى : فرعون لعنه الله ، والذى ادعى الألوهية كما سجل القرآن الكريم .

(١) سورة ص : آية ٥

(٢) سبق تخريجه ص ٨٥ ، واللفظ هنا لأحمد .

(٣) فى ظلال القرآن ١٣٤٨/٣ .

(٤) فى ظلال القرآن ١٣٤٨/٣ .

(٥) فى ظلال القرآن ١١٣١/٣ (مع اختصار يسير) .

{وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري ...} (١).

بل أعلن صراحة أنه الرب الأعلى مخاطباً بمقولته جموع الجماهير :
{فحشر فنادى ، فقال أنا ربكم الأعلى} (٢).

فهل يتصور من فرعون بعد ذلك وقد ادعى الربوبية والألوهية أن يوافق على دعوة يأتي بها نبي الله موسى عليه السلام ليعيد الحق إلى نصابه ، والعبودية إلى مستحقها وهو رب العالمين جل وعلا؟

إن ذلك - دون شك - يرهب فرعون ويخيفه ، حين يعلن موسى عليه السلام مصدر دعوته وحقيقتها :

{وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين} (٣).

"لم تغب على فرعون وملئه دلالة هذا الإعلان : إعلان ربوبية الله للعالمين ، لم يغب عنهم أن هذا الإعلان يحمل في طياته هدم ملك فرعون ، وقلب نظام حكمه ، وإنكار شرعيته ، وكشف عدوانه وطغيانه" (٤).

"إنه بمجرد أن قال موسى عليه السلام لفرعون {... يا فرعون إني رسول من رب العالمين . حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بنى إسرائيل} (٥) تبين مدلول هذه الدعوة إلى (رب العالمين) إنه رد السلطان كله إلى الله برد عبودية العالمين كلها إلى رب العالمين" (٦).

ولذا لم يستجب فرعون لدعوة الله سبحانه ، بل قرر مجابته وعدم السماح لها بأن تأخذ طريقها إلى الجماهير ، لأنه يعلم أن انتشار دعوة التوحيد معناه ضياع مركزه القائم على استعباد الناس ، وعلى تأليههم له من دون الله تعالى .

(١) سورة القصص : من آية ٣٨

(٢) سورة النازعات : آية ٢٣-٢٤

(٣) سورة الأعراف : آية ١٠٤

(٤) في ظلال القرآن ١٣٤٧/٣ .

(٥) سورة الأعراف : من الآيات ١٠٤-١٠٥

(٦) في ظلال القرآن ١٣٣٠/٣ .

وكذلك فعل الملأ من حوله ، والذين يرون استمرار مصالحهم ونفوذهم ، وضمان مراكزهم ومناصبهم ، هو في وأد هذه الدعوة ، والقضاء عليها ، وفي بقاء سلطان فرعون وجبروته وطغيانه ، يشرع للناس ما يشاء ، ويستعبدهم لما يريد .

وهكذا تعرض موسى عليه السلام لتلك المواجهة المستمرة التي تكشف عن "حقيقة المعركة بين دين الله كله ، ودين الجاهلية كلها ، وتبين كيف ينظر الطاغوت إلى هذا الدين ، وكيف يحس فيه الخطر على وجوده" (١) . وهكذا كان كل رسول من الرسل عليهم السلام يجد العداوة والمواجهة أول ما يجدها - في الغالب - من الملأ ذوى الجاه وأصحاب الرياسة لأن الدعوة - في نظرهم - تهدد رياستهم ، وتزعزع مكانتهم ، فيصيبهم الخوف والفزع من ضياع الزعامة ، وفقدان السيادة ، وزوال المنصب والجاه . يقول سيد قطب : "إنه ليست البيئة هي التي تنقص الملأ للتصديق ، إنه السلطان المهدد بالدينونة للرب الواحد ، إنها عقدة الحاكمية والسلطان ، إنها شهوة الملك العميقة في الإنسان ، إنه الشيطان الذى يقود الضالين من هذا الخطام" (٣) .

(١) في ظلال القرآن ٣/١٣٣٠ .

(٢) في ظلال القرآن ٣/١٣١٤ .

المطلب الثالث تأثير بعض الملأ على بعض

كثيرا ما يقع التأثير السلبي المتبادل داخل دائرة الملأ من الكافرين المعاندين ، وقد يحصل الضغط المعنوى أو المادى من أفراد منهم على آخرين بغية توحيد موقف العداء ، أو طريقة التعامل مع الرسل عليهم السلام . فأرباب الكفر من أصحاب النفوذ وذوى السيادة - فضلا عن التأثير على عامة الناس - يؤثر بعضهم على بعض ، ويتواصلون بالتكذيب والمواجهة ويتناصحون بالكيده والمجابهة . وإذا وجد من بعضهم ميل إلى الاستجابة للهدى تحرك أقرانه للضغط عليه وبذل المحاولات لإثناؤه عن التفكير فى الايمان ، أو التجاوب مع الرسول عليه السلام .

يقول الله تعالى عن القادة والأكابر المكذبين برسول الله صلى الله عليه وسلم :

{وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم...} (١).

أى استمروا على دينكم ، وسيروا على طريقتكم ، وداوموا على سيرتكم ، ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد (٢) . والآية الكريمة تبرز طبيعة التواصى بينهم على التكذيب ، والتناصح بالثبات على الباطل الذى يحيمونه ، ومجابهة الحق الذى يحمله الرسول عليه الصلاة والسلام .

وهذا فرعون لعنه الله يستخدم أسلوبا من أساليب التأثير على الملأ من حوله لما جاءهم موسى عليه السلام وأراهم الآيات البيّنات :

{فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين} (٣).

(١) سورة ص : من آية ٦

(٢) ينظر : تفسير ابن كثير ٢٧/٤ ، تفسير روح المعانى ١٦٦/٢٣ .

(٣) سورة الشعراء : آية ٣٢-٣٣

إذ خشى فرعون أن يؤثر في نفوس الملأ حوله ماشاهدوه من الحجة القاطعة والمعجزة البينة ، فأراد أن يشاغلهم عما ظهر من الحجة ، ويزيل ما يحتمل أن يبقى في نفوسهم من أثر أو اقتراب من الحق ، وأن يضغط عليهم بأسلوب هادىء مآكر ، فأظهر لهم أنهم جميعا أمام عدو مشترك ، وأنه فى أمس الحاجة إلى رأيهم وفكرهم ومشورتهم لمقاومة هذا الخطر المآحق بالجميع :

{قال للملأ حوله إن هذا لسآحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون (١) .}

"أى فما رأيكم؟ وما الذى أعمله؟ يظهر من نفسه : أنى متبع لرأيكم ومنقاد لقولكم . ومثل هذا الكلام يوجب جذب القلوب وانصرافها عن العدو" (٢) .

فأشاروا عليه بما يوافق هواه ، ويرضى غروره ، ورضخوا لتأثيره وأمره ، كما قال الله عز وجل عنهم :

{ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد} (٣) .

بل ويجاولون هم أيضا - فيما بعد - إغراء فرعون وتخريضه ، وتهيجه واستثارته ، ضد موسى عليه السلام ومن استجاب لدعوته من المؤمنين :

{وقال الملأ من قوم فرعون أئذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك ...} (٤) .

وفى قصة ثمود نلحظ كذلك التأثير السلبى والتواصى المتبادل بين أولئك الذين قرروا قتل نبى الله صالح عليه السلام ، فأفشل الله تعالى

(١) سورة الشعراء : آية ٣٤-٣٥

(٢) التفسير الكبير ١٣٢/٢٤ .

(٣) سورة هود عليه السلام : آية ٩٦-٩٧

(٤) سورة الأعراف : من آية ١٢٧

خطتهم ، ثم عقروا الناقة التي نهاهم الله سبحانه عن التعرض لها بسوء .
قال عز وجل :

{وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون . قالوا
تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ...} (١).

فقد أشار بعضهم على بعض أن يقدموا عهودهم على الاستمرار فيما
خططوا له من المكر بنبي الله صالح عليه السلام ، وأن يوثق كل منهم
عهده ويؤكد بالحلِف (٢).

وفي دائرة الملأ من قريش نجد أيضا صورا متعددة لهذا التأثير السلبي
بين الكبراء والأشراف ، أذكر بعضها فيما يأتي :

(١) جلس عتبة بن ربيعة - بعد تنسيق وتشاور مع أقرانه من سادة
قريش - إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعرض عليه أمورا ، وسمع
منه من كلام الله سبحانه آيات من أول سورة (فصلت) ولما قام عتبة مقبلا
على أصحابه في مجلس قريش قال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم
أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك
ياأبا الوليد؟ قال ورأى أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله
ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، يامعشر قريش ، أطيعوني واجعلوها بي
خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي
سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر
على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به ، قالوا :
سحرك والله ياأبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا

(١) سورة النمل : من آية ٤٨-٤٩

(٢) ينظر : تفسير البحر المحيط ٨٣/٧ ، تفسير البغوى ٤٢٣/٣ ، تفسير القاسمي

لكم" (١).

وفي رواية أخرى أن عتبة حين قام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعد إلى مجلس قريش وإنما رجع إلى أهله محتسبا عنهم "فقال أبو جهل : يامعشر قريش والله مانرى عتبة الا قد صبا إلى دين محمد ، وقد أعجبه طعامه ، وماذاك إلا من حاجة أصابته ، فانطلقوا بنا إليه ، فانطلقوا إليه ، فقال أبو جهل : والله ياعتبة ما حبسك عنا إلا أنك صوت إلى دين محمد وأعجبتك طعامه ، فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد ، فغضب عتبة وأقسم أن لا يكلم محمدا أبدا ، وقال : والله لقد علمتم أنى من أكثر قريش مالا ولكنى أتيتها وقصصت عليه القصة فأجابنى بشيء ، والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ، وقرأ السورة إلى قوله إفاًن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود^(٢) فأمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف ، وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب ، فخفت أن ينزل بكم العذاب" (٣).

(١) الخبر بطوله رواه ابن إسحاق قال : حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي : السيرة النبوية لابن هشام ٢٢٤/١-٢٢٥ ، والبيهقي في الدلائل من طريق ابن إسحاق به ، وفيه اختصار ٢٠٤/٢-٢٠٥ ، وذكر الألباني أنه حسن مرسل . ينظر فقه السيرة للغزالي ، ط/٢ ، ١٤٠٥هـ ، دار القلم ص ١٠٨ (الحاشية) ، وينظر : البداية والنهاية ٨٢/٣ ، تفسير ابن كثير ٩١/٤ ، سبل الهدى والرشاد ٤٤٧/٢-٤٥٠ .

(٢) سورة فصلت : آية ١٣

(٣) رواه البغوى في التفسير بسنده عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ١١٠/٤ ، وكذلك البيهقي في الدلائل ٢٠٢/٢-٢٠٤ ، وعبد بن حميد وأبو يعلى بنحوه كما في تفسير ابن كثير ٩٠/٤ ، قال الهيثمى في مجمع الزوائد : رواه أبو يعلى وفيه الأجلح الكندى : وثقه ابن معين وغيره ، وضعفه النسائى وغيره ، وبقيّة رجاله ثقات ١٦/٦-١٧ ، وقال الألباني : سنده حسن إن شاء الله . فقه السيرة للغزالي ص ١٠٨ (الحاشية) ، وينظر : البداية والنهاية ٨٠/٣-٨١ ، تفسير ابن كثير ٩٠/٤-٩١ .

لقد بهر عتبة بما سمع من كلام الله تعالى ، وأخذت تلك الآيات بلبه (١) ، وتأثر به فكره ، فقال مقال .
 لكن صناديد (٢) الكفر ما كانوا ليتزكوه ، فأقبلوا عليه يشدونهم ،
 إذ لا يريدون للأثر أن يصل إلى فؤاده ، ويستقر بقلبه ، فبدأت الكلمات تتوالى عليه تحمل في ثناياها الضغط المعنوي عليه ، لئلا يتحول التأثير إلى إيمان ، والتعاطف المعرفي إلى عقيدة واتباع : "سحرك والله ياأبا الوليد بلسانه" ، "إن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ..."
 وهم في كلماتهم يستزلون حميته ، ويستثيرون الكرامة والكبرياء في نفسه .

ونجح صناديد قريش في مهمتهم ، فقد كان قلب الرجل صخرا لم يلن لما وعاه عقله ، وتأثر به فكره ، واستيقنته نفسه ، فأقسم أن لا يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبدا ، فضلا عن أن يؤمن به ويتبعه .
 (٢) وعن ابن عباس رضى الله عنهما "أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه فقال : يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ، قال : لم؟ قال : ليعطوكه فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قبله (٣) ، قال : قد علمت قريش أنى من أكثرها مالا ، قال : فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له ، أو أنك كاره له ، قال : وماذا أقول فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار منى ، ولا أعلم برجز ولا بقصيدة منى ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقول شيئا من هذا ، والله إن لقوله الذى يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة (٤) ، وإنه لمثمر

(١) أى بعقله . ينظر ترتيب القاموس المحيط ١١٤/٤ .

(٢) أى عظمائهم ورؤسائهم وأشرفهم ، جمع صناديد . ينظر النهاية في غريب الحديث ٥٥/٣ .

(٣) بكسر القاف وفتح الباء : أى عنده . ينظر ترتيب القاموس المحيط ٥٥٥/٣ .

(٤) بضم الطاء ، وقد تفتح : أى رونقا وحسنا . ينظر النهاية في غريب الحديث

أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ومايعلى ، وإنه ليحطم ماتحته . قال : لايرضى عنك قومك حتى تقول فيه ، قال : فدعنى حتى أفكر ، فلما فكر قال هذا سحر يؤثر يآثره عن غيره ، فتزلت إذرنى ومن خلقت وحيدا^(١)"(٢) . إن هذا الخبر أيضا يؤكد أن الملائم المعاندين كانوا يبذلون جهودهم في الحيلولة بين علية القوم وبين الاقتراب من الحق أو التأثير به ومايمكن أن يتبع ذلك من الاستجابة الفعلية لدعوة الله تعالى ، ومايلحقه من احتمال تأثر الجماهير بمن يؤمن من أولئك العلية ، وتأسيهم وسلوكهم نفس السبيل . وذلك مايجشاه أمثال أبى جهل ، والذي قرر أن لايدع فرصة للوليد ابن المغيرة لمجرد التفكير والتأمل بعد أن رق لما جاء به رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فضلا عن الإقبال على الهدى والدخول في دين الله تبارك وتعالى .

وينتجه أبو جهل إلى الوليد ليؤثر فيه بأسلوب يحمل الدهاء والمكر إذ دخل عليه من الباب الذى يثير فيه الأنفة ، ويشعل فيه الكبرياء ، وينهزه^(٣) لندفع الاتهام عنه بما يرضى القوم ، ويصحح فكرتهم عنه ، وإن تناقض مع ماأدركه عقله ، ووصل اليه فهمه . ومازال به أبو جهل حتى حقق هدفه ، ونال بغيته ، فقد نطق الوليد كفرا ، واعتبر كلام الله تعالى سحرا .

(٣) وموقف ثالث لأبى جهل فى هذا الاتجاه يروى خبره عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فيقول : "... لما كان يوم بدر استنفر أبو جهل الناس

(١) سورة المدثر : آية ١١

(٢) رواه الحاكم فى المستدرک وقال : هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخارى ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى ٥٥٠/٢-٥٥١ ، والبيهقى فى الدلائل ١٩٨/٢-١٩٩ ، والواحدى فى أسباب النزول ص ٤٧٦ ، وابن جرير عن عكرمة مرسلا : تفسير الطبرى ١٥٦/٢٩ ، وأورده ابن كثير فى التفسير نقلا عن ابن جرير ٤٤٣/٤ ، وينظر البداية والنهاية ٧٨/٣ ، ولباب النقول ص ٢٢٤ .

(٣) أى يدفعه . ينظر ترتيب القاموس المحيط ٤٥٠/٤ .

قال : أدركوا غيركم ، فكره أمية أن يخرج ، فأتاه أبو جهل فقال : يا أبا صفوان ، إنك متى ما يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد أهل الوادي (١) ، تخلفوا معك ... " (٢) .

وفي رواية أخرى : "... إنك من أشرف الوادي فسر يوماً أو يومين" (٣) .

ولم يزل به أبو جهل حتى خرج معهم ، وكان فيها مقتله .
وأسلوب أبو جهل في هذا الموقف يتمثل في إغراء أمية بالثناء عليه ،
ووصفه بأنه السيد في قريش ، وأنه القدوة الذي تتأسى به الجماهير .

وكان لذلك الإغراء أثره في تحمس أمية للخروج .
(٤) وبطريقة أخرى يؤثر أبو جهل على زعماء قريش في طريقهم إلى بدر حين يعلن عزمه على المضى في المواجهة .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال :
"لما رأى أبو سفيان أنه أحرز غيره ، أرسل إلى قريش : إنكم إنما خرجتم لتمنعوا غيركم ورجالكم وأموالكم ، فقد نجها الله ، فارجعوا .
فقال أبو جهل بن هشام : والله لانرجع حتى نرد بدرًا - وكان بدر موسماً من مواسم العرب ، يجتمع لهم بها سوق كل عام - فنقيم عليه ثلاثاً ، وننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان (٤) وتسمع بنا العرب ، فلا يزالون يهابوننا أبداً ، فامضوا" (٥) .

-
- (١) أى (وادي مكة) . فتح الباري ٧/٣٦٠ .
(٢) الخبر بطوله رواه البخارى في كتاب المغازى ، باب ذكر النبي صلى الله عليه وسلم من يقتل ببدر ٤/١٤٥٣-١٤٥٤ .
(٣) صحيح البخارى ، كتاب المناقب ، باب علامات النبوة في الاسلام ٣/١٣٢٨-١٣٢٩ .
(٤) جمع قينة وهى المغنية من الاماء . ينظر النهاية في غريب الحديث ٤/١٣٥ .
(٥) رواه ابن جرير من طريق ابن إسحاق : تفسير الطبرى ١٠/١٦ ، والبيهقى في الدلائل من طريق ابن إسحاق عن عروة بن الزبير وغيره ضمن خبر بدر ٣/٣٣ ، وينظر : السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٢٨ ، البداية ٣/٣٢٤ ، تفسير ابن كثير ٢/٣١٤ ، زاد المعاد ٣/١٧٤ ، السيرة الحلبية ٢/٣٩٠ .

(٥) وقبيل الغزوة يفكر بعض الكبراء من قريش في العودة إلى مكة ، ويتشاورون في ذلك ، فيقف لهم أبو جهل يفند^(١) رأيهم ، ويصددهم عن فكرتهم ، ويحضهم على الاستمرار والاستعداد لمنازلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه رضوان الله عليهم .

كان صاحب الفكرة حَكِيم بن حِزَام ، والذي بادر بها إلى عتبة بن ربيعة وقال له : "يا أبا الوليد ، إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها ، هل لك إلى أن لاتزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر؟ قال : وما ذاك يا حَكِيم؟ قال : ترجع بالناس ، وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي قال : قد فعلت أنت عليّ بذلك ، إنما هو حليفى ، فعلىّ عقله^(٢) وما أصيب من ماله ، فأت ابن الحنظليّة^(٣) فإني لأخشى أن يشجر^(٤) أمر الناس غيره - يعنى أبا جهل بن هشام - ثم قام عتبة بن ربيعة خطيبا ، فقال : يامعشر قريش ، إنكم والله ماتصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا ، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه ، أو ابن خاله ، أو رجلا من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن أصابوه فذاك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك ألكم^(٥) ولم تعرضوا منه ماتريدون .

قال حَكِيم : فانطلقت حتى جئت أبا جهل ، فوجدته قد نثل^(٦) درعا له من جرابها فهو يهينها^(٧) ، فقلت له : يا أبا الحكم ، إن عتبة أرسلنى إليك

(١) أى يخطىء رأيهم . ينظر ترتيب القاموس المحيط ٥٢٥/٣ .

(٢) أى ديته . ينظر النهاية فى غريب الحديث ٢٧٨/٣ .

(٣) قال ابن هشام : الحنظلية أم أبى جهل ، وهى أسماء بنت مخزبة ، أحد بنى نهشل

ابن دارم بن مالك بن حنظلة" . السيرة النبوية لابن هشام ٢٣٢/٢ .

(٤) أى يفرق أمرهم ، ويوجد بينهم التنازع والاختلاف . ينظر لسان العرب

٢١٩٨/٤ .

(٥) أى وجدكم . ينظر ترتيب القاموس المحيط ١٥٩/٤ .

(٦) أى أخرج . ينظر لسان العرب ٤٣٤١/٦ .

(٧) قال ابن هشام : يهينها" . السيرة النبوية لابن هشام ٢٣٣/٢ .

بكذا وكذا ، للذى قال ، فقال : انتفخ والله سَحْرَه (١) حين رأى محمدا وأصحابه أكلة جزور (٢) ، وفيهم ابنه ، وقد تخوفكم عليه ، ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي فقال : هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت تارك بعينك ، فقم فانشد خَفَرَتَكَ (٣) ومقتل أخيك . فقام عامر بن الحضرمي فاكتشف ، ثم صرخ : واعمره واعمره ، فحميت الحرب ، وحقب (٤) أمر الناس ، واستوثقوا على ما هم عليه من الشر ، وأفسد على الناس الرأي الذى دعاهم إليه عتبة ... " (٥) .

وهكذا كان لأبى جهل دوره البالغ فى التأثير والضغط على أقرانه من الملة للاستمرار فى مواجهة الدعوة ، ومجابهة رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك عن طريق إثارة نوازع الحمية والعصبية والثأر ، والتقليل من قيمة الآراء الداعية إلى التانى والتفكير فى النتائج والعواقب ، واتهام أصحابها بالتخاذل والضعف والانهزام الذليل ، مع إثارة الجماهير فى الاتجاه الذى يريد ، فيضطر الآخرون إلى مجاراته ، والاستمرار فى الطريق الذى رسمه لهم ، خشية أن تصدق اتهاماته لهم أمام العامة ، فيفقدوا مراكزهم ومواقعهم وتضطرب سمعتهم ومكانتهم ، وهذا من أساليب أبى جهل الحبيشة الماكرة اتضحت فى هذا الموقف ، وتكررت فى مواقف أخرى كثيرة .

- (١) أى خاف وجبن ، والسحر بفتح السين : الرئة . ينظر النهاية فى غريب الحديث ٣٤٦/٢ .
- (٢) أى قليل عددهم . ينظر لسان العرب ١٠١/١ .
- (٣) "أى اطلب من قريش الوفاء بخفرتهم لك ، لأنه كان حليفا لهم وجارا ، يقال : خفرت الرجل خفرة إذا أجرته " . الروض الأنف ٤٥/٣ .
- (٤) "يقال حقب الأمر إذا اشتد وضقت فيه المسالك " . الروض الأنف ٤٥/٣ .
- (٥) السيرة النبوية لابن هشام ٢٣٢/٢-٢٣٣ ، وينظر : دلائل النبوة للبيهقى ٣/٦٥-٦٦ ، البداية ٣/٣٢٩-٣٣١ ، السيرة لابن حبان ص ١٦٨-١٧٠ ، زاد المعاد ٣/١٧٩ ، السيرة الحلبية ٢/٣٩٦-٣٩٧ ، وقد ورد خير الخلاف بين عتبة وأبى جهل يوم بدر ضمن حديث طويل رواه البيهقى عن على رضى الله عنه فى دلائل النبوة ٣/٦٢-٦٤ ، وكذلك أحمد والبخارى كما فى مجمع الزوائد ٦/٩٦-٩٨ ، قال الهيثمى : رجال أحمد رجال الصحيح غير حارثة بن مُضَرَّب وهو ثقة ، وقال أحمد شاكر : إسناده صحيح . المسند ٢/١٩٢ .

* وتجدر الإشارة إلى أن من الأشراف والسادة من تعاطف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنه مع ذلك امتنع عن الإسلام بتأثير من الاتجاه العام للملأ من حوله .

ومن هؤلاء أبو طالب ، فبالرغم من عطفه على ابن أخيه عليه الصلاة والسلام ، والقيام دونه حمية وعصبية ، إلا أنه فضل البقاء على ما عليه أهل مكة من الدين الباطل حتى وافته المنية ، وكان لبعض الملأ من قريش أثر في ذلك .

فعن سعيد بن المسيّب^(١) عن أبيه قال :

"لما حضرت أبا طالب الوفاة^(٢) جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فقال : أى عم قل لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله . فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعيدانه بتلك المقالة^(٣) حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم على ملة عبد المطلب^(٤) ، وأبى أن يقول لا إله إلا الله ..."^(٥) .
وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه : قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة . قال : لولا أن تعيرنى قريش يقولون إنما حملة على ذلك الجزع لأقررت بها عينك ..."^(٦) .

(١) المسيب : يضم الميم وفتح السين ، ويفتح الياء المشددة على المشهور ، وقيل بكسرها ينظر : تهذيب الأسماء ٢١٩/١ ، ٩٥/٢ ، المغنى ص ٢٣١ .

(٢) المراد قربت وفاته وحضرت دلائلها وذلك قبل المعاينة والتزع . شرح النووى على صحيح مسلم ٢١٤/١ .

(٣) "أبى ويعيدانه الى الكفر بتلك المقالة ، كأنه قال : كان قارب أن يقولها فيردانه . فتح البارى ٦٥١/٨ .

(٤) "خير مبتدأ محذوف : أى هو على ملة" . فتح البارى ٦٥١/٨ .

(٥) رواه البخارى فى كتاب التفسير ، باب {إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء} ١٧٨٨/٤-١٧٨٩ ، ومسلم فى كتاب الايمان ، باب الدليل على صحة الإسلام من حضره الموت مالم يشرع فى التزع ٢١٤/١ .

(٦) رواه مسلم فى كتاب الإيمان ، باب الدليل على صحة الإسلام من حضره الموت مالم يشرع فى التزع ٢١٦/١ .

ومن هؤلاء أيضا هرقل عظيم الروم ، والذي صرح بصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في نبوته ، وأظهر تعاطفه ، إذ قال لأبي سفيان رآثر حوار طويل :

"إن يك ماتقول فيه حقا فإنه نبي ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أك أظنه منكم ، ولو أنى أعلم أنى أخلص^(١) إليه لأحببت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ، وليبلغن ملكه ماتحت قدمي" ... " (٢).

ومع ذلك فقد آثر البقاء على الدين الباطل ، والمنهج الضال ، وكان لمن حوله من عظماء الروم دور في التأثير والضغط عليه حتى يرجع عن رأيه ويعود عن الفكرة التي راودته .

ففى صحيح البخارى أن هرقل أذن "لعظماء الروم فى دسكرة^(٣) له بجمص ، ثم أمر بأبوابها فغلقت ، ثم اطلع فقال : يامعشر الروم ، هل لكم فى الفلاح والرشد ، وأن يثبت ملككم ، فتبايعوا هذا النبى ؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب ، فوجدوها قد غلقت ، فلما رأى هرقل نفرتهم ، وأيس من الإيمان ، قال : ردوهم على" ، وقال : إني قلت مقالتي آفا أختبر بها شدتكم على دينكم ، فقد رأيت ، فسجدوا له ورضوا عنه ، فكان ذلك آخر شأن هرقل " (٤).

(١) "أخلص : بضم اللام : أى أصل ، يقال : خلص الى كذا : أى وصل" . فتح البارى ٥٠/١ .

(٢) الحديث بطوله رواه البخارى فى كتاب التفسير ، باب إقل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء { ٤/١٦٥٧-١٦٥٩ ، ومسلم فى كتاب الجهاد ، باب كتب النبى صلى الله عليه وسلم ١٢/١٠٣-١١١ .

(٣) بسكون السين : القصر الذى حوله بيوت . ينظر فتح البارى ٥٩/١ .

(٤) صحيح البخارى ، كتاب بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٠/١ .

ومما أوردته من النماذج والمواقف يتضح جليا التأثير السلبي المتبادل بين الملائم الكذبيين أنفسهم ، والتناصح والتواصي ، بل والضغط المادي والمعنوي أحيانا ، للسير في طريق التكذيب بالرسالات ، والوقوف موقف الحرب والعداء تجاه الرسل عليهم السلام .

المطلب الرابع الإصرار والعناد

الإصرار على الباطل طبيعة للملأ المكذبين المحاربين لدعوة الله سبحانه وتعالى ، ذلك أنهم على معرفة بالحق ، وعلم بصدق الداعى ، ويقين بصحة الدعوة ، ومع ذلك فهم يكفرون ويحاربون الرسل عليهم السلام ، فلم يبق إذن ما يمنعهم من الاستجابة للهدى إلا المكابرة والإصرار والعناد .

رأنه ليس الذى يجعلهم يعرضون عن آيات الله أن البرهان على صدقها ضعيف أو غامض ، أو تختلف فيه العقول ، إنما الذى يجعلهم يقفون هذا الموقف هو المكابرة الغليظة والعناد الصفيق ، وهو الإصرار مبدئيا على الرفض والإنكار وعدم اعتبار البرهان أو النظر اليه أصلا" (١).

ولذلك وصم الله تبارك وتعالى بهذا الوصف أشرف عاد وكبرائها الذين يتبعون فى الكفر والضلال ، ويقتدى بهم فى العداة للحق وأهله ، وذلك فى قوله سبحانه :

{وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد} (٢).

"والجبار المتكبر والعنيد الطاغى الذى لا يقبل الحق ولا يذعن له" (٣).
"وعند يعند بالكسر أى خالف ورد الحق وهو يعرفه" (٤).

هذه السمة للملأ المكذبين واضحة وظاهرة لمن يستعرض القصص فى القرآن الكريم .

ففى قصة نبي الله نوح عليه السلام يذكر الله سبحانه وتعالى شكوى نوح عليه السلام إلى ربه عز وجل :

(١) فى ظلال القرآن ١٠٣٦/٢ .

(٢) سورة هود عليه السلام : آية ٥٩

(٣) تفسير القرطبي ٣٧/٩ ، وينظر تفسير البحر المحيط ٢٣٥/٥ .

(٤) تفسير القرطبي ٤٨/١٩ ، وينظر معانى القرآن لأبى جعفر النحاس ٣٦٠/٣ .

{قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا . فلم يزدتهم دعائي إلا فرارا .
وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا
واستكبروا استكبارا}{(١)} .

فقد بين الله تبارك وتعالى أنهم (أصروا) أي "ثبتوا على ما هم عليه
من الكفر وأقاموا عليه" (٢) .

وفي ثنايا الآيات نلاحظ بعض الأمثلة لهذا الإصرار ، ومن ذلك الفرار
من سماع الحق ومن الاستجابة للهدى ، وسد الآذان احترازا من سماع
الدعوة ، بل واستغشاء الثياب وتغطية الوجوه بها لئلا يروا نوحا عليه
السلام ، أو جعلها على الرؤوس لئلا يسمعوها كلامه ، أو تنكروا منهم لئلا
يعرفهم نوح عليه السلام ، فيدعوهم إلى الحق والهدى ، أو ليعرفوه
اعراضهم عنه وعدم رغبتهم في الاستماع والتفكير فيما جاء به من الدعوة
إلى دين الله جل شأنه (٣) .

ولاشك أن كل ذلك هو بعض مظاهر الإصرار والعناد تجاه دعوة نوح
عليه السلام .

وحين يستعجل الملأ المكذبون في عاد عذاب الله تعالى فإنما يدفعهم إلى
ذلك أيضا الإصرار على الباطل ومعاودة الحق :

{قالوا أجبنا لنعبد الله وحده ونذر ماكان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا ان
كنت من الصادقين}{(٤)} .

كما كان الإصرار والعناد هو المحرك لهم إلى رفع عقيرتهم (٥) بالإعلان
عن استهتارهم بدعوة هود عليه السلام ، والجهر بأنه لاقيمة لكلامه في
ميزانهم ، فإن وعظهم أو سكت فالأمر لديهم سيان (٦) ، لا يغير من أوضاعهم

(١) سورة نوح : آية ٥-٧

(٢) تفسير الطبري ٩٢/٢٩ .

(٣) ينظر : تفسير ابن كثير ٤٢٥/٤ ، تفسير القرطبي ١٩٤/١٨ .

(٤) سورة الأعراف : آية ٧٠

(٥) رفع عقيرته : أي صوته . ينظر لسان العرب ٣٠٣٥/٤ .

(٦) أي سواء . ينظر لسان العرب ٢١٦٢/٣ .

شيئا ، ولا يبقى في نفوسهم أثرا :

{قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين} (١).

فهذه الموعظة من هود عليه السلام و"هذه التذكرة وهذا التخويف لا يصلان إلى تلك القلوب الجاسية الفظة الغليظة ، فإذا الإصرار والعناد والاستهتار {قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين} فما يعيننا أن تعظ أو لا تكون أصلا من الواعظين ، وهو تعبير فيه استهانة واستهتار وجفوة" (٢).

ونلاحظ الإصرار والتمرد والعناد كذلك في قولهم :

{.. ياهود ماجئتنا بينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين} (٣).

ونلاحظه أيضا في قول الملائم الكذابين لموسى عليه السلام :

{.. أجبثنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين} (٤).

{وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين} (٥).

"أى قد تقرر عندنا أنك ساحر فمهما جئت بآية جزمنا أنها سحر ، فلانؤمن لك ولا نصدق ، وهذا غاية مايكون من العناد ، أن يبلغ بالكافرين إلى أن تستوى عندهم الحالات ، سواء نزلت عليهم الآيات أم لم تنزل" (٦). ونلاحظه كذلك فى خطاب الملائم المستكبرين من قوم صالح عليه السلام لمن آمن بدعوته من المستضعفين :

(١) سورة الشعراء : آية ١٣٦

(٢) فى ظلال القرآن ٥/٢٦١٠ .

(٣) سورة هود عليه السلام : من آية ٥٣

(٤) سورة يونس عليه السلام : من آية ٧٨

(٥) سورة الأعراف : آية ١٣٢

(٦) تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان للشيوخ عبد الرحمن السعدى ،

{قال المأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم
أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون . قال الذين
استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون} (١).

إن هؤلاء جميعا يعلنون أنهم قد أصدروا قرارهم بعدم الإيمان مهما
كانت الحجج والبراهين ، وأنهم ثابتون على الكفر والضلال والعداء مهما
ظهر من دلائل الحق وموحيات الإيمان {فما نحن لك بمؤمنين} ، {وما نحن لك
بمؤمنين} ، {وما نحن لكما بمؤمنين} ، {إنا بالذى آمنتم به كافرون} .
فالأمر قد انتهى ، والقرار قد صدر ، ولأمل في الاستجابة للهدى ،
والاتباع للرسول ، وليكن بعد ذلك ما يكون .

وكبراء قريش في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يكيلون
الاتهامات له عليه الصلاة والسلام بأنه شاعر وكاهن وساحر ، وهم في حقيقة
الأمر يعلمون أن ذلك بعيد عن الواقع ، ولذلك "كانوا يراجعون أنفسهم
ويردون على هذه الشبهة بين الحين والحين" (٢).

ومع ذلك كله يدفعهم العناد والمكابرة ، والجحود والاصرار ، الى
المجاهرة بالاتهام لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع أنهم اذا خلوا
بأنفسهم كذبوا ما يتلفظون به ويدعون .

فهذا الوليد بن المغيرة يثنى على كلام الله تعالى ، حين طلب منه أبو
جهل على انفراد أن يقول في رسول الله عليه الصلاة والسلام وفيما جاء به
ما يثبت به كراهيته وإنكاره ، فكان جوابه :

".. وماذا أقول ، فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار منى ، ولا أعلم
برجز ولا بقصيدة منى ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقول شيئا من
هذا ، والله إن لقوله الذى يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر
أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو وما يعلى ، وإنه ليحطم ما تحته .." (٣).

(١) سورة الأعراف : آية ٧٥-٧٦

(٢) فى ظلال القرآن ٣٦٨٦/٦ .

(٣) جزء من خبر سبق تخريجه ص ١٠٦ .

إن هذا الثناء ، وهذه الشهادة ، لم تتجاوز المكان الذى قيلت فيه ، ولم يحولها الوليد إلى واقع ملموس يتمثل فى الإيمان بالله تعالى ، والاستجابة لنبيه عليه الصلاة والسلام ، بل غلب عليه العناد ومدافعة الحق مع العلم به ، ففكر فيما يمكن أن يقول ثم أصدر قراره باتهام كلام الله تعالى بأنه سحر يؤثر .

ومن ثمَّ نزل فى الوليد قرآن يتلى يسمه بالمعاندة لآيات الله جل وعلا:

{كلا إنه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صعودا . إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر} (١).

ولذا خاطب الله تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم مسلما له :
{قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون} (٢).

قال فى تفسير المنار : " روى عن أهل التفسير بالمأثور أن سبب نزول الآية أقوال خاصة من بعض رؤسائهم المستكبرين (٣) تنطبق على قوله فى تنمة الآية {فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون} أى فإنهم لا يجدونك كاذبا ولا يعتقدون أنك كذبت على الله فيما جئت به : وهم لم يجربوا عليك كذبا على أحد ، ولكنهم يجحدون بالآيات الدالة على صدقك بإنكارها بألسنتهم فقط كما جحد قوم فرعون من قبلهم بآيات الله .. " (٤).
ولذلك قال الله تعالى عنهم :

(١) سورة المدثر : آية ١٦-٢٥

قال ابن كثير فى التفسير : " وهذا المذكور فى هذا السياق هو الوليد بن المغيرة المخزومى أحد رؤساء قريش لعنه الله " . ٤٤٢/٤ .

(٢) سورة الأنعام : آية ٣٣

(٣) ينظر تفسير ابن كثير ١٢٩/٢ - ١٣٠ .

(٤) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ، ط/٢ ، دار المعرفة ٣٧٢/٧ .

{بل الذين كفروا فى عزة وشقاق} (١).
"أى ومخالفة له ومعاندة ومفارقة" (٢).

بل إنهم يعلنون له فى صراحة ووضوح - إمعانا فى العناد والإصرار -
أنهم مفارقون له مخالفون ، لاسبيل لهم إلى الإيمان ، ولا استعداد لديهم
للاستجابة ، وأن الثبات على الكفر والعداء هو مبدؤهم الذى لا يجيدون عنه
مهما بين لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومهما بذل من الجهد فى
إيراد البراهين .

يقول الله عز وجل عنهم :

{وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك
حجاب فاعمل إننا عاملون} (٣).

"قالوا : قلوبنا فى أغطية فلا تصل إليها كلماتك ، وفى آذاننا صمم
فلا تسمع دعوتك ، ومن بيننا وبينك حجاب فلا اتصال بيننا وبينك ، فدعنا
واعمل لنفسك فإننا عاملون لأنفسنا ، أو أنهم قالوا غير مبالين : نحن لانبالي
قولك وفعلك وإنذارك ووعيدك ، فإذا شئت فامض فى طريقك فإننا ماضون
فى طريقنا لانسمع لك ، وافعل ماأنت فاعل وهات وعيدك الذى تهددنا به
فإننا غير مبالين" (٤).

قال ابن الجوزى : "ومعنى الكلام : إنا فى ترك القبول منك بمزلة من
لا يسمع ولا يفهم" (٥).

وكان من مظاهر هذا العناد والتعنت لديهم سؤال الآيات وتقديم
الاقتراحات فهم مع معرفتهم لصدق نبى الله عليه الصلاة والسلام إلا أنهم
كانوا يسألون الآية تلو الآية ، ويقدمون له الاقتراح تلو الاقتراح ، وفى
القرآن الكريم نماذج كثيرة لذلك .

(١) سورة ص : آية ٢

(٢) تفسير ابن كثير ٢٦/٤ .

(٣) سورة فصلت : آية ٥

(٤) فى ظلال القرآن ٣١٠٨/٥ ، وينظر تفسير روح المعانى ٩٦/٢٤ .

(٥) زاد المسير ٥٤/٧ .

ومن الواضح "أن هذه الاقتراحات لم تكن طلبا للبرهان ، وإنما كانت وسيلة من وسائل الإعانة ، وأسلوبا من أساليب التعنت ، وخطة للمماحكة والمعاندة" (١).

ذلك أنه لو كان ما يهدفون إليه هو الدليل على صدق الرسول لوجدوا في شخصيته صلى الله عليه وسلم ما يكفيهم ، فقد كانوا يعرفونه حق المعرفة ، ويشهدون له بالصدق ، وهم القائلون له يوم أن جمعهم على الصفا فقال : "أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا نعم ، ماجربنا عليك إلا صدقا..." (٢).

ولما سأل هرقل أبا سفيان - قبل أن يسلم - هل كنتم تتهمونه - يعنى نبى الله صلى الله عليه وسلم - بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ كان جواب أبى سفيان بالنفى ، قال : لا (٣).

ومن كلمات عتبة بن ربيعة وهو يخاطب بعض أنداده من صناديد قريش : "... وقد علمت أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب ..." (٤).

ويعترف أبو جهل بهذه الحقيقة في مجالسه الخاصة فينطق بمثل قوله : "والله إنى لأعلم أنه نبي" (٥) ، "والله إن محمدا لصادق وما كذب محمد قط" (٦).

(١) في ظلال القرآن ١٠٤١/٢ .

(٢) الحديث رواه البخارى في كتاب التفسير ، باب {وأُنذِرُ عَشِيرَتِكَ الْأَقْرَبِينَ} ١٧٨٧/٤

ومسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان أن من مات على الكفر فهو في النار . ٨٣-٨٢/٣ .

(٣) من خبر هرقل الطويل ، وسبق تخريجه ص ٥٠ .

(٤) من خبر سبق تخريجه ص ١٠٤ .

(٥) الخبر رواه ابن أبى حاتم عن أبى يزيد المدنى كما في تفسير ابن كثير ١٢٩/٢ ، وتقديم ص ٨٤ .

(٦) من خبر رواه ابن جرير عن السُّدِّى : تفسير الطبرى ١٨١/٧-١٨٢ ، ونقله عنه

ابن كثير في التفسير ١٣٠/٢ ، وينظر : تفسير البغوى ٩٣/٢-٩٤ ، تفسير روح

المعانى ١٣٦/٧ ، أسباب النزول للواحدى ص ٢١١ .

كما كانوا يسمونه (الأمين) قبل بعثته عليه الصلاة والسلام (١). ولو كان غرضهم الذى يرومون بلوغه هو الدليل على صحة الرسالة لوجدوا فى القرآن برهانا قاطعا وحجة بينة على أنه رسول من عند الله سبحانه بما يحويه القرآن الكريم من إعجاز سواء فى أسلوبه وبيانه ، أو فى مضمونه وموضوعاته .

إن المسألة بعيدة عن طلب الدليل والرغبة فى البرهان ، وإنما هو العناد والمكابرة والإصرار وإصدار القرار بالتكذيب ثم البحث بعد ذلك عن المبررات لهذا الموقف السلبي ، وإلا فهم لن يقدموا على الاستجابة مهما ظهر لهم من دلائل الحق وبراهين الايمان .

والله جل وعلا يؤكد عنهم ذلك كما قال سبحانه :

{ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون} (٢).

{ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين} (٣).

{ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون} (٤).

{وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم} (٥).

{أقتربت الساعة وانشق القمر . وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر} (٦).

(١) ينظر السيرة النبوية لابن هشام ١٥٠، ١٤٠/١ .

(٢) سورة الأنعام : آية ١١١

(٣) سورة الأنعام : آية ٧

(٤) سورة الحجر : آية ١٤-١٥

(٥) سورة الطور : آية ٤٤

(٦) سورة القمر : آية ١-٢

﴿إن الذين كفروا وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم﴾ (١).

فهم ينازعون في الحق مهما ظهر لهم ، ويباهتون فيه مهما لاحت لهم أنوار حقائقه ، يؤزهم إلى ذلك العناد والمكابرة .

يقول صاحب الظلال : "إنهم يتخذون موقف الإعراض عنادا وإصراراً فليس الذى ينقصهم هو الآيات الداعية إلى الإيمان ، ولا العلامات الدالة على صدق الدعوة والداعية ، ولا البراهين الناطقة بما وراء الدعوة والداعية من ألوهية حقة هى التى يدعون إلى الإيمان بها والاستسلام لها .

ليس هذا هو الذى ينقصهم ، إنما ينقصهم الرغبة فى الاستجابة ، ويمسك بهم العناد والإصرار ، ويقعد بهم الإعراض عن النظر والتدبر" (٢) . إنها صورة متكررة للملأ المكذبين على مر التاريخ فى مواقفهم من الرسل عليهم السلام .

وتلك حقيقة يؤكدها القرآن الكريم .

قال تعالى :

﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قال أولو جنتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم . قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ (٣) .

أى "إنا ثابتون على دين آبائنا وإن جئتنا بما هو أهدى وأهدى" (٤) . فمهما جاءهم من البراهين ، ومهما علموا من الحق والهدى ، فعنادهم يمنع من الاستجابة ، وإصرارهم يدفعهم إلى الثبات على الباطل ، ومواجهة الحق ، والوقوف فى وجه الرسل عليهم السلام .

(١) سورة محمد صلى الله عليه وسلم : آية ٣٢

(٢) فى ظلال القرآن ١٠٣٦/٢ .

(٣) سورة الزخرف : آية ٢٣-٢٤

(٤) تفسير النسفى ٣١٠/٣ .

المطلب الخامس الجهل (١)

يراد بالجهل عدم الاعتقاد في وجود إله واحد مستحق وحده لأن يعبد
ويطاع أمره ، ويتبع شرعه ، وما ينتج عن ذلك من تصورات ومفاهيم .
وهو من السمات التي وسم بها الملأ المكذبون في بعض آيات القرآن
الكريم ، كقول الله تعالى على لسان نبيه نوح عليه السلام مخاطبا الملأ من
قومه :

{... ولكنى أراكم قوما تجهلون} (٢).

وعلى لسان هود عليه السلام :

{قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوما
تجهلون} (٣).

وعلى لسان لوط عليه السلام :

{.. بل أنتم قوم تجهلون} (٤).

ويوجه الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم :

{قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون} (٥).

فالأيات الكريمة وغيرها توضح أن الجهل كان أحد أسباب ضلالهم ،
وعدائهم للحق ، وإثارتهم للشبهات في وجه الرسل عليهم السلام .
والجهل في عموم هذه الآيات يشمل عدم معرفة الله جل وعلا المعرفة
الحقيقية ، وإدراك ما يجب له سبحانه ، وما يليق به ، وما يترتب عنه تبارك وتعالى
كما يشمل عدم العلم بصدق وعده تعالى وتحقيق وعيده ، وهو كذلك جهل
بعواقب الأمور ، واغترار بظواهر الدنيا ، كما أنه سوء في التصور ، ونقص

(١) قال في لسان العرب ٧١٣/١ (الجهل نقيض العلم ، والجهالة أن تفعل فعلا بغير العلم).

(٢) سورة هود عليه السلام : من آية ٢٩

(٣) سورة الأحقاف : آية ٢٣

(٤) سورة النمل : من آية ٥٥

(٥)

في العقول ، وضعف في الادراك ، وقصور في النظر والتأمل والتفكير ، كما يتضمن ما يصدر عنهم من السفه في اتهام الرسل عليهم السلام وانتقاص المؤمنين .

ولاشك أن ذلك متحقق في الملأ الذين جابهوا أنبياء الله عليهم السلام .

فالجهل هو الدافع لهم - مثلا - إلى إثارة الشبهة حول بشرية الرسل ، واعتبار ذلك مانعا يصدهم عن الإيمان ، في الوقت الذي يتجهون فيه إلى عبادة الحجر من دون الله تعالى ، فيرفضون أن تكون النبوة في بشر ، ولاغضاضة عندهم أن تكون الألوهية في حجر ، بل يمكن أن يعبد أحدهم اليوم حجرا ، ويستبدل غدا به غيره ، ومن ثم أصبح توحيد الله سبحانه - في تصورهم - ضلالا تجب محاربته ، وتلك قمة الجهل .

والجهل - كذلك - هو الدافع لهم إلى اعتبار الاستجابة من الضعفاء للدعوة حجة على بطلانها ، وهذا منهم سوء في التصور واختلال في الموازين فان المقياس الحقيقي في فضل الانسان وشرفه ليس هو المال والحسب ، وهم - من جهلهم - يجعلون الفقر والقلّة طعنا في مسألة الدين .

ولذلك لما جمع الملأ من قوم نوح عليه السلام هذه الاعتراضات كما قال تعالى :

{فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرامثنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين} (١).

كان الجواب من نوح عليه السلام متضمنا وصفهم بالجهل كما حكى القرآن :

{قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون . ويا قوم لأستلکم عليه ما لا إر

أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقو ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون^(١).

قال ابن جرير: "تجهلون الواجب عليكم من حق الله ، واللازم لكم من فرائضه ، ولذلك من جهلكم سألتهموني أن أطردهم الذين آمنوا بالله"^(٢). ويقول أبو السُّعود: "ولكنى أراكم قوما تجهلون" بكل ما ينبغي أن يعلم ، ويدخل فيه جهلهم بلقاء الله عز وجل ، وبمذلة المؤمنين عنده ، وباستيجاب طردهم لغضب الله ، وبركاكة رأيهم في التماس ذلك وتوقيف إيمانهم عليه أنفة من الانتظام معهم وزعما منهم أن الرذالة بالفقر والشرف بالغنى ، أو تتسافهون على المؤمنين بنسبتهم الى الحساسة ، وإيثار صيغة الفعل للدلالة على التجدد والاستمرار"^(٣).

ومن مظاهر الجهل استعجال العذاب كما قال المكذبون لهود عليه السلام ما حكاه القرآن :

{قالوا أجنثنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين}^(٤).

وهذا دلالة على ضعف الإدراك ، وسوء في التصور ، وخلط في الفهم حول حدود مهمة الرسل عليهم السلام ، فلا يعلمون أن وظيفتهم هي تبليغ دين الله سبحانه ، أما تحقق الوعيد ونزول العذاب فذلك أمر موكول إلى الله تعالى خارج عن مهمة الرسل عليهم السلام . ومن ثم أجابهم هود عليه السلام بما تضمن وصفهم بالجهل :

{قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوما تجهلون}^(٥).

(١) سورة هود عليه السلام : آية ٢٨-٢٩

(٢) تفسير الطبرى ٣٠/١٢ .

(٣) تفسير أبي السعود ٢٠٢/٤-٢٠٣ (مع تصرف يسير) ، وينظر تفسير البحر المحيط ٢١٨/٥ .

(٤) سورة الأحقاف : آية ٢٢

(٥) سورة الأحقاف : آية ٢٣

"أى لاتعقلون ولا تفهمون" (١). ومن ثمَّ تجهلون مواضع حظوظ أنفسكم فلا تعرفون ما عليها من المضرة بعبادة غير الله ، وفي استعجال عذابه" (٢).

وأيضاً فإن توالى الاقتراحات ، وطلب الآيات ، والذي تكرر من الملائكة المكذبين ، هو نتيجة لعوامل عدة منها الجهل بسنن الله تبارك وتعالى . قال الله عز وجل :

{ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون} (٣).

{وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون} (٤).

{وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون} (٥).

قال السَّعْدِيُّ : "فهم جهلهم وعدم علمهم يطلبون ما هو شر لهم من الآيات التي لو جاءتهم فلم يؤمنوا بها لعوجلوا بالعقاب ، كما هي سنة الله" (٦).

وهم يتشاءمون بالرسول عليهم السلام ، ومنشأ ذلك الجهل أيضاً . يقول الله سبحانه عن آل فرعون :

{فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون} (٧).

(١) تفسير ابن كثير ٤/١٦٠ .

(٢) تفسير الطبرى ٢٦/٢٥ .

(٣) سورة الأنعام : آية ١١١

(٤) سورة البقرة : آية ١١٨

(٥) سورة الأنعام : آية ٣٧

(٦) تيسير الكريم الرحمن ٢/١٩ ، وينظر تفسير الطبرى ٧/١٨٧ .

(٧) سورة الأعراف : آية ١٣١

فالأية تنفى عنهم العلم ، وتصفهم بالجهل بحقيقة المصائب ومصدرها
وسنة الله عز وجل فيها .

وهم كذلك يحتجون بمنهج الآباء والأجداد كما قال سبحانه :

{وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا
آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون}{(١)} .

وهو احتجاج قائم على الجهل ، فإن الحق لا يرفض لمجرد كون الناس
لم يعتادوه ، والباطل لا يتبع ويعتمد لكونه طريق الآباء ومنهجهم ، ولذا قال
الله عز وجل :

{وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو
كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون}{(٢)} .

إن هؤلاء المكذبين وهبهم الله جل وعلا وسائل التفكير والعلم
والإدراك ، ولكنهم لا يستعملونها فى الوصول إلى معرفة الله سبحانه وتعالى
المعرفة الحقيقية التى تثمر توحيده وعبادته ، ولا يستفيدون منها فى البحث
عن الحق وتدبره ، والتفكير فيما ينفعهم فى مآلهم وعاقبتهم ، والتأمل فى
آيات الله سبحانه ، وما جاءت به الرسل من الحجج والبراهين .
قال الله تعالى :

{... ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن
الآخرة هم غافلون}{(٣)} .

{ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم
أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك
هم الغافلون}{(٤)} .

(١) سورة الزخرف : آية ٢٣

(٢) سورة البقرة : آية ١٧٠

(٣) سورة الروم : من الآيات ٦-٧

(٤) سورة الأعراف : آية ١٧٩

المطلب السادس الحسد

لاشك أن الحسد^(١) كان أحد أهم العوامل التي دفعت بالملأ إلى التكذيب وإعلان العداوة ، والمبارزة بحرب الرسل عليهم السلام . ذلك أن أولئك الكبراء يشعرون بالمكانة التي نالها الرسل عليهم السلام ، فيغيظهم ذلك ، ويجرك في نفوسهم كوامن الحسد والغيرة ، أن ينفرد الرسول عنهم بهذه المتزلة العالية ، متزلة النبوة والرسالة ، فيعظم عليهم هذا الاختصاص ، وتجري على ألسنتهم عبارات التعجب والاستغراب من تميز الرسول عنهم بهذا الشرف والمكان .

يقول الله سبحانه حاكيا قول الملأ من ثمود عن نبيهم صالح عليه السلام :

{ألقى الذكر عليه من بيننا ...} (٢).

"أى خصص بالرسالة من بين آل ثمود ، وفيهم من هو أكثر مالا وأحسن حالا ، وهو استفهام معناه الإنكار" (٣).

وكذلك قال أمثالهم في قریش عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

{أنزل عليه الذكر من بيننا ...} (٤).

قال أبو حيان : "أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرافهم ويُنزل عليه الكتاب من بينهم ، وهذا الإنكار هو ناشئ عن حسد عظيم انطوت عليه صدورهم فنطقت به ألسنتهم" (٥).

(١) قال في لسان العرب ٨٦٨/٢ : "حَسَدُهُ يَحْسُدُهُ وَيَحْسُدُهُ حَسَدًا ، وَحَسَدُهُ : إِذَا تَمَنَّى أَنْ تَتَحَوَّلَ إِلَيْهِ نِعْمَتُهُ وَفَضِيلَتُهُ أَوْ يَسْلِبَهَا هُوَ" .

(٢) سورة القمر : من آية ٢٥

(٣) تفسير القرطبي ٩٠/١٧ .

(٤) سورة ص : من آية ٨

(٥) تفسير البحر المحيط ٣٨٥/٧ ، وينظر تفسير البياضوي ٣٠٧/٢-٣٠٨ .

إذ ليس من المعقول - في نظرهم - أن يذهب رسول الله عليه الصلاة والسلام بهذه المكانة وهذا الشرف ، وهم الكبراء والسادة والأشراف ، كما قال الله تبارك وتعالى عنهم :

{وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم} (١).

"ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذؤابة قريش ، ثم من ذؤابة بني هاشم ، وهم في العلية من العرب ، كما كان شخصه صلى الله عليه وسلم معروفا بسمو الخلق في بيئته قبل بعثته ، ولكنه لم يكن زعيم قبيلة ولا رئيس عشيرة ، في بيئة تعزز بمثل هذه القيم القبلية ، وهذا ما قصد إليه المعترضون بقول {لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم} (٢). والمراد بالقريتين كما قال المفسرون : مكة والطائف (٣).

وهكذا كان من الصعب على العلية في قريش أن يهضموا هذا الواقع الجديد ، وهم يرون نجم رسولنا عليه الصلاة والسلام يعلو ويزهر ، فغلا الحسد ، وتحرقت النفوس .

إن الوليد بن المغيرة ، وأبا جهل بن هشام ، وأمثالهما ، يؤلمهم أن تتجاوزهم هذه المتزلة فلا يكون لهم فيها نصيب ، ويغيظهم أن يختص نبي الله صلى الله عليه وسلم بأمر النبوة والرسالة ، فتتهيج قلوبهم كمدا وحسدا وحسرة .

ويتحول مافي النفوس إلى واقع ملموس يتمثل في العداء الجاد والحرب المعلنة للدعوة وأهلها ، بالرغم من قناعتهم بأن مسألة النبوة حق وصدق ، وأن رسولنا عليه الصلاة والسلام لا يكذب قط ، كما قال الله تبارك وتعالى :
{... فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون} (٤).

(١) سورة الزخرف : آية ٣١

(٢) في ظلال القرآن ٣١٨٦/٥ .

(٣) ينظر : تفسير الطبري ٦٥/٢٥ ، تفسير ابن كثير ١٢٦/٤ ، زاد المسير ٩٥/٧ .

(٤) سورة الأنعام : آية ٣٣

يقول ابن جرير في تفسير الآية : "إنهم لا يكذبونك علما ، بل يعلمون أنك صادق ، ولكنهم يكذبونك قولا : عنادا وحسدا" (١).

وكم صرح أبو جهل - في اللقاءات المغلقة - بما يجوس في نفسه من كوامن الحسد ، وما يتأجج في داخله من لوائح الغيظ .

روى ابن إسحاق أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق (٢) خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى من الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض : لاتعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا ، ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لاتعودوا على ذلك ثم تفرقوا . فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته ، فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ، ولا ما يراد بها ، فقال الأخنس : وأنا والذي حلفت به كذلك . قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ، فدخل عليه بيته ، فقال يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال : ماذا سمعت! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا

(١) تفسير الطبرى ١٨١/٧ .

(٢) الأخنس : بفتح الهمزة وسكون الحاء وفتح النون ، وشريق : بفتح الشين . المعنى

فأعطينا ، حتى إذا تجاذينا على الركب (١) ، وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك مثل هذا؟ والله لانؤمن به أبداً ولا نصدق " (٢) .

تلك صورة واضحة للأساس الذى يقوم عليه التكذيب والعداء لدى أى جهل وأمثاله من كبراء قريش ، وماذا لك إلا الحسد القاتل يمنعهم من الاستجابة للحق بعد ما عرفوه ، ويشيهم عن التصديق بالقرآن بعد أن تؤكد لهم بيانه وإعجازه .

وممن أودى بهم الحسد - أيضا - بنو يهود بصفة عامة ، ورؤسائهم وأحبارهم بصفة خاصة ، فقد كانوا على يقين من صدق نبي الله عليه الصلاة والسلام ، إذ التوراة تذكره لهم وتبشرهم به ، ومن ثمّ فلا شك لديهم فى هذه القضية ولاشبهة ، ولذا يقول الله عز وجل عنهم :

{الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون} (٣) .

بل كانوا يستنصرون بيعثته على أعدائهم من أهل الأوثان ، ويحذرونهم قدومه ، وأنهم معه سيلحقون بهم الهزيمة .

ومع ذلك كله فقد أعلنوا الكفر به عليه الصلاة والسلام ، لما شاهدوا النبوة قد أصبحت فى غيرهم ، وأن الرسالة تجاوزتهم ، فنهزم الحسد حينذاك على إعلان العداء والتكذيب ، وذلك قول الله عز وجل يفضحهم :

(١) قال ابن الأثير : "جذا على ركبته : أى جثا ، إلا أنه بالذال أدل على اللزوم والشبوت منه بالثاء" . النهاية ٢٥٣/١ .

(٢) رواه ابن إسحاق قال : حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أنه حدث أن أبا سفيان ... وساق الخبر . السيرة النبوية لابن هشام ٢٤٥/١-٢٤٦ ، والبيهقي فى الدلائل من طريق ابن إسحاق به ٢٠٦/٢-٢٠٧ ، وأورده ابن كثير فى البداية نقلا عن البيهقي ٨٢/٣-٨٣ ، وفى التفسير نقلا عن ابن إسحاق ٤٤/٣ ، ٢٩/٢-١٣٠ ، وينظر سبل الهدى والرشاد ٤٧٠/٢-٤٧١ ، الإصابة ٣٩/١ .

(٣) سورة البقرة : آية ١٤٦

{ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين . بثسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤوا بغضب على غضب وللکافرين عذاب مهين}{(١)}.

قال ابن كثير : "يقول تعالى : {ولما جاءهم} يعنى اليهود {كتاب من عند الله} وهو القرآن الذى أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم {مصدق لما معهم} يعنى من التوراة ، وقوله : {وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا} أى وكانوا قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم ، يقولون : إنه سيبعث نبى فى آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم" (٢).

فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أنكر الأحرار المعاندون نبوته ، وكفروا برسالته ، معلنين أن هذا الذى يدعى النبوة ليس هو من كانوا يقصدون ، ولاهو بالذى يعرفون ، فغيروا فى يومهم ماكانوا يثبتونه بالأمس القريب ، إذ تحركت كوامن الحسد فى الصدور فدفعتهم إلى الكفر الصريح :

{بثسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ...}{(٣)}.

والمراد بالبغي فى الآية : الحسد والتعدى (٤).

قال الزجاج : "معناه أنهم كفروا بغيا وعداوة للنبي صلى الله عليه وسلم لأنهم لم يشكوا فى نبوته صلى الله عليه وسلم وإنما حسدوه على ما أعطاه الله من الفضل" (٥).

(١) سورة البقرة : آية ٨٩-٩٠

(٢) تفسير ابن كثير ١/١٢٤ .

(٣) سورة البقرة : من آية ٩٠

(٤) ينظر : تفسير الطبرى ١/٤١٥ ، تفسير البغوى ١/٩٣ .

(٥) معانى القرآن للزجاج ١/١٧٣ .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : "أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به ، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل ، وبشر بن البراء بن معرور أخو بني سلمة : يامعشر يهود ، اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ونحن أهل شرك ، وتخبروننا أنه مبعوث وتصفونه لنا بصفته ، فقال سلام بن مشكم (١) أخو بني النضير : ماجاءنا بشيء نعرفه ، وماهو بالذى كنا نذكر لكم" (٢) .
وعنه أيضا قال : "كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤساء من أحبار يهود ، منهم عبد الله بن صوريا (٣) ، وكعب بن أسد ، فقال لهم : يامعشر يهود : اتقوا الله وأسلموا ، فوالله إنكم لتعلمون أن الذى جئتكم به لحق ، فقالوا مانعرف ذلك يا محمد ، وجحدوا ما عرفوا ، وأصروا على الكفر ... " (٤) .

وهذا عين الإصرار والجحود ، يدفعهم إليه الحسد الكامن فى الصدور . ومن الملأ فى يهود أيضا : حبي بن أخطب (٥) ، يسمع بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، فيذهب للقاءه ، وبعد عودته يصرح أن محمدا هو النبى المنتظر حقا ، وفى نفس اللحظة يعلن عداوته والكفر به ، وما يجمع النقيضين بهذا الشكل إلا الحسد والحقد .

فمن صافية بنت حبي رضى الله عنها قالت : "كنت أحب ولد أبى إليه وإلى عمى أبى ياسر ، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذانى دونه ، قالت : فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ونزل قباء فى بنى عمرو بن

(١) سلام : بتشديد اللام ، ومشكم : بكسر الميم على المشهور ، وحكى الضم والفتح . ينظر : المغنى ص ١٣٠ ، ٢٣٢ ، ٣٢٤ .

(٢) رواه ابن جرير : تفسير الطبرى ١/٤١٠-٤١١ ، وينظر : السيرة النبوية لابن هشام ٢/١٥٠-١٥١ ، تفسير ابن كثير ١/١٢٤ ، لباب النقول ص ٢١ ، السيرة الحلبية ٢/٣٢٠ .

(٣) صوريا : بضم الصاد وسكون الواو وكسر الراء . المغنى ص ١٥٢ .

(٤) رواه ابن جرير : تفسير الطبرى ٥/١٢٤ ، والبيهقى فى الدلائل ٢/٥٣٤ ، وينظر : السيرة النبوية لابن هشام ٢/١٦٦ ، لباب النقول ص ٧٠ .

(٥) حبي : بضم الحاء على المشهور وحكى كسرهما ، وأخطب : بفتح الهمزة وسكون الحاء وفتح الطاء . تهذيب الأسماء ١/١٧١-١٧٢ ، المغنى ص ١٨ .

عوف غدا عليه أبي حَيِّ بن أَخَطَب ، وعمى أبو ياسر بن أَخَطَب ، مَغَلِّسِينَ^(١) ، قالت : فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس ، قالت : فأتيا كَالَيْنَ^(٢) كسلانين ساقطين يمشان الهَوَيْنِي^(٣) ، قالت : فهششت إليهما كما كنت أصنع ، فوالله ما التفت إلي واحد منهما ، مع ما بهما من الغم ، قالت وسمعت عمى أبا ياسر وهو يقول لأبي حَيِّ بن أَخَطَب : أهو هو؟ قال : نعم والله ، قال : أتعرفه وتثبته؟ قال : نعم ، قال : فما في نفسك منه؟ قال عداوته والله ما بقيت"^(٤).

وفي هؤلاء وأمثالهم يقول الله عز وجل :

{أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله...}{^(٥).

قال ابن كثير : "يعنى بذلك حسدهم النبي صلى الله عليه وسلم على مارزقه الله من النبوة العظيمة ، ومنعهم من تصديقهم إياه حسدهم له لكونه من العرب وليس من بني إسرائيل"^(٦).
ويقول تعالى :

{ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق...}{^(٧).

"قال أبو العالية : {من بعد ما تبين لهم الحق} من بعد ما تبين أن محمدا رسول الله يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل فكفروا به حسدا وبغيا

(١) أى فى وقت الغَسِّ والغَسِّ : ظلمة آخر الليل . ينظر ترتيب القاموس المحيط ٤٠٩/٣ .

(٢) أى أصابهما الإعياء والتعب . ينظر لسان العرب ٣٩١٧/٥ .

(٣) أى فى تؤدة . ينظر لسان العرب ٤٧٢٥/٦ .

(٤) رواه ابن إسحاق : السيرة النبوية ١١٦/٢ ، والبيهقى فى الدلائل من طريق ابن إسحاق به ٥٣٣/٢ ، وينظر : البداية ٢٥٨/٣ ، السيرة الحلبية ٣١٤/٢ ، سبل الهدى والرشاد ٥٤٩/٣ .

(٥) سورة النساء : من آية ٥٤

(٦) تفسير ابن كثير ٥١٣/١ ، وينظر : تفسير الطبرى ١٣٨/٥-١٤٠ ، تفسير القاسمى ٢٣٨/٥ .

(٧) سورة البقرة : من آية ١٠٩

راذ كان من غيرهم ، وكذا قال قتادة والرَّبِيع بن أنس (١).

ويسير زعماء نجران من النصارى على نفس الطريق ، حين يؤكدون نبوته فيما بينهم ، وفي الوقت ذاته يرفضون الإيمان به والاستجابة له عليه الصلاة والسلام .

فعن حذيفة رضى الله عنه قال : "جاء العاقب والسيد صاحباً نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدان أن يلاعناه (٢) ، قال : فقال أحدهما لصاحبه : لاتفعل فوالله لئن كان نبيا فلاعننا لانفليح نحن ولاعقبنا من بعدنا ... " (٣).

وفي رواية ابن إسحاق .. ثم خلوا بالعاقب وكان ذا رأيهم ، فقالوا : يا عبد المسيح ماذا ترى؟ فقال : والله يامعشر النصارى لقد عرفتم أن محمداً نبي مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خير صاحبكم ، ولقد علمتم مالاعن قوم نبيا قط فبقى كبيرهم ، ولانبت صغيرهم ، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلـف دينكم ، والإقامة على ماأنتم عليه من القول في صاحبكم ، فوادعوا الرجل ثم انصرفوا إلى بلادكم ... " (٤).

وعاد القوم دون أن يأخذوا طريق الإسلام وقد استيقنوا صحته ، وشهدوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم صدق نبوته .
وفي مثل هؤلاء يقول الله سبحانه :

(١) تفسير ابن كثير ١/١٥٣ .

(٢) أى بياهلاه . ينظر فتح البارى ٨/١١٨ . والمباهلة فى قول الله سبحانه : { فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبنائكم ونساءنا ونسائكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين } آل عمران : آية ٦١ .

(٣) رواه البخارى فى كتاب المغازى ، باب قصة أهل نجران ٤/١٥٩٢ .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢/١٩١ ، وينظر تفسير ابن كثير ١/٣٦٨ .

{الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون} (١).

وممن أودى بهم الحسد - كذلك - عبد الله بن أبي سلول ،
والذى دخل في دين الله نفاقا ، وباطنه يمورا حسدا وغيظا وعداء للإسلام
وأهله .

ذلك أنه كان ذا شرف في قومه وسيادة ، وكان أهل المدينة من
الأوس والخزرج يستعدون لتتويجه ملكا عليهم ، فلما قدم رسول الله صلى
الله عليه وسلم المدينة ، شعر ابن أبي بأن الأوضاع حوله بدأت تتغير
وتختلف ، حين أخذ قومه يتجهون إلى الإسلام ، ويلتفون حول نبي الله
عليه الصلاة والسلام ، وأحس بأن ما كان ينتظره ويشتاق إليه من الملك
والزعامة قد فاته ، فامتلاً قلبه حينذاك حسدا لرسول الله صلى الله عليه
وسلم ، ومن ثم قرر أن يناصبه العداء ، وأن يسير في طريق الكيد للإسلام
وأهله .

ذلك مايؤكده سعد بن عبادة رضى الله عنه حين ذكر له رسول الله
صلى الله عليه وسلم ملاقاه من ابن أبي من غلظة في الجواب ، وذلك في
اللقاءات الأولى معه إثر وصول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة .
يقول سعد رضى الله عنه : "أى رسول الله بأبى أنت ، اعف عنه
واصفح ، فوالذى أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذى أنزل عليك
ولقد اصطلح أهل هذه البحرة (٢) على أن يتوجوه ويعصبوه بالعصا ، فلما

(١) سورة البقرة : آية ١٤٦

(٢) "هذا اللفظ يطلق على القرية وعلى البلد ، والمراد به هنا المدينة النبوية" . فتح
البارى ٢٩٤/٨ ، والمقصود أنهم "اتفقوا على أن يجعلوه ملكهم وكان من عادتهم
إذا ملكوا إنسانا أن يتوجوه ...". شرح النووى على صحيح مسلم ١٥٨/١٢ - ١٥٩ .

رد الله ذلك بالحق الذى أعطاك شَرِقاً (١) بذلك ، فذلك فعل به مارأيت " (٢) .
وهكذا كان الحسد عائقاً نفسياً حجز ابن أبى وأمثاله من أئمة الكفر عن
الاستجابة لدعوة الله جل وعلا ، فقرروا التكذيب بالرسالات ، ومواجهة
الرسل عليهم السلام .

-
- (١) شرق : بفتح الشين وكسر الراء : أى غص ، وهو كناية عن الحسد . ينظر فتح
البارى ٢٩٤/٨ .
- (٢) من حديث رواه البخارى فى كتاب الأدب ، باب كنية المشرك ٢٢٩٢/٥-٢٢٩٣ ،
ومسلم فى كتاب الجهاد ، باب مالقئ النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين
والمناققين ١٥٧/١٢-١٥٩ .

المطلب السابع التقليد

يقرر القرآن الكريم أن التقليد هو طريق المكذبين من الملائم المترفين ،
وذلك فى قول الله عز وجل :

{وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا
آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون} (١).

فالأية الكريمة تبين أن المترفين فى كل أمة من أمم الرسل عليهم
السلام كان من دواعيهم إلى الكفر والتكذيب سلوك مسلك التقليد ، واتباع
من سبق من الآباء ، دون نظر فى صحة المنهج ، أو تفكير فى سلامة الطريق
{إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون} .
"ومعنى (على أمة) على طريقة ومذهب ، قال أبو عبيد : هى الطريقة
والدين ، وبه قال قتادة وغيره" (٢).

فأقاموا بناء تكذيبهم وعداوتهم على محض التقليد بلا تدبر ، ومجرد
الاعتداء دون تأمل ، ومطلق الاتباع بلا تحييص ، كما قال الله عز وجل عن
هذا الصنف من الناس :

{وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا...} (٣).
{إنهم ألفوا آباءهم ضالين . فهم على آثارهم يهرعون} (٤).
{وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا
عليه آباءنا...} (٥).

-
- (١) سورة الزخرف : آية ٢٣
 - (٢) تفسير فتح القدير ٥٥١/٤ .
 - (٣) سورة لقمان : من آية ٢١
 - (٤) سورة الصافات : آية ٦٩-٧٠
 - (٥) سورة المائدة : من آية ١٠٤

{وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا...} (١).
إن هؤلاء ليسوا على استعداد للنظر في دعوة الرسل عليهم السلام ،
أو التأمل فيما جاؤوا به من الحجّة والبيّنة ، بعد أن قرروا عدم الخروج
من دائرة التقليد ، أو الانفكاك من أسر التعصب ، ومن ثمّ فإنّ قضية
الإيمان لا تهمهم ، مادام الحق في رأيهم هو ما جاءت به الآباء ، وما عداه هو
الباطل .

هذا الجمود والتعصب للمناهج الباطلة كان ديدن المكذّبين ، ففي كل
قصة من قصص الرسل عليهم السلام في القرآن الكريم نجد هذا الأسلوب
في رد دعوة الإيمان ، فيدفعون الحجج الظاهرة بمجرد التمسك بالتقليد العقيم .
ومن ذلك ما ذكره الله تعالى على لسان الملائكة من قوم نوح عليه السلام:
{... ماسمعنا بهذا في آباءنا الأولين} (٢).

وعلى لسان الملائكة من قوم هود عليه السلام :

{قالوا أجبنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا...} (٣).

وفي قصة صالح عليه السلام :

{قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد

آباؤنا...} (٤).

وفي قصة شعيب عليه السلام :

{قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا...} (٥).

وفي قصة إبراهيم عليه السلام :

-
- (١) سورة البقرة : من آية ١٧٠
(٢) سورة المؤمنون : من آية ٢٤
(٣) سورة الأعراف : من آية ٧٠
(٤) سورة هود عليه السلام : من آية ٦٢
(٥) سورة هود عليه السلام : من آية ٨٧

{قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون}{(١)}.

وفي قصة موسى عليه السلام :

{قالوا أجنثنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا ...}{(٢)}.

ومن خلال هذه الآيات الكريمة يتضح أن التقليد كان أحد أسباب ^{الانحراف} اتجاه الكفر والضلال والتكذيب ، ومقاومة ما جاء به الرسل عليهم السلام من الدعوة إلى الإيمان والتوحيد .

(١) سورة الشعراء : آية ٧٢-٧٤

(٢) سورة يونس عليه السلام : من آية ٧٨

المطلب الثامن الترف^(١) والإنهماك فى الشهوات

لا يكره الغنى فى المال ، ولا تستنكر السعة فى النعمة ، إذا ضبط الأمر بضوابط الشرع الإلهى ولم يخرج به الإنسان عن دائرة العبودية لله رب العالمين .

أما حين تبطر تلك النعمة ذويها ، وتغير السعة المادية من نفسيات أصحابها ومفاهيمهم ونظرتهم للحياة ، فيتحولون إلى مترفين قد أبطرتهم النعمة ، وأطغاهم المال ، وأثر على نفسياتهم الغنى والمتاع ، فأصابهم ذلك بالكبر والغطرسة والحيلاء ، ورى فيهم الانغماس فى الشهوات المحرمة بكل أشكالها ، واللذائذ الفاسدة بشتى مظاهرها ، دون اعتبار لأى ضوابط أو قيود.

حينئذ يصبح الترف بهذه الصورة ظاهرة مرضية ، ومعول هدم فى الأمة ، يوشك أن يقضى عليها ، ويأذن بانهيائها وزوالها ، وينذر بهلاكها واستحقاقها العقوبة الإلهية على اختلاف صورها .
تلك سنة الله تبارك وتعالى :

{وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً} (٢).

"أما المترفون فهم المتنعمون الذين أبطرتهم النعمة وسعة العيش" (٣).
والمعنى "أمرناهم بالطاعة فعصوا" (٤).

(١) الترف : التنعم . "والمترف : الذى قد أبطرتة النعمة وسعة العيش ، وأترفته النعمة أى أطغته" . و"المترف : المتنعم المتوسع فى ملاذ الدنيا وشهواتها" . لسان العرب ٤٢٩/١ .

(٢) سورة الإسراء : آية ١٦

(٣) زاد المسير ١٥/٥ .

(٤) تفسير البغوى ١٠٩/٣ ، وينظر تفسير الطبرى ٥٧/١٥ .

وفي قصص القرآن الكريم وصف الملأ من قوم هود عليه السلام بالترف ، وذلك في قول الله تعالى :

{وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ...} (١).

قال القرطبي : "أى وسعنا عليهم نعم الدنيا حتى بطروا" (٢).

فالآية الكريمة تبين أن من أسباب تكذيب هؤلاء الملأ وعداوتهم هو الترف فى الدنيا ، والانغماس فى الشهوات ، والانشغال بزخارف الحياة الفانية والتقلب فى متاعها ولذائذها الهابطة . ذلك أن المترفين أصحاب المال والنعمة إن لم يعمر قلوبهم الإيمان ، وحب الحق ، فانهم يكرهون بطبيعتهم دعوات الرسل عليهم السلام لأنها تحكم طريقهم بضوابط شرع الله سبحانه ، وتقيد شهواتهم ضمن دوائر محددة ، وهم لا يحبون ذلك ، ويجدون فيه العسر والضيق ، والتعكير على ما يرغبون من انطلاق دون ضوابط أو قيود . ومن ثم كانوا - فى الغالب - أول المكذبين كما ينطق بذلك قول الله سبحانه وتعالى :

{وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون} (٣)

قال النسفى : "إلا قال {متنعموها ، وهم الذين أترفتمهم النعمة ، أى أبطرتهم ، فلا يحبون إلا الشهوات والملاهى ، ويعافون مشاق الدين وتكاليفه" (٤).

وقال الألوسى : "وتخصيص المترفين بالتكذيب لأنهم فى الأغلب أول المكذبين للرسل عليهم السلام لما شغلوا به من زخرفة الدنيا ، وماغلب على

(١) سورة المؤمنون : من آية ٣٣

(٢) تفسير القرطبي ٨٢/١٢ .

(٣) سورة سبأ : آية ٣٤

(٤) تفسير النسفى ٣١٠/٣ .

قلوبهم منها ، فهم منهمكون في الشهوات" (١).

ومن ثمّ يتضح لنا هذا الدافع إلى التكذيب والعداء للرسول عليهم السلام ، "ذلك أن الطباع المشغوفة بالدنيا ، الحريصة على طلب اللذات العاجلة تكون شديدة النفرة عن الأمر بالطاعات والنهي عن المعاصي والمنكرات ، قوية الكراهة لسماع ذكر الموت ، وتقبيح صورة الدنيا ، ومن كان كذلك فإنه يستثقل الإنسان الذي يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر" (٢).
وبالتالى يصبح المال والغنى والسعة لدى هؤلاء المكذبين من الملأ سببا لخسارتهم كما يعبر القرآن الكريم عن الطغاة من قوم نوح عليه السلام :
{قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزدده ماله وولده إلا خسارا} (٣).

قال القاسمى : "أى رؤساءهم المتبوعين ، أهل المال والجاه ، المعرضين عن الحق ، الذين غرتهم أموالهم وأولادهم ، فهلكوا بسببهما ، وخسروا سعادة الدارين" (٤).

فهؤلاء الرؤساء المترفون المتنعمون ، أبطرتهم أموالهم ، وغرتهم شهواتهم ، فوقعوا في الكفر والضلال ، وفي المكر والإضلال :
{ومكروا مكرا كبيرا . وقالوا لاتذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا . وقد أضلوا كثيرا...} (٥).

ومن دعاء موسى عليه السلام على فرعون وملئه :
{وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ...} (٦).

(١) تفسير روح المعاني ١٤٧/٢٢ .

(٢) التفسير الكبير ١٣٦/١٧ .

(٣) سورة نوح عليه السلام : آية ٢١

(٤) تفسير القاسمى ٢٩٧/١٦ ، وينظر زاد المسير ١٠٠/٨ .

(٥) سورة نوح عليه السلام : من الآيات ٢٢-٢٤

(٦) سورة يونس عليه السلام : من آية ٨٨

قال السَّعْدِيُّ : "أى : إن أموالهم يستعينون بها على الإضلال عن سبيلك ، فيَضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ" (١).

فبدلاً من أن يندفع أولئك المملأ المكذبون إلى الإيمان بالله تعالى الذى وهبهم المال الجزيل ، والنعمة الوفيرة ، والمتاع الواسع ، كان الاتجاه إلى عكس ذلك من الكفر ، والضلال ، والإضلال ، والحرب لله جل وعلا ، ولرسله عليهم السلام .

ويقول تبارك وتعالى فى قصة إبراهيم عليه السلام :
 {ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك ...} (٢).

قال صاحب الظلال : "إن هذا الملك المنكر المتعنت إنما ينكر ويتعنت للسبب الذى كان ينبغى من أجله أن يؤمن ويشكر ، هذا السبب هو (أن آتاه الله الملك) وجعل فى يده السلطان . لقد كان ينبغى أن يشكر ويعترف لولا أن الملك يطغى ويبطر من لا يقدرُونَ نعمة الله ، ولا يدركون مصدر الإنعام ، ومن ثم يضعون الكفر موضع الشكر ، ويضلون بالسبب الذى كان ينبغى أن يكونوا به مهتدين" (٣).

ومن مشاهير هؤلاء المترفين المكذبين قارون ، والذى أبطرتة النعمة ، وأفسده الترف ، وأطغاه المال ، حتى كفر واستكبر ، وكان من المناهضين لدعوة موسى عليه السلام .

يقول الله تعالى مبينا ماأنعم عليه من المال وماوهبه من النعم :
 {إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ، وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ...} (٤).

(١) تيسير الكريم الرحمن ٣٣٩/٢ ، وينظر زاد المسير ٤٨/٤-٤٩ .

(٢) سورة البقرة : من آية ٢٥٨

(٣) فى ظلال القرآن ٢٩١/١ .

(٤) سورة القصص : من آية ٧٦

وبدلاً من أن يشكر تلك النعمة ، ويجعلها سبيلاً للإيمان والهداية ،
اتجه إلى البطر والتكبر ، وقابل نصيح الناصحين بالغرور والاستهتار ، ونسبة
الغنى إلى امكانياته وعلمه وقدرته ، متناسياً ربه عز وجل .

{... إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك
الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ
الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين . قال إنما أوتيته على علم
عندي...} (١).

وسار على منهج فرعون في الجحود والعناد والعداوة كما قال سبحانه :
{وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في
الأرض وما كانوا سابقين} (٢).

{ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وهامان وقارون
فقالوا ساحر كذاب} (٣).

ومما سبق يمكن القول بأن الترف كان سبباً مهماً من أسباب اتجاه الملائكة
في الغالب إلى التكذيب بالآيات ، وعداوة الرسل عليهم السلام ، والوقوف
لهم وللدعوة بكل طريق .

(١) سورة القصص : من الآيات ٧٦-٧٨

(٢) سورة العنكبوت : آية ٣٩

(٣) سورة غافر : آية ٢٣-٢٤

المطلب التاسع إنكار البعث والجزاء

وهو من أهم العوامل التي أودت بالملأ إلى مجابهة الدعوات ،
والاستمرار في طريق الشرك والتكذيب وإثارة الشبهات .

ذلك أن الكفر بالآخرة يجعل الانسان يتحرك في الأرض بلا قيد أو
رقيب ، ويتصرف في مصالحه ومتاعه دون حسيب ، فالدنيا عنده هي بداية
المطاف ، وهي نهايته ، لا ينتظر حياة أخرى ولا يتوقع بعثا ولا حسابا ولا جزاءا
وبالتالى فلا همَّ له إلا أن يقضى وطره في الدنيا ، وينفذ رغباته في الحياة قبل
أن يفجأه الممات ، دون أن يكون لذلك ضوابط أو قيود ، إلا ما يراه
مصلحة له في أمد الحياة القريب .

هذا هو حال الملأ المكذبين ، ومن ثمَّ فليس لديهم غضاضة في مجابهة
الدعوات ، واتهام الدعاة من الرسل عليهم السلام .

يقول الله تعالى عن الملأ المكذبين بنى الله هود عليه السلام :

{وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى
الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم ...} (١).

فهم حين خلت قلوبهم من الإيمان باليوم الآخر ، وكذبوا بما فيه من
الحساب والجزاء ، لم يجدوا بأسا في مواجهة هود عليه السلام بلقاء التهم
وإثارة الشبهات .

ويقول عز وجل عن فرعون :

{واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم اينسا
لا يرجعون} (٢).

(١) سورة المؤمنون : من آية ٣٣

(٢) سورة القصص : آية ٣٩

قال ابن جرير : "حسبوا أنهم بعد مماتهم لا يبعثون ولا ثواب ولا عقاب
فركبوا أهوائهم" (١).

ومن كانت حاله كذلك فلا غرابة أن يسلك سبيل الرفض للحق ،
والتنكيل بالمؤمنين ، والمجابهة للرسول عليهم السلام .
ولما رفض كفار قريش ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من
المنهاج الصحيح وصفهم الله تعالى بقوله :

{وان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون} (٢).

قال الألوسي : "وصفوا بذلك تشبيعا لهم مما هم عليه من الانهماك
في الدنيا ، وزعمهم أن لآحياة بعدها ، وإشعارا بعلّة الحكم ، فإن الإيمان
بالآخرة وخوف ما فيها من الدواهي من أقوى الدواعي إلى طلب الحق
وسلوك سبيله" (٣).

ومادام هؤلاء غير موقنين بالآخرة أصلا فلن يتأثروا بالمواعظ والآيات
كما وصفهم الله تعالى بقوله :

{ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطرا سوء أقمم يكونوا يرونها بل
كانوا لا يرجون نشورا} (٤).

"فقلوبهم لاتعتبر ولاتتأثر لأنهم لا ينتظرون البعث ولا يرجون لقاء الله
فذلك سبب قساوة تلك القلوب وانطماسها ، ومن هذا المعين تنبع تصرفاتهم
واعتراضاتهم وسخرياتهم من القرآن ، ومن الرسول" (٥) صلى الله عليه
وسلم .

(١) تفسير الطبرى ٧٨/٢٠ .

(٢) سورة المؤمنون : آية ٧٤ .

(٣) تفسير روح المعاني ٥٤/١٨ .

(٤) سورة الفرقان : آية ٤٠ . والمراد بالقرية في الآية الكريمة ديار قوم لوط عليه

السلام ، والذين نزلت بهم العقوبة الإلهية فأهلكتهم ، وكان رجال قريش يرون
عليها في أسفارهم إلى الشام ينظر تفسير البغوى ٣٧٠/٣ .

(٥) في ظلال القرآن ٢٥٦٤/٥ .

يقول الله جل وعلا :

{وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله...} (١).

{وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا} (٢).

هذا التعنت في المطالب والاقترحات ، وهذه الإثارة للشبهات ، إنما هو نتيجة لاستبعاد البعث والجزاء .

قال الألوسي : "وضع الموصول موضع الضمير للتنبيه بما في حيز الصلة على أن ما يحكى عنهم في الشناعة بحيث لا يصدر عن من يرجو لقاء الله عز وجل" (٣).

ويقول سيد قطب : "إن المشركين لا يرجون لقاء الله أى لا ينتظرون هذا اللقاء ، ولا يحسبون حسابه ، ولا يقيمون حياتهم وتصرفاتهم على أساسه ومن ثم لاتستشعر قلوبهم وقار الله وهيبته وجلاله ، فتنتلق ألسنتهم بكلمات وتصورات لاتصدر عن قلب يرجو لقاء الله" (٤).

ولذلك لما ذكر القرآن الكريم في أول سورة الفرقان ما أثاره كبراء قريش من الشبهات حول الرسالة والرسول صلى الله عليه وسلم باعتبارها موانع تبرر لهم الكفر والتكذيب ، بين القرآن بعد ذلك السبب الحقيقي فيما هم فيه من الإعراض ، وذلك في قول الله سبحانه :

{بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً} (٥).

فليس السبب في عداوتهم ومعارضتهم أنهم يشكون حقاً في صدق نبي الله صلى الله عليه وسلم ، أو أنهم يظنون أن رسولنا عليه الصلاة والسلام

(١) سورة يونس عليه السلام : من آية ١٥

(٢) سورة الفرقان : آية ٢١

(٣) تفسير روح المعاني ٢/١٩ .

(٤) في ظلال القرآن ٥/٢٥٥٨ .

(٥) سورة الفرقان : آية ١١

يفترى القرآن ويتلقاه عن غيره ، أو أن الذى يمنعهم من الاستجابة هو شخص الرسول صلى الله عليه وسلم كبشر يأكل الطعام مثلهم ويمشى فى الأسواق .

ليس السبب هذا ولاذاك ، وإنما الباعث الحقيقى هو إنكارهم للقيامة ، وتكذيبهم بالبعث والجزاء .

قال ابن كثير : "إنما يقول هؤلاء هكذا تكذبا وعنادا ، لأنهم يطلبون ذلك تبصرا واسترشادا ، بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على مايقولون من هذه الأقوال" (١) .

ويتساءل القرآن الكريم فى موضع آخر عن سبب إعراضهم عن التذكرة ، وابتعادهم عن التدبر والاتعاظ :

{فمالهم عن التذكرة معرضين} (٢) .

ثم يذكر بعد ذلك السبب والعلة :

{كلا بل لا يخافون الآخرة} (٣) .

إن قسوة قلوبهم ، ونفورهم عن الحق ، وامتناعهم عن تدبر مايسمعونه من كلام الله سبحانه ، والاتعاظ والتأثر به ، واستعمال وسائل الإدراك لديهم بصدق ورغبة فى الوصول إلى الحق وقبوله ، كل ذلك إنما هو نتيجة طبيعية لاطمئنانهم للحياة الدنيا ، واستبعادهم للقيامة ، وإنكارهم للبعث :

{كلا بل لا يخافون الآخرة} .

قال ابن جرير : "يقول : لكنهم لا يخافون عقاب الله ، ولا يصدقون بالبعث والثواب والعقاب ، فذلك الذى دعاهم إلى الإعراض عن تذكرة الله وهون عليهم ترك الاستماع لوحيه وتزييله" (٤) .

(١) تفسير ابن كثير ٣/٣١٠ .

(٢) سورة المدثر : آية ٤٩

(٣) سورة المدثر : آية ٥٣

(٤) تفسير الطبرى ٢٩/١٧١ .

ويقول صاحب الظلال : "عدم خوفهم من الآخرة هو الذى ينأى بهم عن التذكرة ، وينفرهم عن الدعوة هذه النفرة ، ولو استشعرت قلوبهم حقيقة الآخرة لكان لهم شأن غير هذا الشأن المريب" (١).

(١) فى ظلال القرآن ٣٧٦٣/٦ .

المطلب العاشر اتباع الهوى وكراهية الحق

من الأسباب التي دفعت الملأ إلى التكذيب بالدعوات اتباع أهواء النفوس وإشباع رغباتها .

ذلك أن الرسل عليهم السلام جاؤوهم بالمنهج الإلهي ليطبق في الأرض ، وهو منهج قائم على التوحيد المطلق لله عز وجل ، وعبادته وحده سبحانه ، في الوقت الذي تدعوهم فيه نفوسهم وأهواؤهم إلى الباطل الذي ورثوه عن آبائهم ، والواقع الذي يعيشونه وهو بعيد عن الحق . فأثر الملأ المكذبون أن يستجيبوا لأهوائهم ، ويستمروا في غيهم وشركهم ، ويسيروا خلف شهواتهم ، رافضين ما يتضمنه منهج الله عز وجل من توحيد خالص لله سبحانه ، وتقيد بشريعته وأمره .

ومن ثم فقد كانت الأهواء هي الباعثة لهؤلاء إلى اتخاذ موقف سلبي من الرسل عليهم السلام .

فليست المسألة في الواقع نقصا في الحجة أو ضعفا في الدليل ، بل تكمن المشكلة في تقديم أهواء النفوس على شرائع الله المنزلة على رسله عليهم السلام .

ومن كانت حاله كذلك فماذا يمكن أن يقدم له الرسول وقد عبد الهوى من دون الله تعالى كما قال عز وجل :

{أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون} (١).
{أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا} (٢).

(١) سورة الجاثية : آية ٢٣

(٢) سورة الفرقان : آية ٤٣

"أى مهما استحسن من شىء ورآه حسنا فى هوى نفسه كان دينه ومذهبه" (١).

واتباع هؤلاء لهواهم كما يقرر القرآن يؤكد أن العلة فيهم ، وليست فى البرهان أو الدليل ، وبالتالي فإن طلبهم المتتابع للآيات ، وتعنتهم فى الاقتراحات ، وما يثيرونه من الشبهات ، ليس إلا رغبة فى إيجاد المبرر للعداء والتكذيب ، أما السبب الحقيقى فهو اتباع الهوى وتقديمه على الحق :

{فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهوائهم ، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ...} (٢).

{... ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه ...} (٣).

{لقد أخذنا ميثاق بنى إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون} (٤).

{وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهوائهم...} (٥).

يقول صاحب الظلال : "إنما العلة فيهم أنفسهم ، فهم يجعلون هواهم إليها يعبدونه ، ولا يرجعون إلى حجة أو برهان ، وماذا يملك الرسول لمن يتخذ إلهه هواه {أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا} (٦) وهو تعبير عجيب يرسم نموذجا عميقا لحالة نفسية بارزة حين تنفلت النفس من كل المعايير الثابتة ، والمقاييس المعلومة ، والموازين المضبوطة ، وتخضع لهواها ، وتحكم شهواتها ، وتتعبد ذاتها ، فلا تخضع لميزان ، ولا تعترف بحد ،

(١) تفسير ابن كثير ٣/٣٢٠ .

(٢) سورة القصص : من آية ٥٠ .

(٣) سورة الكهف : من آية ٢٨ .

(٤) سورة المائدة : آية ٧٠ .

(٥) سورة القمر : من الآيات ٢-٣ .

(٦) سورة الفرقان : آية ٤٣ .

ولا تقتنع بمنطق ، متى اعترض هواها الطاغى الذى جعلت منه إلها يعبد
ويطاع" (١).

هذا هو حال الملأ المكذبين فى تاريخ الرسل عليهم السلام ، يصرون
على ما تمليه أهواؤهم ، ويسيرون على المنهج الذى تضعه نفوسهم ورغباتهم ،
ففسدت بالتالى فطرهم ، وانتكست أفئدتهم ، فلاجال بعد ذلك للتفكر
والتدبر ، ولا فائدة من الإنذار والتذكير ، لأن القلوب قد عميت ، كما
وصف الله عز وجل من حققت عليهم عقوبته من قوم نوح عليه السلام :
{... وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عميين} (٢).

"عميت قلوبهم عن معرفة التوحيد والنبوة والمعاد" (٣) وفسدت
بصائرهم لما غطى الهوى على أبصارهم ، فلم يعودوا يبصرون الحق
ولا يهتدون به ، كما وصف الله تبارك وتعالى أمثالهم من المكذبين بقوله
سبحانه :

{... إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى} (٤).
قال فى الظلال : "فلا حجة ولا علم ولا يقين ، إنما هو الظن يقيمون عليه
العقيدة ، والهوى يستمدون منه الدليل ، والعقيدة لاجال فيها للظن
والهوى ، ولا بد فيها من اليقين القاطع ، والتجرد من الهوى والغرض .
وهم لم يتبعوا الظن والهوى ولهم عذر أو علة {ولقد جاءهم من
ربهم الهدى} فانقطع العذر وبطل التعلل .

ومتى انتهى الأمر إلى شهوة النفس وهواها فلن يستقيم أمر ، ولن
يجدى هدى ، لأن العلة هنا ليست خفاء الحق ، ولا ضعف الدليل ، إنما هى

(١) فى ظلال القرآن ٢٥٦٦/٥ .

(٢) سورة الأعراف : من آية ٦٤

(٣) التفسير الكبير ١٥٣/١٤ ، تفسير البحر المحيط ٣٢٣/٤ من قول ابن عباس رضى
الله عنهما .

(٤) سورة النجم : من آية ٢٣

الهوى الجاح الذى يريد ، ثم يبحث بعد ذلك عن ميرر لما يريد ، وهى شر
حالة تصاب بها النفس ، فلا ينفعها الهدى ، ولا يقنعها الدليل " (١) .

ومن البديهى والحالة هذه أن يكره الملائم الكذوبون الحق ، ويناصبوا
من جاء به من الرسل عليهم السلام العدا والفاء ، لأن أهواء نفوسهم
لا ترغب الحق ، بل تبغضه وتكرهه وهم متبعون لأهوائهم القائمة على الزيف
والباطل .

بل يصل الأمر بالمكذبين بنوح عليه السلام أن يجعلوا أصابعهم فى
آذانهم ، ويستغشوا ثيابهم كما ذكر القرآن الكريم على لسان نبى الله نوح
عليه السلام :

{وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا
ثيابهم} (٢) .

"أى بالغوا فى التغطى بها ، كأنهم طلبوا من ثيابهم أن تغشاهم لئلا
يروه كراهة النظر اليه من فرط كره الدعوة" (٣) .

إنهم يكرهون دين الله سبحانه وما يحويه من الحق والهدى ، ويعلمون
ذلك صراحة بكل وسيلة حسية أو معنوية ، ولذا تضمن رد نوح عليه
السلام عليهم ما يشير إلى ذلك كما سجل القرآن الكريم :

{قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده
فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون} (٤) .

فلا يتيسر لنوح عليه السلام أن يلزمهم الدعوة ، فى الوقت الذى
تكره نفوسهم فيه الحق ، وتبغض الهدى ، وتهوى الباطل والضلال .

(١) فى ظلال القرآن ٦/٣٤٠٨-٣٤٠٩ .

(٢) سورة نوح عليه السلام : من آية ٧

(٣) تفسير روح المعانى ٢٩/٨٩ .

(٤) سورة هود عليه السلام : آية ٢٨

ويبين الله تبارك وتعالى في سورة المؤمنون بعض الشبهات التي يثيرها
الملاّ من قريش حول رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوته ، ثم يبين
سبحانه أن الحاجز الذي حال بينهم وبين الإيمان ليس هو الشبهة، وإنما
كراهية الحق .

يقول سبحانه :

{أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين . أم لم يعرفوا
رسولهم فهم له منكرون . أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق
كارهون} (١).

"إنه مامن شبهة من هذه الشبهات يمكن أن يكون لها أصل . إنما هي
كراهية أكثرهم للحق لأنه يسلبهم القيم الباطلة التي بها يعيشون ، ويصدم
أهواءهم المتأصلة التي بها يعتزون" (٢).

وإن ما يظهرونه من أسباب ودعاوى ، إنما هو مجرد مبررات يرفعونها
ليعللوا بها دفعهم للهدى ، وتكذيبهم بالحق ، ورفضهم لدعوته صلى الله
عليه وسلم ومجاہتهم لها ، وليبقى موقفهم أمام العامة موقفاً يحيطه الانصاف
والبحث عن الحقيقة .

أما السبب المباشر الذي يمنعهم من الاتباع ، والاستجابة لدين الله
سبحانه ، فهو كراهية الحق الذي جاءهم به نبي الله عليه الصلاة والسلام ،
لأنهم يجهلون ، أو يشكون في صدق من جاءهم به ، ولكن "لأنه يصادم
أهواءهم ، ويقف في طريق شهواتهم ، وهم أضعف من أن يغالبوا أهواءهم
وشهواتهم ، ولكنهم أجراً على الحق وعلى دعواته ، فمن ضعفهم تجاه الأهواء
والشهوات يستمدون القوة على الحق ، والاجترار على الدعاة" (٣).

(١) سورة المؤمنون : آية ٦٨-٧٠

(٢) في ظلال القرآن ٤/٢٤٧٤ .

(٣) في ظلال القرآن ٥/٣٢٠٢-٣٢٠٣ .

الفصل الثاني

أثر الملام على عامة الناس وأسباب ذلك

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول :

حال عامة الناس مع الدعوة إلى الله تعالى

المبحث الثاني :

أسباب تأثر الناس بالملام

المبحث الأول

حال عامة الناس مع الدعوة إلى الله تعالى

الأصل في عامة الناس (١) - حين يتصلون بدعوة الرسل عليهم السلام ويدركون طبيعتها ومقاصدها - أنهم أقرب إلى الاستجابة للهدى ، والاتباع للحق ، وأسرع قبولا للدعوة الربانية ، وأكثر حماسا تجاهها ، سواء في الالتزام بها ، أو في نشرها والذود عن حياضها .
وإذا تأملنا أحوال المؤمنين بالرسول عليهم السلام وجدنا أنهم - في الغالب - من عامة الناس ، وفقرائهم ومستضعفيهم .
يتضح ذلك - مثلا - في خطاب الملأ من قوم نوح عليه السلام يعترضون فيه على دعوة نبي الله نوح عليه السلام .
قال تعالى :

{فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ...} (٢) .
وقال سبحانه :

{قالوا أنؤمن لك واتبعك الأراذلون} (٣) .
"أى الأقلون جاهها ومالا" (٤) . وهم الذين آمنوا في الواقع واستجابوا لنوح عليه السلام .
فجعل الملأ هذا الواقع شبهة يؤسسون عليها رفضهم للإيمان .

(١) المقصود بعامة الناس : من هم دون مرتبة الملأ من الأشراف والكبراء ، وذوى المنصب والثروة . وبطبيعة الحال فإن هؤلاء العامة يمثلون الطائفة الأعظم في المجتمع .

(٢) سورة هود عليه السلام : من آية ٢٧

(٣) سورة الشعراء : آية ١١١

(٤) تفسير أبي السعود ٢٥٤/٦ .

ويبين الله عز وجل الحوار الذى دار بين الملأ المستكبرين وبين المؤمنين بدعوة صالح عليه السلام واصفا سبحانه أولئك المؤمنين بأنهم مستضعفون .

قال جل وعلا :

إِذَا قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ^(١) .
فَالْآيَةُ تَقْرُرُ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّبِعِينَ لِنَبِيِّ اللَّهِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانُوا مِنَ الْعَامَةِ الْمُسْتَضَعِّفِينَ .

وهكذا كان الحال أيضا مع خاتم الرسل نبينا عليه الصلاة والسلام ، فقد كان معظم المؤمنين به - خاصة في بداية الدعوة - من العامة والمستضعفين .

يقول ابن كثير :

"الواقع غالبا أن من يتبع الحق ضعفاء الناس ، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته"^(٢) .

وهذا ما أشار إليه هرقل عظيم الروم في حوارهِ مع أبى سفيان حول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ سأله : أيتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟ فقال أبو سفيان : بل ضعفاؤهم . وفي نهاية الحوار علق هرقل على ماسمعه عن نبي الله عليه الصلاة والسلام ، فكان مما قال : "وسألتك عن أتباعه أضعفاؤهم أم أشرافهم فقلت بل ضعفاؤهم . وهم أتباع الرسل"^(٣) .

ولعل السبب في ذلك أن العامة لا يعرض لهم ما يعرض للملأ والأكابر من العوامل النفسية والاجتماعية التي يتزغ لهم الشيطان من خلالها لتصبح حواجز تحول بينهم وبين الاستجابة للحق والهدى .

(١) سورة الأعراف : آية ٧٥

(٢) تفسير ابن كثير ٤٤٢/٢ .

(٣) من حديث طويل سبق تخريجه ص ٥٠ .

فليس لدى العامة والفقراء والمستضعفين ما يخشون ضياعه من منصب أو جاه ، ولا ما يخافون فقدانه من ترف أو شهوة أو ثراء ، ولا ما يفزعهم زواله من مصالح مادية أو معنوية قائمة على التسلط والاستغلال ، وليس لديهم من المال أو القوة أو الجاه ما يدفعهم إلى الاستكبار أو الحسد أو الطغيان .

وبالتالى فليس هناك موانع شخصية تحول بينهم وبين قبول الدعوات التى يأتى بها الرسل عليهم السلام .

قال النووى فى شرح حديث هرقل : "أما قوله إن الضعفاء هم أتباع الرسل^(١) فلكون الأشراف يأنفون من تقدم مثلهم عليهم والضعفاء لا يأنفون فيسرعون إلى الانقياد واتباع الحق"^(٢).

ويقول القرطبي : "قال علماؤنا : إنما كان ذلك لاستيلاء الرياسة على الأشراف وصعوبة الانفكاك عنها ، والأنفة من الانقياد للغير ، والفقير خلى عن تلك الموانع فهو سريع إلى الإجابة والانقياد"^(٣).

ويذكر صاحب الظلال أن الفقراء والذين لم يؤتوا المال والسلطان هم أتباع الرسل السابقون غالبا ، لأنهم بفطرتهم أقرب إلى الاستجابة للدعوة التى تحرر الناس من العبودية للكبراء ، وتصل القلوب باله واحد قاهر عال على الأعلياء ، ولأن فطرتهم لم يفسدها البطر والترف ، ولم تعوقها المصالح والمظاهر عن الاستجابة ، ولأنهم لا يخافون من العقيدة فى الله أن تضيع عليهم مكانة مسروقة لغفلة الجماهير واستعبادها للخرافات الوثنية فى شتى صورها ، وأول صور الوثنية الدينونة والعبودية والطاعة والاتباع للأشخاص الزائلة ، بدلا من الاتجاه بهذا كله لله وحده دون شريك"^(٤).

(١) هذا الكلام بطبيعة الحال (محمول على الأكثر الأغلب) . فتح البارى ٤٨/١ .

(٢) شرح النووى على صحيح مسلم ١٠٥/١٢ .

(٣) تفسير القرطبي ١٧/٩ .

(٤) فى ظلال القرآن ١٨٧٢/٤ .

وبالرغم مما ذُكِرَ من أن الأصل في العامة القرب من الاستجابة للدعوة ، وسلوك طريق الإيمان والهداية ، إلا أن الواقع أيضا يؤكد أن للملأ المكذبين تأثيرا لا يمكن إغفاله في عامة الناس .

فالملأ بما يملكونه من الإمكانيات الضخمة ، ووسائل الضغط المتعددة ، والقدرات المادية والمعنوية ، يستطيعون أن يؤثروا في قطاع عريض من جماهير الناس ، وقد يصل هذا التأثير إلى أن يصبح الحق عند العامة هو ما يراه لهم الملأ حقا ، والباطل في تصورهم هو ما يواجهه الملأ ويحاربه ، فيردون المورد الذي يختاره لهم الأكابر المعاندون ، ويصدرون في موافقهم عن آرائهم ، وينتظرون رأيهم ليروه هم ، ويتابعون إشارتهم ليسيروا على ضوئها.

ومن ثمّ يمكن أن يصبح الملأ المكذبون موانع وحواجز تصد الناس عن سلوك طريق الهداية ، والاستجابة لداعى الإيمان .

ويصدم الرسل عليهم السلام ، وهم يحاولون استنبات بذور الخير والهدى في أرض الجماهير الخصبية المهيأة للنبات بالملأ المعاندين الذين يحاولون بالمقابل بذل جهودهم في تجريد هذه الأرض من خصوبتها ، لئلا يجنى الرسل عليهم السلام الحصاد ، وليظل الأمر بأيديهم يصرفونه بالطريقة التي يشاؤون ويرغبون .

ويمكن أن نتأمل هنا قول الله تبارك وتعالى عن فرعون ومأفعله في عامة الناس :

{لئن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا ...} (١).

"أى طوائف متفرقة ، يتصرف فيهم بشهوته ، وينفذ فيهم ما أراد من قهره وسطوته" (٢).

والقرآن الكريم يعرض في أكثر من موضع الحوار بين المستكبرين والمستضعفين يوم القيامة ، وبالتأمل في هذا الحوار يتضح جليا أثر الملأ المكذبين على عامة الناس .

يقول الله تعالى :

{وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء...}{(١)}

قال النسفي : "{فقال الضعفاء} في الرأي وهم السُّفلة والأتباع {للذين استكبروا} وهم السادة والرؤساء الذين استغووهم وصدوهم عن الاستماع إلى الأنبياء واتباعهم" (٢).

ويقول عز وجل :

{وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار}{(٣)}.

قال ابن كثير : "{فيقول الضعفاء} وهم الأتباع {للذين استكبروا} وهم القادة والسادة والكبراء {إنا كنا لكم تبعاً} أي أطعناكم فيما دعوتونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال" (٤).

ويقول تبارك وتعالى :

{... ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين . وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا...}{(٥)}.

قال ابن كثير في تفسير هذه الآيات الكريمة : "{يقول الذين استضعفوا} وهم الأتباع {للذين استكبروا} منهم ، وهم قادتهم وسادتهم {لولا أنتم لكنا مؤمنين} أي لولا أنتم تصدوننا لكنا اتبعنا الرسل وآمنا بما

(١) سورة إبراهيم عليه السلام : من آية ٢١

(٢) تفسير النسفي ١٦٤/٢ (مع اختصار يسير) .

(٣) سورة غافر : آية ٤٧

(٤) تفسير ابن كثير ٨٣/٤ .

(٥) سورة سبأ : من الآيات ٣١-٣٣

جاؤونا به ، فقال لهم القادة والسادة ، وهم الذين استكبروا {أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم} أى نحن ما فعلنا بكم أكثر من أنا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان ، وخالفتم الأدلة والبراهين التي جاءت بها الرسل بشهوتكم واختياركم لذلك ، ولهذا قالوا {بل كنتم مجرمين وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار} أى بل كنتم تكرون بنا ليلا ونهارا وتغرونا ، وتمنونا ، وتخبرونا أنا على هدى وأنا على شيء ، فاذا جميع ذلك باطل وكذب ومين^(١).

ونفس المعنى كذلك نجده في قول الله عز وجل عن حال الكفار يوم

القيامة :

{يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا . وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا}^(٢).

قال الشوكاني : " والمراد بالسادة والكبراء هم الرؤساء والقادة الذين كانوا يمثلون أمرهم في الدنيا ويقتدون بهم {فأضلونا السبيلا} أى عن السبيل بما زينوا لنا من الكفر بالله ورسوله ، والسبيل هو التوحيد"^(٣).
ومن خلال هذه الآيات التي تعرضت للحوار بين المستكبرين والمستضعفين في الآخرة ، يتبين مدى تأثير الملأ المكذبين من الأشراف والكبراء ، والقادة والرؤساء ، في عموم الناس ، فهم يصدونهم عن الإيمان بكل السبل ، ويضغطون عليهم بكل الوسائل ، ويمكرون بهم بالليل والنهار يتقلبون في المكر من حال إلى حال ، ومن أسلوب إلى أسلوب ، بهدف إضلالهم عن الهدى ، وإغوائهم عن الحق ، وضمانا لسيرهم على نهج الملأ المكذبين ، وطاعتهم لهم في الكفر والضلال والخروج عن شريعة الله سبحانه وحتى لا يكثر في النهاية سواد الرسل عليهم السلام بالمؤمنين بالدعوة فتنتهى حينئذ سطوة الطغاة المتجبرين .

(١) تفسير ابن كثير ٥٣٩/٣ .

والمن باسكان الياء بمعنى الكذب . ينظر : ترتيب القاموس المحيط ٣٠٥/٤ .

(٢) سورة الأحزاب : آية ٦٦-٦٧ .

(٣) تفسير فتح القدير ٣٠٦/٤ (مع اختصار) .

وفي قصص القرآن الكريم إشارات عديدة إلى هذا التأثير للملأ
المكذبين في أوساط الناس من أقوام الرسل عليهم السلام .
ففي قصة نوح عليه السلام يصف القرآن الكريم الملأ من قومه
بالإضلال :

{وقد أضلوا كثيرا ...} (١).

"أى أضل كبراًؤهم كثيرا من أتباعهم" (٢).

وفي المقابل يصف العامة الذين بقوا على كفرهم بأنهم كانوا متبعين في
الضلال لأكابريهم ، متأثرين بهم :

{قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزدده ماله وولده إلا
خساراً} (٣).

"أى عصوا الرسول الناصح الدال على الخير واتبعوا الملأ والأشراف
الذين لم تزددهم أموالهم وأولادهم إلا خساراً" (٤).

فالآيتان الكريمتان تقرران أن الكثير من عامة قوم نوح عليه السلام
تأثروا بالرؤساء المكذبين ، والأكابر الضالين ، الذين زينوا الباطل ، وصدوا
عن الحق ، ومكروا بنوح عليه السلام ، فاستجاب لهم عامة الناس ،
واستقبلوا هذا التأثير ، وسلخوا ماأراده لهم الملأ من طرق الضلال .

وعن عاد يقول الله تعالى :

{وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار
عنيد} (٥).

قال القاسمي : "أى أطاعوا في الشرك {أمر كل جبار عنيد} لا يستدل

(١) سورة نوح عليه السلام : من آية ٢٤

(٢) تفسير القرطبي ٢٠٠/١٨ .

(٣) سورة نوح عليه السلام : آية ٢١

(٤) تيسير الكريم الرحمن ٣١٤/٥ .

(٥) سورة هود عليه السلام : آية ٥٩

بدليل ، ولا يقبله من غيره ، يريد رؤسائهم وكبرائهم ودعاتهم إلى تكذيب الرسل" (١).

والإشارة في الآية الكريمة واضحة تبين دور الملأ المكذبين من قوم هود عليه السلام في التأثير على الناس ، وأمرهم لهم بالكفر والتكذيب ، فرضخ الكثير من العامة لأمر العلية المضلين ، وسلكوا معهم مسلك الجحود والعصيان .

وفي قصة ثمود يذكر الله تعالى توجيه صالح عليه السلام لعامة قومه بالألا يستجيبوا للطغاة الكافرين إذ يدعونهم إلى النفور من الدعوة ، كما في قول الله تبارك وتعالى على لسان نبي الله صالح عليه السلام :

{فاتقوا الله وأطيعون . ولا تطيعوا أمر المسرفين . الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون} (٢).

قال أبو حيان : "{ولا تطيعوا} خطاب لجمهور قومه ، والمسرفون هم كبرائهم وأعلامهم في الكفر والإضلال" (٣).

فنبى الله صالح عليه السلام يحذر عامة قومه من طاعة "رؤسائهم وكبرائهم الدعاة لهم إلى الشرك والكفر ومخالفة الحق" (٤).

وفي قصة شعيب يحكى القرآن الكريم تحرك الملأ المكذبين ضد شعيب عليه السلام ودعوته ، رغبة في الصد عن دين الله سبحانه ، وتخويف الناس من الاستجابة والانضمام للدعوة .
ومن ذلك قول الله تعالى :

(١) تفسير القاسمي ١٤٤/٩ ، وينظر تفسير أبي السعود ٢١٩/٤-٢٢٠ .

(٢) سورة الشعراء : آية ١٥٠-١٥٢

(٣) تفسير البحر المحيط ٣٥/٧ ، وينظر : تفسير الطبري ١٠٢/١٩ ، تفسير روح المعاني

١١٣/١٩ .

(٤) تفسير ابن كثير ٣٤٣/٣ .

{وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون} (١).
إنهم لا يكتفون بالكفر والضلال في أنفسهم ، بل يتجهون إلى الناس
لإغوائهم ، والتأثير فيهم بما ينفروهم من الحق ، ويزين لهم الباطل ، كما
قال الرازى في تفسيره للآية الكريمة :
"وعند هذا المقال كمل حالهم في الضلال أولاً وفي الإضلال
ثانياً" (٢).

وفي قصة موسى عليه السلام يقول الله تعالى عن فرعون وأعوانه :
{وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ...} (٣).

قال القرطبي : "أى وجعلناهم زعماء يتبعون على الكفر" (٤).

فقد ضلوا في أنفسهم بالكفر والجحود والطغيان ، وأضلوا غيرهم ،
وحالوا بينهم وبين الإيمان بموسى عليه السلام ، فاستجاب لهذا الإضلال
الفئات من العامة والجماهير فاتبعوا أمرهم وأطاعوهم في الجحود والكفر ،
وسلكوا مسلكهم في الغى والعناد ، كما قال الله جل وعلا :
{.. فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد} (٥).

{فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين} (٦).

أما في عهد رسولنا عليه الصلاة والسلام فالمواقف كثيرة (٧) ، تشير إلى
دور الملأ المكذبين من المشركين واليهود وغيرهم ، في التآليب ضد الدعوة ،
ومحاولة صد الناس عنها بشتى الوسائل ، والحيلولة بينهم وبين الاستماع
لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضلاً عن الاستجابة له والانضمام لدعوته
عليه الصلاة والسلام .

(١) سورة الأعراف : آية ٩٠

(٢) التفسير الكبير ١٨١/١٤ .

(٣) سورة القصص : من آية ٤١

(٤) تفسير القرطبي ١٩١/١٣ .

(٥) سورة هود عليه السلام : من آية ٩٧

(٦) سورة الزخرف : آية ٥٤

(٧) سيأتى - بمشيئة الله تعالى - عرض شىء منها في الفصل الثانى .

كل ذلك يؤكد أن للملأ في العادة قدرة على التأثير في عامة الناس بما يتبؤونه من منصب ومكانة ، وبما يملكونه من قدرات وإمكانات مادية أو معنوية .

ومن هنا ندرك السبب في حرص الرسل عليهم السلام على إيمان هؤلاء الأكابر والأشراف ، ورجائهم الشديد في إسلامهم .
ذلك لأنهم إن آمنوا كان لهم دور بالغ في إيمان من ورائهم من العامة والأتباع .

المبحث الثاني

أسباب تأثر الناس بالملأ

ويشتمل على المطالب التالية :

- المطلب الأول : الإغراء والترغيب
- المطلب الثاني : الإرهاب والتخويف
- المطلب الثالث : التلبيس والتضليل
- المطلب الرابع : الجهل وخفة الأحلام

المطلب الأول الإغراء والترغيب

يملك المملأ في العادة المال والمنصب والجاه ، وهم في الغالب أصحاب الترف والثروة ، ولديهم الإمكانيات في التمتع بالشهوات ، والاستغراق في اللذائذ المادية .

وهذا في حد ذاته يمكن أن يؤثر في نفوس الكثير من عامة الناس ، إذ يمثل الرسل عليهم السلام وأتباعهم - في نظرهم - الجانب الأضعف والأقل مالا وجاهاً ومتاعاً ، بينما تتمثل لهم في المملأ المكذبين صورة المال والمتعة ، والجاه والمكانة ، فتغريهم هذه الإمكانيات المادية ، وتزعزع قلوبهم ، ويزين لهم الشيطان أن التوجه إلى المملأ المكذبين ، وسلوك طريقهم ، يضمن لهم الحياة المادية الأفضل ، ويهيئ لهم السبيل إلى المعيشة الطيبة ، والرغد المادي ، أو مايرجونه من مكانة ومنصب ، أو أنهم بهذا الخضوع للمملأ المستكبرين ، وسيرهم في المنهج الذي يريد له الأكارب المضلون ، سيظمنون إلى أوضاعهم المادية ، وشهواتهم الدنيوية ، مما يمثل عامل إغراء لهم ، يقترب بهم إلى طريق الاتباع للمملأ المكذبين ، وسبيل المخالفة للرسول عليه السلام وما جاء به من الحق واليقين ، أملا في هذا الإغراء بالمال أو المكانة أو متاع الدنيا القريب ، كما ذكر الله تبارك وتعالى عن الجماهير الكافرة من قوم نوح عليه السلام ، والتي آثرت اتباع كبرائها من الطغاة المكذبين ، حين رأت بأيديهم المال والمتاع :

{قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزدده ماله وولده إلا خسارا} (١).

قال أبو السعود : "أى واستمروا على اتباع رؤسائهم الذين أبطرتهم أموالهم وغرتهم أولادهم وصار ذلك سبباً لزيادة خسارهم في الآخرة ،

فصاروا أسوة لهم في الخسار ، وفي وصفهم بذلك إشعار بأنهم إنما اتبعوهم لوجهتهم الحاصلة لهم بسبب الأموال والأولاد ، لا لما شاهدوا فيهم من شبهة مصححة للاتباع" (١).

والملاّ المكذبون يستغلون هذا الجانب حين يعلنون أنهم بما يملكون من المال والجاه والمتاع هم أصحاب الحق ، وطريقهم هو المنهج الأمثل ، لا منهج الرسل عليهم السلام .

يقول الله سبحانه :

{وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون . وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين} (٢).

فليس من المعقول - حسب دعايتهم - أن يكون بيدهم كل هذا المال والجاه ، ثم لا يكونون من السائرين على طريق الحق والرشاد . وكما أعلنتها فرعون في قومه كما حكى القرآن :

{ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون . أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين} (٣).

قال فى الظلال : "والجماهير المستعبدة المستغفلة يغيرها البريق الخادع القريب من عيونها ، ولا تسمو قلوبها ولا عقولها إلى تدبر ذلك الملك الكونى العريض البعيد ، ومن ثم عرف فرعون كيف يلعب بأوتار هذه القلوب ، ويستغفلها بالبريق القريب {أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين} وهو يعنى بالمهانة أن موسى ليس ملكا ولا أميرا ولا صاحب سَطْوَة (٤) ومال مشهود ، وعند الجماهير الساذجة لا بد أن يكون فرعون الذى له ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحته خيرا من موسى عليه السلام ومعه كلمة الحق

(١) تفسير أبى السعود ٤٠/٩ ، وينظر تفسير البيضاوى ٥٣١/٢ .

(٢) سورة سبأ : آية ٣٤-٣٥

(٣) سورة الزخرف : آية ٥١-٥٢

(٤) يقال أمير ذو سَطْوَة ، والسَطْوَة شدة البطش . ينظر لسان العرب ٢٠١٠/٣ .

ومقام النبوة ودعوة النجاة من العذاب الأليم" (١).

ولذلك دعا موسى عليه السلام ربه سبحانه أن يطمس على أموال فرعون :

{وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم...} (٢).

يقول سيد قطب فى ظلال الآية الكريمة : { "ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا } ينشأ عنها إضلال الناس عن سبيلك ، وإما بالإغراء الذى تحدته مظهر النعمة فى نفوس الآخرين ، وإما بالقوة التى يمنحها المال لأصحابه فيجعلهم قادرين على إذلال الآخرين أو إغوائهم ، ووجود النعمة فى أيدي المفسدين لاشك يزعزع كثيرا من القلوب التى لا يبلغ من يقينها بالله أن تدرك أن هذه النعمة ابتلاء واختبار ، وأنها كذلك ليست شيئا ذا قيمة إلى جانب فضل الله فى الدنيا والآخرة ، وموسى يتحدث هنا عن الواقع المشهود فى عامة الناس ، ويطلب لوقف هذا الإضلال ولتجريد القوة الباغية المضلة من وسائل البغى والإغراء ، أن يطمس الله على هذه الأموال " (٣).

وهذا الإغراء المادى من الملأ المكذبين يمكن أن يأخذ أسلوبا مباشرا ، وذلك بعرض المقابل المادى من مال أو مكانة على بعض الجماهير كى تقوم بدور معين يسند إليها يساعد ويساهم فى الصد عن دين الله سبحانه ، ومواجهة الرسل عليهم السلام ، ويعمل على تثبيت مراكز الأكاير المضلين ، وترسيخ مكانتهم وجاههم ، ويؤكد أحقية المنهج الذى يسلكون .

ومن الأمثلة على هذا الأسلوب ما فعله فرعون مع السحرة بادية الأمر من إغراء وترغيب ، لينطلقوا فى نشاط وحماس لإحقاق باطل فرعون ، وإبطال الحق مع موسى عليه السلام .

(١) فى ظلال القرآن ٣١٩٣/٥ (مع اختصار) .

(٢) سورة يونس عليه السلام : من آية ٨٨

(٣) فى ظلال القرآن ١٨١٧/٣ .

قال تعالى :

{فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين . قال
نعم وإنكم إذا لمن المقربين}{(١)} .

فقد عرض عليهم فرعون الأجر الجزيل ، والمال الوفير ، ولم يكتف
بذلك بل أغراهم ورغبهم بأمر آخر هو المرتبة والجاه والمنصب {وإنكم إذا
لمن المقربين} .

وهذان الأمران مما يسيل عنده لعاب الكثيرين .

(١) سورة الشعراء : آية ٤١-٤٢

المطلب الثاني الإرهاب والتخويف

وهو عامل ثانٍ يسلمه الملائكة المكذبون على الناس ليؤثروا على قرارهم ويجبروهم على اتباع سبيلهم ، وسلوك منهجهم ، ولينأوا بهم عن طريق الدعوات التي جاء بها الرسل عليهم السلام .

والملائكة في العادة يملكون من وسائل المال والنفوذ ، والقوة والجاه ، ما يتمكنون به من تخويف العامة ، ليصدوهم عن الدين ، ويضمنوا منهم الاتباع لهم ، والسير في ركابهم .

وإلى ذلك يشير قول الله سبحانه وتعالى عن عاد قوم هود عليه السلام:

{وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد} (١).

فاتباع عاد لأكابرها المعاندين كان نتيجة تسلط وتخويف يفهم من وصف الملائكة المكذبين بالطغيان والجبروت في قوله عز وجل {واتبعوا أمر كل جبار عنيد} .

وهذا التخويف والترهيب يمكن أن يشمل طائفتين :

إحداهما : عامة الناس ، ويكون الغرض من التهديد منعها من التفكير في الاستجابة للهدى مع الرسل عليهم السلام ، فهو أسلوب وقائي ضمن منهج الملائكة المكذبين في المواجهة .

والأخرى : الطائفة التي آمنت بالدعوة ، ويكون الغرض حينئذ إشعارها بالخوف المستمر لو بقيت على دين الله تعالى ، مما يأمل معه الطغاة أن يرتد بعض أولئك المؤمنين عن طريق الإيمان خشية أن يلحقهم ما يكرهونه من الأذى والمحنة ، كما أن ذلك سيكون أيضا عامل تخويف

يبعد الآخرين من عامة الناس عن الوقوف في صف الرسول ، أو الاقتراب مما يحملة من الحق والهدى خوفا من التعرض لما يصيب المؤمنين من البلاء والوعيد .

يقول الله تعالى على لسان شعيب عليه السلام ينصح دعاة الضلال في قومه :

{ولا تتعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به...} (١).
قال ابن جرير في تفسير الآية : "ولا تجلسوا بكل طريق ، وهو الصراط توعدون المؤمنين بالقتل ، وكانوا فيما ذُكرَ يقعدون على طريق من قصد شعبيا ، وأراده ليؤمن به ، فيتوعدونه ويخوفونه" (٢).

كما كانوا يخاطبون عامتهم معلنين لهم أن من دخل في دين شعيب عليه السلام فقد حكم على نفسه بالخسران ، كما في قول الله سبحانه :
{وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون} (٣).

وهو تهديد مبطن لمن يفكر في الانضمام إلى دائرة المؤمنين .
وتتضح ظاهرة التخويف والإرهاب للعامة جلية في عهد فرعون ، إذ يمتنع الكثيرون من الاستجابة لموسى عليه السلام ، خوفا من بطش فرعون وجبروته ، بل حتى المؤمنون يشعرون بالخوف من أن يعلم بهم فرعون فيلحقهم أذاه ، وقد يسبب لهم الفتنة بما يتعرضون له من البلاء .
قال الله تبارك وتعالى :

{فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين} (٤).

(١) سورة الأعراف : من آية ٨٦

(٢) تفسير الطبري ٢٣٨/٨ .

(٣) سورة الأعراف : آية ٩٠

(٤) سورة يونس عليه السلام : آية ٨٣

وحيثما آمن السحرة برب العالمين عاجلهم فرعون بالتهديد والوعيد .
{.. فسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم
أجمعين}{(١)}.

وفي عهد رسولنا عليه الصلاة والسلام يعمل الملاء من قريش على
تحذير العامة من اتباعه صلى الله عليه وسلم والاستجابة لدعوته .
قال تعالى :

{وهم ينهون عنه وينأون عنه ..}{(٢)}.

"والمراد أنهم ينهون الناس عن اتباع الحق ، وتصديق الرسول ،
والانقياد للقرآن {وينأون عنه} أى ويبعدونهم عنه ، فيجمعون بين الفعلين
القبحين ، لا ينتفعون ، ولا يدعون أحدا ينتفع به" (٣).

وهذا أحد القولين فى معنى الآية ، ورجحه ابن كثير فقال : "وهذا
القول أظهر والله أعلم ، وهو اختيار ابن جرير" (٤).

ولاشك أن الناس - عموما - يتأثرون بوعيد الملاء ، وقد يدفعهم ذلك
إلى أن يسيروا فى ركابهم ، ويطيعوهم فى منهجهم ، وينفذوا تعليماتهم ،
بالابتعاد عن طريق الرسل عليهم السلام ، ورفض الاستجابة لما تحملته
دعواتهم من الحق والهدى والرشاد .

(١) سورة الأعراف : من الآيات ١٢٣-١٢٤

(٢) سورة الأنعام : من آية ٢٦

(٣) تفسير ابن كثير ١٢٧/٢ .

(٤) تفسير ابن كثير ١٢٧/٢ ، وينظر تفسير الطبرى ١٧٣/٧-١٧٤ .

المطلب الثالث التلبيس^(١) والتضليل

وهذا سبب ثالث من أسباب تأثر الناس بالملأ .

ذلك أن الملأ المكذبين لا يكتفون في التأثير على عامة الناس بالإغراء والترغيب ، أو بالوعيد والتخويف ، ولكنهم يحاولون كذلك التأثير عليهم وصددهم عن اتباع الرسل عليهم السلام بالتلبيس ، والتضليل ، وإلقاء الشكوك ، وإثارة الشبهات .

وقد جمع الله تبارك وتعالى ذلك في قوله عز وجل على لسان شعيب عليه السلام يخاطب المتنفذين من قومه :

{ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا...} (٢).

"أى وتطلبون لسبيل الله تعالى عوجا بإلقاء الشبه ، أو بوصفها للناس بما ينقصها وهى أبعد من شائبة الاعوجاج" (٣).

يقول الرازى عند تفسيره لهذه الآية : "وإذا تأملت علمت أن أحدا لا يمكنه منع غيره من قبول مذهب أو مقالة إلا بأحد هذه الطرق الثلاثة" (٤) يعنى الوعد والوعيد وإلقاء الشبهات والشكوك .

فالملأ المكذبون بمالهم من مكانة فى أقوامهم ، وكلمة فى أتباعهم ، وبما يملكونه من وسائل الدعاية ، وبمن يحيط بهم من الأعوان والمنفذين ،

(١) التلبيس : من لَبَسَ عليه : أى أوقعه فى اللبس ، واللبس : اختلاط الأمر : لبس عليه الأمر ، يلبسه ، لبسا ، فالتبس : إذا خلطه عليه حتى لا يعرف جهته ، والتبس عليه الأمر : أى اختلط واشتبه ، ويقال : لبست الأمر على القوم : إذا شبهته عليهم وجعلته مشكلا . ينظر لسان العرب ٣٩٨٧/٥ .

(٢) سورة الأعراف : من آية ٨٦

(٣) تفسير روح المعانى ١٧٨/٨ .

(٤) التفسير الكبير ١٧٥/١٤ .

يتجهون إلى خداع العامة ، والتلبيس عليهم ، بغية القضاء على الحق ، والتشكيك في الرسل عليهم السلام ، والتزيين للعقائد الضالة التي تأسست عليها مناهجهم ومكانتهم ، والترويج لهذه الأفكار الباطلة بين الناس ولذلك يلجأ هؤلاء المضللون إلى إثارة الشبهات المتلاحقة حول الدعوة والدعاة ، مما يلبس على الكثيرين من عوام الناس ، فيختلط عليهم الحق بالباطل ، وتتشوش أفكارهم ، وتضطرب تصوراتهم ، فلا يدركون أين الاتجاه الصحيح ، بل قد يهاجمون الحق يظنون الباطل ، وينافحون عن الباطل بعد أن زُيِّن لهم فرأوه حقاً وصدقاً .

والملاً المكذبون - بطبيعة الحال - يرفضون أن يعرف الناس الحقيقة عن الدعوة والدعاة ، وأن يشاهدوا الصورة الصحيحة للرسل والرسالات ، فيعلموا أن الرسالة حق ، والرسل حق ، وأن طريقهم هو طريق السعادة والرشاد .

إن ذلك يخيف الملاً المكذبين ويزعجهم ، فيواجهون الأمر بتشويه الدعوات ، والتنفير من الدعاة ، وقلب الحقائق ، ونكس الموازين ، في أعين الناس ، ليصبح الهدى عندهم ضلالاً ، والحق باطلاً ، وليبقى الصادق كاذباً والمصلح القائم على دين الله مفسداً ناشراً للفتنة ، مثيراً للاضطراب .

ومقصد الطغاة من ذلك إثارة العامة ليشاركوهم مواجهة الرسل والرسالات ، ومناهضة الدعوة والدعاة ، وليضلوا الجماهير في التصورات والمفاهيم ، حتى يستقر الأمر لهم ، ويضمنوا تبعية الجموع لهم ، وسيرها من ورائهم ، وهم يصدون عن سبيل الله تعالى .

يقول الله تبارك وتعالى :

{وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها...} (١).

قال ابن كثير : " والمراد بالمكر ههنا دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال" (١).

والأمثلة على هذا المكر والتلبيس والتشكيك كثيرة في قصص القرآن الكريم ، وسيأتي تفصيلها - بمشيئة الله تعالى - في المبحث المتعلق بالشبهات ، وأكتفى هنا بإيراد بعض النماذج على سبيل الإجمال .
فمن ذلك ما عرضه الله جل وعلا عن الأكابر المكذبين من قوم نوح عليه السلام .

قال سبحانه :

{ومكروا مكرا كبيرا . وقالوا لاتذرن آلهتكم ولاتذرن ودا ولاسواعا ولايغوث ويعوق ونسرا} (٢).

قال صاحب الظلال : " {ومكروا مكرا كبيرا} مكرا متناهيا في الكبر ، مكروا لإبطال الدعوة وإغلاق الطريق في وجهها إلى قلوب الناس ، ومكروا لتزيين الكفر والضلال والجاهلية التي تحبب فيها القوم ، وكان من مكرمهم تخريض الناس على الاستمسك بالأصنام التي يسمونها آلهة {وقالوا لاتذرن آلهتكم} بهذه الإضافة (آلهتكم) لإثارة النخوة الكاذبة ، والحمية الآثمة في قلوبهم ، وخصصوا من هذه الأصنام أكبرها شأنًا فخصوها بالذكر ليهيج ذكرها في قلوب العامة المضللين الحمية والاعتزاز" (٣).

وصورة أخرى لذلك المكر نلاحظها في قول الله جل وعلا :

{فقال الملاء الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ماسمعا بهذا في آبائنا الأولين . إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين} (٤).

(١) تفسير ابن كثير ١٧٢/٢ .

(٢) سورة نوح عليه السلام : آية ٢٢-٢٣

(٣) في ظلال القرآن ٣٧١٦/٦ .

(٤) سورة المؤمنون : آية ٢٤-٢٥

هذه إحدى مقولاتهم يخاطبون بها الناس ، تتضمن تصورهم عن نوح عليه السلام ، ونظرتهم إلى رسالته ودعوته ، معتمدين على إلقاء مجموعة من الاتهامات المتتالية ، تظهر فيها محاولاتهم الجادة في إثارة العامة ضد نوح عليه السلام ، وإشعال غضبهم عليه ، وإغرائهم على عداوته والنيل منه ، كما يتضح فيها التلبيس على الجمهور ، وتضليله ، وذلك بقلب الحقائق ، وتنكيس المفاهيم .

فنوح عليه السلام - حسب دعايتهم - رجل كاذب في دعواه الرسالة ، هدفه منها الرياسة والسيادة ، والتفاضل والتعاضم على الناس ، وفي عقله نوع من الخبل والجنون ، يدفعه إلى أن يتلفظ بما يقول ، وما يأتي به من الغرائب التي لم يسمع بها قبل ذلك ، وفي النهاية يطلبون من العامة أن تصير عليه حتى يشفى مما به من المس ، أو يموت فيستريح الجميع .
وفي ذلك إيهام للعامة بأن دعوة نوح عليه السلام هي إحدى المصائب التي تحتاج إلى الصبر حتى يزول بلاؤها ، وأن وجود نوح عليه السلام خطر على الجميع ، وينبغي أن يشترك الكل في مواجهته ، وتوقع نهايته .
وكل ذلك تلبيس أيما تلبيس ، وإيهام وصد وتضليل ، وتشويه للحقائق ، وتنفير من الرسول عليه السلام .

وهكذا يفعل الملائ من قوم شعيب عليه السلام حين يخاطبون عامتهم بما حكى القرآن :

{وقال الملائ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون} (١).
فهم بغية التأثير في الناس وتنفيرهم من شعيب عليه السلام وتشبيطهم عن الإيمان وخوفاً من اتساع دائرة المؤمنين ، يصرحون بإعلانهم الفاجر الذي يحكم على من يتبع شعيباً عليه السلام بالخسران المبين .

وهنا يكمن التضليل والتلبيس ، فهم يوهمون الناس أن ما جاء به شعيب عليه السلام من الدين هو الضلال بعينه ، وبالتالي فإن الدخول في

هذا الدين هو الخسارة بكل معانيها ، والنقصان بكل مظاهره ، والإنسان بطبيعته لا يرضى أن يتهم بالخسارة والنقصان ، ومن ثمَّ فإن من تقبل هذا التشويه والتشكيك سينفر دون شك من شعيب عليه السلام ، وسيبتعد عن طريق الدعوة خوفاً من الوقوع في الخسران ، أو خشية أن يوصم بأنه من الخاسرين الجاهلين المغبونين .

إنَّ الملأَ المستكبرين حين يلقون التهم تباعاً على رسول من الرسل عليهم السلام بأنه ساحر ، مجنون ، سفيه ، كاذب ، يطلب الزعامة ، وغير ذلك كثير ، فهم في الواقع أول من يعلم بأنها تهم باطلة ، وأن الرسل عليهم السلام منها براء ، وأنها لا تستقيم مع واقع الرسل عليهم السلام وما هو معروف عن شخصياتهم وتصرفاتهم ، ولكنهم إنما يخططون لهذه الاتهامات ، ويفصلونها سابقاً ، ليخدعوا بها العوام ، ويضللوهم بها ، ويصرفوهم عن الاستجابة للحق مع رسل الله عليهم السلام .

ولقد كان هذا هو مقصد الملأ من قريش حين يرمون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتهمونه بالسحر - مثلاً - كما قال سبحانه :

{ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإننا به كافرون} (١).

"ولا يختلط الحق بالسحر ، فهو واضح بين ، إنما هي دعوى ، كانوا هم أول من يعرف بطلانها ، فما كان كبراء قريش ليغيب عنهم أنه الحق ، ولكنهم كانوا يخدعون الجماهير من خلفهم فيقولون إنه سحر ، ويعلنون كفرهم على سبيل التوكيد . يقولون {وإننا به كافرون} ليلقوا في روع الجماهير أنهم واثقون مما يقولون ، فيتبعوهم عن طريق الإيحاء والانقياد ، شأن الملأ من كل قوم في التغرير بالجماهير ، خيفة أن يفلتوا من نفوذهم ، ويهتدوا إلى كلمة التوحيد التي يسقط معها كل كبير ولا يعبد ويتقى إلا الله العلي الكبير" (٢).

(١) سورة الزخرف : آية ٣٠

(٢) في ظلال القرآن ٥/٣١٨٥-٣١٨٦ .

وأحيانا يتجه الملاً المعاندون إلى التظاهر بالانصاف والتجرد ، وأن همهم هو البحث عن الحقيقة ، وهدفهم الوصول إلى الحق والصواب ، كما قال الله تبارك وتعالى عن فرعون :

{وقال فرعون يا أيها الملاً ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي ياهايمان على الطين فاجعل لي صرحا لعلني أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين}{(١)} .

ففرعون يصرح بأنه لا يعلم أن هناك إلهها غيره ، غير أنه لا يجزم بالنتيجة ، وسيعمل جاهدا في البحث عن الحقيقة ، والتوصل إلى الحق ، وإن كان الغالب - حسب ادعائه الفاجر - أن دعوى موسى عليه السلام لا تتعدى الكذب ، ومجرد الادعاء {وإني لأظنه من الكاذبين} .

وفرعون بهذا يلبس ثوب الإنصاف أمام رعيته ، نيلا لثقتهم ، وتمهيدا لما يقرره لهم بعد ذلك من الجواب ، فيتلقوه مطمئنين مسلمين (٢) .

هذا التدليس في الخطاب ، والتظاهر بالإنصاف ، يخدع كثيرا من الجماهير الغافلة ، فيؤسسون عليه استجابتهم لما يمليه المستكبرون من مخالفة الرسل عليهم السلام والعداء للدين .

ومما سلكه فرعون أيضا من وسائل التمويه (٣) والخداع إظهاره الشفقة على الرعية ، وتحديثه بلسان العامة ، فيجعل موقفه من الدعوة ، وحره للدعاة ، هو من أجل الناس ، رغبة في إيصال الخير لهم ، ودرء الشر عنهم ، ومن ذلك ما حكاه القرآن عنه :

{وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد}{(٤)} .

(١) سورة القصص : آية ٣٨

(٢) ينظر تفسير روح المعاني ٨٠/٢٠ .

(٣) قال في لسان العرب ٤٣٠٣/٥ : "مَوَّهَ فلان باطله : إذا زينته وأراه في صورة الحق"

(٤) سورة غافر : آية ٢٦

فهو يعلن إشفاقه على الرعية ، وخوفه على العامة من دعوة موسى عليه السلام ، أن تحول عقائدهم ، أو أن تؤثر سلباً على حياتهم المعيشية أو الأمنية ، فتفقدهم الأمن والرخاء والاستقرار ، وهو بذلك يحرك حميتهم ويثير عصبيتهم ، ويشعل الكراهية في نفوسهم لموسى عليه السلام ولدعوته والإنسان بطبعه حريص على عقيدته وفكره ، وعلى أرضه ووطنه ، ويأبى أن يُسَلَّبها بطريق الانتزاع والقوة .

وبهذا التلبيس والتضليل ، يضمن فرعون وقوف الناس معه ضد موسى عليه السلام ودعوته ، لأن القضية - كما صورتها مقولته - ليست قضية فرعون وحده ، وإنما خطرهما يمس الجميع .

ومن تمويه فرعون كذلك وخداعه لرعيته ، تصريحه بأن همه الأول والأخير هو سعادة العامة واستقرارهم ورشادهم ، وأن هذا هو باعته على مجابهة موسى عليه السلام ، ورغبته في القضاء عليه وعلى دعوته :

{.. قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيلاً الرشاد} (١).

فهو لا يقرر إلا ما يرى أن فيه الخير والسعادة لهم ، والأمن والاستقرار في أوطانهم ، والسعة والرخاء في معيشتهم ، ومن ذلك ما يقرره في شأن موسى عليه السلام ودعوته .

وهذا كله تلبيس وخداع وتضليل وقلب للحقائق ، تعود عليه الملائم المكذوبون في سبيل القضاء على دعوة المرسلين عليهم السلام .

المطلب الرابع الجهل وخفة الأحلام

يمكن أن يعود السبب - أحيانا - في تأثر الناس بالملأ المكذبين إلى الجهل والغفلة ، وخفة الأحلام^(١) ، وانتكاس الفطرة بالفسق والفجور ، واعتياد الذلة والتبعية دون روية ولا تفكير .

ومن كانت هذه حاله فانه سرعان ما يتأثر بكل ما يلقي عليه دون نظر ولا تأمل ولا تمحيص . وهذا مادفع بجماهير فرعون أن تستجيب لمزاعمه ، وتتقبل تصريحاته الكاذبة ، وتصدقه وهو يعلن ندائه كما حكى القرآن الكريم :

{وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري ...} (١).

{ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون} (٢).

{فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى} (٤).

فيدعوهم هو إلى الاعتراف له بالالهية ، ويسارعون هم إلى السمع والطاعة والاستجابة له ، وما ذاك فيهم إلا جهل بالله سبحانه ، وخواء القلوب من معرفته جل وعلا ، وسخافة في الأذهان ، وذلة في النفوس ، وإلا فكل عاقل يدرك أن فرعون يجيأ مثلهم ، ويموت مثلهم ، ويعرض له ما يعرض لهم ، ولكنها الغفلة والخفة ، كما قال الله عز وجل :

{فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين} (٥).

(١) أى العقول . ينظر ترتيب القاموس المحيط ٦٩٩/١ .

(٢) سورة القصص : من آية ٣٨

(٣) سورة الزخرف : آية ٥١

(٤) سورة النازعات : آية ٢٣-٢٤

(٥) سورة الزخرف : آية ٥٤

"والمعنى : فاستجهل قومه (فأطاعوه) لحفة أحلامهم وقلة عقولهم" (٦).
والطغاة المستكبرون يرغبون في تمكين هذا الجهل والغفلة ، وخفة
الأحلام ، وضعف التصور والإدراك، لدى الأتباع والعامّة ، حتى يسلس
قيادهم ، وتيسر السيطرة عليهم .

قال صاحب الظلال : "واستخفاف الطغاة للجماهير أمر لاغرابة فيه ،
فهم يعزلون الجماهير أولاً عن كل سبل المعرفة ، ويحجبون عنهم الحقائق
حتى ينسوها ولا يعودوا يبحثون عنها، ويلقون في روعهم ما يشاؤون من
المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة ، ومن ثمّ يسهل
استخفافهم بعد ذلك ، ويلين قيادهم فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال
مطمئنين ، ولا يملك الطاغية أن يفعل بالجماهير هذه الغفلة إلا وهم فاسقون
لا يستقيمون على طريق ، ولا يمسون بجبل الله ، ولا يزنون بميزان الإيمان ،
فأما المؤمنون فيصعب خداعهم واستخفافهم واللعب بهم كالريشة في مهب
الريح ، ومن هنا يعلل القرآن استجابة الجماهير لفرعون فيقول : {استخف
قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين} (٢)" (٣).

وبالتالى فإن عوامل التأثير يمكن أن تكون ذاتية من داخل النفس ،
حين يعيش الإنسان فى جهالة وخفة ، وضحالة فكر ، واستقبال لكل
ما يعرض دون روية أو تفكير ، والتشبع بكل ما يلقى دون تأمل أو نظر ،
وامتنصاص كل شبهة دون نقاش أو تمحيص .

يقول الله جل شأنه :

{وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن يوحي بعضهم إلى
بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون . ولتصغى
إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقتروا ما هم مقترفون} (٤).

(١) تفسير القرطبي ٦٨/١٨ .

(٢) سورة الزخرف : آية ٥٤

(٣) فى ظلال القرآن ٣١٩٤/٥ .

(٤) سورة الأنعام : آية ١١٢-١١٣

قال السَّعْدِيُّ : " .. أى يزين بعضهم لبعض الأمر الذى يدعون إليه من الباطل ، ويزخرفون له العبارات ، حتى يجعلوه فى أحسن صورة ، ليغتر به السفهاء ، وينقاد له الأغبياء ، الذين لا يفهمون الحقائق ، ولا يفقهون المعانى ، بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة ، والعبارات المموهة ، فيعتقدون الحق باطلا ، والباطل حقا ، ولهذا قال تعالى : { ولتصغى إليه } أى : ولتتميل إلى ذلك الكلام المزخرف { أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة } لأن عدم إيمانهم باليوم الآخر وعدم عقولهم النافعة يحملهم على ذلك { وليرضوه } بعد أن يصغوا إليه ، فيصغون إليه أولا ، فإذا مالوا إليه ، ورأوا تلك العبارات المستحسنة ، رضوه وزين فى قلوبهم ، وصار عقيدة راسخة وصفة لازمة ، ثم ينتج من ذلك أن يقترفوا من الأعمال والأقوال ما هم يقترفون ، أى يأتون من الكذب بالقول والفعل ما هو من لوازم تلك العقائد القبيحة ، فهذه حال المفتريين شياطين الانس والجن ، والمستجيبين لدعوتهم " (١) .

(١) تيسير الكريم الرحمن ٥٩/٢ - ٦٠ .

الباب الثاني

وسائل الملا فذ العمل ضد دعوة الرسل عليهم السلام

ويشتمل على فصلين :

الفصل الأول : إثارة الشبهات

الفصل الثاني : المجابهاة

الفصل الأول

إثارة الشبهات

ويشتمل على تمهيد وثلاثة مباحث :

- المبحث الأول : شبهات حول الدعوة
- المبحث الثاني : شبهات حول الرسل عليهم السلام
- المبحث الثالث : شبهات حول المؤمنين بالدعوة

تمهيد**** المراد بالشبهات :**

* الشبهات جمع شبهة ، و"الشبهة : الالتباس" (١) ، يقال : "شبه عليه الأمر تشبيها : لبس عليه" (٢) . "وتقول : شبهت على يافلان : إذا خلط عليك ، واشتبه الأمر : إذا اختلط" (٣) "وأمر مشتبها : مشكلة يشبه بعضها بعضا" (٤) ، "وشبه عليه : خلط عليه الأمر حتى اشتبه بغيره" (٥) .

* والمقصود بالشبهات هنا ما يثير الشك والارتياب في صدق الرسول ، وصحة رسالته ، وأحقية ما يدعوه إليه ، ونزاهة أتباعه وسلامة غاياتهم ، فيشتبه الأمر على الناس ، مما ينتج عنه حجبهم عن الرؤية الصحيحة للحق ويؤدى إلى منعهم من الاستجابة ، أو تأخير تلك الاستجابة .

والمراد بإثارة الشبهات نشرها وتزيينها وإشاعتها بين الناس ، والعمل على تكرارها على المسامع والآذان ، لتأخذ طريقها إلى القلوب والأذهان ، فيتأثر بها ويألفها من استقبلها وصدقها وارتضاها ، ويحصل له بها الالتباس والاشتباه في قضايا الدعوة ، ومن ثم تصبح تلك الشبهات والاتهامات لدى هؤلاء حقائق يأخذون هم أيضا في ترديدها ، وتبنيها ، والدفاع عنها ، واتخاذ الموقف السلبي من الدعوة على أساسها (٦) .

**** هدف المضلين من إثارة الشبهات :**

لاشك أن الهدف الأسمى العام لدى هؤلاء هو صد الناس عن دين الله تعالى ، والقضاء على دعوته سبحانه ، وماتتضمنه من الهدى والحق

-
- (١) لسان العرب ٢١٩٠/٤ .
 - (٢) ترتيب القاموس ٧٦٠/٣ .
 - (٣) لسان العرب ٢١٩٠/٤ .
 - (٤) نفس المصدر والصفحة .
 - (٥) نفس المصدر والصفحة .
 - (٦) ينظر أصول الدعوة ص ٤١٠ .

القائم على توحيد الله جل وعلا - كما قال تبارك وتعالى :
﴿ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله
لا يهدي القوم الظالمين . يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ...﴾ (١).

وفي موضع آخر من القرآن الكريم :
﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ...﴾ (٢).
روى ابن جرير عن السدي (٣) قال : "يريدون أن يطفئوا الإسلام
بكلامهم" (٤).

ذلك هو شأن المضلين مع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام .
يقول الله جل شأنه :

﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى
بعض زخرف القول غرورا ...﴾ (٥).

قال السعدي : "أى يزين بعضهم لبعض الأمر الذى يدعون إليه من
الباطل ، ويزخرفون له العبارات حتى يجعلوه فى أحسن صورة ليغتر به
السفهاء ، وينقاد له الأغبياء ، الذين لا يفهمون الحقائق ، ولا يفقهون المعانى ،
بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة ، والعبارات المموهة ، فيعتقدون الحق باطلا ،
والباطل حقا" (٦).

ويقول عز وجل :

﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل
ليدحضوا به الحق ...﴾ (٧).

(١) سورة الصف : من الآيات ٧-٨

(٢) سورة التوبة : من آية ٣٢

(٣) السدي : بضم السين وتشديد الدال . تقريب التهذيب ص ١٠٨ .

(٤) تفسير الطبرى ١١٦/١٠ .

(٥) سورة الأنعام : من آية ١١٢

(٦) تيسير الكريم الرحمن ٥٩/٢-٦٠ ، وينظر تفسير الطبرى ٣/٨ .

(٧) سورة الكهف : من آية ٥٦

{كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم
ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق...}{(١)} .
قال ابن كثير : "أى ماحلوا(٢) بالشبهة ليردوا الحق الواضح
الجلي"(٣) .

هذا الاتجاه في الصد عن دين الله تعالى كان طبيعة للمضلين من
اليهود والنصارى وأهل الأوثان كما في قول الله تقدرت أسماؤه :
{ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولاهدى ولاكتاب منير . ثاني
عطفه ليضل عن سبيل الله...}{(٤)} .

{ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا...}{(٥)} .
{ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم...}{(٦)} .
{ياأيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس
بالباطل ويصدون عن سبيل الله...}{(٧)} .

{قل ياأهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا...}{(٨)} .
أى باغين لسبيل الله - وهو الإسلام - اعوجاجا ، وذلك باثارة الشبه
واللقاء التهم(٩) .

ذلك هو هدف المضلين النهائى لما يثرونه من الشبهات ، وهناك
أهداف كثيرة يمكن أن تتفرع عن ذلك الهدف الرئيسى ، أذكر منها مايلي :

-
- (١) سورة غافر : من آية ٥
 - (٢) المماحلة : المكايذة والمجادلة والمدافعة . ينظر لسان العرب ٦/٤١٤٨-٤١٤٩ .
 - (٣) تفسير ابن كثير ٧١/٤ .
 - (٤) سورة الحج : من الآيات ٨-٩
 - (٥) سورة البقرة : من آية ١٠٩
 - (٦) سورة آل عمران : من آية ٦٩
 - (٧) سورة التوبة : من آية ٣٤
 - (٨) سورة آل عمران : من آية ٩٩
 - (٩) ينظر : تفسير البغوى ١/٣٣١ ، تفسير القاسمى ٧/٢٠٨ .

* التشكيك في الحقائق الثابتة في دين الله تعالى ، كقضية الوحدانية لله جل وعلا ، وقضية الرسالة ، وقضية البعث ، ونحو ذلك .

* التنفير من الدعوة ، وزعزعة الثقة في القائمين عليها ، والإغراء على كراهيتهم ، وذلك بتشويه سمعة الدعوة والدعاة ، وإظهارهم في صورة كريهة ملؤها الكذب والنفاق والخداع .

* تحويل أنظار العامة عن قضايا الإيمان والدعوة ، وعدم إتاحة الفرصة لهم للتأمل في الحق بهدوء ، والنظر فيه بتجرد دون أى مؤثر خارجي .

* التأثير على موقف الجماهير ، بحيث يؤيدون فكرة المجابهة للدعوة والمؤمنين بها باعتبار أن القضية قضيتهم ، والحصم في المعركة هو عدوهم أيضا .

* إرهاب الأفراد من التفكير في الاستجابة للدعوة والإيمان بها ، إذ أن ذلك معناه التعرض لذات الاتهامات والشبهات .

* التأثير السلبي على الدعاة أنفسهم نفسيا وعمليا ، وإشغالهم بما يثار عنهم من الشبهات عن قضيتهم الأساسية .

* الضغط المعنوي على المؤمنين بالدعوة ، أملا في ارتداد بعضهم ونكوصه^(١) عن طريق الإيمان والدعوة .

**** سمات عامة لشبهات المكذبين في القصص القرآني :**

يمكن للتأمل في القصص القرآني أن يلحظ عددا من السمات العامة على ما يثيره المضلون من الشبهات ، أذكر منها السمتين التاليتين :

* التشابه والتكرار :

فقد يمر القارئ لكتاب الله تعالى على شبهة أثرت حول نبي الله نوح عليه السلام ، ثم يلحظ الشبهة ذاتها في قصة هود عليه السلام ، وبعد التأمل يجدها تكاد تتكرر مع كل رسول من الرسل عليهم السلام .

(١) نكص عن الأمر : أى رجع عنه وأحجم . ينظر لسان العرب ٦/٤٥٤١-٤٥٤٢ .

ذلك التكرار والتشابه أمر ظاهر في كثير من الشبهات ، حتى وإن اختلفت الألفاظ والعبارات لما يريده المظلون من التلبيس والافتراء ، فإن التشابه حاصل في الفكرة ومضمون الاتهام .

ولذا خاطب الله جل وعلا رسوله عليه الصلاة والسلام تسليية له وتهويينا لما يواجهه من أنواع الشبه والاتهامات ، فقال سبحانه :
{ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ...} (١).

وهذا التشابه ليس بالأمر المستغرب ، فإن أهداف المصلين واحدة ، وإن تناءت بينهم الأزمان ، واختلفت المواطن والبلدان ، فالكل يقصد دين الله تعالى بالحرب والمجابهة ، والجميع مشترك في الإضلال والصد عن سبيل الله تعالى .

يقول جل شأنه :

{وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم ...} (٢).

فلما حصل التشابه لقلوبهم في الضلال أنتج ذلك تشابها فيما يصدر عنهم من المقالات والافتراءات والاتهامات لرسول الله عليهم السلام ، وكأن القوم قد أوصى بعضهم بعضا :

{كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون . أتواصوا به بل هم قوم طاغون} (٣).

قال ابن كثير : "{أتواصوا به} أى أوصى بعضهم بعضا بهذه المقالة؟ {بل هم قوم طاغون} أى لكن هم قوم طغاة تشابهت قلوبهم فقال متأخرهم كما قال متقدمهم" (٤).

(١) سورة فصلت : من آية ٤٣ ، وينظر تفسير الطبرى ١٢٥/٢٤-١٢٦ .

(٢) سورة البقرة : من آية ١١٨

(٣) سورة الذاريات : آية ٥٢-٥٣

(٤) تفسير ابن كثير ٢٣٨/٤ .

"فهم جبلة واحدة ، وطبيعة واحدة للمكذبين ، وهو استقبال واحد للحق وللرسل يستقبلهم به المنحرفون {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون} كما يقول هؤلاء المشركون ، كأنما تواصلوا بهذا الاستقبال على مدار القرون ، وما تواصلوا بشيء ، إنما هي طبيعة الطغيان وتجاوز الحق تجمع بين الغابرين واللاحقين" (١).

* التناقض والتخبط ، والحيرة والاضطراب :

ذلك أن ما يثيره المضلون من الشبهات بعيد في الواقع عن الاشتباه الحقيقي ، ومن ثم فهم متناقضون بين ما يشيعونه بألسنتهم من الشبه ، ويفترونه بأفواههم من الأقاويل ، وبين ما تستيقنه أنفسهم من حقيقة الدعوة وما تعلمه قلوبهم عن صدق الرسل عليهم السلام ، ورجاحة عقولهم ، وتميز شخصياتهم ، مما جعل اتهاماتهم ذاتها تتسم بالحيرة والتناقض ، والتردد والاضطراب ، والاختلاف والتخبط فيما يوردونه تباعا عن نبي الله المرسل إليهم ، ينتقلون من شبهة إلى شبهة ، ولا يستقرون في ذلك على حال ، كما ذكر الله تبارك وتعالى من أقاويل المشركين المضلين عن رسول الله عليه الصلاة والسلام :

{بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراء بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون} (٢).

يقول ابن كثير : "هذا إخبار عن تعنت الكفار وإلحادهم واختلافهم فيما يصفون به القرآن وحيرتهم وضلالهم فتارة يجعلونه سحرا وتارة يجعلونه شعرا وتارة يجعلونه أضغاث أحلام وتارة يجعلونه مفترى ، كما قال تعالى :

{أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا} (٣)" (٤).

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٣٨٦ .

(٢) سورة الأنبياء عليهم السلام : آية ٥

(٣) سورة الإسراء : آية ٤٨ ، وسورة الفرقان : آية ٩

(٤) تفسير ابن كثير ٣/١٧٣ .

**** المراد من التنويع فى هذا الضمحل :**

الشبهات حول الدعوة ، أو الدعاة ، أو المؤمنين بالدعوة ، بينها ارتباط وثيق وكبير . ذلك أن مايمس الدعوة يمس الداعية كذلك ، ومايشكك فى الداعية يتناول الدعوة أيضا، فهى حلقات مترابطة لا يكاد ينفك بعضها عن بعض .

وبالتالى فقد كان المقصود من التنويع هنا هو مجرد الزيادة فى إيضاح الفكرة ، والتركيز فى تصور المقصود من كل شبهة ، خصوصا وأن المشيرين للشبهات ينوعون ويتفننون فى الطرح والإلقاء ، فهم تارة يستهدفون الدعوة ذاتها للقضاء عليها ، وتارة يستهدفون الداعية للتنفير منه والتقليل من شأنه وثالثة يستهدفون المؤمنين بالدعوة لتشويه صورتهم .. وهكذا ، ومن ثم حصل هذا التقسيم للشبهات باعتبار الغالب فى المقصود بها ، مع التأكيد على العلاقة الوثيقة بين تلك الأقسام جميعها ، وأنها فى نهاية الأمر تُكوِّن مجموعة واحدة تمثل سهاما مسمومة يريد لها مروجوها أن تصيب الدعوة الإسلامية بأبعادها الثلاث : الدعوة ، والدعاة ، والمؤمنين بالدعوة .

المبحث الأول

شبهات حول الدعوة

ويشتمل على الشبهات التالية :

الأولى :

اتهام الدعوة بأنها مختلفة ، مصدرها البشر ، لا الوحي الإلهي .

الثانية :

القول بأن أتباع الدعوة من عامة الناس ومستضعفيهم .

الثالثة :

الحكم على الدعوة بأنها غريبة على طبيعة المجتمع وعقيدته ، وخارجة عن مألوف الناس وتقاليدهم .

الشبهة الأولى اتهام الدعوة بأنها مختلفة مصدرها البشر لا الوحد الإلهي

يجمع الملائم الكذوبون على إثارة هذه الشبهة ، ودفعها للتداول بين الناس ، إلا أنهم يختلفون فيما بينهم في الاتهام المناسب - في نظرهم - للدعوة والرسالة .

وفيما يلي أذكر بعض مارددوه من التهم التي تدخل في دائرة هذه الشبهة :

(١) ماجاء به الرسول عليه السلام إنما هو . بزعمهم . من أساطير الأولين . يقول الله تعالى في قصة هود عليه السلام مبيناً مقولة الكذوبين : {قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين . إن هذا إلا خلق الأولين} (١).

"قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي (خلق الأولين) والباقون (خلق)" (٢).

قال ابن كثير : "أما على قراءة فتح الخاء : المراد اختلاق الأولين ، أي إن هذا الذي جئت به إلا اختلاق منك أخذته من كتب الأولين . هكذا فسره غير واحد من الصحابة والتابعين" (٣).

و"قال الفراء : والعرب تقول للخرافات : أحاديث الخلق" (٤).

فهؤلاء المضلون يصفون ماجاء به هود عليه السلام عن ربه سبحانه بأنه من أكاذيب الأولين وخرافاتهم وأحاديثهم المفتعلة التي لاحقيقة لها ولا أصل ، وإنما هي أقاويل وأباطيل مزخرفة يتناقلها اللاحق عن السابق .

(١) سورة الشعراء : آية ١٣٦-١٣٧

(٢) تفسير القرطبي ٨٥/١٣ ، وينظر سراج القاريء المبتدئ لأبي القاسم على بن عثمان البغدادي ص ٣٠٧-٣٠٨ ، ط/دار الفكر .

(٣) قصص الأنبياء لابن كثير ١/١٢٨ ، وينظر تفسير البغوي ٣/٣٩٤ .

(٤) زاد المسير ٤٦/٦ .

ويكرر الملائ من قريش الشبهة ذاتها حول دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال سبحانه :

{وانطلق الملائ منهم أن امشوا واصبروا على آهتكم إن هذا لشيء يراد .
ماسمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق} (١).
والمراد بالاختلاق : الكذب والافتعال (٢).

فالملائ المشركون يثيرون بين العامة أن دعوة نبي الله عليه الصلاة والسلام باطلة من أصولها ، وأن دعوى الوحي والرسالة قائمة على الكذب والافتراء لأساس لها من الصحة ، ولانسبة فيها من اليقين .
يقول عز وجل :

{وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه...} (٣).

{وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى...} (٤).
"أى كلام مصروف عن وجهه لامصداق له في الواقع (مفترى) بإسناده إلى الله عز وجل" (٥).

فالدعوة - في زعمهم - منقوضة من جذورها ، إذ لا مستند لها من الحقيقة ، بل هي مجموعة من الأكاذيب والأباطيل ، يدعى نبي الله عليه الصلاة والسلام أنها من عند الله زورا وبهتانا .

ثم لا يكتفى الملائ من قريش بهذا الاتهام العام ، ولكنهم يصرحون بأن مصدر هذا القرآن هو ماسطره الأولون من أخبارهم ، ومن خرافاتهم التي لا تقوم على أصل .

-
- (١) سورة ص : آية ٦-٧
 - (٢) ينظر تفسير البغوى ٤٩/٤ .
 - (٣) سورة الفرقان : من آية ٤
 - (٤) سورة سبأ : من آية ٤٣
 - (٥) تفسير روح المعاني ١٥٢/٢٢ .

وقد أورد القرآن الكريم اتهامهم هذا في مواضع كثيرة ، ومنها قول الله جل وعلا :

{ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين}{(١)} .
وقوله سبحانه :

{وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين}{(٢)} .

والمعنى - كما قال ابن جرير - "إن هذا القرآن الذى تتلوه علينا يا محمد إلا ماسطره الأولون وكتبوه من أخبار الأمم" (٣) .
وقوله تبارك وتعالى :

{وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم}{(٤)} .

أى "سيقولون : هذا القرآن الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم أكاذيب من أخبار الأولين قديمة" (٥) .

ومن الآيات التى عرضت شبهتهم هذه أيضا قول الله جل شأنه :

{وقالوا أساطير الأولين اكتتبها...}{(٦)} .
{وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين}{(٧)} .

-
- (١) سورة الأنعام : آية ٢٥
 - (٢) سورة الأنفال : آية ٣١
 - (٣) تفسير الطبرى ٢٣١/٩ .
 - (٤) سورة الأحقاف : آية ١١
 - (٥) تفسير الطبرى ١٣/٢٦ .
 - (٦) سورة الفرقان : من آية ٥
 - (٧) سورة النحل : آية ٢٤

{ولاتطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم .
عتل بعد ذلك زنيم . أن كان ذا مال وبنين . إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير
الأولين}{(١)} .

{ويل يومئذ للمكذبين . الذين يكذبون بيوم الدين . وما يكذب به إلا كل
معتد أثيم . إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين}{(٢)} .

وممن اشتهر بإثارة هذه الشبهة من رؤوس المشركين : النضر بن
الحارث ، فقد كان - كما ذكر ابن إسحاق - "إذا جلس رسول الله صلى الله
عليه وسلم مجلسا فدعا فيه إلى الله تعالى ، وتلا فيه القرآن ، وحذر فيه
قريشا ما أصاب الأمم الخالية ، خلفه في مجلسه إذا قام فحدثهم عن رستم
واسفنديار وملوك فارس ، ثم يقول : والله ما محمد بأحسن حديثا مني ،
وما حديثه إلا أساطير الأولين ، اكتبها كما اكتبتها" (٣) .

ولما جاءهم القرآن الكريم بذكر اليوم الآخر ، ومافيه من البعث
والجزاء ، ووعظهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وخوفهم به ، اعتبروا
ذلك كله أيضا من أساطير الأولين .
قال تعالى :

{بل قالوا مثل ما قال الأولون . قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا
لمبعوثون . لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين}{(٤)} .
{وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون . لقد وعدنا هذا
نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين}{(٥)} .

(١) سورة القلم : آية ١٠-١٥

(٢) سورة المطففين : آية ١٠-١٣

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٣٨٥/١ (مع اختصار يسير) ، وينظر : البداية ١١٠/٣ ،

السيرة الحلبية ٥١٧/١ ، تفسير الطبرى ١٨٢/١٨ .

(٤) سورة المؤمنون : آية ٨١-٨٣

(٥) سورة النمل : آية ٦٧-٦٨

فما تضمنه كلام الله جل وعلا من الإخبار عن البعث بعد الموت ، والقيامة وما فيها من الحساب والجزاء ، هو - في زعمهم - أخبار مفتعلة ، وأحاديث مفتراة ، وأكاذيب مدعاة ، سطرها الأقدمون ، ونقلها اللاحقون ، دون أن يكون لها بالحقيقة صلة أو نسب .

(٢) ماجاء به الرسول عليه السلام . حسب اتهامهم . أضغاث أحلام .

ذكر القرآن الكريم أن بعض مشركى قريش وصفوا ماجاءهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي بأنه أضغاث أحلام ، وذلك في قول الله سبحانه :

{بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراءه...} (١).

أى "قال بعضهم : هو أهاويل رؤيا رآها فى المنام" (٢).

وهم يريدون بذلك التأكيد على أن القرآن باطل لاحق فيه ، وليس له أساس صحيح معتمد ، إنما هو عبارة عن أحلام تختلط عليه فى المنام فتخرج على لسانه فى اليقظة .

شبهة ساذجة ، ظاهرة البطلان ، تدل على جهل وسخافة فى الأذهان ، ولكنهم على كل حال جعلوها تهمة ضمن سائر اتهاماتهم حول القرآن الكريم .

(٣) ماجاء به الداعية إنما هو من قبيل السحر .

أثير هذا الاتهام حول عدد من دعوات الرسل عليهم السلام .

ففى قصة موسى عليه السلام تكررت هذه الشبهة على لسان فرعون وملئه وصفا لما جاءهم به نبي الله موسى عليه السلام من البيئات . قال تعالى :

{فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين} (٣).

(١) سورة الأنبياء عليهم السلام : من آية ٥

(٢) تفسير الطبرى ٣/١٧ .

(٣) سورة يونس عليه السلام : آية ٧٦

{فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين} (١).

فمع كون الآيات التي أوردتها موسى عليه السلام ساطعة في ظهورها ، واضحة في دلالتها على صدقه عليه السلام ، إلا أن فرعون وملاه اعتبروا هذه المعجزات من باب السحر ، بل ووصفوه بأنه (مبين) مبالغة منهم في إثارة الشبهة وخلط المعجزة بالسحر .

ويقول تعالى عنهم أيضا :

{فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى ...} (٢).
"أى سحر تختلقه ، لم يفعل قبله مثله" (٣).

ومبالغة في تنفير الناس من دعوة موسى عليه السلام ، وزيادة في الصاق شبهة السحر بها، يصرح فرعون بأن ماجاء به موسى عليه السلام هو السحر العظيم الذي سينهى وجودهم على أرض مصر :
{قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ...} (٤).

ويخاطب فرعون نبي الله موسى عليه السلام مصرحا له بالشبهة ذاتها وبالأسلوب نفسه :

{قال أجتئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى} (٥).

فما جاء به موسى عليه السلام ليس من قبيل المعجزة - في نظر فرعون - ولكنه سحر يريد أن يسحر به الناس ، فيكون له منهم الأتباع ، وبالتالي الدولة والسلطان ، ومن ثم فمشروع موسى عليه السلام كله مرتكز على السحر .

(١) سورة النمل : آية ١٣

(٢) سورة القصص : من آية ٣٦

(٣) تفسير روح المعاني ٧٨/٢٠ .

(٤) سورة الشعراء : من الآيات ٣٤-٣٥

(٥) سورة طه : آية ٥٧

وحتى يثبت فرعون للناس هذا الاتهام ، ويؤكدده في الأذهان ، أعلن أنه سيعارض موسى عليه السلام بنفس الأسلوب الذى مهر فيه ، حين تجتمع جموع السحرة ليقضوا على سحر موسى الذى يدعى أنه بينة من رب العالمين :

{فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لانخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى} (١).

ويتناقل السحرة - قبل إيمانهم - الشبهة ذاتها التى أثارها الطاغية ، يحمسون بها أنفسهم على مجابهة موسى وإبطال أمره عليه السلام :

{فتنازعوا أمرهم بينهم وأسرروا النجوى . قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ...} (٢).

ولما عرف أولئك السحرة الحق ، وتيقنوا أنها المعجزة مع موسى عليه السلام ، فآمنوا وسجدوا لله رب العالمين ، تحرك فرعون حينئذ لينهى هذا التمرد - فى نظره - وبعد ما كان يثير شبهة السحر عما جاء به موسى عليه السلام أمامهم ، أصبح يثيرها هذه المرة عليهم هم ، ويشركهم فيها ، معتبرا نبي الله عليه السلام أستاذا لهم فى السحر ، زعيما لهم فى المؤامرة :

{قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ...} (٣).

ومع تتابع البينات من نبي الله موسى عليه السلام ، يستمر فرعون وملؤه فى إثارة هذه الشبهة واشاعتها ونشرها ، بل ويجعلون من توالى المعجزات وقودا يزيدون به الشبهة اشتعالا وظهورا :

{وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين} (٤).

(١) سورة طه : آية ٥٨

(٢) سورة طه : من الآيات ٦٢-٦٣

(٣) سورة طه : من آية ٧١

(٤) سورة الأعراف : آية ١٣٢

وكذلك فعل الكافرون أعداء الحق مع عيسى عليه السلام في وصف
ما جاءهم به من دعوة الله سبحانه ، كما قال تعالى في معرض الامتنان على
نبيه عيسى عليه السلام :

{... وإذ كفت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا
منهم إن هذا إلا سحر مبين} (١).

ويكرر الملام من قريش ذات الشبهة مع رسول الله صلى الله عليه
وسلم .

فهذا الوليد بن المغيرة - أحد رؤساء قريش - يفكر مليا ، ويتأني
ويتروى فيما يمكن أن يقول ، ويقلب نظره في الشبهة المناسبة التي يمكن أن
يتقبلها الرأي العام في مكة وخارجها ، وبعد تناول عدد من الشبهات يستقر
رأيه الأخير على أن ما جاء به نبي الله عليه الصلاة والسلام ما هو إلا سحر
يؤثر لا وحي يوحى .

قال الوليد لأبي جهل - لما طلب منه قولاً يشعر بإنكاره لما جاء به
رسول الله صلى الله عليه وسلم - :

"ماذا أقول فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ، ولا أعلم برجز
ولا بقصيدة مني ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا...".
ولما أكد أبو جهل طلبه مرة أخرى قال الوليد : "فدعني حتى أفكر ،
فلما فكر قال هذا سحر يؤثر ، يآثره عن غيره" (٢).

وفي ذلك يقول الله عز وجل :

{أذرنى ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا . وبنين شهودا .
ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه
صعودا . إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم

(١) سورة المائدة : من آية ١١٠

(٢) من خير سبق تخريجه ص ١٠٦ .

عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر {١}.

قال ابن كثير : "فقال إن هذا الا سحر يؤثر { أى هذا سحر ينقله محمد عن غيره عن قبله ويحكيه عنهم ، ولهذا قال {إن هذا إلا قول البشر} أى ليس بكلام الله ، وهذا المذكور فى هذا السياق هو الوليد بن المغيرة المخزومى أحد رؤساء قريش ، لعنه الله" {٢}.

فالقرآن الكريم - فى تصريح الوليد - ليس هو كلام الله جل وعلا ، وإنما هو فى حقيقته من كلام البشر ، وفى واقعه سحر ينقله نبينا عليه الصلاة والسلام عن السابقين .

هذه الشبهة تكررت من طغاة المكذبين حول دعوته صلى الله عليه وسلم كما فى قول الله عز وجل :

{وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين} {٣}.

{.. فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين} {٤}.

{وقالوا إن هذا إلا سحر مبين} {٥}.

{.. وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين} {٦}.

وهم يتناجون بهذه الشبهة وأمثالها ويتواصلون كما حكى القرآن الكريم :

-
- (١) سورة المدثر : آية ١١-٢٥
 - (٢) تفسير ابن كثير ٤/٤٤٢ .
 - (٣) سورة الأحقاف : آية ٧
 - (٤) سورة الصف : من آية ٦
 - (٥) سورة الصافات : آية ١٥
 - (٦) سورة سبأ : آية ٤٣

إلاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون} (١).

"أى إن هذا الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم سحر فكيف تجيئون إليه وتتبعونه؟" (٢).

ويزعم هؤلاء أن كفرهم بدعوته عليه الصلاة والسلام مبنى على أساس من هذه الشبهة كما قال جل شأنه :

﴿ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون﴾ (٣).

"ولا يختلط الحق بالسحر فهو واضح بين ، وإنما هى دعوى كانوا هم أول من يعرف بطلانها ، فما كان كبراء قريش ليغيب عنهم أنه الحق ، ولكنهم كانوا يخدعون الجماهير من خلفهم فيقولون إنه سحر ، ويعلنون كفرهم على سبيل التوكيد ، يقولون {وإنا به كافرون} ليلقوا فى روع الجماهير أنهم واثقون مما يقولون ، فيتبعوهم عن طريق الإيحاء والانتقياد} (٤).

ولما انشق القمر (٥) على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ضمن معجزاته الباهرات ، ورآه بعض رجالات قريش رأى العين ، وبدلاً من الاتجاه إلى الإيمان باعتبار ذلك من دلائل صحة نبوته وصدق رسالته ، جعلوا ذلك فرصة للمضى فى إثارة شبهتهم ، فجعلوا هذا الانشقاق للقمر نتيجة من نتائج السحر الذى ينفذه - حسب زعمهم - نبينا عليه الصلاة والسلام .

(١) سورة الأنبياء عليهم السلام : آية ٣

(٢) تفسير القرطبي ١١/١٧٩ .

(٣) سورة الزخرف : آية ٣٠

(٤) فى ظلال القرآن ٥/٣١٨٥-٣١٨٦ .

(٥) كما فى رواية أنس رضى الله عنه "أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما" . رواه البخارى

فى كتاب فضائل الصحابة ، باب انشقاق القمر ٣/١٤٠٤ ، ومسلم بنحوه فى كتاب

صفة القيامة ، باب انشقاق القمر ١٧/١٤٥ .

قال تعالى :

{اقتربت الساعة وانشق القمر . وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر} (١).

والمعنى - كما يقول ابن جرير - "وإن يروا المشركون علامة تدلهم على حقيقة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ودلالة تدلهم على صدقه فيما جاءهم به عن ربهم ، فيولوا مكذبين بها ، منكرين أن يكون حقا يقينا، ويقولوا تكذيبا منهم بها وإنكارا لها أن تكون حقا : هذا سحر سحرنا به محمد حين خيل إلينا أنا نرى القمر منفلقا باثنين بسحره" (٢).

وتعزية لأنفسهم يصفون السحر - في زعمهم - بأنه مستمر {ويقولوا سحر مستمر} "أى باطل مضمحل لادوام له" (٣)، وهم بهذا الوصف لكأنما يمتنون أنفسهم بالقضاء على دعوته عليه الصلاة والسلام وإبطال أمره . هذا الاتهام لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من الوحي الإلهي بأنه سحر ، أمره المكذبون أيضا على دعوة موسى عليه السلام ، كما قال سبحانه :

{فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون} (٤).

والمراد بقولهم {سحران تظاهرا} "أى تعاوننا بتصديق كل واحد منهما الآخر وتأييده إياه" (٥).

(١) سورة القمر : آية ١-٢

(٢) تفسير الطبري ٢٧/٢٨ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤/٢٦٣ .

(٤) سورة القصص : آية ٤٨

(٥) تفسير روح المعاني ٢٠/٩١ .

قال ابن كثير بعد ذكر الأقوال في تفسير الآية : "والظاهر على قراءة (سحران) (١) أنهم يعنون التوراة والقرآن" (٢) ، وهو مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما (٣) .

فهم يعتبرون كلا من التوراة والقرآن لا يخرج عن دائرة السحر ، وكل منهما يتمم الآخر .

ولقد كان الملاء من قريش يثيرون هذه الشبهة في وجه كل قادم إلى مكة خصوصا إذا كان من الأشراف وذوى الشأن ، كما فعلوا مع الطفيل بن عمرو الدوسى إذ قالوا له "ياطفيل إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد أعضل بنا ، وقد فرق جماعتنا وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبين الرجل وبين زوجته ، وإنما نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ..." (٤) .

والملاحظ أنهم بهذه الشبهة يثيرون الخوف لدى السامع من أن يصيبه شىء من سحر شىء الله عليه الصلاة والسلام ، خصوصا وأن السحر أمر يخشاه الإنسان عادة وينتابه الفزع من التعرض له .

يقول الطفيل : " .. فوالله ما زالوا بى حتى أجمعت أن لأسمع منه شيئا ولا أكلمه ، حتى حشوت فى أذنى حين غدوت إلى المسجد كرسفا فرقا من أن يبلغنى شىء من قوله " (٥) .

كما يلاحظ أنهم - حتى تمضى شبهتهم ويصدق قولهم - يذكرون نتائج سحره - فى زعمهم - متمثلة فى التفريق بين الرجل وابنه ، والأخ وأخيه ، فيسلم الابن ويبقى الأب على شركه ، أو يسلم الأخ ويبقى الآخر على كفره وتلك مغالطة من الملاء يتقبلها من يستخفه الباطل من عامة الناس .

(١) قرأ بها عاصم وحمزة والكسائى ، وقرأ الباقون (ساحران) .

ينظر : إبراز المعانى من حرز الأمانى لأبى شامة ص ٦٣٤ ، ط/شركة مصطفى الحلبي

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٣٩٢ ، واقتصر البغوى عليه . ينظر تفسير البغوى ٣/٤٤٩ .

(٣) ينظر : تفسير الطبرى ٢٠/٨٤ ، تفسير ابن كثير ٣/٣٩٢ ، زاد المسير ٦/١٠٣ .

(٤)، (٥) من خبر إسلام الطفيل رضى الله عنه ، وتقدم ص ٦١-٦٢ .

لقد كان هذا الاتهام بالسحر في تاريخ الرسل عليهم السلام سلاحا من أسلحة المضللين يشككون به في صحة النبوات ، بالطعن في المعجزات التي تشهد بصدق الرسل عليهم السلام ، وتصويرها بصورة السحر ، وحينها لا يتأثر بتلك المعجزات من تأصل في ذهنه - نتيجة الشبهة - أن ذلك سحر من عمل البشر ، ومن ثم يرفض المنهج الإلهي الذي يأتي به الرسل عليهم السلام ، إذ أن السحر لابقاء له ، وبالتالي فإن هذا الدين القائم على السحر أيضا لابقاء له ، وهو بذلك لا يستحق القبول أو الاستجابة - حسب زعم المضللين - .

الشبهة الثانية

القول بأن أتباع الدعوة من عامة الناس ومستضعفيهم

وهذا في واقع الدعوات صحيح في غالب الأمر ، ومنها دعوة رسولنا صلى الله عليه وسلم ، إذ استجاب لها - خصوصا في بدايتها - المستضعفون من عامة الناس رضوان الله عليهم .

ولكن الملام من قريش يغالطون فيجعلون من هذا الأمر الطبعي شبهة يبررون بها رفضهم للدعوة ، فيعلنون أن ما جاء به نبينا صلى الله عليه وسلم لو كان فيه الخير والحق لما سبقهم إلى الإيمان به والاستجابة له أولئك الأقلون - في نظرهم - مالا وشأنا .

قال الله سبحانه :

{وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه ...} (١).

قال في التسهيل : "أى لو كان الإسلام خيرا ماسبقنا إليه هؤلاء ، والقائلون لهذه المقالة أكابر قريش لما أسلم الضعفاء كبلال وعمار وصهيب" (٢).

قال صاحب أضواء البيان : "أظهر أقوال العلماء في هذه الآية الكريمة أن الكافرين الذين قالوا للمؤمنين لو كان خيرا ماسبقونا إليه أنهم كفار مكة ، وأن مرادهم أن فقراء المسلمين وضعفاءهم كبلال وعمار وصهيب وخباب ونحوهم أحقر عند الله من أن يختار لهم الطريق التي فيها الخير ، وأنهم هم الذين لهم عند الله عظمة وجاه واستحقاق سبق لكل خير" (٣).

(١) سورة الأحقاف : من آية ١١

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/٤٢ ، وينظر : تفسير ابن كثير ٤/١٥٦ ، تفسير أبي السعود ٨/٨١ .

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشنقيطي ، ط/عالم الكتب بيروت ٧/٣٨١ .

فهم يعتبرون الشرف والرياسة الدينية معتمدة ومبنية على الرياسة الدنيوية ، وبالتالي فلو كانت الدعوة قائمة على الحق والصدق والخير لكانوا هم المستحقين لها قبل هؤلاء الفقراء ، السابقين لها دونهم .

ولما كان الواقع هو سبق أولئك الضعفاء لها ذلك - في زعمهم - على أن الدعوة باطلة بعيدة عن الحق والخير والهداية .

وليس ذلك ببعيد على طبيعة المكذبين من الأكابر ، كما قالها من سبقهم لنوح عليه السلام كما حكى القرآن الكريم:

{فقال الملأ الذين كفروا من قومه مانراك إلا بشرا مثلنا ومانراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا...} (١).

فأكابر القوم لا ينظرون إلى دعوة نوح عليه السلام وما تحمله من الدلائل الموحية بصحتها ، والبراهين الشاهدة بصدقها ، ولكنهم ينظرون إلى السابقين إلى الاستجابة لها من ضعفاء الناس ، فيجعلون من ذلك مبررا يسوغ لهم الحكم على دعوة نوح عليه السلام بالضلال والبطلان ، إذ لو كانت الدعوة حقا لآمن بها - في تصورهم - أشرف القوم ، وأصحاب الثروة والمكانة فيهم .

(١) سورة هود عليه السلام : من آية ٢٧

الشبهة الثالثة

الحكم على الدعوة بأنها غريبة على طبيعة المجتمع وعقيدته وخارجه عن مألوف الناس وتقاليدهم

فما يأتي به الرسل عليهم السلام من الدين الحق ، والعقيدة الصحيحة والمنهج الواضح ، بوحي من الله سبحانه ، هو - في نظر الملائم المكذبين - أمر لا تستسيغه طبيعة المجتمع ، ولا تتقبله عادات البلد ، وهو وضع غريب على الناس ، لم يألوه ولم يعهدوه ، ولم يعرفوه في ماضيهم ، ومن ثم فإن ما جاء به الرسل عليهم السلام من الدين والعقيدة قضية مرفوضة من أساسها ، لأنها نبتة لا جذور لها في المجتمع ، خارجه عن الفكر الذي تربى عليه الجيل ، ونشأ في كنفه ، متعارضة مع العقيدة الدينية التي سلكها وارتضاها له ديننا ومنهجنا .

ولهذه المقولة نماذج في قصص القرآن الكريم ، أذكر منها مايلي :

(١) الاحتجاج بالمنهج الموروث عن الآباء والأجداد .

تلك شبهة اعتادها المترفون المعاندون ، يلبسونها ثوب الحجة والدليل ، ويدافعون بها عن الضلال الذي يعيشونه ، والباطل الذي يحيونه ، في مواجهة المنهج الرباني في دعوة الرسل عليهم السلام .

يقول الله تبارك وتعالى :

{وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون} (١).

قال ابن جرير في تفسير الآية : "{إلا قال مترفوها} وهم رؤسائهم وكبرائؤهم {إنا وجدنا آباءنا على أمة} أى على ملّة ودين {وإنا على آثارهم مقتدون} يعنى : وإنا على منهاجهم وطريقتهم مقتدون بفعلهم ، نفعل كالذى فعلوا ، ونعبد ما كانوا يعبدون" (٢).

(١) سورة الزخرف : آية ٢٣

(٢) تفسير الطبرى ٦١/٢٥ (مع اختصار وتصرف يسير) .

فالملاً المكذبون يفتقدون الحجة على ضلالهم ، والبرهان على باطلهم ، في الوقت الذي لا يرغبون فيه أصلاً في النظر والتأمل ، أو التفكير والتدبر ، في دلائل الحق وشواهد الإيمان ، ولذا لجأوا إلى الاحتجاج بالتقليد ، والتشبث بمجرد المحاكاة ، التي ينهزها مطلق التعصب ، لا البينة أو الدليل ، فيصرحون بأن منهجهم الذي يسرون عليه هو ما وجدوا عليه آباءهم من قبل ، وبالتالي فهم يعتبرونه الطريق القويم ، وإن كان معوجاً في نظر البراهين ، ويجعلونه المنهج الحق ، وإن كان مخالفاً للدليل ، ويرونه المسلك الصحيح ، وإن ظهر سقوطه أمام الحجة .

فالاتباع لديهم ليس هو للدليل الصحيح ، أو الحجة القوية ، أو البرهان المبين ، ولكنه لطريق الماضين السابقين وإن كانوا على الضلال المبين . {قال أولو جنتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون} (١).

ومن الأمثلة على هذا الأسلوب في التفكير ماواجه به المكذبون هودا عليه السلام مما حكاه الله عز وجل عنهم من قولهم :

{إن هذا إلا خلق الأولين . وما نحن بمعذبين} (٢).

يقول ابن كثير : " {إن هذا إلا خلق الأولين} بضم الخاء واللام (٣) ، يعنون دينهم وماهم عليه من الأمر هو دين الأولين من الآباء والأجداد ، ونحن تابعون لهم سالكون وراءهم نعيش كما عاشوا ، ونموت كما ماتوا ، ولابعث ولامعاد ، ولهذا قالوا {وما نحن بمعذبين} . قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : {إن هذا إلا خلق الأولين} يقول : دين الأولين ، وقاله عكرمة وعطاء الخراساني وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، واختاره ابن جرير " (٤) .

(١) سورة الزخرف : آية ٢٤

(٢) سورة الشعراء : آية ١٣٧-١٣٨

(٣) هذه قراءة عاصم ونافع وابن عامر وحمزة ، وقرأ الباقون بفتح الخاء واسكان

اللام . ينظر : سراج القاريء المبتدئء ص ٣٠٧-٣٠٨ .

(٤) تفسير ابن كثير ٣/٣٤٢ ، وينظر تفسير الطبري ٩٨/١٩ .

وهذا الاتجاه منهم إنما هو اعتماد على مجرد التقليد ، يلبسونه ثوب الحجّة والبرهان أمام العامة من الناس .

ونجد مثل ذلك في قصة إبراهيم عليه السلام :

{إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين} (١).

{إذ قال لأبيه وقومه ماتعبدون . قالوا نعبد أصناما فنظّل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون} (٢).

فهم يعترفون بأن لاقدرة لهذه الآلهة المزعومة على نفع عابديها ، أو الإضرار بالمتنعين عن عبادتها ، وهم يقرون بأنها لا تسمع دعاء الداعين لها ، ومع ذلك يصرون على ما هم عليه من الشرك بالله سبحانه ، وليس لهم في ذلك إلا التمسك بالتقليد ، والتشبث بالسير على ما ورثوه من مناهج الشرك بالله عز وجل . وبالتالي فإن دعوة إبراهيم عليه السلام - في زعمهم - مادامت مخالفة للمنهج الموروث عن الآباء فهي جديدة بأن توصم بالبطلان ، وتوصف بالضلال ، مهما تضمنت من الأدلة والبراهين .

ونفس الشبهة كذلك يثيرها فرعون في مواجهة دعوة موسى عليه السلام ضمن المحاجة التي حكاها القرآن الكريم :

{قال فمن ربكما يا موسى . قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . قال فما بال القرون الأولى} (٣).

قال ابن كثير : "أصح الأقوال في معنى ذلك أن فرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق ، وقدر فهدى ، شرع يحتج بالقرون الأولى ، أي الذين لم يعبدوا الله ، أي فما بالهم إذا كان

(١) سورة الأنبياء عليهم السلام : آية ٥٢-٥٣

(٢) سورة الشعراء : آية ٧٠-٧٤

(٣) سورة طه : آية ٤٩-٥١

الأمر كذلك لم يعبدوا ربك بل عبدوا غيره" (١).

وفرعون في هذا المقام يتصنع التشبث بمنهج الأولين ممن أشرك بالله وخرج عن توحيده وطاعته ، ويجعل من التقليد حجة يخاصم بها ماجاء به موسى عليه السلام .

وهذا هو أيضا منهج المكذبين بما جاء به رسولنا عليه الصلاة والسلام في الاحتجاج بما ورثوه عن آبائهم من عقائد فاسدة ، ودين باطل . كما في قول الله تعالى ذكره :

{وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا...} (٢).

{وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا...} (٣).

وقال سبحانه :

{بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون} (٤).

وقولهم {وجدنا آباءنا على أمة} "أى على دين وطريقة" (٥).

هؤلاء المكذبون يجاهرون بأن مستندهم في إصرارهم على ما هم عليه من الدين الباطل هو تقليد آبائهم في دينهم وطريقتهم وإن كانوا على جهل عظيم .

وقال تعالى :

{وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا

عليه آباءنا...} (٦).

(١) تفسير ابن كثير ٣/١٥٥ ، وينظر : تفسير الطبرى ١٦/١٧٣ ، تفسير فتح القدير ٣/٣٦٩ .

(٢) سورة لقمان : من آية ٢١

(٣) سورة البقرة : من آية ١٧٠

(٤) سورة الزخرف : آية ٢٢

(٥) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/٢٧ .

(٦) سورة المائدة : من آية ١٠٤

يقول ابن كثير : "أى إذا دعوا إلى دين الله وشرعه وما أوجبه ، وترك ما حرمه ، قالوا يكفيننا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرق والمسالك" (١).

وهكذا كان معيار الحلال والحرام في زعمهم ، ومقياس الهدى والضلال في تصورهم ، ومصدر التشريع عندهم ، هو المنهج الموروث عن آباءهم ، وأى دين يخالف هذا المنهج فهو أولى - في رأيهم - بأن يرد ويرفض وأحرى بأن يوصف بالضلال والخسران ، مهما دلت عليه الدلائل ، وسانده الحجج والبراهين ، وشهدت له بأنه الحق المنزل من رب العالمين .
 {قال أولو جنتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون} (٢).

(٢) الادعاء بأن الدعوة لم يسمع بها من قبل ، ولذا فهي حرية بالتعجب والاستغراب .

وممن صرح بذلك الملأ من قوم نوح عليه السلام كما قال جل وعلا :
 {فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ، ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آباءنا الأولين} (٣).
 والمراد بقولهم {ما سمعنا بهذا} أى بمثل دعوته " (٤) عليه السلام .
 قال الرازى : "وشرح هذه الشبهة أنهم كانوا أقواما لا يعولون في شىء من مذاهبهم إلا على التقليد والرجوع إلى قول الآباء ، فلما لم يجدوا في نبوة نوح عليه السلام هذه الطريقة حكموا بفسادها" (٥).

فالدعوة - في زعم هؤلاء - دعوة غريبة مبتدعة ، لاتستند إلى سابقة في عهود الآباء والأجداد ، ونتيجة هذه المقدمة عندهم أن ماجاء به نوح عليه

(١) تفسير ابن كثير ١٠٨/٢ .

(٢) سورة الزخرف : آية ٢٤

(٣) سورة المؤمنون : آية ٢٤

(٤) تفسير القرطبي ٨٠/١٢ .

(٥) التفسير الكبير ٩٢/٢٣ .

السلام باطل ينبغي طرحه ، وضلال يجب الحذر منه .

ويشير فرعون وملؤه الشبهة ذاتها بنفس الأسلوب كما قال جل شأنه :

{ فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آباءنا الأولين } (١).

قال ابن كثير : " يعنون عبادة الله وحده لا شريك له ، يقولون :

مارأينا أحدا من آباءنا على هذا الدين ، ولم نر الناس إلا يشركون مع الله آلهة أخرى " (٢).

مع أن موسى عليه السلام - كما بينت الآية الكريمة - جاءهم بالدلائل

البيينة ، والبراهين الواضحة ، فلم يكن للمعاندین من حجة يعارضون بها

الحق الساطع والمعجزة الخارقة غير التثبث بالتقليد كمبرر وشبهة يعتذرون

بها عن الإذعان للحق ، ويزجرون بها الناس عن الاستماع له عليه السلام ،

أو الاستجابة له ، حين يظهرون ما جاء به موسى عليه السلام بأنه دين

لأصل له في أعراف المجتمع ، ولما استند له من الواقع ، وغير معهود

ولما ألوف في عقائد الناس وأفكارهم ، بل هو دين جديد عجيب ومستغرب.

وهذا ما أراد فرعون أن يوهم به من حوله ويغالطهم به لما دعاه

موسى عليه السلام في بداية الأمر ، كما قال جل وعلا :

{ قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السموات والأرض وما بينهما إن

كنتم موقنين . قال لمن حوله ألا تستمعون } (٣).

فإن مما قصده فرعون بالاستفهام هنا إظهار التعجب والاستغراب

الشديد من مقالة موسى عليه السلام { ألا تستمعون } : " أي ألا تعجبون من

هذا في زعمه أن لكم إلهها غيري " (٤).

(١) سورة القصص : آية ٣٦

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٣٨٩ .

(٣) سورة الشعراء : آية ٢٣-٢٥

(٤) تفسير ابن كثير ٣/٣٣٣ .

ومثل ذلك تعجب الملأ في قريش من قضية الوحدانية في دعوة رسولنا صلى الله عليه وسلم إذ قالوا ما حكاه القرآن عنهم :

{أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب} (١).

فتوحيد الله تعالى في ألوهيته ، بتوجيه العبادة له وحده دون سواه ، هو أمر عجيب يستحق الاستغراب - لدى هؤلاء الكبراء - بالنظر إلى ما ألفه الناس من تعدد الآلهة وإشراكها مع الله سبحانه في العبادة .

ومسألة التعجب هذه من عقيدة التوحيد إنما يقيمها الملأ المكذبون على أساس من التقليد الذي اعتادته الجماهير .

قال الألوسى : "ووجه تعجبهم أنه خلاف ما ألفوا عليه آباءهم الذين أجمعوا على تعدد الآلهة وواظبوا على عبادتها ، وقد كان مدارهم في كل ما يأتون ويذرون التقليد ، فيعدون خلاف ما اعتادوه عجيبا ، بل محالا" (٢).

وحتى تكتمل الشبهة ويتم عقدها قالوا - ضمن ما قالوه مما حكاه القرآن عنهم - :

{ماسمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق} (٣).

يقول ابن كثير : "أى ماسمعنا بهذا الذى يدعوننا إليه محمد من التوحيد في الملة الآخرة :

قال مجاهد وقتادة وأبو زيد : يعنون دين قريش .

وقال غيرهم : يعنون النصرانية . قاله محمد بن كعب والسدي ، وقال العوفي عن ابن عباس رضى الله عنهما {ماسمعنا بهذا في الملة الآخرة} يعنى النصرانية ، قالوا : لو كان هذا القرآن حقا أخبرتنا به النصارى" (٤).

فالملأ من قريش يبررون تكذيبهم ورفضهم لدعوته عليه الصلاة والسلام بأنها دعوة فيها غموض وغرابة ، لم يسمع بها في الملة الآخرة ،

(١) سورة ص : آية ٥

(٢) تفسير روح المعاني ١٦٦/٢٣ .

(٣) سورة ص : آية ٧

(٤) تفسير ابن كثير ٢٦/٤ ، وينظر تفسير البغوى ٤٩/٤ .

ومرادهم بذلك إمامين قريش كما قال مجاهد ، فيكون مبررهم حينئذ معتمداً على تقليد من سبق من آبائهم الذين أخذوا عنهم الشرك بالله سبحانه ، وتعدد الآلهة ، أو يكون مرادهم بالملة الآخرة دين النصرانية كما هو المروى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، فيكون مقصدهم من ذلك التأكيد على غرابة دعوته عليه الصلاة والسلام ، وأن ماجأت به من التوحيد أمر غير مألوف ولا معهود ، ولو كان كذلك لنقل عن النصارى .

قال صاحب الظلال في معرض حديثه عن هذه الشبهة من شبهات الملأ الكافرين : " .. ثم يوهون على الناس بظواهر العقيدة القريية منهم ، عقيدة أهل الكتاب بعدما دخلت إليها الأساطير التي صرفتها عن التوحيد الخالص فيقولون { ماسمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق } وكانت عقيدة التثليث قد شاعت في المسيحية ، وأسطورة العزير قد شاعت كذلك في اليهودية ، فكبراء قريش كانوا يشيرون إلى هذا وهم يقولون { ماسمعنا بهذا في الملة الآخرة } ماسمعنا بهذا التوحيد المطلق لله الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فما يقول إذن إلا اختلاقاً" (١) .

وكما تعجبوا من قضية التوحيد ، فقد تعجبوا كذلك من قضية اليوم الآخر وما يتضمنه من البعث والجزاء ، وأظهروا استغرابهم الشديد من هذه العقيدة التي جاءهم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يتلوه عليهم من وحى ربه سبحانه .

وفى ذلك يقول الله تقدست أسماؤه :

{ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا . وقالوا أنذا كنا عظاما ورفاتا أننا لمبعوثون خلقا جديدا } (٢) .

(١) فى ظلال القرآن ٣٠١٠/٥ ، وما ذكره سيد هو القول الثالث فى الآية باعتبار أن المراد بالملة الآخرة : اليهودية والنصرانية ، قاله الفراء والزجاج ، وليس بعيد عن القول الثانى . ينظر زاد المسير ٣٢٠/٦ .

(٢) سورة الإسراء : آية ٤٨-٤٩

{وقالوا إن هذا إلا سحر مبين . أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون .
أو آباؤنا الأولون}{(١)}.

{بل قالوا مثل ما قال الأولون . قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا
لمبعوثون}{(٢)}.

{وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون}{(٣)}.

فالمكذبون بالدعوة ينكرون حصول البعث بعد الموت ، ويجمعون إلى ذلك الإنكار التعجب والاستغراب من تلك العقيدة التي أثبتها القرآن الكريم ويؤسسون استغرابهم وتعجبهم على تحول أجسامهم بعد الموت إلى تراب ورفات ، وعظام بالية ، فكيف تعود أجسامهم بعد ذلك إلى الوضع الذي كانت عليه .

وهم بذلك ينكرون قدرة الله تبارك وتعالى حين يجعلون البعث قضية مستعبدة مستغربة ، وأمرًا مستحيلًا عجيبًا في الأعين والأذهان .

(١) سورة الصافات : آية ١٥-١٧

(٢) سورة المؤمنون : آية ٨١-٨٢

(٣) سورة النمل : آية ٢٧

المبحث الثاني

شبهات حول الرسل عليهم السلام

يمكن تقسيم شبهات الملاء حول الرسل عليهم السلام إلى أربعة أقسام ،
وذلك باعتبار الجانب الذى يقصد التشكيك فيه لدى الرسل عليهم السلام .
وأوجز ذلك فى المطالب التالية :

المطلب الأول :

الشبهات التى يقصد بها التشكيك فى الرسول عليه السلام من جهة
حاله فيما جاء به .

المطلب الثانى :

الشبهات التى يقصد بها التشكيك فى الرسول عليه السلام من جهة
استحقاقه للرسالة وجدارته بالاتباع .

المطلب الثالث :

الشبهات التى يقصد بها التشكيك فى الرسول عليه السلام من جهة
إخلاقه .

المطلب الرابع :

الشبهات التى يقصد بها التشكيك فى الرسول عليه السلام من جهة
منهجه وأسلوبه فى الحياة ، وأثره فى المجتمع .

وفيما يأتى - بمشيئة الله تعالى - تفصيل الحديث فى هذه المطالب أو
الأقسام الأربعة .

المطلب الأول

الشبهات التي يقصد بها التشكيك في الرسول عليه السلام من جهة حاله فيما جاء به

وتشتمل على الشبهات التالية :

- . الشبهة الأولى : اتهام الرسول عليه السلام بأنه كاذب .
- . الشبهة الثانية : اتهام الرسول عليه السلام بأنه شاعر .
- . الشبهة الثالثة : اتهام الرسول عليه السلام بأنه كاهن .
- . الشبهة الرابعة : اتهام الرسول عليه السلام بأنه ساحر .

الشبهة الأولى اتهام الرسول عليه السلام بأنه كاذب

اتهم الرسل عليهم السلام كافة بهذه التهمة ، وأثيرت حولهم هذه الشبهة .

فهذا نبى الله نوح عليه السلام يخاطبه الملائكة بما حكاه القرآن الكريم :
{قال الملائكة الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك
إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل ننظنكم
كاذبين} (١).

وكذلك فعل الملائكة من قوم هود عليه السلام :
{قال الملائكة الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من
الكاذبين} (٢).

واتهم صالح عليه السلام بأنه كذاب :
{ألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر} (٣).
وفى قصة شعيب عليه السلام :
{قالوا إنما أنت من المسحرين . وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن
الكاذبين} (٤).

وهو أيضا من جملة اتهامات فرعون وملئه لنبى الله موسى عليه
السلام :

{ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وهامان وقارون
فقالوا ساحر كذاب} (٥).

(١) سورة هود عليه السلام : آية ٢٧

(٢) سورة الأعراف : آية ٦٦

(٣) سورة القمر : آية ٢٥

(٤) سورة الشعراء : آية ١٨٥-١٨٦

(٥) سورة غافر : آية ٢٣-٢٤

وكذلك حكى القرآن من قول فرعون عن موسى عليه السلام :
 { .. وإنى لأظنه من الكاذبين }^(١).
 { .. وإنى لأظنه كاذبا ... }^(٢).

ويبدو أن فرعون وأمثاله من الملأ المكذبين من قوم نوح أو هود أو شعيب عليهم السلام حين يستخدمون التعبير بالظن دون اليقين إنما هو تلبيس أمام الناس ، وتحسين لموقفهم ، وتظاهر بالإنصاف ، وإيهام بأنهم لا يجربون المجازفة في إطلاق الأحكام ، فهم إنما يغلب على الظن عندهم أن الرسل كاذبون ، وأن هذا هو ما يظهر للناظر في أمرهم والسامع لقولهم ، وسيتابعون التحقق من ذلك بأساليبهم .

قال أبو السعود : "واقتنصارهم على الظن احترازا منهم عن نسبتهم إلى المجازفة"^(٣).

وتعرض رسولنا صلى الله عليه وسلم لذات الاتهام من أكابر المكذبين كما قال تعالى :

{وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب }^(٤).
 وممن أشاع عنه عليه الصلاة والسلام هذه الشبهة بأسلوب حاقد وسفيه عمه أبو لهب .

فمن ربيعة بن عباد^(٥) رضى الله عنه قال : "رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجاهلية بسوق ذي المجاز^(٦) وهو يقول : يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا . قال : يرددها مرارا ، والناس مجتمعون عليه يتبعونه . وإذا وراءه رجل أحول ذو غديرتين^(٧) وضىء الوجه يقول : إنه

(١) سورة القصص : من آية ٣٨

(٢) سورة غافر : من آية ٣٧

(٣) تفسير أبي السعود ٢٠١/٤ .

(٤) سورة ص : آية ٤

(٥) ربيعة بن عباد : بكسر العين وفتح الباء وتخفيفها . الإكمال ٦١/٦ .

(٦) "ذو المجاز : سوق عند عرفة ، كانت العرب إذا حجت أقامت بسوق عكاظ شهر شوال ، ثم تنتقل إلى سوق مجنة فتقيم فيه عشرين يوما من ذي القعدة ، ثم تنتقل إلى سوق ذي المجاز فتقيم فيه إلى أيام الحج . الروض الأنف ١٦٩/٢ .

(٧) "أى ضفيرتين" . بلوغ الأمانى ٢٠/٢١٦ .

صائب^(١) كاذب فسألت من هذا فقالوا عمه أبو لهب^(٢).

وفي رواية طارق بن عبد الله رضى الله عنه "يقول : يا أيها الناس لا تطيعوا هذا فإنه كذاب"^(٣).

فرسول الله صلى الله عليه وسلم الصادق الأمين قبل البعثة يصبح بعد بعثته - في زعمهم - كذابا بصيغة المبالغة .

ومما سبق يتبين أن من جملة شبهات المكذبين حول الرسل عليهم السلام الطعن في صحة نبواتهم ، والتشكيك في صدق دعواهم بشأن الرسالة واتهامهم بأنهم كاذبون بهذه الدعوى ، كما صرح بذلك أيضا بعض المكذبين في مواجهة من جاءهم من المرسلين^(٤):

{ .. وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون }^(٥).

وبالتالى فإن هؤلاء الرسل عليهم السلام - في نظر المعاندين - لا يتلقون الوحي حقيقة عن الله سبحانه ، وأن ما يسمونه وحيا الهيا هو في الواقع افتراء يفترونه من عند أنفسهم أو بمساعدة من غيرهم ثم ينسبونه إلى الله سبحانه زورا منهم وكذبا وبهتاننا - بزعم الملأ المضللين - .

هذا ما سجله القرآن الكريم من قول المكذبين عن نبي الله نوح عليه

السلام :

(١) "يقال صبأ فلان إذا خرج من دين إلى دين غيره" . بلوغ الأمانى ٢٠/٢١٦ .

(٢) رواه الحاكم في المستدرک وصححه ، ووافقه الذهبي ١/٦١-٦٢ ، وأحمد : الفتح الربانى ٢٠/٢١٦ ، والطبرانى كما فى مجمع الزوائد ٦/٢٠ .

(٣) رواه الحاكم فى المستدرک وصححه ، ووافقه الذهبي ٢/٦٦٨-٦٦٩ ، والبيهقى بنحوه فى دلائل النبوة ٥/٣٨٠ ، والطبرانى كما فى مجمع الزوائد ٦/٢٠ ، وابن خزيمة فى صحيحه ١/٨٢ قال الأعظمى : إسناده صحيح .

(٤) هم المذكورون فى سورة يس ابتداء من قوله تعالى : {واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون} آية ١٣ ، وقد اختلف فى شأنهم المفسرون على قولين ، أحدهما : أنهم رسل الله تعالى ابتداء ، وهو الظاهر من الآيات الكريمة ، والثانى أنهم رسل عيسى عليه السلام . ينظر : تفسير الطبرى ٢٢/١٥٥-١٥٦ ، تفسير القرطبي ١٥/١١ ، تفسير ابن كثير ٣/٥٦٦-٥٦٧ ، زاد المسير ٦/٢٦٦ .

(٥) سورة يس : من آية ١٥

{أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلى إجرامى وأنا برىء مما
تجرمون}{(١)}.

وعن هود عليه السلام :

{إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا...}{(٢)}.

وعن نبينا عليه الصلاة والسلام :

{أم يقوله تقوله بل لا يؤمنون}{(٣)}.

{أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك...}{(٤)}.

{أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا...}{(٥)}.

{أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات...}{(٦)}.

{أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله...}{(٧)}.

{أم يقولون افترى على الله كذبا...}{(٨)}.

{بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه...}{(٩)}.

وفي تكرار التعبير نفسه في الآيات الكريمة دلالة على أن إثارة هذه

الشبهة متكرر من أولئك المكذبين ، ومتداول بينهم بشكل مستمر .

والملاؤ المكذبون في هذا الاتهام يحكمون على الرسل عليهم السلام

بأنهم مفترون لما جاءوا به من الوحي الإلهي ، اختلقوه وافتعلوه من عند

أنفسهم ثم نسبوه بعد ذلك ، وأسندوه إلى الله تبارك وتعالى افتراء منهم .

وقد اتهم رسولنا صلى الله عليه وسلم - إضافة إلى ذلك - بأن له في

هذا الافتراء - بزعمهم - أعوانا يساعدهونه ويساندونه في إبراز الأساطير

(١) سورة هود عليه السلام : آية ٣٥ ، وهذا هو الظاهر في سياق الآيات ، إذ أن

مقابلها وما بعدها يتناول قصة نوح عليه السلام . ينظر تفسير القرطبي ٢١/٩ .

(٢) سورة المؤمنون : من آية ٣٨

(٣) سورة الطور : آية ٣٣

(٤) سورة السجدة : من آية ٣

(٥) سورة الأحقاف : من آية ٨

(٦) سورة هود عليه السلام : من آية ١٣

(٧) سورة يونس عليه السلام : من آية ٣٨

(٨) سورة الشورى : من آية ٢٤

(٩) سورة الأنبياء عليهم السلام : من آية ٥

المختلقة في ثوب الوحي الإلهي .
قال تعالى :

{وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاؤوا ظلماً وزوراً . وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً} (١).

فالقرآن الكريم - فيما يثيره المستكبرون من أمثال النضر بن الحارث - ليس وحياً متزلاً في حقيقته ، وإنما هو باطل يختلقه نبي الله عليه الصلاة والسلام ويستعين في هذا الاتجاه برجال من اليهود يقدمون له في ذلك العون والمساعدة .

قال ابن جرير : "{وأعانه عليه قوم آخرون} يقول : وأعان محمداً على هذا الإفك الذي افتراه يهود" (٢).

فهو عليه الصلاة والسلام - بزعمهم - يتلمذ على يهود ، ويتلقى عنهم ويجد منهم التعاون الوثيق ، إذ يجمعون له أحاديث السابقين ، وأخبار الأمم ويلقونها إليه ، وهو بدوره يعيد تأليف ماسمعه ، ويعبر عنه بعبارته وأسلوبه ، في أخبار يحكيها ، وأقوال يرددها ، يدعى أنها من وحي السماء بينما هي في الواقع من أحاديث الأولين المفتعلة المختلقة .

وحتى يتم عقد الشبهة هنا ، وتكتمل الصورة في الأذهان عن افتراءه صلى الله عليه وسلم - في زعمهم - وتقديم اليهود العون له ، يبينون كيفية هذه الإعانة :

{وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً} (٣).

فهم يؤكدون أنه عليه الصلاة والسلام لما كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب فإنه يطلب كتابة هذه الأساطير - في زعمهم - ممن يعينونه ، ثم يقرأ عليه ما جمع وكتب في أوقات مختلفة صباحاً ومساءً ، في خفية عن أعين الناس ،

(١) سورة الفرقان : آية ٤-٥

(٢) تفسير الطبرى ١٨١/١٨ .

(٣) سورة الفرقان : آية ٥

ليلقها بعد ذلك بتعبيره على أنها وحى الله تعالى .
ويستمر القوم في محاولاتهم الإيحاء للعامة بأن المورد الذى يتلقى عنه
صلى الله عليه وسلم ليس هو الوحي الإلهي ، وإنما هو مورد أرضي ومصدر
بشرى يتلقى عنه ويتعلم :

{ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون} (١).

{ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر...} (٢).

وفي تفسير هذه الآية يقول ابن كثير : "يقول تعالى مخبرا عن المشركين
ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهت أن محمدا إنما يعلمه هذا الذى
يتلوه علينا من القرآن بشر ، ويشيرون إلى رجل أعجمى كان بين أظهرهم ،
غلام لبعض بطون قريش ، وكان يباعا يبيع عند الصفا ، وربما كان رسول
الله صلى الله عليه وسلم يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء ، وإذا كان أعجمى
اللسان لا يعرف العربية ، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يرد جواب
الخطاب فيما لا بد منه" (٣).

ولذا رد الله عز وجل عليهم بقوله سبحانه :

{... لسان الذى يلحدون (٤) إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين} (٥).

وقد وردت أقوال عديدة (٦) في الرجل الأعجمى المقصود بكلام أهل

الشرك من قريش ، ومن تلك الأقوال ما رواه الحاكم عن ابن عباس رضى
الله عنهما في قوله عز وجل : {إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه

(١) سورة الدخان : آية ١٤

(٢) سورة النحل : من آية ١٠٣

(٣) تفسير ابن كثير ٥٨٦/٢ .

(٤) قال ابن قتيبة : {يلحدون إليه} أى يميلون إليه ويزعمون أنه يعلمك . وأصل
الإلحاد : الميل . تفسير غريب القرآن ص ٢٤٩ .

(٥) سورة النحل : من آية ١٠٣

(٦) ينظر : تفسير الطبرى ١٧٧/١٤-١٧٩ ، زاد المسير ٣٥٩/٤-٣٦٠ ، تفسير ابن كثير

٥٨٧-٥٨٦/٢ ، تفسير القرطبي ١١٦/١٠-١١٧ ، تفسير فتح القدير ١٩٤/٣-١٩٦ .

أعجمى وهذا لسان عربى مبين { قالوا : "إنما يعلم محمدا عبد ابن الحضرمى ، وهو صاحب الكتب" (١) .

وذكر القرطبي فى تفسيره مجموعة من تلك الأقوال فى الرجل الذى يعنيه المشركون ثم قال : "قلت : والكل محتمل ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم ربما جلس إليهم فى أوقات مختلفة ليعلمهم مما علمه الله ، وكان ذلك بمكة . وقال النحاس : وهذه الأقوال ليست بمتناقضة ، لأنه يجوز أن يكونوا أومؤوا إلى هؤلاء جميعا وزعموا أنهم يعلمونه" (٢) .

والذى يعنينا هنا هو ادعاء هؤلاء المجرمين بأن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يعلمه ما يأتى به من القرآن بشر ، كما صرحت الآية الكريمة . ثم إن المضللين من أعداء الدعوات كانوا يبذلون محاولاتهم المستمرة فى تأصيل شبهة الكذب على الرسل عليهم السلام أمام العامة فى كل فرصة وبكل وسيلة .

ومن ذلك طلب الآيات واستعجال العذاب ، فهم يقصدون من ذلك - ضمن مقاصدهم - اتساع دائرة الشبهة التى تشكك فى صدق الرسل عليهم السلام ، وإظهارهم بمظهر الأعداء الذين يفتقدون الدليل والبينة على أحقية ماجأؤوا به .

ومن الأمثلة على ذلك ماورد فى قصة نوح عليه السلام :

{قالوا يانوح قد جادلنا فأكثررت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين} (٣) .

وفى قصة هود عليه السلام :

{قالوا أجنئنا لنعبد الله وحده ونذر ماكان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين} (٤) .

(١) رواه الحاكم فى المستدرک وصححه ، ووافقه الذهبى ٣٨٩/٢ .

(٢) تفسير القرطبي ١١٧/١٠ . وينظر معانى القرآن للنحاس ١٠٦/٤ - ١٠٧ .

(٣) سورة هود عليه السلام : آية ٣٢

(٤) سورة الأعراف : آية ٧٠

وفي قصة صالح عليه السلام :

{مأنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين}{(١)}.

وفي قصة شعيب عليه السلام :

{فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين}{(٢)}.

وفي قصة موسى عليه السلام :

{قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين}{(٣)}.

ومن قول المكذبين لرسولنا صلى الله عليه وسلم :

{لو ماتأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين}{(٤)}.

{ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين}{(٥)}.

بل إن كفار قريش لما أنكروا البعث واستبعدوه أرادوا أن يؤكدوا

كذب نبي الله صلى الله عليه وسلم - بزعمهم - في هذه القضية بأن السابقين

وعدوا بها مرارا ، ولم يتحقق الوعد ، ومن ثم فهي أكاذيب متكررة :

{وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وأبأؤنا أننا لمخرجون . لقد وعدنا هذا

نحن وأبأؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين}{(٦)}.

{بل قالوا مثل ما قال الأولون . قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا

لمبعوثون . لقد وعدنا نحن وأبأؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين}{(٧)}.

ومن تلك المحاولات أيضا في تأكيد نسبة الكذب إلى الرسل عليهم

السلام مافعله فرعون حين أراد بأسلوب جاهل ماكر أن يظهر نبي الله

موسى عليه السلام أمام الناس في صورة الكاذب المفترى ، قال تعالى :

(١) سورة الشعراء : آية ١٥٤

(٢) سورة الشعراء : آية ١٨٧

(٣) سورة الأعراف : آية ١٠٦

(٤) سورة الحجر : آية ٧

(٥) سورة يونس عليه السلام : آية ٤٨ .

وهي كذلك في مواضع متعددة من القرآن الكريم .

(٦) سورة النمل : آية ٦٧-٦٨

(٧) سورة المؤمنون : آية ٨١-٨٣

إوقال فرعون يا أيها الملاء ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين^(١).

وفي موضع آخر من القرآن الكريم يقول سبحانه :

إوقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلى أبلغ الأسباب . أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا...^(٢).

والآيات الكريمة تبين أن فرعون طلب من وزيره هامان أن يشرف على بناء صرح ، "وهو القصر العالى المنيف الشاهق"^(٣).

والهدف المعلن لهذا البناء أن يتمكن فرعون - بزعمه - من بلوغ أسباب السموات "أى طرقها وأبوابها وما يؤدي إليها"^(٤)، {فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا} قال ابن جرير : "يقول : وإني لأظن موسى كاذبا فيما يقول ويدعى من أن له في السماء ربا أرسله إلينا"^(٥).

قال ابن كثير : "ولمّا كان مقصود فرعون أن يصد الناس عن تصديق موسى عليه السلام وأن يحثهم على تكذيبه"^(٦).

إن فرعون يريد إيهام العامة بأنه - في مشروعه لبناء الصرح - بصدد إيجاد دليل مادي يمكنه من كشف خبايا موسى عليه السلام ، وتجليه حاله للناس .

وهدفه النهائى أن يقرر في الأذهان أن موسى عليه السلام كاذب فيما يدعيه ، وأن لاحقيقة لما جاء به ، وسيثبت ذلك إذا تم البناء ، خصوصا وأن فرعون قد قدم لما سيحكم به على موسى عليه السلام ، بل قد حكم فعلا {وإني لأظنه كاذبا} .

-
- (١) سورة القصص : آية ٣٨
 (٢) سورة غافر : من الآيات ٣٦-٣٧
 (٣) تفسير ابن كثير ٧٩/٤ .
 (٤) تفسير النسفى ٢٥١/٣ .
 (٥) تفسير الطبرى ٦٦/٢٤ .
 (٦) قصص الأنبياء لابن كثير ٣٩٤/٢ .

ولعل فرعون أيضا يقصد إلهاء الناس فترة من الزمن ينتظرون فيها تنفيذ المشروع وإتمامه ، والذي سيمثل دليلا ملموسا على وضع موسى عليه السلام ، ونهاية القول فيه .

والعامة بطبيعة الحال طيلة هذه المدة - وقد استخفهم فرعون - سيتناقلون الاحتمال الأكبر القائل بكذب موسى عليه السلام ، وستكون هذه الشبهة هي الغالبة بينهم إلى حين ، خصوصا وأن إعلان فرعون مائل أمامهم {وإني لأظنه من الكاذبين} .

وفرعون بهذا المشروع أيضا سيظهر بصورة العادل المنصف ، الذي يبحث عن الحقائق ، ويبذل الجهود في الوصول إلى الأدلة المادية التي تكشف للرعية الواقع الحقيقي لهذا الداعية ، وأنه سيستمر في محاولاته للوصول إلى الحق في المسألة .

ثم هو تمهيد من فرعون أيضا وتهيئة ليقبل القوم مايقرره لهم بعد ذلك في شأن موسى عليه السلام ، ومايحكم به عليه ، إذ سيتلقاه الجمهور الغافل بثقة واطمئنان لأن الطاغية قد وعدهم بالبحث عن الحقيقة ، وهاهو قد وصل إليها .

والقرآن الكريم يخبرنا عن خطبة فرعون التي حشر الناس للاستماع لها :

{فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى} (١).

بدون تلكؤ هذه المرة ، ولا مجال في عبارته لاحتمال آخر ، في مقابل مقاله سابقا فيما سجله القرآن {.. ما علمت لكم من إله غيري ..} (٢).

وفي عهد رسولنا صلى الله عليه وسلم كان المكذبون المعاندون يتحينون مناسبة النسخ في القرآن الكريم ليجدوها فرصة لتأصيل شبهة الكذب من جديد حوله عليه الصلاة والسلام .

(١) سورة النازعات : آية ٢٣-٢٤

(٢) سورة القصص : آية ٣٨

قال تعالى :

{وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون} (١).

إذ كيف يأتي نبينا صلى الله عليه وسلم - في زعمهم - بآية ، ثم ينسخها ويزيلها ، ويحيىء اليوم بحكم ثم يبطله في الغد وينسخه بحكم آخر فهذا التغيير والتبديل - حسب شبهتهم - شاهد على أن المسألة كلها قائمة على الافتراء والكذب ، ولأصل لها ولا حقيقة .

وتلك شبهة يمكن أن يستجيب لها من لا يتدبر الأمور .

أما اليهود خاصة فإن من طرق أحبارهم في إظهار رسول الله صلى الله عليه وسلم بصورة الكاذب ، مافعلوه من التحريف والتغيير والكنمان لصفته عليه الصلاة والسلام في التوراة .

قال جل وعلا متوعدا إياهم :

{فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت بأيديهم وويل لهم ما يكسبون} (٢).

قال الألوسي : " والآية نزلت في أحبار اليهود الذين خافوا أن تذهب رياستهم بابقاء صفة النبي صلى الله عليه وسلم على حالها فغيروها " (٣).
ومن ثم فإن رسولنا عليه الصلاة والسلام - بزعمهم - ليس هو الموصوف عندهم في التوراة ، وليس هو بالذى كانوا يعرفون ، وليس هو بالذى كانوا يذكرون ويستفتحون به على الخصوم .

وقال سبحانه في توعده هؤلاء أيضا :

{إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك

(١) سورة النحل : آية ١٠١

(٢) سورة البقرة : آية ٧٩

(٣) تفسير روح المعاني ٣٠٣/١ ، وينظر : تفسير البغوى ٨٩/١ ، لباب النقول ص ٢٠ .

ما يأكلون فى بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم^(١).

قال ابن جرير : "يعنى تعالى ذكره بقوله {إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب} أحبار اليهود الذين كتموا الناس أمر محمد صلى الله عليه وسلم ونبوته ، وهم يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة"^(٢).
وهم بهذا الكتمان والتحريف يهدفون إلى تأكيد اتهام رسولنا عليه الصلاة والسلام بالكذب والبهتان والافتراء أمام عامة اليهود وغيرهم من الكفرة والمشركين .

(١) سورة البقرة : آية ١٧٤

(٢) تفسير الطبرى ٨٩/٢ ، وينظر : تفسير ابن كثير ٢٠٦/١ ، أسباب النزول للواحدي ص ٤٤ .

الشبهة الثانية اتهام الرسول عليه السلام بأنه شاعر

كان من ضمن الشبهات التي أثبتت حول رسول الله صلى الله عليه وسلم القول بأنه فيما جاء به شاعر ، وأن ما يأتي به من القرآن المتميز بالبلاغة في النظم والفصاحة في الأسلوب ليس ببعيد في حقيقته عن الشعر الذي ينطق به أمثاله من الشعراء .

ذلك مذكوره الله تبارك وتعالى عن طغاة المشركين :

{بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر...} (١).

{أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون} (٢).

ولقد كانوا يجمعون - أحيانا - فيما يثيرونه حوله عليه الصلاة

والسلام بين الشبهتين : الشعر والجنون ، كما قال سبحانه :

{ويقولون أننا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون} (٣).

قال ابن كثير : "أى أننا نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عن قول هذا

الشاعر المجنون ، يعنون رسول الله صلى الله عليه وسلم" (٤).

وقد دفع الله جل وعلا هذه الشبهة عن نبيه صلى الله عليه وسلم

فقال سبحانه :

{وما هو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون} (٥).

مما يشير إلى تداول هذه الشبهة بينهم ضمن سائر اتهاماتهم وشبهاتهم

التي يشيعونها حوله عليه الصلاة والسلام .

(١) سورة الأنبياء عليهم السلام : آية ٥

(٢) سورة الطور : آية ٣٠

(٣) سورة الصافات : آية ٣٦

(٤) تفسير ابن كثير ٦/٤ .

(٥) سورة الحاقة : آية ٤٦

الشبهة الثالثة اتهام الرسول عليه السلام بأنه كاهن

في القرآن الكريم ما يشير الى أن هذه الشبهة أثبتت حول رسول الله صلى الله عليه وسلم ضمن الشبهات التي أشاعها عنه كفار قريش . قال الله تبارك وتعالى :

{فلا أقسم بما تبصرون . وما لاتبصرون . إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون . ولا بقول كاهن قليلا مأتذكرون . تنزيل من رب العالمين}{(١)} .

وقال عز وجل مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم :

{فذكر فمأنت بنعمة ربك بكاهن ولامجنون}{(٢)} .

هذه الآيات الكريمة تشير إلى أن المشركين كانوا قد أشاعوا عنه عليه الصلاة والسلام أنه فيما جاء به كاهن^(٣) من الكهان يتلقى عن الجن ، لارسول يتلقى عن الله سبحانه ، وما جاء به من القرآن إن هو إلا تأليف من مثل قول الكهان وسجعهم .

ويظهر أن سبب إثارة هذه الشبهة أن الكبراء المكذبين يلاحظون ما في القرآن يتلوه رسول الله صلى الله عليه وسلم من أسلوب معجز لا يروونه في كلام البشر ، فكان لابد لهم من علة يؤسسون عليها موقف التكذيب ، فوجدوا في وصمه صلى الله عليه وسلم بأنه كاهن مبررا معقولا - في نظرهم

(١) سورة الحاقة : آية ٣٨-٤٣

(٢) سورة الطور : آية ٢٩

(٣) الكاهن : الذى يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان ويدعى معرفة الأسرار .. وقد كان في العرب كهنة يزعم بعضهم أن له تابعا من الجن وراثيا يلقي اليه الأخبار . كما كانوا يروجون أقاويلهم الباطلة بأسجاع تروق السامعين فيستميلون بها القلوب ويستصغون إليها الأسماع . ينظر لسان العرب ٣٩٥٠/٥ ، النهاية ٢١٤/٤-٢١٥ .

أمام عامة الناس بناء على ما هو متداول لديهم من أن الكاهن له علاقة بالجن يأتون على لسانه بالكلام الغريب العجيب .

قال سيد قطب : "ولقد كان مما تقول به المشركون على القرآن وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قولهم إنه شاعر ، وإنه كاهن ، متأثرين في هذا بشبهة سطحية منشؤها أن هذا القول فائق في طبيعته على كلام البشر ، وأن الشاعر في وهمهم له رِيٌّ^(١) من الجن يأتيه بالقول الفائق ، وأن الكاهن كذلك متصل بالجن الذين يمدونه بعلم ما وراء الواقع ، وهي شبهة تسقط عند أقل تدبر لطبيعة القرآن والرسالة ، وطبيعة الشعر أو الكهانة"^(٢).

(١) قال ابن الأثير : به رِيٌّ من الجن بوزن رعى ، وهو الذى يعتاد الإنسان من

الجن . لسان العرب ٣/١٥٤١ .

(٢) فى ظلال القرآن ٦/٣٦٨٦ .

الشبهة الرابعة اتهام الرسول عليه السلام بأنه ساحر

تكرر هذا الاتهام في مواجهة الرسل عليهم السلام كما تقرره الآية الكريمة :

{كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون} (١).
ويبرز عرض هذه الشبهة في القرآن الكريم في قصة موسى عليه السلام ، ورسولنا محمد عليه الصلاة والسلام .
يقول الله سبحانه وتعالى :

{ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب} (٢).

فالآية الكريمة تبين أن نبي الله موسى عليه السلام جاء بما يؤيد نبوته ويؤكد رسالته ، من الآية البينة ، والمعجزة القاطعة ، ومع ذلك فقد سارع فرعون ومن ماله إلى مجابته بالاتهام المباشر له بأنه ساحر كذاب .
وفي آية أخرى نلاحظ تحرك فرعون ليوسع دائرة المتأثرين بهذه الشبهة فيطرحها أمام الكبراء والقادة من حوله - في ثوب المستشار لهم الراغب في رأيهم - ومقصده التأثير فيهم ليشاركوه رأيه في موسى عليه السلام :
{قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون} (٣).

إن موسى عليه السلام - في زعم فرعون - ليس مجرد ساحر عادي من جملة السحرة ، ولكنه ساحر عليم ، صاحب مهارة وبراعة ، وما جاء به من الخوارق في الظاهر إنما هو في الواقع من قبيل السحر ، لا من قبيل المعجزات

(١) سورة الذاريات : آية ٥٢

(٢) سورة غافر : آية ٢٣-٢٤

(٣) سورة الشعراء : آية ٣٤-٣٥

ومن ثمَّ فإنَّ فرعون يظهر أمام حاشيته الخشية من أن يستعمل موسى عليه السلام مهارته وإبداعه في صنعة السحر ليجمع من حوله المؤيدين والأتباع فيسيطر على البلاد ، ويقضى على مكانة السادة والأكابر فيها .

ويواجه فرعون بهذه المقولة الكاذبة نبي الله موسى عليه السلام :
 {قال أجتئنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى} (١).

ويتلقف الملامن حاشية فرعون هذه الشبهة ، ليتبنوا إثارتها من جديد ، ويعملوا على إشاعتها بين الجماهير ، فيتهموا موسى عليه السلام بالأسلوب ذاته :

{قال الملامن قوم فرعون إن هذا لساحر عليم} (٢).
 بلغ في علم السحر غايته ، ووصل فيه نهايته ، ولذلك جاء بما جاء به من الخوارق والعجائب .

وينخدع عامة الناس بهذه الشبهة بتمويه من فرعون وملئه فيصبح موسى في نظر الكثيرين ساحرا ينبغي الحذر منه .

ومن هؤلاء كان جموع السحرة - قبل أن يؤمنوا - والذين استعان بهم فرعون للقضاء على دعوة الحق ، إذ أعادوا ما استقر في أذهانهم من الشبهة ، وأسروا بها النجوى كما حكى القرآن الكريم :

{فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى . قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى} (٣).

ولما أظهر الله سبحانه الحق على يد موسى عليه السلام ، وآمن السحرة لما تيقنوا أن ماجاء به عليه السلام ليس هو من قبيل ما يفعلونه من السحر ، وإنما هو معجزة خارقة لا يقدر عليها إلا رب العالمين .

(١) سورة طه : آية ٥٧

(٢) سورة الأعراف : آية ١٠٩

(٣) سورة طه : آية ٦٢-٦٣

{وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هناك وانقلبوا صاغرين . وألقى السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون}{(١)} .

لما حصل هذا الإيمان من السحرة ، وفوجيء فرعون بهذه النتيجة التي لم تكن تخطر له على بال ، خشى من العاقبة الوخيمة على مركزه ، وخاف أن تتخذ الجماهير قرارها بالدخول في دين موسى عليه السلام ، حين يظهر لها أن في انضمام السحرة لهذا الدين دلالة على أنهم - وهم العالمون بالسحر - تيقنوا أن ماجاءهم به موسى عليه السلام حق لا يشوبه باطل السحر ، وإنما هو آيات بينات من رب العالمين .

فكان أن حرك فرعون كيده ومكره من جديد ، ولبس على القوم ، وكرر لهم الشبهة ذاتها ولكن بشيء من الإضافة والتجديد لتناسب ما استجد من الوقائع والأحداث ، وحتى يمكن أن تجد لها في النفوس مكانا متقبلا ، وذلك بإعلانه أن ما حصل ليس سببه المعجزة مع موسى عليه السلام ، ولكنها المؤامرة والمواطأة التي حبك خيوطها السحرة مع موسى عليه السلام وقوام هذه المؤامرة - في زعمه - هو السحر كذلك ، فهؤلاء سحرة كما يعلم الناس ، وموسى عليه السلام هو كبيرهم في هذه الصفة والمهنة ، فاجتمعت جهودهم إثر اتفاق وإعداد سابق ، وأنتجت مارآه الناس .

ذلك ما حكاه القرآن الكريم عن فرعون :

{قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ...}{(٢)}

{قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه في

المدينة ...}{(٣)}

(١) سورة الأعراف : آية ١١٧-١٢٢

(٢) سورة طه : من آية ٧١

(٣) سورة الأعراف : من آية ١٢٣

فأوهم الناس أن ماجاء به موسى سحر من جنس سحرهم ، بل وصفه بأنه كبير السحرة وأستاذهم الذى يتلقون عنه .

قال فى فتح القدير : " وإنما اعترف له بكونه كبيرهم مع كونه لا يجب الاعتراف بشيء يرتفع به شأن موسى ، لأنه قد علم كل من حضر أن ماجاء به موسى أبهر مما جاء به السحرة فأراد أن يشكك على الناس بأن هذا الذى شاهدتم وإن كان قد فاق على مافعله هؤلاء السحرة فهو فعل كبيرهم ومن هو أستاذهم الذى أخذوا عنه هذه الصناعة ، فلاتظنوا أنه فعل لا يقدر عليه البشر ، وأنه من فعل الرب الذى يدعو إليه موسى " (١).

وهكذا فكلما جاء موسى عليه السلام بآية معجزة جعل المكابرون من هذه الآيات وقودا يزيدون بها شبهتهم اشتعالا وإثارة ، فيجعلون الآيات الحارقة على يده عليه السلام دليلا ماديا جديدا على تفننه فى السحر ، وتقلبه فى صناعته ، وأنه ماجاء بها إلا ليزداد لهم سحرا .
يقول الله تعالى :

{وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين} (٢).
"أى لتسحر بتلك الآيات أعيننا وتشبه علينا {فما نحن لك بمؤمنين} أى بمصدقين لك ومؤمنين بنبوتك أصلا" (٣).

وزيادة فى الإيهام من فرعون لقومه كان - أحيانا - يظهر التردد فى حال موسى عليه السلام بين كونه ساحرا وكونه مجنونا ، وهو بذلك التردد بين الوصفين يظهر أمام العامة بصورة الباحث عن الحق فى أمر موسى عليه السلام .

يقول تعالى ذكره :

-
- (١) تفسير فتح القدير ٩٩/٤ .
(٢) سورة الأعراف : آية ١٣٢
(٣) تفسير روح المعاني ٣٣/٩ .

{وفى موسى إذ أرسلناه الى فرعون بسطان مبين . فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون} (١).

قال الشوكاني : "فردد فيما رآه من أحوال موسى بين كونه ساحرا أو مجنونا ، وهذا من اللعين مغالطة وإيهام لقومه" (٢).

وكما اتهم موسى عليه السلام بأنه ساحر ، فقد اتهم رسولنا صلى الله عليه وسلم بنفس التهمة وأثيرت حوله نفس الشبهة .

قال تعالى عن كبراء المكذبين فى قريش :

{وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب} (٣).

فهم حين أنكروا رسالته ، وتعجبوا من أن يكون النذير منهم ، كان لابد من أن يقولوا فيه قولا ليبرروا صنيعهم ، وليخدعوا غيرهم ، ولينفروهم من دعوته عليه الصلاة والسلام ، فوصفوه ضمن أوصافهم وشبهاتهم - بأنه ساحر ، وأن ماجاء به مما يدعى أنه وحى من السماء إنما هو فى حقيقته مظهر من مظاهر السحر .

وقال سبحانه أيضا :

{أكان للناس عجا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين} (٤).

وفى مقولتهم هذه تأكيد للاتهام ، ووصف له عليه الصلاة والسلام بالمهارة فيه ، فهو ساحر مبين متقن للسحر ظاهر فى صنعته .

ومن هؤلاء المضللين المثيرين لهذه الشبهة : الوليد بن المغيرة ، فقد

نزل فيه قول الله جل وعلا :

-
- (١) سورة الذاريات : آية ٣٨-٣٩
 (٢) تفسير فتح القدير ٩٠/٥ .
 (٣) سورة ص : آية ٤
 (٤) سورة يونس عليه السلام : آية ٢

{أنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس
وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول
البشر} (١).

قال ابن كثير : "هذا المذكور في هذا السياق هو الوليد بن المغيرة
المخزومي أحد رؤساء قريش" (٢).

وهو القائل لنفر من رؤوس القوم - بعد أن استمع إلى آرائهم في
الشبهة المناسب اشاعتها حول رسول الله صلى الله عليه وسلم بين القادمين
إلى مكة في الموسم - .. ماأنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ،
وإن أقرب القول لأن تقولوا : ساحر ، فتقولوا هو ساحر يفرق بين المرء
وبين أبيه ، وبين المرء وبين أخيه ، وبين المرء وبين زوجته ، وبين المرء وبين
عشيرته .." (٣).

ولاشك أن شبهتهم بهذه الصورة تخيف من يتلقاها من الجموع الجاهلة
وتزرع الفرع في نفوسهم من مجرد الاقتراب منه أو مجالسته عليه الصلاة
والسلام ، حتى لا يلحقهم شيء من آثار مايفعله - في زعم الملأ المعاندين -
من السحر .

ولما انشق القمر بتقدير من الله جل شأنه تأييداً لرسوله عليه الصلاة
والسلام كما في رواية أنس رضى الله عنه "أن أهل مكة سألوا رسول الله
صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء
بينهما" (٤)، لما حصل ذلك أمام بعض الملأ من قريش وشاهدوه معاينة كان

(١) سورة المدثر : آية ١٨-٢٥

(٢) تفسير ابن كثير ٤/٤٤٢ ، وينظر : تفسير الطبرى ٢٩/١٥٢ ، تفسير روح المعاني
٢٩/١٥٢ .

(٣) الخبر بتمامه - وسيأتى إن شاء الله تعالى - رواه البيهقي في الدلائل عن ابن عباس
رضى الله عنهما ٢/٢٠٠ ، وينظر : السيرة النبوية لابن هشام ١٠/٢٠٣-٢٠٤ ،
البداية والنهاية ٣/٧٩ .

(٤) رواه البخارى في كتاب فضائل الصحابة ، باب انشقاق القمر ٣/١٤٠٤ ، ومسلم في
كتاب صفة القيامة ، باب انشقاق القمر ١٧/١٤٥ .

الأولى بهم أن يستجيبوا لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تحقق لهم صدقه ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك ، بل استغلوا تلك الحادثة ليثيروا شبهتهم ، ويشيعوا الاتهام لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

فعن جَبْرِ بنِ مَطْعَمٍ رضى الله عنه قال : " انشق القمر على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، صار فرقتين على هذا الجبل وعلى هذا الجبل ، فقالوا : سحرنا محمد ... " (١) .

فما كان هذا الانشقاق للقمر - حسب شبهتهم - إلا نتيجة من نتائج السحر الذى يقوم به نبي الله عليه الصلاة والسلام .

(١) رواه الترمذى فى كتاب تفسير القرآن ، باب ومن سورة القمر ٣٩٨/٥ ، والبيهقى بنحوه فى الدلائل ٢٦٨/٢ ، وأحمد : الفتح الربانى ٢٢٢/٢٠ ، قال الساعق : اسناده جيد .

المطلب الثاني

الشبهات التي يقصد بها التشكيك في الرسول عليه السلام من جهة استحقاقه للرسالة وجدارته بالاتباع

وتشتمل على الشبهات التالية :

الشبهة الأولى :

لا يمكن للرسول أن يكون بشرا بزعمهم .

الشبهة الثانية :

اتهام الرسول عليه السلام بالجنون .

الشبهة الثالثة :

اتهام الرسول عليه السلام بأنه مسحور .

الشبهة الرابعة :

اتهام الرسول عليه السلام بالسفه والضلال .

الشبهة الخامسة :

لا يمكن للرسول أن يكون فقيرا أو بعيدا عن الواجهة باعتقادهم .

الشبهة السادسة :

القول بأن الرسول عليه السلام لم يتبعه أكابر القوم ، مما يشكك في

مقام النبوة والرسالة . حسب تصورهم ومقياسهم الخاطيء . .

الشبهة الأولى لا يمكن للرسول أن يكون بشرا بزعمهم

تلك مغالطة تكررت كثيرا من الملائم المستكبرين ، يبررون بها إعلانهم للتكذيب ، ودعوتهم عوام الناس إلى رفض الاستجابة لما جاء به الرسل عليهم السلام من الدين .

ذلك أنهم لا يتأملون في الحجة والبرهان مع الرسول عليه السلام ، وإنما ينظرون إلى الشخص والصورة ، والهيئة والشكل ، أملا منهم في التوصل إلى شبهة تجد عند الجمهور القبول ، وتزرع في نفوسهم النفور من اتباع الرسول ، فوجدوا بغيتهم هذه - حسب تصورهم - في بشرية الرسل عليهم السلام .

ومضمون هذه الشبهة أن الرسول عليه السلام بشر ، يحمل نفس الصفات البشرية ، فهو يأكل ويشرب ، ويعمل ويكدح ، ويسعى ويتكسب ويجهد وينصب ، ويحتاج كاحتياج غيره من البشر ، ومن كانت حاله كذلك فليس مستحقا لمرتبة الرسالة ، وليس مؤهلا لمنصب النبوة .

ولو كان ما يقوله الرسول عليه السلام في إرادة الله إرسال الرسل حقا لكان الرسول - في زعمهم - ملكا من الملائكة يختلف عن طبيعة البشر وصفاتهم واحتياجاتهم ، ويتميز عنهم بخصائصه الملائكية التي تؤهله للرسالة والنبوة .

فإذا ما ادعى الرسالة بشر فان ذلك دلالة على كذبه وبهتانه ، إذ يستحيل أن يكون الرسول بشرا ، ومن ثم فإنه لا يستحق الاتباع .

هذه المقولة الساذجة ، وهذه الشبهة المضللة ، والتي تعتمد على المغالطة أثارها المكذبون طويلا في مواجهة الرسل عليهم السلام كما ينطق بذلك قول الله جل وعلا :

{ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم . ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدونا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد}{(١)}.

{ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح و عاد و ثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب . قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا ...}{(٢)}.

فالمكذبون من كل أمة في تاريخ الرسل عليهم السلام يحتجون على كفرهم وتكذيبهم بأن الرسل بشر وليسوا من الملائكة ، وهم ينكرون أن تكون الرسالة لبشر ، ويستبعدون أن يدلهم على طريق الهداية واحد من الجنس البشرى يماثلهم في الأكل والشرب وسائر صفات البشر .

هذه الشبهة المضللة كانت في مقدمة الشبهات التي أثارها أكابر المجرمين من قوم نوح عليه السلام في خطابهم الذي واجهوا به نوحا عليه السلام كما في قول الله سبحانه :

{فقال الملاء الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا ...}{(٣)}.

كما كانت في مقدمة الشبهات التي أثاروها أمام غيرهم من عامة الناس :

{فقال الملاء الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ماسمعنا بهذا في آبائنا الأولين}{(٤)}.

(١) سورة التغابن : آية ٥-٦
(٢) سورة إبراهيم عليه السلام : من الآيات ٩-١٠
(٣) سورة هود عليه السلام : من آية ٢٧
(٤) سورة المؤمنون : آية ٢٤

فنبى الله نوح عليه السلام لا يختلف عنهم فى الجنس ، وهو مثلهم فى الخصائص البشرية ، والمطالب الحيوية ، ومن ثمّ - وهنا تبدأ المغالطة - فلا يصح أن يكون رسولا ، ولا يستحق أن ينال هذه المرتبة ، مرتبة النبوة والرسالة ، لأنه بشر ، والرسول لا يكون أبداً من البشر ، ومقصدهم فى ذلك أن يثبتوا أن نوحا عليه السلام كاذب فى ادعائه ، وأن الله لم يرسل رسولا أصلا .

ثم يؤكدون شبهتهم من طريق آخر إذ يزعمون أنه لو كانت هناك إرادة لله تعالى فى ارسال رسول إلى البشر لكان هذا الرسول من الملائكة لامن البشر ، لأن الملائكة أعظم مكانة وأكبر قدرا ، فهم المستحقون لمنصب النبوة ، ومرتبة الرسالة ، ولما كان هذا المدعى للرسالة - فى زعمهم - ليس من هذا الجنس الملائكى كان ذلك دليلا على كذبه فيما جاء به .
ويشير الملائ من عاد الشبهة ذاتها عن نبى الله هود عليه السلام كما فى قول الله سبحانه :

{وقال الملائ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون .
ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون} (١).

وهم يقررون المماثلة فى البشرية بوصف هود عليه السلام بأنه يأكل مثلهم ويشرب مثلهم وبالتالي فهو محتاج كاحتياجهم ، ولذا فلا يرقى - فى زعمهم - إلى أن يكون فى منصب النبوة والرسالة ، والمغبون عندهم من يصدق ادعائه ويسير على نهجه ، وقد قطعوا بكذبه مادام بشرا مثلهم عليه السلام .

وهكذا قالت ثمود لرسولهم صالح عليه السلام :
{ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين} (٢).

(١) سورة المؤمنون : آية ٣٣-٣٤

(٢) سورة الشعراء : آية ١٥٤

أى "إنك بشر مثلنا فكيف تكون نبيا" (١).

ولذا أعلنوا استبعادهم التفكير فى اتباعه كما قال تعالى عنهم :

{فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر} (٢).

ويكرر المكذبون من عاد وثمود مقولة السابقين بأن الرسل لا بد أن

يكونوا من جنس الملائكة كما قال سبحانه عنهم :

{إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو

شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون} (٣).

يقول الرازى : "يعنى أنهم كذبوا أولئك الرسل وقالوا : الدليل على

كونكم كاذبين أنه تعالى لو شاء إرسال الرسل إلى البشر لجعل رسله من زمرة

الملائكة ، لأن إرسال الملائكة إلى الخلق أفضى إلى المقصود من البعثة

والرسالة ، ولما ذكروا هذه الشبهة قالوا {إنا بما أرسلتم به كافرون} معناه فإذا

أنتم بشر ولستم بملائكة فأنتم لستم برسول ، وإذا لم تكونوا من الرسل لم يلزمنا

قبول قولكم} (٤).

وفى قصة شعيب عليه السلام يحكى القرآن مقولة المكذبين :

{قالوا إنما أنت من المسحرين . وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن

الكاذبين} (٥).

وكذلك يفعل فرعون وملؤه حين يستبعدون الإيمان بموسى وهارون

عليهما السلام لأنهما من جنس البشر ، كما قال سبحانه :

{ثم أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه فاستكبروا

وكانوا قوما عالين . فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا...} (٦).

(١) التفسير الكبير ١٦٠/٢٤ .

(٢) سورة القمر : آية ٢٤

(٣) سورة فصلت : آية ١٤

(٤) التفسير الكبير ١١١/٢٧ .

(٥) سورة الشعراء : آية ١٨٥-١٨٦

(٦) سورة المؤمنون : من الآيات ٤٥-٤٧

وفي قصة المرسلين الذين ورد خبرهم في سورة يس تتكرر شبهة المكذبين :

{قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون}{(١)}.

ويسلك صناديد قريش المسلك ذاته حين يتناجون في أمره عليه الصلاة والسلام ، ويتواصون بعدم الإيمان به صلى الله عليه وسلم ، ومبررهم في ذلك أنه بشر . كما قال تعالى :

{... وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم ...}{(٢)}.

فاستبعدوا أن تكون الرسالة في البشر ، وأظهروا لذلك عجبهم واستغرابهم . قال جل وعلا :

{وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ...}{(٣)}.

{بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب}{(٤)}.
{وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا}{(٥)}.

والى ذلك يشير أيضا قوله تعالى :

{أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا...}{(٦)}.

يقول الألوسى : "والمراد أنهم عدوا ذلك أمرا عجيبا خارجا عن احتمال الوقوع وأنكروه أشد الإنكار ، لأنهم اعتقدوا وقوعه وتعجبوا منه" (٧).

-
- (١) سورة يس : آية ١٥
 - (٢) سورة الأنبياء عليهم السلام : من آية ٣
 - (٣) سورة ص : من آية ٤
 - (٤) سورة ق : آية ٢
 - (٥) سورة الإسراء : آية ٩٤
 - (٦) سورة يونس عليه السلام : من آية ٢
 - (٧) تفسير روح المعاني ١٦٦/٢٣ .

إنهم ينكرون أن تكون النبوة في بشر يحمل الخصائص البشرية ،
ويشارك غيره من البشر حاجاتهم المختلفة ، ويتقلب مثلهم في أحوال الحياة
من الصحة والمرض والفقر والغنى ويذهب ويحىء مثلهم .
قال تبارك وتعالى :

{وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق ...} (١).

"أى أى شىء وأى سبب حصل لهذا الزاعم أنه رسول حال كونه
يأكل الطعام كما نأكل {ويمشى في الأسواق} لابتغاء الأرزاق كما نفعله" (٢).
إن ذلك - فى تصورهم - أمر يثير العجب ، ومن ثم يستبعدونه غاية
الاستبعاد ، ويعتبرون اجتماع البشرية والرسالة مسألة يستحيل حصولها على
كل حال ، فكيف يكون محمد عليه الصلاة والسلام نبيا ورسولا فى الوقت
الذى يأكل الطعام ويطلب المعاش ويحتاج إلى التجول والتكسب كما يفعل
البشر .

هؤلاء المثيرون لهذه الشبهة حول بشريته صلى الله عليه وسلم يتجهون
بها - أحيانا - اتجاها آخر .

فهم يفترضون جدلا قبولهم ببشرية الرسول ، ولكنهم يطلبون
مؤيدات حسية يرونها تؤكد لهم رسالة الرسول ، وتثبت له صحة نبوته .
فمن باب التزل فى المناظرة - بزعمهم - ورغبة فى إثارة الشبهة من
جوانب متعددة ، وحرصا على زيادة نسبة الغموض والخفاء فى قضية بشرية
الرسول وأنه من الصعب على العقل أن يتقبلها ، يطلبون أن يتزل ملك -
على الأقل - يؤيد كلام الرسول ، ويؤكد دعواه ، ويشهد على صدقه ، كما
فى قوله سبحانه :

{وقالوا لولا أنزل عليه ملك ...} (٣)

(١) سورة الفرقان : من آية ٧

(٢) تفسير روح المعانى ٢٣٧/١٨ .

(٣) سورة الأنعام : من آية ٨

{.. لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا} (١).

{وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون . لوماتأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين} (٢).

وقال عز وجل :

{وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ...} (٣).

والمعنى "هلا أنزل الله علينا ملائكة فتخبرنا أن محمدا حق فيما يقول وأن ماجاءنا به صدق أو نرى ربنا فيخبرنا بذلك" (٤).

كما أنهم - أحيانا - يطلبون أن ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم كثر يصرف منه على دعوته ، وينفق منه على نفسه ، كما يطلبون أن يكون له بستان يأكل منه ، وكل ذلك - حسب شبهتهم - حتى لا يحتاج إلى التجول فى الأسواق والتكسب بالتجارات كما يفعل البشر ، ومقصودهم أنه لابد من توفر هذه الأمور لىتميز نبى الله عليه الصلاة والسلام عن البشر ببعض الخصائص ، كما قال جل شأنه :

{فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شىء وكيل} (٥).

وقال تبارك وتعالى :

{وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه

ملك فىكون معه نذيرا . أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ...} (٦).

قال الألوسى فى تفسير الآيات : "تنزل عما تقدم ، كأنهم قالوا : إن

لم توجد المخالفة بيننا وبينه فى الأكل والتعيش ، فهلا يكون معه من يخالف

(١) سورة الفرقان : من آية ٧

(٢) سورة الحجر : آية ٦-٧

(٣) سورة الفرقان : من آية ٢١

(٤) تفسير الطبرى ١/١٩ .

(٥) سورة هود عليه السلام : آية ١٢

(٦) سورة الفرقان : من الآيات ٧-٨

فيهما يكون ردءا له (١) في الإنذار ، فإن لم توجد فهلا يخالفنا في أحدهما وهو طلب المعاش بأن يلقي إليه من السماء كثر يستظهر به ويرتفع احتياجه إلى التعيش بالكلية ، فإن لم يوجد فلا أقل من رفع الاحتياج في الجملة بإتيان بستان يتعيش بريعه " (٢) .

وقد اتجه فرعون هذا الاتجاه من قبل ، رغبة منه في إثارة الغموض حول شخصية موسى عليه السلام ، واتساع دائرة الشبهة حول رسالته . إن موسى عليه السلام - في نظر فرعون - بشر لا يستحق مرتبة الرسالة وإن تم التجاوز عن ذلك ، فلم لم تشهد له الملائكة على أدنى الأحوال . ذلك ما حكاه القرآن على لسان فرعون :

{فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين} (٣) .
قال ابن كثير : "أى يكتفونه خدمة له ويشهدون بتصديقه" (٤) .

ففرعون يشيع الشبهة حول رسالة موسى عليه السلام من هذا الوجه كذلك ، والمبنى على أنه لو كان رسولا حقا لاحتفت به الملائكة يؤيدونه فيما يقول ، ويؤكدون صدقه ، ويشهدون أنه رسول من عند الله حقا . وبطبيعة الحال فليس المهم لدى فرعون أن يصل إلى الحقيقة ، وإنما الذى يهمه - كغيره من الطغاة - هو أن ينجح في إحكام طوق الشبهات حول موسى عليه السلام بغية إطفاء نور الحق في دعوته وتنفير الناس من الالتفاف حوله أو الاستجابة له .

(١) أى عونا . ينظر ترتيب القاموس المحيط ٣٢٢/٢ .

(٢) تفسير روح المعاني ٢٣٨/١٨ .

(٣) سورة الزخرف : آية ٥٣

(٤) تفسير ابن كثير ١٣٠/٤ .

الشبهة الثانية اتهام الرسول عليه السلام بالجنون

هذه الشبهة وردت ضمن شبهات الملأ في مواجهة نبي الله نوح عليه السلام ، إذ قالوا - ضمن مقالاتهم - ما حكاه القرآن الكريم :
{إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين} (١).
{كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر} (٢).

وهي إحدى مبرراتهم التي أسسوا عليها تكذيبهم ، فقد اتهموا نبي الله نوحا عليه السلام بأنه مجنون ، قد فقد عقله ، وأصابه الخبل ، فدفعه إلى ما يقوم به من التصرفات ، وما يقوله من العبارات ، وما يأتي به من غرائب الأشياء ، ومن ثم فهو ليس مجرّي أن يتبع ، أو أن يجارى فيما يقوله ويدعو إليه ، وليس جديرا بهذه المرتبة ، إذ يتنافى ما هو عليه من حال الجنون مع منصب النبوة ومنزلة الرسالة .

قال الرازي : "والجنة الجنون أو الجن ، فإن جهال العوام يقولون في المجنون زال عقله بعمل الجن ، وهذه الشبهة من باب الترويح على العوام ، فإنه عليه الصلاة والسلام كان يفعل أفعالا على خلاف عاداتهم ، فأولئك الرؤساء كانوا يقولون للعوام : إنه مجنون ، ومن كان مجنونا فكيف يجوز أن يكون رسولا؟" (٣)

وننتقل إلى قصة عاد لنجد أن المكذبين أثاروا على هود عليه السلام ذات الشبهة ولكن بأسلوب آخر ، إذ يجعلون فقدان هود عليه السلام لعقله هو أحد مظاهر العقوبة من الآلهة التي يحاربها بما جاء به من الدعوة إلى التوحيد .

(١) سورة المؤمنون : آية ٢٥

(٢) سورة القمر : آية ٩

(٣) التفسير الكبير ٩٢/٢٣ .

قال تعالى :

{قالوا يا هود ماجئتنا ببينة ومانحن بتاركى آلهتنا عن قولك ومانحن لك
بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ...} (١).

قال ابن كثير : "يقولون مانظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون
وخبل فى عقلك بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها" (٢).

فهو عليه السلام - حسب مقولتهم - لم يعد عاقلا ، بل تحول بإصابة
الآلهة له إلى رجل محتل العقل ، فاقد للتفكير السليم ، ولذا فهو يأتي بما
لا يصدقه العاقل ، ومن ثم فلا ينبغي أن يلتفت إلى المنهج الذى جاء به ، إذ
كيف يمكن اتباعه وهو على هذه الصورة المريبة والحال المزرى من الخبل
والجنون .

كذلك أثرت هذه الشبهة حول نبى الله موسى عليه السلام كما قال
سبحانه :

{وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسطان مبين . فتولى بركنه وقال
ساحر أومجنون} (٣).

وفرعون فى مقولته هذه يوهم الناس بأنه منصف يبحث عن الحق ،
وذلك حين يتردد فى الوصف المناسب لحال موسى عليه السلام فيما جاء به
بين أن يكون ساحرا أو أن يكون مجنونا .

والجامع بين الوصفين أن كلا منهما له علاقة بالجن .
يقول الرازى : "وقال ساحر أو مجنون} أى هذا ساحر أو مجنون ،
وقوله (ساحر) أى يأتي الجن بسحره أو يقرب منهم ، والجن يقربون منه
ويقصدونه إن كان هو لا يقصدهم . فالساحر والمجنون كلاهما أمره مع الجن
غير أن الساحر يأتيهم باختياره ، والمجنون يأتيه من غير اختياره .

(١) سورة هود عليه السلام : من الآيات ٥٣-٥٤

(٢) تفسير ابن كثير ٤٤٩/٢ .

(٣) سورة الذاريات : آية ٣٨-٣٩

فكأنه أراد صيانة كلامه عن الكذب فقال هو يسحر الجن ، أو يسحر فإن كان ليس عنده منه خبر ولا يقصد ذلك فالجن يأتونه" (١).

ولكن فرعون لا يتردد - أحيانا - في وصف موسى عليه السلام بأنه مجنون ، وهى شبهة كافية في تنفير من يتقبلها من الناس عن دعوته عليه السلام ، إذ كيف يستحق الاتباع من يتصف بالجنون؟ وكيف يصدق بعد ذلك فى دعوى الرسالة؟

{قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون} (٢).

قال ذلك فرعون لما واجهه موسى عليه السلام بالدلائل القاطعة على وحدانية الله رب العالمين ، فخاف فرعون أن يكون من السامعين من تأثر بما سمعه من البيّنات ، وغلبته دلائل الهدى مع نبى الله عليه السلام ، فألقى فى تلك الحال شبهته متهما موسى عليه السلام بأن به مسا من الجنون وزيادة فى استدعاء الإنكار من الملأ حوله لما جاء به موسى عليه السلام ، واستشارة غضبهم وأنفتهم ، أضاف فرعون الرسول الموصوف بالجنون إليهم {.. إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون} .

قال الألوسى : " .. سماه رسولا بطريق الاستهزاء ، وأضافه إلى مخاطبيه ترفعا من أن يكون مرسلا إلى نفسه ، وأكد ذلك بالوصف ، وفيه إثارة لغضبهم ، واستدعاء لإنكارهم رسالته بعد سماع الخير ترفعا بأنفسهم عن أن يكونوا أهلا لأن يرسل إليهم مجنون" (٣).

وكما أثبتت شبهة الجنون حول أنبياء الله تعالى نوح وهود وموسى عليهم السلام ، فقد أثبت كذلك حول رسولنا صلى الله عليه وسلم ، فاتهم عليه الصلاة والسلام بأنه مجنون .

(١) التفسير الكبير ٢٨/٢٢٠-٢٢١ .

(٢) سورة الشعراء : آية ٢٧

(٣) تفسير روح المعاني ١٩/٧٢ .

والقرآن الكريم يشير إلى هذا الاتهام من المكذبين حين يرد عليهم في بعض الآيات الكريمة التي يدافع الله عز وجل فيها عن رسوله صلى الله عليه وسلم ميرثا له من هذا الاتهام .

قال تعالى :

{أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ...} (١).

{قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ...} (٢).

{فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون} (٣).

{ما أنت بنعمة ربك بمجنون} (٤).

{وما صاحبكم بمجنون} (٥).

هذه الآيات الكريمة التي ترد عليهم شبهتهم تشير إلى أنهم كانوا يجابهونه صلى الله عليه وسلم بهذا الاتهام بشكل متكرر ، ويرددونه بين العامة باستمرار . ويصرحون بذلك في وجهه عليه الصلاة والسلام أحيانا كما قال جل وعلا :

{وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون} (٦).

وهم بهذا التعبير يؤكدون اتصافه صلى الله عليه وسلم بالجنون . بل كانوا يتهمون برمييه صلى الله عليه وسلم بهذا الوصف ، ويستنكرون فيما بينهم أن يتركوا دينهم وآلهتهم التي يعبدونها من أجل اتباع شخص مختل العقل ، مضطرب التفكير - بزعمهم - كما في قول الله جل وعلا عنهم :

(١) سورة الأعراف : من آية ١٨٤

(٢) سورة سبأ : من آية ٤٦

(٣) سورة الطور : آية ٢٩

(٤) سورة القلم : آية ٢

(٥) سورة التكويد : آية ٢٢

(٦) سورة الحجر : آية ٦

{ويقولون أننا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون} (١).

ولقد كان هؤلاء الطغاة المضللون على يقين بروعة ماجاء به صلى الله عليه وسلم من القرآن الكريم ، وعلى علم بما فيه من الإعجاز ، ولكنهم حين قرروا التكذيب كان لابد من إيجاد مبرر لما يأتي به رسولنا عليه الصلاة والسلام من الكلام العجيب ، فكان أن وجدوا في هذا الوصف له صلى الله عليه وسلم بالجنون ما يبرر ما يرد على لسانه مما يعجز عنه البشر .

قال صاحب الظلال عند قول الله تعالى :

{فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون} (٢):

"كان يحملهم على وصف النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الوصف أو ذاك ، أو بقولهم إنه شاعر أو ساحر ، كان يحملهم على هذا كله موقفهم مبهوتين أمام القرآن الكريم المعجز الذي بيدهم (٣) بما لم يعهدوا من القول وهم أهل القول ، ولما كانوا لا يريدون - لعله في نفوسهم - أن يعترفوا أنه من عند الله فقد احتاجوا أن يعللوا مصدره المتفوق على البشر فقالوا إنه من إيحاء الجن وبمساعدهم ، فصاحبه إما كاهن يتلقى من الجن ، أو ساحر يستعين بهم ، أو شاعر له رأي من الجن ، أو مجنون به مس من الشيطان ينطق بهذا القول العجيب" (٤).

ويستمر الاتهام منهم له عليه الصلاة والسلام بالجنون في كل مناسبة .

قال تعالى :

{وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون} (٥).

(١) سورة الصافات : آية ٣٦

(٢) سورة الطور : آية ٢٩

(٣) أى يفاجئهم . ينظر ترتيب القاموس المحيط ٢٣٢/١ .

(٤) في ظلال القرآن ٣٣٩٨/٦ .

(٥) سورة القلم : آية ٥١

{ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون} (١).
{أم يقولون به جنة...} (٢).

وهم - أحيانا - يأتون بهذه الشبهة بصيغة الاستفهام إشعارا بترددهم في الوصف المناسب له عليه الصلاة والسلام لإظهار الإنصاف منهم ، والتأني من جهتهم في معرفة الحال الذي عليه صلى الله عليه وسلم فيما يأتي به - في زعمهم - من غريب القول وعجيب الأفعال ، ويظهر ذلك فيما حكاه الله تبارك وتعالى عنهم :

{وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد . أفترى على الله كذبا أم به جنة...} (٣).

فهم يستنكرون قضية البعث ، ويتعجبون من أمر القائل بها صلى الله عليه وسلم ، ثم يقررون أنه عليه الصلاة والسلام فيما جاء به لا يخلو من حالين {أفترى على الله كذبا أم به جنة} .

"فما يقول مثل هذا الكلام بزعمهم إلا كاذب يفترى على الله مالم يقله ، أو مسته الجن فهو يهذى أو ينطق بالعجيب الغريب" (٤).

إن هذا الاتهام بالجنون شبهة متكررة للمكذبين في مواجهة المرسلين عليهم السلام ، كما يقول ابن تيمية "وهذا من افتراء المكذبين على الرسل لما خرجوا عن عاداتهم التي هي محمودة عندهم نسبوهم إلى الجنون" (٥).
وفي ذلك يقول الله تعالى ذكره :

{كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون . أتواصوا به بل هم قوم طاغون} (٦).

-
- (١) سورة الدخان : آية ١٤
 - (٢) سورة المؤمنون : من آية ٧٠
 - (٣) سورة سبأ : من الآيات ٧-٨
 - (٤) في ظلال القرآن ٢٨٩٥/٥ .
 - (٥) فتاوى ابن تيمية ٣٣٦/١٦ .
 - (٦) سورة الذاريات : آية ٥٢-٥٣

الشبهة الثالثة اتهام الرسول عليه السلام بأنه مسحور

تعنى هذه الشبهة لدى مثريها من المضللين أن الرسول قد غلب على عقله وتفكيره نتيجة ما أصابه من السحر ، وبالتالي فإن ما أتى به من دعوى الوحي والرسالة ، وما يجيء به من منهج التوحيد إنما هو نتيجة لوضع مضطرب ، وعقلية غير متزنة ، وشخصية غير طبيعية ، وتفكير مصاب بالخلل وشعور نفسى مريض ، ومن ثمّ فلا يمكن أن يصدق من كان هذا وضعه ، ولا يستحق أن يتبع من كان هذا حاله ، ولا يجدر بالعاقل أن يتلقى عن شخص مريض بهذه الهيئة .

إنه حينئذ بحاجة إلى أن يؤخذ بيده للعلاج ، لأن يسار خلفه ، أو يقابل ما يجيء به بالإيمان والتسليم .

لقد أثبت هذه الشبهة حول نبى الله صالح عليه السلام كما حكى القرآن الكريم :

{قالوا إنما أنت من المسحورين . ما أنت إلا بشر مثلنا ...} (١).

وحول شعيب عليه السلام أيضا :

{قالوا إنما أنت من المسحورين . وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين} (٢).

قال ابن كثير : "قال مجاهد وقتادة : يعنون من المسحورين ، وروى أبو صالح عن ابن عباس : (من المسحورين) يعنى من المخلوقين .. والأظهر فى هذا قول مجاهد وقتادة ، أنهم يقولون : إنما أنت فى قولك هذا مسحور لاعقل لك" (٣).

(١) سورة الشعراء : من الآيات ١٥٣-١٥٤

(٢) سورة الشعراء : آية ١٨٥-١٨٦

(٣) تفسير ابن كثير ٣/٣٤٣-٣٤٤ (مع اختصار يسير) .

ورجحه كذلك أبو حيان فقال : "والمسحَّر الذي سحر كثيرا حتى غلب على عقله ، وقيل من السحَّر ، وهو الرئة ، أى أنت بشر لاتصلح للرسالة ، ويضعف هذا القول قولهم بعد {مأنت إلا بشر مثلنا} إذ تكون هذه الجملة توكيدا لما قبلها ، والأصل التأسيس" (١).

وكذلك واجه فرعون بهذا الاتهام نبى الله موسى عليه السلام لما جاءه بالمعجزات الواضحات كما قال تبارك وتعالى :

{ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك يا موسى مسحورا} (٢).

"أى سحرت فاختل عقلك ، ولذلك اختل كلامك وادعيت مادعيت" (٣).

كما أثار الملأ من قريش هذه الشبهة أيضا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم كما فى قوله جل وعلا :

{نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا} (٤).

{.. وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا} (٥).

قال أبو حيان : "والظاهر أن مسحورا من السحَّر ، أى خبل عقله السحر" (٦).

(١) تفسير البحر المحيط ٣٥/٧ ، وينظر تيسير الكريم الرحمن ٤٨٠/٣ ، تفسير

القاسمى ٣٦/١٣ .

(٢) سورة الإسراء : آية ١٠١

(٣) تفسير روح المعانى ١٨٤/١٥-١٨٥ ، وينظر تفسير فتح القدير ٢٦٣/٣ .

(٤) سورة الإسراء : آية ٤٧

(٥) سورة الفرقان : من آية ٨

(٦) تفسير البحر المحيط ٤٤/٦ ، وينظر : تيسير الكريم الرحمن ١١٣/٣ ، تفسير

القاسمى ٢٣٧/١٠ .

ومال ابن كثير إلى هذا القول في معنى الآية فقال : "يخبر تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بما يتناجى به رؤساء كفار قريش حين جاؤوا يستمعون قراءته صلى الله عليه وسلم سرا من قومهم بما قالوا من أنه رجل مسحور : من السَّحَرِ على المشهور ، أو من السَّحَرِ ، وهو الرئة : أى إن تتبعون إن اتبعتم محمدا إلا بشرا يأكل ، وقد صوب هذا القول ابن جرير ، وفيه نظر ، لأنهم أرادوا ههنا أنه مسحور له رِيٌّ يَأْتِيهِ بما استمعوه من الكلام الذى يتلوه ... " (١)

قال الشوكاني : "أى يقول كل منهم للآخرين عند تناجيتهم : ماتتبعون إلا رجلا سحر فاختلف عقله وزال عن حد الاعتدال" (٢).

والأكابر المضلون - بهذا الاتهام - يشعرون من يفكر فى اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام بفداحة الخسارة التى تصيبه ، وعظم المصيبة التى تحل به ، حين يرتضى لنفسه أن يجارى ويتابع رجلا مسحورا ، قد غلب على عقله ، واختل فى تفكيره ، فلم يعد يملك زمام أمره ، أو يضبط ما ينطلق به لسانه - كما يزعم أولئك المجرمون - .

(١) تفسير ابن كثير ٤٤/٣ (مع اختصار يسير) .

(٢) تفسير فتح القدير ٤٣٢/٣ ، وينظر تفسير القرطبي ١٧٧/١٠ .

الشبهة الرابعة اتهام الرسول عليه السلام بالسفه والضلال

لما كان الرسل عليهم السلام يبلغون عن الله سبحانه المنهج الصحيح ،والدين القويم ، المبني على توحيد الله تعالى وطاعته ، في الوقت الذي يعيش فيه أقوامهم في جهل بالله جل وعلا ، وانغماس في مظاهر الشرك والفجور ، لذا كان هذا المنهج الإلهي مصادما في الواقع للمنهج الجاهلي ، والحياة به مخالفة ومتناقضة مع الحياة الجاهلية بشتى مظاهرها وأوضاعها المعوجة .

ومن ثمَّ كان الرسل عليهم السلام كثيرا ما ^{مستمر} يتهمون - حسب موازين الطغاة المنكوسة - بأنهم خارجون عن المنهج الذي ارتضاه المجتمع ، ضالون عن الطريق السوي الذي عاش عليه الآباء . والطغاة يعبرون عن هذا الاتهام بأساليب مختلفة وأشكال متعددة .

بل يصرحون - أحيانا - للرسول عليه السلام بأنه يعيش في ضلال . والضلال كما في تفسير القرطبي "العدول عن طريق الحق والذهاب عنه" (١) .

وهنا يتأمل العاقل السوي كيف تنعكس الموازين ، وتنقلب التصورات والمفاهيم ، حين تنتكس الفطرة، فيصبح ماعليه القوم من شرك وفجور وعبادة لغير الله تعالى هو الهدى الذي يجب السير على نهجه ، وهو الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ، وبالمقابل فإن ما يأتي به الرسول عليه السلام من دين الله سبحانه القائم على توحيدده جل وعلا يصبح عند هؤلاء هو الضلال بعينه يحل محل الهدى ، وهو الشقاء الذي يضيع الناس بسببه ، وينحرفون به عن طريق السعادة والهناء .

(١) تفسير القرطبي ١٤٩/٧ ، وينظر تفسير البحر المحيط ٣٢٠/٤ .

ويلخص ابن كثير هذه الطبيعة للفجار فيقول : "وهكذا حال الفجار
إنما يرون الأبرار في ضلالة" (١).

ذلك ما أعلنه الملائ من قوم نوح عليه السلام حين وصفوا نوحا عليه
السلام بأنه ضال ، وأن ما جاء به هو الضلال المبين ، وجعلوا من هذا
الوصف شبهة تبرر لهم التكذيب ، كما تمنع الناس من الاستجابة لدعوته
عليه السلام ، إذ كيف يبتغى الخير والهدى ممن يحيا هو نفسه في ضلال .
قال الله جل شأنه :

{قال الملائ من قومه إننا لنراك فى ضلال مبين} (٢).

ولم يكن السبب الذى استحق به نبى الله نوح عليه السلام وصفهم
هذا بالضلال إلا أنه جاءهم يعلن رسالته من ربه تبارك وتعالى ، داعيا إياهم
إلى ترك ما هم عليه من عبادة الأصنام ، والتوجه بالعبودية إلى الله وحده
دون سواه .

ذلك أنهم يعتبرون ما هم عليه من مناهج وتقاليد وأوضاع هو الحق
والهدى والنور الذى ضل عنه نوح عليه السلام بما جاء به من الدين .
ثم هم يصفون هذا الضلال لدى نبيهم - حسب شبهتهم - بأنه (مبين)
فهو واضح بين ، لامرية فيه ، ولا يحتاج فى ملاحظته إلى كثير نظر أو إعمال
للتفكير .

وقريب من ذلك ما وصم به أكابر عاد الكافرون نبيهم هودا عليه
السلام كما فى قوله سبحانه :

{قال الملائ الذين كفروا من قومه إننا لنراك فى سفاهة ...} (٣).

والسفاهة : الطيش والحمق والجهالة وخفة الأحلام والآراء (٤).

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٢٣ .

(٢) سورة الأعراف : آية ٦٠ .

(٣) سورة الأعراف : من آية ٦٦ .

(٤) ينظر : معانى القرآن لأبى جعفر النحاس ٣/٤٧ ، معانى القرآن للزجاج ٢/٣٤٧ ،

تفسير البغوى ٢/١٦٩ ، تفسير القرطبي ٧/١٥١ .

والمعنى كما في البحر المحيط : {إننا لنراك في سفاهة} "أى في خفة حلم
وسخافة عقل ، حيث تترك دين قومك إلى دين غيره" (١).

وقال ابن كثير : "أى في ضلالة حيث تدعوننا إلى ترك عبادة الأصنام
والإقبال على عبادة الله وحده" (٢).

إن نبي الله هوذا عليه السلام - في زعم هؤلاء - رجل أحقق الفكر ،
خفيف العقل ، متمكن في السفه والضلال ، بعيد عن التصور الصحيح
للحياة السعيدة ، وسبب ذلك - في تصورهم - خروجه عن منهج القوم ،
ومفارقته لدين الآباء ، ومجيئه بدين من رب العالمين يدعوهم فيه إلى توحيد
الله سبحانه ، ونبذ ما هم عليه من الأوضاع الجاهلية ومظاهر الشرك
والفجور .

يقول سيد قطب : "وكأنما كبر على الملأ الكبراء من قومه أن يدعوهم
واحد من قومهم إلى الهدى ، وأن يستنكر منهم قلة التقوى ، ورأوا فيه
سفاهة وحمافة ، وتجاوزا للحد ، وسوء تقدير للمقام ، فانطلقوا يتهمون
نبيهم بالسفاهة وبالكذب جميعا في غير تخرج ولاحياء {قال الملأ الذين كفروا
من قومه إننا لنراك في سفاهة وإننا لنظنك من الكاذبين} (٣) هكذا جزافا بلا ترو
ولا تدبر ولا دليل" (٤).

ويذكر القرآن الكريم مقولة المعاندين من رجال قريش في مواجهتهم
لرسولنا عليه الصلاة والسلام ، وذلك في قول الله جل وعلا :

{وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا . إن كاد
ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من
أضل سييلا} (٥).

(١) تفسير البحر المحيط ٣٢٤/٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢٢٤/٢ .

(٣) سورة الأعراف : آية ٦٦ .

(٤) في ظلال القرآن ١٣١٠/٣ .

(٥) سورة الفرقان : آية ٤١-٤٢ .

إنهم يقررون أن أوضاعهم ومناهجهم التي تأسس بنيانها على الشرك بالله سبحانه هي الهدى والخير والصلاح ، الذى كاد نبينا عليه الصلاة والسلام أن يصرفهم عنها بما جاء به من الدعوة ، وينقلهم إلى طريق الضلال الذاهب عن الحق ، التائه عن الصواب .

لكنهم صبروا على آلهتهم ، وثبتوا على منهجهم ودينهم ، ولم يكنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من مراده ومقصده .

هكذا يصنع الطغاة المضللون فى تنكيس الموازين ، وقلب التصورات والمفاهيم ، لتأتى النتائج والأحكام بعد ذلك وفق ما يرغبون ويشتهون . يقول الألوسى فى تفسير الآية {إن كاد ليضلنا عن آلهتنا} أى ليصرفنا عن عبادتها صرفا كليا ، بحيث يبعدنا عنها ، لاعن عبادتها فقط ، والعدول إلى الإضلال لغاية ضلالهم بادعاء أن عبادتها طريق سوى {لولا أن صبرنا عليها} ثبتنا عليها واستمكننا بعبادتها" (١).

ويصر أبو لهب على أن تستمر الملاحقة بهذا الاتهام دون هوادة . يقول ربيعة بن عباد رضى الله عنه : " رأيت أبا لهب بعكاظ (٢) وهو يتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : يا أيها الناس إن هذا قد غوى ، فلا يغوينكم عن آلهة آبائكم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يفر منه ، وهو على أثره ، ونحن نتبعه ونحن غلمان ، كأنى أنظر إليه أحول ذا غديرتين ، أبيض الناس وأجملهم" (٣).

وعنه رضى الله عنه أيضا : "إنى لمع أبى رجل شاب أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبع القبائل ، ووراءه رجل أحول وضىء ذو

(١) تفسير روح المعانى ٢٢/١٩ .

(٢) عكاظ : سوق كانت العرب إذا حجت أقامت به شهر شوال ، وكانوا يتفاخرون فيه ، يقال : عكظ الرجل صاحبه إذا فاخره وغلبه بالمفاخر ، فسميت عكاظ لذلك ينظر الروض الأنف ١٦٩/٢ .

(٣) رواه أحمد : الفتح الربانى ٢٠/٢١٧ ، قال الساعقانى : سنده جيد ، وينظر البداية والنهاية ١٧٠/٣ .

جمعة^(١)، يقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على القبيلة ويقول : يا بني فلان ، إني رسول الله إليكم آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفذ عن الله مابعثني به ، فإذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من مقالته قال الآخر من خلفه : يا بني فلان ، إن هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الحى من بنى مالك بن أقيش^(٢) إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تسمعوا له ولا تتبعوه . فقلت لأبى : من هذا؟ قال : عمه أبو لهب^(٣) .

فبني الله عليه الصلاة والسلام - في نظر أبى لهب وأمثاله - صاحب غواية ، وداعية بدعة وضلالة ، ولذا فلا بد من الحذر من التأثر بكلماته ، أو التفكير في اتباعه .

ذلك منطقتهم ، لكن الله عز وجل يقول :

{.. وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً^(٤) .}

-
- (١) "الجمعة من شعر الرأس ماسقط على المنكبين" . النهاية ٣٠٠/١ .
- (٢) في رواية ابن إسحاق "وحلفاءكم من الجن من بنى مالك بن أقيش" ، قال في لسان العرب ٩٩/١ : "بنو أقيش : حى من الجن" .
- (٣) رواه أحمد : الفتح الرباني ٢٠/٢١٦-٢١٧ ، وابن إسحاق : السيرة النبوية لابن هشام ٢٨/٢ ، والطبراني كما في تفسير ابن كثير ٤/٥٦٤ ، قال الهيثمى : وفيه حسين بن عبد الله بن عبيد الله ، وهو ضعيف ، ووثقه ابن معين في رواية ، وقد تقدمت له طرق فيما أودى به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعضها صحيح . مجمع الزوائد ٦/٣٩ ، وينظر البداية ٣/١٧٠ .
- (٤) سورة الفرقان : من آية ٤٢

الشبهة الخامسة لا يمكن للرسول أن يكون فقيرا أو بعيدا عن الواجهة باعتقادهم

لا شك أن أنبياء الله عليهم السلام هم صفوة البشر ، أفضل أقوامهم خلقا وسيرة ، وأشرفهم نسبا وحسبا ، ولكنهم مع ذلك - لحكمة إلهية - لا يكونون في العادة من أصحاب المال الوفير ، أو من ذوى الرياسة والسلطان .

والمضللون يستغلون هذا الوضع ليثيروا شبهة تقدح - في نظرهم - في استحقاق الرسول لمرتبة النبوة والرسالة ، وجدارته بالاتباع ، فيصرحون أن الرسل عليهم السلام ليسوا من أصحاب الرياسة في القوم ، ولا من ذوى الزعامة المقدمين في المجتمع ، ولا يملكون خصائص مادية تميزهم عن غيرهم ، وترفع من قدرهم ، فتجعلهم مؤهلين لمرتبة الأنبياء ، بل هم بشر شأنهم شأن غيرهم من الناس ، لا يميزون - في زعم الملائم الكاذبين - بفضيلة ، ولا يتفوقون بمال أو رئاسة ، فكيف يستحقون نيل النبوة دون غيرهم من أصحاب الحظوظ الدنيوية ، ومن ثم فإن ادعائهم للرسالة وهم بهذه الهيئة والحال يقدح في رسالتهم ، ويشكك في نبوتهم ، إذ لو كانت مسألة النبوة حقا لكان الأولى بها هؤلاء الكبراء من الملائم أصحاب السلطة وذوى السيادة والمال والثروة .

هذه الشبهة نلاحظها - مثلا - في قصة نوح عليه السلام ، ضمن شبهات الملائم كما في قول الله سبحانه :

{فقال الملائم الذين كفروا من قومه مانراك إلا بشرا مثلنا ومانراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الراى ومانرى لكم علينا من فضل ..} (١).

فالملائم يبررون كفرهم بأن نوحا عليه السلام بشر مثلهم ، لا يميز عنهم بما يؤهله للرسالة دونهم ويخصه بها من بينهم .

قال الألوسى : "والظاهر أن مقصودهم ليس إلا اثبات أنه عليه السلام مثلهم ، وليس فيه مزية يترتب عليها النبوة ، ووجوب الطاعة والاتباع" (١).

ثم يؤكدون شبهتهم بنفى الفضل عنه عليه السلام وعن أتباعه {وما نرى لكم علينا من فضل} أى لانجد فيكم ماتفضلون به علينا من مال أو منصب أو رئاسة .

إن هؤلاء الأكابر المكذبين يقيسون حال الرسالة على حال الدنيا ، فارتفاع الانسان منزلة ومكانة في الدنيا ظاهرا عند أهلها يعتمد على ما يملكه من مال ، أو ما يتمتع به من جاه ، فيمرون هذا المقياس على مسألة النبوة والرسالة ، فإذا كانت الرسالة لا بد وأن يتحملها بشر فانها ستكون من نصيب من يتأهل لها بالمال الوفير أو المنصب الخطير ، ولما كان نوح عليه السلام لا يملك شيئا من هذا كان غير مستحق لتحمل النبوة والرسالة ، ومن ثم فهو كاذب فيما يأتي به من الدين ، غير جدير باتباع الناس له ، والانقياد له فيما يقول .

فالرسالة "في زعمهم لا تكون لبشر ، فإن كانت فهي لأمثالهم من الوجهاء العالين في الأرض" (٢). أما الرسل عليهم السلام فليس لديهم ما يؤهلهم من سيادة ماضية أو مال سايب أو رئاسة سابقة .

يقول تعالى عن المكذبين بنبي الله صالح عليه السلام :

{فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر . ألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر} (٣).

إنهم يكررون نفس التصور ، إذ يقولون : كيف نتبع من هو مثلنا في البشرية ، ولا يتميز علينا بما يستحق به أن يكون رسولا ينزل عليه الوحي

(١) تفسير روح المعاني ٣٧/١٢ .

(٢) في ظلال القرآن ١٨٧٢/٤ .

(٣) سورة القمر : آية ٢٤-٢٥ .

من السماء ، ولانلاحظ عليه مايفضل به على آل ثمود من رياسة أو جاه ، وعلى ذلك فإن اتباعه وهو بهذا الوصف أمر مستبعد ، ورأى غير سديد ، بل إن اتباعه في هذه الحال هو الضلال بعينه " {إنا إذاً لفي ضلال} أى ذهاب عن الصواب {وسعّر} أى جنون" (١) ، فكفرهم بصالح عليه السلام - في رأيهم - يحمل الإنقاذ لهم من ربة الضلال والجنون .

وكانت النتيجة أن يظهروا استغرابهم وإنكارهم لأن يكون صالح عليه السلام هو رسول الله حقا {ألقى الذكر عليه من بيننا} ، "أى خصص بالرسالة من بين آل ثمود ومنهم من هو أكثر مالا وأحسن حالا ، وهو استفهام معناه الإنكار" (٢) .

وتتكرر المقولة من فرعون وملئه كما حكى القرآن عنهم :

{فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون} (٣) .

وتعتمد هذه الشبهة منهم على أساس أن موسى وهارون عليهما السلام ليس لهم من مظاهر الدنيا ما يؤهلهم للتفضل والرفعة ، بل إن قومهما من بنى إسرائيل هم خدم لآل فرعون مستضعفون ، ومطيعون لهم خاضعون ، فكيف تنعكس المسألة - في زعمهم - فيتبع المخدم من كان له في السابق خادما؟

قال الألوسى في تفسير الآية : "الأولى تفسير (عابدون) بخادمون ، وهو مما يصح إسناده إلى فرعون وملئه ، وكأنهم قصدوا بذلك التعريض بشأن الرسولين عليهما السلام وخط رتبتهما العلية عن منصب الرسالة من وجه آخر غير البشرية" (٤) .

ثم قال : "والجملة حال من فاعل (نؤمن) مؤكداً لإنكار الإيمان لهما بناء على زعمهم الفساد المؤسس على قياس الرياسة الدينية على الرياسة

(١) تفسير القرطبي ٩٠/١٧ ، وينظر معاني القرآن للزجاج ٨٩/٥ .

(٢) تفسير القرطبي ٩٠/١٧ .

(٣) سورة المؤمنون : آية ٤٧

(٤) تفسير روح المعاني ٣٧/١٨ ، وينظر تفسير البيضاوى ١٠٥/٢ .

الديوية الدائرة على التقدم في نيل الحظوظ الديوية من المال والجاه" (١).
 وفي ابتداء الدعوة من نبي الله موسى عليه السلام كان جواب فرعون
 يحمل في ثناياه غمطا لشخص موسى عليه السلام ، وإشعارا له بضعف مكانته
 وانحطاط مرتبته ، وسوء سابقته ، مما لا يؤهله لاستحقاق ما يدعيه من أمر
 الرسالة .

{قال ألم نريك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين . وفعلت فعلتك التي
 فعلت وأنت من الكافرين} (٢).

فهو يذكّره بالسنوات التي قضاها من عمره في قصر فرعون ، فلم يقتل
 ضمن من قتل من ذكور بني إسرائيل ، كما يقرره كذلك بقتل القبطى قبل
 خروجه من مصر ، وهو في ذلك كله يريد أن يظهر موسى عليه السلام في
 صورة من لا يملك من الخصائص الشخصية ما يؤهله لأن يكون رسولا ، بل
 على العكس من ذلك - حسب مقولة فرعون الآتمة - فإن حياته في قصر
 فرعون ينال من خيره ، وسابقته في القتل ، كل ذلك يوحى بتدنى مرتبته
 عن نيل درجة النبوة ، فكأنه يقول له "فكيف تدعى مع علمنا أحوالك بأن
 الله أرسلك" (٣).

ولما جمع فرعون الجماهير ليخطب فيهم مذكرا لهم بعظمته وخصائصه
 راح يندد (٤) بموسى عليه السلام ، ويقلل من شأنه ، ويحط من مكانته ،
 ويستبعد أمام الجموع أن يكون موسى عليه السلام مؤهلا لما يدعيه ، إذ
 لا مال له ولا جاه ، وليس له سابقة زعامة أو ثراء :

{ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار
 تجرى من تحتى أفلا تبصرون . أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد
 يبين} (٥).

(١) تفسير روح المعانى ٣٧/١٨ .

(٢) سورة الشعراء : آية ١٨-١٩ .

(٣) تفسير القرطبي ٦٥/١٣ .

(٤) "ندد به : صرح بعيوبه ، وأسمعه القبيح" . ترتيب القاموس المحيط ٣٤٧/٤ .

(٥) سورة الزخرف : آية ٥١-٥٢ .

قال ابن كثير : "يقول تعالى مخبرا عن فرعون وقرده وعتوه وكفره وعناده أنه جمع قومه فنادى فيهم متبجحا مفتخرا بملك مصر وتصرفه فيها {أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى} قال قتادة : قد كانت لهم جنات وأنهار ماء {أفلا تبصرون} أى أفلاترون ماأنا فيه من العظمة والملك ، يعنى وموسى وأتباعه فقراء ضعفاء" (١).

ثم يحكم لنفسه بالفضل والخيرية مقارنة بحال موسى عليه السلام ، وينتج عن ذلك - حسب زعمه - الاستبعاد الشديد لنبوة موسى عليه السلام إذ كيف ينالها وهو بهذه الهيئة ، ليس له من المال مايعلى من شأنه ، ومن الرياسة مايرفع من قدره {أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولايكاد يبين} . قال فى الظلال : "وهو يعنى بالمهانة أن موسى ليس ملكا ولاأميرا ولاصاحب سطوة ومال مشهود ، أم لعله يشير بهذا إلى أنه من ذلك الشعب المستبعد المهين شعب بنى إسرائيل . أما قوله {ولايكاد يبين} فهو استغلال لما كان معروفا عن موسى عليه السلام قبل خروجه من مصر من حبسة اللسان وإلا فقد استجاب الله سؤاله حين دعاه {.. رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى واحلل عقدة من لسانى . يفقهوا قولى} (٢) ، وحلت عقدة لسانه فعلا ، وعاد يبين .

وعند الجماهير الساذجة الغافلة لا بد أن يكون فرعون الذى له ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحته خيرا من موسى عليه السلام ومعه كلمة الحق ومقام النبوة ودعوة النجاة من العذاب الأليم" (٣).

ويأتى الملاء من قريش ليتموا المسيرة فى إلقاء هذا النوع من الشبهة وذلك حين ينكرون رسالة نبينا عليه الصلاة والسلام مبررين ذلك بأنه لا يستحق هذه المنزلة ، إذ ليس له فضل من مال أو زعامة تؤهله لذلك .

(١) تفسير ابن كثير ١٢٩/٤ .

(٢) سورة طه : من الآيات ٢٥-٢٨ .

(٣) فى ظلال القرآن ٣١٩٣/٥ ، وينظر : زاد المسير ١٠١/٧ ، تفسير ابن كثير ١٣٠/٤ .

هذا ما يحكيه القرآن الكريم من قول الملائكة :
{أنزل عليه الذكر من بيننا ...} (١).

قال الألوسي : "{أنزل عليه الذكر} أى القرآن {من بيننا} ونحن رؤساء الناس وأشرفهم" (٢).

ويقول جل وعلا :

{وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم} (٣).

"أى هلا كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير فى أعينهم من القريتين ، يعنون مكة والطائف" (٤).

وعلى هذا الأساس يستبعدون نزول القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم لكونه - فى نظرهم - لا يتمتع بالجدارة والاستحقاق لهذا الأمر ، وأن قضية الوحي لو كانت حقا ، وأن القرآن لو كان صدقا ، وأن الرسالة لو كانت ممكنة لبشر ، لكان ذلك كله أجدر وأحق بأن يكون من نصيب أحد الكبراء بما يملك من المال ، وما يمتاز به من الجاه ، ومادام الأمر قد حصل على خلاف هذا المنطق والتصور - فى نظرهم - كان ذلك دلالة قاطعة على كذب الرسول صلى الله عليه وسلم - فى زعمهم - وأن ماجاء به مسألة مؤلفة من قبله ومفتراة ، لاحقيقة لها فى واقع الحال .

(١) سورة ص : من آية ٨

(٢) تفسير روح المعاني ١٦٦/٢٣ .

(٣) سورة الزخرف : آية ٣١

(٤) تفسير ابن كثير ١٢٦/٤ .

الشبهة السادسة القول بأن الرسول عليه السلام لم يتبعه أكابر القوم مما يشكك في مقام النبوة والرسالة حسب تصورهم ومقياسهم الخاطيء

وشرح هذه الشبهة - حسب مقولتهم - أن المتبعين للرسول عليه السلام والمسارعين إلى اللحاق بدعوته والدخول في دينه كانوا هم الضعفاء من عامة الناس، ومن أقلهم مالا وجاها، في الوقت الذي خالفه ولم يقتنع بدعوته أشرف القوم ووجهائهم وأصحاب الرياسة فيهم .

هذا الواقع - بزعمهم - يشكك في الرسول، ويقدم في جدارته بالاتباع، إذ لو كان الرسول أهلا لما يدعيه لكان المسارعون إليه، والمستجيبون له، من الأشراف وأكابر القوم .

وأیضا فإن اتباع هؤلاء المستضعفين لا يمثل مزية للرسول تعالى من قدره بل عكس ذلك - في زعمهم - هو الصحيح .

كانت هذه الشبهة ضمن مخطط الملأ في مواجهة نبي الله نوح عليه السلام كما قال تعالى :

فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين^(١).

قال القرطبي : "الأراذل هنا هم الفقراء والضعفاء"^(٢).

(١) سورة هود عليه السلام : آية ٢٧

(٢) تفسير القرطبي ١٧/٩ .

فهم يبررون كفرهم بنوح عليه السلام - ضمن ما يبررون - بأن المتبعين له هم من الطبقة الفقيرة في المجتمع ، وهذا يمنعهم من الاستجابة له واللحاق بركبه ، إذ لو كان نوح عليه السلام - في زعمهم - حقيقا فيما جاء به بالاتباع لآمن به العلية من القوم ، لاسفلتهم وضعفاؤهم .
وقد صرحوا بذلك بشكل أكثر وضوحا فيما حكاه القرآن عنهم في موضع آخر :

{قالوا أنؤمن لك واتبعك الأردلون} (١).

وهو استبعاد منهم للإيمان بدعوته في الوقت الذي يرون فيه الجماعة المؤمنة التي سبقت إلى الاستجابة له من الأقلين في المال والشأن والجاه . وكأنهم يقولون لنبي الله نوح عليه السلام : لو كان ماجئت به حقا ، ولو كنت تستحق الاتباع فعلا لسارع إلى ذلك الكبراء والسادة والأشراف ، ولما كان الحال والواقع هو تهافت الأراذل على الاستجابة ، وابتعاد الأكابر ، فإن ذلك دليل على فقدانك ما يؤهلك للاتباع ، ومن ثم فنحن لانؤمن لك ولانتبعك ، وبتأسى في ذلك بهؤلاء الأردلين الذين اتبعوك وصدقوك وهم أراذلنا} (٢).

وسار الملأ من قريش على هذا النهج أيضا حين طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطرد من آمن به من الضعفاء إذا كان راغبا في أن يبحثوا موضوع الإيمان بدعوته ، ويفكروا في الاستجابة له ، فجعلوا من اتباع الفقراء له عليه الصلاة والسلام شبهة يبررون بها امتناعهم من تقبل مادعاهم إليه من توحيد الله سبحانه .

عن سعد رضى الله عنه قال : "كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم سنة نفر ، فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم : اطرده هؤلاء ، لا يجترئون علينا . قال : كنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست

(١) سورة الشعراء : آية ١١١

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٣٤٠ .

أسميهما ، فوقع في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه فأنزل الله عز وجل {ولاتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ...} (١)"(٢).

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : "مر الملأ من قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده خباب وصهيب وبلال وعمار ، فقالوا يا محمد ، أرضيت بهؤلاء؟" (٣)

وفي رواية أخرى عنه رضى الله عنه " ... فقالوا يا محمد ، أرضيت بهؤلاء من قومك ، أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا ، أنحن نكون تبعاً لهؤلاء ، اطردهم عنك ، فلعلك إن طردتهم أن نتبعك ، فتزلت هذه الآية {ولاتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين . وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين} (٤)"(٥).

فالملأ من قريش يعتبرون اتباع الفقراء والأرقاء له صلى الله عليه وسلم حاجزا يربأ بهم عن مجرد التفكير في الاستجابة لدين الله جل وعلا . إن الرسل عليهم السلام - في زعم هؤلاء المضللين - ليسوا جديرين بالاتباع وقد التحق بركبهم الأراذل والمستضعفون .

(١) سورة الأنعام : من آية ٥٢

(٢) سبق تخريجه ص ٧٩ .

(٣) سبق تخريجه ص ٧٩ .

(٤) سورة الأنعام : آية ٥٢-٥٣

(٥) سبق تخريجه ص ٧٩ .

المطلب الثالث

الشبهات التي يقصد بها التشكيك في الرسول عليه
السلام من جهة إخلاصه

وتشتمل على الشبهات التالية :

الشبهة الأولى :

اتهام الرسول عليه السلام بأن مقصده من الدعوة الوصول إلى المناصب
الرفيعة

الشبهة الثانية :

اتهام الرسول عليه السلام بأن غايته السيطرة على البلد والهيمنة على
أهلها

الشبهة الثالثة :

اتهام الرسول عليه السلام بأنه يرغب في تغيير المنهج المألوف في
المجتمع ، بغية تحقيق أطماعه

الشبهة الرابعة :

اتهام الرسول عليه السلام بأنه يريد زعزعة الأمن ، وإيجاد الفرقة ،
ونشر الفساد والاضطراب في الأمة

الشبهة الأولى اتهام الرسول عليه السلام بأن مقصده من الدعوة الوصول إلى المناصب الرفيعة

ضمن سلسلة الاتهامات بغية تشويه صورة الرسل عليهم السلام ،
وتنفير الناس منهم ، يصرح الملام المستكبرون بأن الرسل عليهم السلام حين
يتحركون في الدعوة يعلنون لدعوتهم هدفا وغاية ، بينما هم في الواقع
يتحركون من أجل غاية أخرى ، بعيدة كل البعد عما يجاهرون به من
المقاصد والأهداف .

أما الهدف المعلن فهو الدعوة إلى دين الله سبحانه ، ونشر المنهج
الإلهي ، وتبليغ الوحي الرباني .

لكن هذا الهدف ماهو إلا غطاء ظاهري ، وستار شكلي ، لهدف آخر
وغاية أخرى يخفونها عن أعين الناس ، ويتحركون في الواقع الفعلي من
أجلها ، لامن أجل الدين والدعوة ، وهنا يكمن الخطر .
إن المقصد الأساسي ، والغرض الحقيقي ، إنما هو مادي بحت ، منشؤه
المطامع الذاتية ، والمصالح الشخصية .

هؤلاء الرسل عليهم السلام - فيما يزعم أولئك الأكابر الفجار -
لايتمتعون في مجتمعاتهم برياسة أو سيادة ، مما يشعرهم بالنقص في
أشخاصهم ، فيلجأون إلى ادعاء الرسالة ، والدعوة إلى دين جديد ،
للتخفيف مما يعانونه في نفوسهم ، وليكملوا بهذا الأسلوب نقصهم ،
ويلفتوا الأنظار نحوهم ، فيقومون بالتغريب بعوام الناس بما يعلنونه ويجهرون
به من قضايا الدين والدعوة والإيمان ، ويحصلون من خلال ذلك على
الأتباع ، ومن يلتف حولهم من الرعاع ، فتتسع دوائرهم في المجتمع ،
ويحصلون بذلك على السيادة التي كانوا يتمنونها ، والرعاية التي يحلمون بها.
هذا هو هدفهم الفعلي ، يسعون إليه بكل وسيلة ، وفي سبيله يبذلون
الكثير .

من أصحاب هذه المقولة ، والمثيرين لهذه الشبهة ، أكابر قوم نوح عليه السلام من أعداء الدعوات إذ أشاعوا عن نبي الله نوح عليه السلام ما ذكره القرآن الكريم في قول الله تبارك وتعالى :

{فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم...} (١).

وشرح شبهتهم هذه أن نوحا عليه السلام - فيما يزعمون - كاذب في دعوى النبوة ، ظاهره يناقض سريرته ، فهو في حقيقة الأمر رجل يحب الرياسة ، ويعشق الزعامة ، ويهوى اتباع الناس له ، وسيرهم وراءه ، فوجد في ادعاء النبوة ما يحقق مراده ، فأعلن نفسه أمام العامة نبيا ورسولا ، رغبة في استقطاب الجموع حوله .

قال الألوسى : "وصفوه بقوله سبحانه {يريد أن يتفضل عليكم} إغضابا للمخاطبين عليه ، عليه السلام ، وإغراء لهم على معاداته ، والتفضل طلب الفضل ، وهو كناية عن السيادة ، كأنه قيل : يريد أن يسودكم ويتقدمكم بادعاء الرسالة مع كونه مثلكم" (٢).

واتهم الكفرة من آل ثمود كذلك نبيهم صالحا عليه السلام بأنه باحث عن الشهرة والمكانة إذ وصفوه بأنه (أشر) كما حكى القرآن من قولهم : {ألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر} (٣).

قال أبو حيان : "أى بطر ، يريد العلو علينا ، وأن يقتادنا ويتملك طاعتنا" (٤).

(١) سورة المؤمنون : من آية ٢٤
(٢) تفسير روح المعاني ٢٥/١٨ ، وينظر : تفسير البغوى ٣٠٧/٣ ، تفسير البضاوى ١٠٢/٢ .
(٣) سورة القمر : آية ٢٥
(٤) تفسير البحر المحيط ١٨٠/٨ ، وينظر : معاني القرآن للزجاج ٨٩/٥ ، تفسير النسفى ٤٤٧/٣ .

وقال القرطبي : "أى ليس كما يدعيه ، وإنما يريد أن يتعاضم ويلتمس التكبر علينا من غير استحقاق" (١).

وقال الرازي : "وقولهم (أشر) إشارة إلى أنه كذب لالضرورة وحاجة إلى خلاص كما يكذب الضعيف ، وإنما هو استغنى وبطر وطلب الرياسة عليكم ، وأراد اتباعكم له ، فكان كل وصف مانعا من الاتباع" (٢).

وهى شبهة يتعمدون إشاعتها عن صالح عليه السلام ليظهروه للعامّة رجلا يخفى في ثنايا دعوته خبيثا غير ظاهرها ، وأنه في حقيقة الأمر طامع في المكانة عند القوم ، والسيادة فيهم .

وصرح بهذه الشبهة أيضا الملاء من آل فرعون في مواجهتهم لنبي الله موسى عليه السلام وأخيه هارون عليه السلام كما قال سبحانه وتعالى :
 {قالوا أجبنا لثلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض...} (٣).

"قال المفسرون : المعنى : ويكون لكما الملك والعز في أرض مصر" (٤).
 وهكذا أصبح موسى عليه السلام - في أعين الملاء المضللين - رجلا لا همّ له إلا الوصول إلى السيادة والزعامة ، والملك والرياسة ، بأى وسيلة وبأى ثمن ، ومن ثمّ فقد وجد في ادعاء الرسالة مجالا خصبا لذلك ، فاتخذ من الحديث عن الدعوة والدين سلما يرتقى به إلى هدفه المنشود .

وفي مواجهة رسولنا صلى الله عليه وسلم يتحرك الملاء من قريش ليصدوا عن سبيل الله ، فيثيروا الحمية ، ويشيعوا الشبهة ، وينشروا التهمة كما قال الله جل شأنه :

{وانطلق الملاء منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد} (٥).

(١) تفسير القرطبي ٩٠/١٧ ، وينظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٤٤٣ .

(٢) التفسير الكبير ٥١/٢٩ ، وينظر تفسير البغوى ٣٦٢/٤ .

(٣) سورة يونس عليه السلام : من آية ٧٨

(٤) التفسير الكبير ١٤٢/١٧ ، وينظر تفسير الطبرى ١٤٦/١١-١٤٧ .

(٥) سورة ص : آية ٦

يقول ابن جرير في معنى قولهم {إن هذا لشيء يراد} : "أى إن هذا القول الذى يقول محمد ويدعوننا إليه من قول لا إله إلا الله شيء يريد من محمد ، يطلب به الاستعلاء علينا ، وأن نكون له فيه أتباعا ، ولسنا مجيبيه إلى ذلك" (١).

فهم يهدفون إلى الإيهام بأن وراء هذه الدعوة ما وراءها ، وأن ظاهرها ستار لما تخفيه من أهداف حقيقية ، "فليس هو الدين ، وليست هى العقيدة وإنما هو شيء آخر يراد من وراء هذه الدعوة" (٢) يتمثل فى الرغبة فى الاستعلاء والتعاضم على الناس ، والتفضل عليهم ، وتبوء منازل السيادة ، وبلوغ مناصب القيادة فى المجتمع .

وهكذا يصبح الرسل عليهم السلام - فيما يثيره الطغاة - طلاب زعامة ورياسة ، وعاشقى ملك وسلطان ، ظاهرهم الدعوة إلى دين الله سبحانه ، وخبئهم المستور هو الهوى السادر والرغبة الجاحمة ، فى الاستحواذ على مقاليد السلطة ، والإمساك بزمام الأمور ، والوصول إلى المركز الاجتماعى ، والمكانة المرموقة - فيما يدعى ويزعم المضلون - .

(١) تفسير الطبرى ١٢٦/٢٣ ، وينظر تيسير الكريم الرحمن ٢٨٠/٤ .

(٢) فى ظلال القرآن ٣٠٠٩/٥ .

الشبهة الثانية اتهام الرسول عليه السلام بأن غايبته السيطرة على البلد والهيمنة على أهلها

يمكن أن نلاحظ هذه الشبهة بوضوح في قصة نبي الله موسى عليه السلام ، فقد اتهمه الطغاة بأنه يهدف - من خلال تحركه الظاهري في الدعوة - إلى التخطيط المحكم للتمكن من البلد ، والسيطرة عليها ، وإزاحة أهلها الحقيقيين عنها ، وإنهاء تمكنهم منها ، ونفوذهم فيها .

وفي ذلك بطبيعة الحال تنفير للجمهور منه عليه السلام ، وتخريض لهم على مخالفته ، إذ أن نهاية دعوته وعاقبتها - فيما يزعم الملأ - ستكون ضياع البلد والأرض ، وخروجهم منها أذلة ، وهذا مالا يمكن القبول به وارتضاؤه . قال جل وعلا عن فرعون واتهامه لموسى عليه السلام :

{قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ...} (١) .

قال ابن كثير : "أى أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا ، فيكثر أعوانه وأنصاره وأتباعه ، ويغلبكم على دولتكم ، فيأخذ البلاد منكم" (٢) .

ففرعون بإثارته لهذه الشبهة يجعل الهدف النهائي لموسى عليه السلام من دعوته هو السيطرة على البلاد بأسرها ، والتمكن منها ، بعد إذلال أهلها وإخراجهم منها مرغمين مكرهين .

يقول الألوسي : "وفي هذا غاية التنفير عنه عليه السلام ، وابتغاء الغوائل (٣) له ، إذ من أصعب الأشياء على النفوس مفارقة الوطن ، لاسيما

(١) سورة الشعراء : من الآيات ٣٤-٣٥

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٣٣٣ .

(٣) "الغوائل : الدواهي" . ترتيب القاموس المحيط ٣/٤٣٠ .

إذا كان ذلك قسرا ، وهو السر في نسبة الإخراج والأرض إليهم" (١) .
وكما وجه فرعون خطابه للملأ متضمنا هذه الشبهة ، فقد واجه بها

أيضا نبي الله موسى عليه السلام كما في قوله تعالى :

{قال أجيئنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى} (٢) .

فما جئت به إنما هو سحر تريد أن تصل به إلى الاستيلاء على الأرض

وليكون لك فيها الدولة والأتباع .

ويردد الملأ من حوله شبهة زعيمهم بذات الأسلوب :

{قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من

أرضكم ...} (٣) .

فلسان حال هؤلاء الملأ يقول : إن موسى ليس بداعية في الحقيقة إلى

دين صحيح ، وإنما هو في الواقع داعية لنفسه ومصالحته ومصالحة قومه من

بنى إسرائيل ، والغاية لديه هي الوصول إلى طردكم من أرضكم ،

وإخراجكم من وطنكم ، تحت القهر والقوة والإذلال ، لتخلو الساحة له

ولأبناء جنسه ، وليتهيأ الجو لتحقيق ماتحرك من أجله ، من الهيمنة على

الدولة ، والحصول على الجاه والسلطان .

ولذا وجهوا الخطاب المباشر لموسى وهارون عليهما السلام بما حكاه

القرآن الكريم :

{قالوا أجيئنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في

الأرض ...} (٤) .

قال القرطبي : "وتكون لكما الكبرياء أي العظمة والملك والسلطان

(١) تفسير روح المعاني ٧٤/١٩ .

(٢) سورة طه : آية ٥٧

(٣) سورة الأعراف : من الآيات ١٠٩-١١٠

(٤) سورة يونس عليه السلام : من آية ٧٨

{ في الأرض } يريد أرض مصر ، ويقال للملك الكبرياء لأنه أعظم ما يطلب في الدنيا" (١).

فالهدف الأخير لنبي الله موسى عليه السلام - في زعمهم - إنما هو الاستيلاء على الأرض والحكم .
وتلك شبهة يمكن أن تجد لها موقعا في أذهان الكثيرين .

(١) تفسير القرطبي ٢٣٤/٨ .

الشبهة الثالثة

اتهام الرسول عليه السلام بأنه يرغب فداً تغيير المنهج
المألوف فداً المجتمع بغية تحقيق أطماعه

يعمل الملائكة المكذوبون - جاهدين - على إيجاد فجوة واسعة بين الرسل
عليهم السلام والجماهير من الناس ، وأن يضعوا الحواجز في البين ، حتى
يضعف الاحتمال في انقياد هذه الجماهير لما جاء به الرسل عليهم السلام .
والإنسان - عادة - يمكن أن تأسره عاداته ، وما يعيشه من تقاليد ،
وما يضبط حياته من قوانين ، وما ينظم أوضاعه من قيم وموازين ، وما يدين
به من عقائد وأفكار .

وهنا يجد المضللون فرصتهم ، ليضعوا في هذا الإطار شبهتهم حول
الرسول عليهم السلام ، فيتهموه بأن مقصدهم وغايتهم هي الفصل بين
المجتمع وبين ما تعود عليه من مناهج وأوضاع وتقاليد في سنواته الطوال
التي تجمع بين ماضيه وحاضره ، ليأتي الرسول بين عشية وضحاها ، فيغير
المناهج القائمة ، والعادات الموروثة ، ويبدل في عقائد الناس وقيمهم
وأفكارهم .

والإنسان أيضا يجبلته يكره أن يتهم بالضلال فيما يحياه من الباطل ،
ويأبى الاعتراف بذلك ، إلا من وفقه الله عز وجل إلى معرفة الحق واليقين
به والاطمئنان إليه .

فيتحرك الملائكة - كذلك - في هذا الاتجاه ليشيعوا بأن الرسول عليه
السلام يحكم على القوم بالضلال ، وينظر إليهم نظرة دونية باحتقار ،
وإشعار لهم بالخسران ، كما يحكم بالضلال أيضا على آبائهم الذين ورثوا
عنهم ما يدينون به من العقائد ، وما يحيون به من المناهج والأوضاع .

ومن الأمثلة على ذلك ما حكاه القرآن من خطاب الملائكة المكذبين لنبي

الله هود عليه السلام :

قالوا أجتئنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ... {١}.

{قالوا أجتئنا لتأفكنا عن آلهتنا ... {٢}.

فهم ينكرون على هود عليه السلام أن يأتيهم بهذا المنهج الجديد القائم على عبودية الله سبحانه ، ونبذ ما هم عليه من المناهج الكفرية ، والأوضاع الشركية ، والتوجه لغير الله سبحانه ، ويعتبرون أن ذلك جريمة بحق ماورثوا عن آبائهم من مناهج يحيون بها ، وأوضاع يسيرون عليها ، وماألفوه وتعودوا عليه ، وألفه الآباء والأجداد .

فكيف يتركون لهود عليه السلام - حسب مقولتهم - أن ينشئ بينهم ديناً جديداً لا يعرفونه ، ومنهجاً لا يألّفونه ، وكيف يوافقون له أن يجعل من منهجهم الذى ساروا عليه جيلاً بعد جيل ضلالاً يجب العدول عنه ، وكيف يرتضون له أن يقضى على موروث القوم الذى يعتزون به ، وأن يبطل ما يرون فيه الهدى والحق .

وبنفس الأسلوب كانت مواجهة صالح عليه السلام :

{قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ... {٣}.

وكانت مواجهة شعيب عليه السلام :

{قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ... {٤}.

وكانت - كذلك - مواجهة موسى عليه السلام :

{قالوا أجتئنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا ... {٥}.

-
- (١) سورة الأعراف : من آية ٧٠
 - (٢) سورة الأحقاف : من آية ٢٢
 - (٣) سورة هود عليه السلام : من آية ٦٢
 - (٤) سورة هود عليه السلام : من آية ٨٧
 - (٥) سورة يونس عليه السلام : من آية ٧٨

فهم يرفضون القبول بدين الله الذي جاءهم به الرسل عليهم السلام بحجة مخالفته للمنهج الموروث عن الآباء ، ومن ثمَّ فإنهم يتعجبون من أولئك الرسل عليهم السلام أن يحكموا على منهجهم بالضلال ، وأن يأتوهم بمنهج الله القائم على توحيده سبحانه ، ليغير من مناهجهم وأوضاعهم وعقائدهم . ولما أعلن فرعون فكرته بقتل موسى عليه السلام برر هذه الفكرة بأمرين أحدهما أن موسى يريد تغيير دين المجتمع بهدف الوصول إلى أغراضه وأطماعه .

يقول الله جل وعلا :

{وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد}{(١)}

قال ابن كثير : "يخشى فرعون أن يضل موسى الناس ، ويغير رسومهم وعاداتهم" (٢).

فلسان حال فرعون يقول في خطابه لقومه : إن ما أنتم عليه من مناهج وعقائد وأوضاع قائمة على عبادتكم لي هو الحق الذي لامرية فيه ، والهدى الذي لاشك فيه ، وإن موسى عليه السلام جاء بدين لم تعرفوه من قبل ، وعقيدة لم تألفوها في السابق ، ليغير بما جاء به عقائدكم ، ويحول دينكم ، وليعتبر ما أنتم عليه من الهدى ضلالا ، وماتسيرون عليه من الحق باطلا ، وهو في ذات الأمر ضال مبطل ، أخشى أن يؤثر عليكم بباطله ، وأخاف أن يجذبكم إلى ما هو عليه من الضلال بأسلوبه ، ليحقق من خلال اتباعكم له ما يصبو له من الامتيازات والمصالح {إنى أخاف أن يبدل دينكم} .

والملاحظ في هذه المقولة أن فرعون ينسب الدين إليهم مبالغة منه في استدعاء حميتهم ، واستشارة تعصبهم لما يميونه من عقائد ، واستئزال غضبهم وكراهيتهم لنبي الله موسى عليه السلام .

(١) سورة غافر : آية ٢٦

(٢) تفسير ابن كثير ٧٦/٤-٧٧ .

ويأتى كبراء قريش ليكرروا مقولة سابقهم في الصد عن دعوة الله تعالى .

يقول الله سبحانه :

{وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ...} (١).

فهم يصرحون للعامّة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - بزعمهم - كاذب في دعواه ، مفتر فيما جاء به ، غرضه من هذه الدعوة أن يبعدكم عن عقائد آبائكم وآلهتهم التي كانوا يعبدون ، وأن يبطل منهجكم الموروث عنهم ، ومن ثمّ يجعل منكم أتباعا له ، تتحركون عن أمره ، دون إرادة منكم ، فيحقق بهذا الأسلوب أطماعه ومصالحه بينكم .

وهم في مقولتهم ينسبون الآباء إلى الجمهور الذي يخاطبونه {ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم} مع أن الكل مشترك في هذه النسبة ، وذلك لغرض يقصدون إليه .

قال الألوسى : "وإضافة الآباء إلى المخاطبين ، لا إلى أنفسهم ، لتحريك عرق العصبية منهم مبالغة في تقريرهم على الشرك ، وتنفيرهم عن التوحيد" (٢).

يقول ربيعة بن عباد رضى الله عنه : "رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى في منازلهم قبل أن يهاجر إلى المدينة يقول : يا أيها الناس ان الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا . قال : ووراءه رجل يقول : يا أيها الناس ان هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم . فسألت من هذا الرجل؟ قيل أبو لهب" (٣).

(١) سورة سبأ : من آية ٤٣

(٢) تفسير روح المعاني ١٥٢/٢٢ .

(٣) رواه الحاكم في المستدرک ٦١/١ ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ، ورواته عن آخرهم ثقات أثبات ، ووافقه الذهبي ، وينظر : البداية والنهاية ١٧٠/٣ .

وفي رواية أخرى "يا أيها الناس إن هذا قد غوى فلا يغوينكم عن آلهة آبائكم ..."(١).

وفي رواية ثالثة : "إن هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الحى من بنى مالك بن أقيش إلى ماجاء به من البدعة والضلالة فلا تسمعوا له ولا تتبعوه"(٢).

والقرآن الكريم يقرر أن هذه الشبهة متكررة ، يثيرها أعداء الدعوات في مواجهة الرسل عليهم السلام .
يقول سبحانه :

{ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب . قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا...}{(٣).

(١) سبق تخريجه ص ٢٦٥ .

(٢) سبق تخريجه ص ٢٦٦ .

(٣) سورة إبراهيم عليه السلام : من الآيات ٩-١٠ .

الشبهة الرابعة

اتهام الرسول عليه السلام بأنه يريد زعزعة الأمن وإيجاد الفرقة ونشر الفساد والاضطراب فى الأمة

هذا هو المبرر الثانى الذى أعلنه فرعون حين أبدى رغبته فى قتل نبي
الله موسى عليه السلام كما حكى القرآن :
{وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم
أو أن يظهر فى الأرض الفساد}{(١)}.

فرعون بمقولته هذه يظهر شفقتة على الناس ، وخشيته عليهم مما جاء
به موسى عليه السلام من الدين ، وخوفه على الرعية من تحرك موسى فى
المجتمع إظهارا للفساد فيه ، وإشعالا للفتنة بين طبقات الأمة ، بما جاء به من
عقائد تفرق بين الناس ، وتوجد الاضطراب فى النفوس ، وتثير الفتنة ،
وتوقع الخلاف والخصومة ، فيذهب الأمن ، وتتعل الحياة ، وتضيع المصالح
ويهلك العامة ، وتتأثر المكاسب والتجارات ، ونتيجة ذلك أن تفسد على
الناس دنياهم فلا يحيون حياة طيبة {إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر
فى الأرض الفساد} .

ويكرر الملاء شبهة زعيمهم فى الطغيان ، أثناء تداولهم الآراء معه فى
شأن موسى عليه السلام ، فيعيدوا على سمعه مقولته ذاتها ، ولكن على
لسانهم هذه المرة ، وكأنهم يريدون إبلاغه بأن رسالته إليهم وصلت ، وأن
ما ذكره عن موسى عليه السلام هو عين الصواب ، وأن قناعتهم بذلك أمر
لا يحتاج إلى نقاش ، وأنهم أتباعه على كل حال .

إنه النفاق والمصانعة بغية الوصول إلى رضاه ، والاستئثار بالقرب منه
والمحافظة على مراكزهم عنده ، وإشعاره بدورهم فى الحفاظ على مصالحه
وأمنه .

يقول الله سبحانه :

{وقال الملاء من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض
ويذكرك وآلهتك ...} (١).

إنهم يقترحون على فرعون - وكأنه بحاجة إلى من يحركه ويشير حفيظته
- أن يعاجل موسى عليه السلام بما يراه من العقوبة ، خشية أن يفسد فى
الأرض ، لو أطلق له العنان .

وهم يقصدون بالإفساد هنا ما يشمل الدين والدنيا ، فالإفساد الدنيوى
يتمثل فى نشر الفرقة ، وتشيت الشمل ، وتعطيل المكاسب والمصالح ،
وإثارة الفتنة بين الناس ، والإفساد الدينى - فى زعمهم - يتحقق بما يأتى به
موسى عليه السلام من الدعوة إلى توحيد الله سبحانه ، والذى يتعارض مع
المنهج القائم من عبادة فرعون والخضوع له .

يقول ابن كثير فى تفسير الآية : "أى أتدعهم ليفسدوا فى الأرض ،
أى يفسدوا أهل رعيتك ، ويدعوهم إلى عبادة ربهم دونك . يالله العجب
صار هؤلاء يشفقون من افساد موسى وقومه ، ألا إن فرعون وقومه هم
المفسدون ولكن لا يشعرون" (٢).

وقال صاحب الظلال : "الإفساد فى الأرض - من وجهة نظرهم - هو
الدعوة إلى ربوبية الله وحده حيث يترتب عليها تلقائيا بطلان شرعية حكم
فرعون ونظامه كله ، إذ أن هذا النظام قائم على أساس حاكمة فرعون بأمره
أو بتعبير مرادف على أساس ربوبية فرعون لقومه ، وإذن فهو - بزعمهم -
الإفساد فى الأرض بقلب نظام الحكم ، وتغيير الأوضاع القائمة على ربوبية
البشر للبشر ، وإنشاء وضع آخر مخالف تماما لهذه الأوضاع ، الربوبية فيه
لله لا للبشر ، ومن ثمّ قرنوا الإفساد فى الأرض بترك موسى وقومه لفرعون

(١) سورة الأعراف : من آية ١٢٧

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢٣٩ .

ولآلهته التي يعبدها هو وقومه" (١).

ويشبه هذه المقولة من فرعون وملئه ما كان يصرح به أكابر قريش من المشركين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رغبة في تنفير الناس من الاستجابة لدعوته ، كقولهم للطَّيِّل بن عمرو الدوسى لما قدم عليهم "يا طَّيِّل انك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد أعضل بنا ، وقد فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبين الرجل وبين زوجته ، وأنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيئا" (٢).

هؤلاء المصللون يحذرون الطفيل رضى الله عنه ، ويقدمون بين يدي التحذير جملة من الاتهامات لرسول الله ، ومنها أنه عليه الصلاة والسلام أفسد حياتهم ، وفرق جماعتهم ، وشتت أمرهم ، ونشر الاضطراب في صفوفهم ، وأشغلهم عن مصالحهم ، ولذا فهو جدير بأن يحذر منه .

- حاشاه صلى الله عليه وسلم ، أنقذ البشرية ، وأخرجها من الظلمات إلى النور ، باذن ربها - .

(١) فى ظلال القرآن ١٣٥٤/٣ .

(٢) من خير إسلام الطفيل رضى الله عنه ، وقد تقدم ص ٦٨-٦٩ .

المطلب الرابع

الشبهات التي يقصد بها التشكيك فد الرسول عليه
السلام من جهة منهجه وأسلوبه فد الحياة
وأثره فد المجتمع

وتشتمل على الشبهات التالية :

الشبهة الأولى :

اتهام الرسول عليه السلام بأنه يأتي بالغرائب والعجائب

الشبهة الثانية :

القول بأن الرسول عليه السلام يترفع عما اعتاده القوم من الشهوات

الشبهة الثالثة :

التشاؤم بالرسول عليه السلام والادعاء بأنه سبب الشدة والبلاء

الشبهة الأولى

اتهام الرسول عليه السلام بأنه يأتي بالغرائب والعجائب

يصور الملائكة المكذبون الرسول عليه السلام - من خلال مقولاتهم - رجلاً يأتي بالأمور الغريبة والمسائل العجيبة ، والقضايا التي يصعب فهمها ، أو تصورها وإدراكها .

هؤلاء المزللون يتعجبون - أول الأمر - من قضية الرسالة ذاتها ، ويظهرون استغرابهم من أن يكون هناك رسول من البشر ، ويجعلون ذلك خارجاً عن دائرة التصور ، إذ هو أمر لم يسمع به من قبل ، ولم يتعوده الناس ولم يألفوه .

وقد حكى القرآن الكريم ذلك المنطق عن الملائكة من قوم نوح عليه السلام إذ قالوا :

{... ماسمعنا بهذا في آبائنا الأولين} (١).

كما حكاه القرآن من قول فرعون وملئه :

{.. وماسمعنا بهذا في آبائنا الأولين} (٢).

والمعنى - كما يقول ابن كثير - "ماسمعنا بهذا أى ببعثة البشر في آبائنا

الأولين ، يعنون بهذا أسلافهم وأجدادهم في الدهور الماضية" (٣).

وكذلك حال الملائكة من قريش كما في قول الله تعالى :

{وعجبوا أن جاءهم منذر منهم...} (٤).

{بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب} (٥).

(١) سورة المؤمنون : من آية ٢٤

(٢) سورة القصص : من آية ٣٦

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٤٤ .

(٤) سورة ص : من آية ٤

(٥) سورة ق : آية ٢

كما يفهم استغراب المكذبين وتعجبهم الشديد من أن يكون البشر رسولا من قول الله عز وجل :

{أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم...} (١).

وقوله تبارك وتعالى على لسان نوح وهود عليهما السلام :

{أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم...} (٢).

ثم يظهر الملام بعد ذلك استغرابهم من الرسول من جهة المنهج الذى يأتي به ، والقضايا التى يدعو إليها ، فيفتعلون التعجب منها ، ويشيرون حولها الجدل ، ويحيطونها بهالة من الغرابة ، ويخاطبون الرسول عليه السلام حين يواجهونه على هذا الأساس .

ومن هذه القضايا قضية التوحيد ، التى هى الأساس والمحور الذى تدور حوله دعوة الأنبياء عليهم السلام جميعا .

ففى قصة هود عليه السلام ، حين دعا نبي الله إلى توحيد الله وعبادته وحده دون سواه ، تعجب الملام من هذا المطلب ، واستغربوا مجيئه عليه السلام بهذا المنهج ، وأجابوه بما حكاه القرآن الكريم :

{قالوا أجتئنا لنعبد الله وحده ونذر ماكان يعبد آباؤنا...} (٣).

فهم يستنكرون ويستبعدون أن يأتيهم هود عليه السلام ليحدثهم فى هذا الشأن الذى يرونه غريبا عجيبا {قالوا أجتئنا لنعبد الله وحده} "لكأنما كان يدعوهم إلى أمر منكر لا يطيقون الاستماع إليه ، ولا يصبرون على النظر فيه" (٤).

وفى قصة صالح عليه السلام ينكر المكذبون أيضا على نبيهم عليه السلام أن يخاطبهم فى أمر التوحيد :

(١) سورة يونس عليه السلام : من آية ٢

(٢) سورة الأعراف : من آية ٦٣ ، ومن الآية ٦٩

(٣) سورة الأعراف : من آية ٧٠

(٤) فى ظلال القرآن ١٣١١/٣ .

{قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا
وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب}{(١)}.

إن قضية التوحيد - في نظرهم - شديدة الغرابة ، حرية بأن يتعجب
منها ، وممن جاء بها .

يقول سيد قطب فيما أوردته الآية على لسان المكذبين {قد كنت فينا
مرجوا قبل هذا} :

"لقد كان لنا رجاء فيك ، كنت مرجوا فينا لعلمك أو لعقلك أو
لصدقك أو لحسن تدبيرك أو لهذا جميعه ، ولكن هذا الرجاء قد خاب
{أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا} إنها للقاصمة ، فكل شيء يا صالح إلا هذا ،
ما كنا لنتوقع أن تقولها ، فياخيية الرجاء فيك ، ثم إننا لفي شك مما تدعونا
إليه ، شك يجعلنا نرتاب فيك وفيما تقول {وإننا لفي شك مما تدعونا إليه
مريب} ، وهكذا يعجب القوم مما لا عجب فيه ، بل يستنكرون ماهو واجب
وحق ، ويدهشون لأن يدعوهم أخوهم صالح إلى عبادة الله وحده ، لماذا؟
لالحجة ولالبرهان ولالتفكير ، ولكن لأن آباءهم يعبدون هذه الآلهة . وهكذا
يبلغ التحجر بالناس أن يعجبوا من الحق البين ، وأن يعللوا العقائد بفعل
الآباء" (٢).

ويقول كذلك في تعليقه على قصة صالح عليه السلام : "ثم نقف
من القصة أمام الجاهلية التي ترى في الرشد ضلالا ، وفي الحق عجيبة لا تكاد
تتصورها ، فصالح الذي كان مرجوا في قومه لصلاحه ، ولرجاحة عقله ،
وخلقه ، يقف منه قومه موقف اليأس منه المفجوع فيه . لماذا؟ لأنه دعاهم
إلى الدينونة لله وحده على غير ماورثوا عن آباؤهم من الدينونة لغيره . إن
القلب البشري حين ينحرف شعرة واحدة عن العقيدة الصحيحة لا يقف عند
حد في ضلاله وشروده ، حتى إن الحق البسيط الفطري المنطقي ليبدو عنده

(١) سورة هود عليه السلام : آية ٦٢

(٢) في ظلال القرآن ٤/١٩٠٧ .

عجيبة العجائب التي يعجز عن تصورها ، بينما هو يستسيغ الانحراف الذي لا يستند إلى منطق فطري أو منطق عقلي على الإطلاق" (١).

وفي قصة شعيب عليه السلام يصل التعجب والاستغراب من جهة المكذبين إلى حد التهكم بنبيهم عليه السلام في دعوته إلى عبادة الله وحده وتطبيق شرعه سبحانه كما في قول الله جل وعلا :

{قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد} (٢).

ووقف الملام من قريش نفس الموقف من رسولنا صلى الله عليه وسلم حين دعاهم إلى أن يوحدوا الله تعالى بالعبادة ويتركوا ما هم عليه من تعدد الآلهة والتوجه لها من دون الله عز وجل . قال جل شأنه :

{وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب} (٣).

ولما اجتمع أشرف قريش عند أبي طالب - كما في رواية ابن عباس رضی الله عنهما - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عم إنما أريدهم على كلمة واحدة تدين لهم بها العرب ، وتؤدى إليهم بها العجم الجزية . قالوا : وما هي ؟ نعم وأبيك عشرا . قال : لا إله إلا الله . قال : فقاموا وهم ينفضون ثيابهم وهم يقولون {أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب} (٤).

فهم يعلنون تعجبهم واستغرابهم الشديدين من نبي الله عليه الصلاة والسلام ، أن يأتيهم بكلمة التوحيد التي تبطل كل ما هم عليه من أوضاع الشرك .

(١) في ظلال القرآن ٤/١٩١٠ .

(٢) سورة هود عليه السلام : آية ٨٧

(٣) سورة ص : آية ٤-٥

(٤) سبق تخريجه ص ٨٥ . واللفظ هنا لأحمد .

"والمعنى أنك تأتينا بما لاعهد لنا به من الإخبار بالأمر الغيبية كالبعث والنشور ، ولانفقه ذلك ، أى لانفهمه ، كما نفهم الأمور الحاضرة المشاهدة" (١).

يقول الألوسى : "كأنهم جعلوا كلامه المشتمل على فنون الحكم والمواعظ ، وأنواع العلوم والمعارف - إذ ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل ولم يجدوا إلى محاورته عليه السلام سبيلا - من قبيل التخليط والهديان الذى لا يفهم معناه ، ولا يدرك فحواه" (٢).

إن ماجاء به شعيب عليه السلام - فيما يقوله المضللون - أمور لا يتقبلها العقل ، ولا يستجمعها الفهم ، ولا يتصورها الإدراك ، ومن ثم فهو رجل يأتي بما هو عجيب في حس البشر ، غريب على أذهانهم .

وحين جاء رسولنا صلى الله عليه وسلم بالعقيدة الصحيحة افتعل المشركون العجب وأظهروا الاستغراب .

يقول الله تبارك وتعالى :

{وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد . أفترى على الله كذبا أم به جنة ...} (٣).

"يعنون بذلك الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه رجل أتى بما يستغرب منه ، حتى صار - بزعمهم - فرجة يتفرجون عليه ، وأعجوبة يسخرون منه ، وأنه كيف يقول : إنكم مبعوثون بعدما مزقكم البلى ، وتفرقت أوصالكم ، واطمحلتم أعضاؤكم؟ فهذا الرجل الذى أتى بذلك ، هل {أفترى على الله كذبا} فتجراً عليه وقال ما قال ، {أم به جنة} فلا يستغرب منه" (٤).

(١) تفسير فتح القدير ٥٢٠/٢ .

(٢) تفسير روح المعاني ١٢٣/١٢ .

(٣) سورة سبأ : من الآيات ٧-٨ .

(٤) تيسير الكريم الرحمن ١٧٩/٤ .

"إلى هذا الحد من الاستغراب والدهش كانوا يقابلون قضية البعث فيعجبون الناس من أمر القائل بها في أسلوب حاد من التهكم والتشهير {هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد} هل ندلكم على رجل عجيب غريب ينطق بقول مستنكر بعيد حتى يقول إنكم بعد الموت والبلى والتمزق الشديد تخلقون من جديد وتعودون للوجود .

ويعضون في العجب والتعجب ، والاستنكار والتشهير {أفترى على الله كذبا أم به جنة} فما يقول مثل هذا الكلام بزعمهم إلا كاذب يفترى على الله ما لم يقله ، أو مسته الجن فهو يهذى أو ينطق بالعجيب الغريب" (١) .
ويقول الله جل وعلا :

{أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ، وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم} (٢) .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : "جاء العاص بن وائل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظم حائل ففته ، فقال يا محمد ، أيبعث الله هذا بعد ما أرم؟" (٣) قال : نعم ، يبعث الله هذا ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم . قال : فتزلت الآيات {أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين} إلى آخر السورة" (٤) .

وواضح في كلام العاص بن وائل الاستغراب الشديد من قضية البعث ، وإظهار العجب من القائل بذلك ، صلى الله عليه وسلم .
والعاص في مقولته هذه ماهو إلا نموذج ومثال لأولئك المنكرين للبعث من المضللين .

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٨٩٥ .

(٢) سورة يس : آية ٧٧-٧٨ .

(٣) أى فى وبلى . ينظر النهاية ٤٠/١ .

(٤) رواه الحاكم فى المستدرک ٢/٤٦٦ ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي . وابن أبى حاتم كما فى تفسير ابن كثير ٣/٥٨١ ، وابن جرير عن سعيد بن جبیر مرسلا . تفسير الطبرى ٢٣/٣٠-٣١ .

الشبهة الثانية القول بأن الرسول عليه السلام يترفع عما اعتاده القوم من الشهوات

هذا هو الاتهام الموجه إلى نبي الله لوط عليه السلام ، وهو في الحقيقة شرف وثناء ، ولكن أعداء الرسل عليهم السلام يقلبون الموازين ، فيصبح الهدى - في مفاهيمهم المعكوسة - ضلالا ، والحق باطلا ، وسبيل الفاحشة رفعة وجمالا .

وبالتالى فإن من يتنزه عن طريق هؤلاء المضلين يوصم بالخروج عن طبيعة المجتمع ، وبالتطهر الذى لا يليق بالأفراد الأسوياء من القوم .
على كل حال كان هذا هو جواب المكذبين للوط عليه السلام حينما دعاهم إلى دين الله سبحانه ، وترك ما هم عليه من الشرك والفواحش والشذوذ .

قال الله تبارك وتعالى :

{فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم إنهم
أناس يتطهرون} (١).

{وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم إنهم
يتطهرون} (٢).

والمعنى : يقول أولئك المستكبرون "إن لوطا ومن تبعه أناس يتنزهون
عما نفعله نحن من إتيان الرجال فى الأدبار" (٣).

فما يعتبر شرفا وفضيلة للوط عليه السلام ، جعله المكذبون شبهة
يثيرونها حوله ، تشكك فى منهجه وأسلوبه فى الحياة ، وتصفه بالتشدد
والانعزال عن حياة المتعة التى يعيشها الآخرون ، ومن ثم فلا يستحق لوط

(١) سورة النمل : آية ٥٦

(٢) سورة الأعراف : آية ٨٢

(٣) تفسير الطبرى ٢٣٥/٨ .

عليه السلام أن يعيش معهم في مجتمعهم ، أو أن ينظروا إليه نظرة إجلال
واقتراد ، أو أن يتبعوه فيما جاء به ، لأنه رجل غريب في أطواره ، يحيا
حياة ثقيلة مقيدة ، تختلف عن أوضاع القوم ، وأسلوبهم في الحياة والمتعة ،
وبالتالي فهو لا يستحق المعاشة ، فضلا عن التصديق والاتباع .
ذلك ما نطق به أفواه الطغاة الجاهلين .

الشبهة الثالثة التشاؤم بالرسول عليه السلام والإدعاء بأنه سبب الشدة والبلاء

يتشاءم الملائكة المكذوبون بالرسول عليهم السلام ، ويعتبرونهم سبباً لما يلحق بالمجتمع من النكبات ، وما يصيبه من الأضرار في الأمن والاستقرار ، أو المكاسب والتجارات ، أو الزراعة والثمار ، ويشيخون بين القوم أن ما أصابهم من ذلك فإنما هو بسبب من وجود الرسول بينهم .

نلاحظ ذلك في قصة موسى عليه السلام كما قال الله سبحانه :

{ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون . فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ...} (١)
يقول ابن جرير في تفسير الآية الكريمة : "يقول تعالى ذكره : فإذا جاءت آل فرعون العافية والخصب والرخاء وكثرة الثمار ، ورأوا ما يجوب في دنياهم ، {قالوا لنا هذه} نحن أولى بها ، {وإن تصبهم سيئة} يعني جدوب وقحوط وبلاء {يطيروا بموسى ومن معه} يقول : يتشاءموا بهم ويقولوا : ذهبت حظوظنا وأنصباؤنا (٢) من الرخاء والخصب والعافية ، مذ جاءنا موسى عليه السلام" (٣) .

فآل فرعون إذا ألمت بهم الأزمات ، ونزلت بهم المصائب ، ولحقت بهم الكوارث والنكبات ، تشاءموا بموسى عليه السلام ، واعتبروه السبب فيما أصابهم من هذه الملمات ، وأعلنوا للناس أن موسى عليه السلام - كما يزعمون - رأس كل مصيبة ، وأساس كل بلية ، تلحق بهم في أمنهم واستقرارهم ، أو في معيشتهم وثمارهم وأرزاقهم .

(١) سورة الأعراف : من الآيات ١٣٠-١٣١

(٢) الأنصبا جمع نصيب ، والنصيب : الحظ . ينظر ترتيب القاموس المحيط ٣٧٩/٤

(٣) تفسير الطبري ٢٩/٩ .

ونلاحظ ذلك أيضا في تشاؤم المكذبين بنبي الله صالح عليه السلام كما
حكى عنهم القرآن :

{قالوا اطيرنا بك وبمن معك ...} (١).

"أى تشاءمنا بك ، لأن الذى يصيبنا من شدة وقحط فهو بشؤمك
وشؤم من معك" (٢).

فهم يجعلون صالحا عليه السلام سببا لما يصيبهم من الشرور والبلاء ،
مظهريين تضايقتهم من وجوده بينهم ، معتبرين أن توقعه عما يدعو إليه ،
وانتهائه عما جاء به ، أمر ضرورى ليعود للمجتمع رخاؤه وعافيته .
وفي قصة أصحاب القرية يعلن المكذبون أيضا تشاؤمهم بالرسل الكرام
عليهم السلام :

{قالوا إنا تطيرنا بكم ...} (٣).

أى "إننا نتشاءم منكم ونتوقع الشر في دعوتكم" (٤).

ويتكرر الحال مع رسولنا صلى الله عليه وسلم ، إذ يظهر أعداء الدعوة
من المنافقين تشاؤمهم به عليه الصلاة والسلام ، ويسندون إليه ما يصيبهم
من الشدائد ، وما يسيئهم من الأزمات ، كما قال الله عز وجل :
{.. وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا
هذه من عندك} (٥).

والآية نزلت في المنافقين كعبد الله بن أبى وأمثاله وأشياعه ، كما

(١) سورة النمل : من آية ٤٧

(٢) التفسير الكبير ٢٠٣/٢٤ .

(٣) سورة يس : من آية ١٨

(٤) في ظلال القرآن ٢٩٦٢/٥ .

(٥) سورة النساء : من آية ٧٨

رجحه جمع من المفسرين (١).

يقول ابن كثير : " {وإن تصبهم حسنة} أى خصب ورزق من ثمار وزروع وأولاد ونحو ذلك {يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة} أى قحط وجذب ونقص في الثمار والزروع ، أو موت أولاد أو نتاج ، أو غير ذلك {يقولوا هذه من عندك} أى من قبلك وبسبب اتباعنا لك واقتدائنا بدينك " (٢).

ثم قال بعد أن ذكر بعض النماذج في التطير من خلال آيات أخرى : "وهكذا قال هؤلاء المنافقون الذين دخلوا في الإسلام ظاهرا وهم كارهون له في نفس الأمر ، ولهذا إذا أصابهم شر إنما يسندونه إلى اتباعهم للنبي صلى الله عليه وسلم" (٣).

فالرسول عليه الصلاة والسلام - في زعم هؤلاء المنافقين - مصدر البلايا ، وسبب الرزايا (٤)، وأساس المحن .

تلك هي السمة العامة التي يعلنها الملأ المكذبون عن رسل الله عليهم السلام ، ومن ثم فإن أعداء الدعوات لا يخفون رغبتهم العارمة في أن تنتهي هذه البلية المعضلة - بزعمهم - والمتمثلة في رسول من الرسل عليهم السلام . وهم يطلبون أحيانا ممن دونهم أن ينتظروا معهم لحظة الخلاص والفكاك من هذا الرسول الذي تسبب - بزعمهم - في الجهد والعناء والمشقة للمجتمع ، كما فعل الطغاة من قوم نوح عليه السلام في خطابهم للعامة من الناس ، إذ قالوا كما حكى القرآن الكريم :

(١) ينظر : تفسير ابن كثير ١/٥٢٧ ، التفسير الكبير ١٠/١٨٥ ، تفسير فتح القدير

١/٤٨٨-٤٨٩ ، تفسير القاسمي ٥/٣١٢-٣١٣، ٣١٥-٣١٦ ، وذكر بعض المفسرين

نزولها في المنافقين واليهود جميعا . ينظر : تفسير البغوي ١/٤٥٤ ، تفسير القرطبي

٥/١٨٣ ، تفسير أبي السعود ٢/٢٠٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ١/٥٢٧ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) أى المصائب ، جمع رزية . ينظر ترتيب القاموس المحيط ٢/٣٣٠ .

{إن هو الا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين} (١).
قال البغوى : "يعنى إلى أن يموت فتستريحوا منه" (٢).

فهم يوصون بعدم التأثر به ، والانتظار عليه حتى يأتيه الموت ،
فيستريح الجميع من بلائه وعنته - كما يزعمون - .

ومثل ذلك قاله المكذبون في حق رسولنا صلى الله عليه وسلم كما في
قول الله جل وعلا :

{أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون} (٣).

والمعنى كما يقول ابن جرير "هو شاعر نتربص به حوادث الدهر ،
يكفيناه بموت ، أو حادثة متلفة" (٤).

وكما كان يقول العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله صلى الله عليه
وسلم : "دعوه فإنما هو رجل أبترا لعقب له ، لو هلك انقطع ذكره ،
واسترحتم منه" (٥).

والملا يرومون بهذه الأساليب الإيحاء للقوم بأن خطر الرسول عليه
السلام - في زعمهم - يمس الجميع ، وأن الكل سواء في انتظار لحظة الخلاص
وأن المشاعر السلبية تجاه الرسول عليه السلام مسألة يتفق عليها الجميع ،
ولانزاع فيها ولاجدال ، وبالتالي تتسع دائرة المبغضين للرسول عليه السلام ،
المناهضين له ولدعوته ، وذلك ما يصبو اليه أكابر المجرمين .

(١) سورة المؤمنون : آية ٢٥

(٢) تفسير البغوى ٣٠٧/٣ .

(٣) سورة الطور : آية ٣٠

(٤) تفسير الطبرى ٣١/٢٧ .

(٥) رواه الواحدى من طريق ابن إسحاق قال : حدثني يزيد بن رومان ، قال : كان

العاص بن وائل ... ، وينظر : تفسير البغوى ٥٣٤/٤ ، تفسير ابن كثير ٥٥٩/٤ ،

السيرة النبوية لابن هشام ٣١٦/١ ، البداية والنهاية ١٣٠/٣ .

المبحث الثالث

شبهات حول المؤمنين بالدعوة

ويشتمل على الشبهات التالية :

الشبهة الأولى :

اتهام المؤمنين بالكذب .

الشبهة الثانية :

اتهام المؤمنين بالضلال .

الشبهة الثالثة :

اتهام المؤمنين بالسفه .

الشبهة الرابعة :

اتهام المؤمنين بأنهم يتعجلون الأمور دون روية أو تفكير .

الشبهة الخامسة :

القول بأن المؤمنين من فقراء الناس وأقلهم شأنًا .

الشبهة السادسة :

اتهام المؤمنين بأنهم يفتقدون الإخلاص وسلامة النية ، وأن إيمانهم إنما

كان لأغراض ومطامع ذاتية .

الشبهة السابعة :

الطهارة والعفة مطعن في المؤمنين بزعمهم .

الشبهة الثامنة :

التشاؤم بالمؤمنين .

الشبهة الأولى اتهام المؤمنين بالكذب

وصف أكابر المجرمين من قوم نوح عليه السلام الفئة المؤمنة بالكذب وذلك حين أثاروا عليه وعلى نبي الله نوح عليه السلام مجموعة من الشبهات ختموها بوصف الجميع بالكذب .

قال الله سبحانه :

{فقال الملاء الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين} (١).

والإتهام بالكذب هنا يشمل نوحا عليه السلام وأتباعه المؤمنين . قال ابن كثير : "بل نظنكم كاذبين { أى فيما تدعونهم لكم من البر والصلاح والعبادة والسعادة فى الدار الآخرة إذ صرتم إليها" (٢).

وقال النسفى : "بل نظنكم كاذبين { أى نوحا فى الدعوة ، ومتبعيه فى الإجابة والتصديق . يعنى تواطأتم على الدعوة والإجابة تسبباً للرياسة" (٣). فالؤمنون بالله جل وعلا ، المستجيبون لدينه على لسان نبيه نوح عليه السلام متهمون - لدى هؤلاء الأكابر - بأنهم يخالفون الحقائق ، ويزورون الوقائع ، ويكذبون فى ادعاءاتهم ومقولاتهم عن الدعوة وعلاقتهم بها ، وما فيها من الحق والهدى ، وما ينتج عنها من الخير والسعادة .

كما أنهم - فى زعم الكافرين - متهمون بالكذب فى جديتهم فى هذا الاتباع لنوح عليه السلام ، والكذب فى ما يظهرونه من الاقتناع بالدين ،

(١) سورة هود عليه السلام : آية ٢٧

(٢) تفسير ابن كثير ٤٤٢/٢ .

(٣) تفسير النسفى ٥٢/٢ .

والتصديق بالدعوة ، يدفعهم إلى هذا التظاهر بالاستجابة - مع كذبه في الحقيقة والواقع - غرض وهوى ، ومصالحة اتفقت مع مصلحة نوح عليه السلام في ادعاء الرسالة - بزعمهم - .

ومن ثمَّ فإنَّ وضع هؤلاء المؤمنين لا يشجع على الالتحاق بهم ، والاستجابة لما استجابوا له من دعوة نوح عليه السلام ، مادامت تلك الدعوة يحملها ويلتزم بها ويتحرك من أجلها مجموعة من الكاذبين - كما يزعم المضللون المعاندون - .

الشبهة الثانية اتهام المؤمنين بالضللال

ذلك هو الوصف المعتاد على السنة صناديد قريش من المشركين ،
يتهمون به الفئة المؤمنة التي استجابت لدين الله عز وجل ، واتبعت رسوله
عليه الصلاة والسلام ، كما يقرر ذلك قول الله سبحانه عن هؤلاء المجرمين
حال مشاهدتهم طائفة من المؤمنين :

{وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون} (١).

وهم يؤكدون هذا الاتهام للمؤمنين رضى الله عنهم بالضللال ، بسبب
خروجهم عن ملة القوم ، وتبرئهم مما يعيشونه من أوضاع الشرك ، وسبل
الغواية والفجور ، مستجيبين في ذلك لمنهج الله تعالى ، يتوجهون له بالعبادة
وحده دون سواه ، ويسيروا في طاعته على نور منه جل شأنه ، ولذا
استحقوا - في نظر المجرمين - أن يوصفوا بالضللال الأكيد .

ويبدو أن هناك سببا آخر استحقوا من أجله هذا الاتهام - في نظر
المشركين - وهو أن هذه الفئة المؤمنة تعيش مخدوعة في أوهام لاحقيقة لها ،
وأساطير لابرهان عليها ، حين يصدقون بالآخرة والجزاء ، وبالبعث والحساب
فيحرمون أنفسهم من كثير من المتاع ، أملا في جزاء الآخرة المستبعد
حصولها - في زعم الطغاة - وبالتالي يستحق المؤمنون وصف الضلال بحياتهم
في هذه الأوهام .

وإلى هذا يشير النسفي في تفسير الآية الكريمة إذ يقول : "قالوا إن
هؤلاء لضالون} أى خدع محمد هؤلاء ، فضلوا وتركوا اللذات ، لما يرجونه
في الآخرة من الكرامات ، فقد تركوا الحقيقة بالخيال ، وهذا هو عين
الضللال" (٢).

(١) سورة المطففين : آية ٣٢

(٢) تفسير النسفي ٦٦٦/٣ .

(٣١٠)

هذه المقولة وأمثالها من المجرمين تبرز صورة ونموذجا للفطرة حين تنتكس ، والبصيرة حين يصيبها العمى ، وحينذاك تنعكس المفاهيم ، وتضطرب التصورات ، وتنتكس الموازين .

الشبهة الثالثة اتهام المؤمنين بالسفه

حكى القرآن الكريم هذا الوصف على لسان المنافقين كعبد الله بن أبي راس النفاق وأمثاله ، يذكرون به المؤمنين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، ورضى الله عنهم .
يقول الله تعالى :

{وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء...} (١).
قال ابن جرير : "والسفهاء جمع سفيه ، والسفيه : الجاهل ، الضعيف الرأى ، القليل المعرفة بمواضع المنافع والمضار ... وإنما عنى المنافقون بقتيلهم : أنؤمن كما آمن السفهاء؟ إذا دعوا إلى التصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به من عند الله ، والإقرار بالبعث ، فقتيل لهم : آمنوا كما آمن أصحاب محمد وأتباعه من المؤمنين المصدقين به ، أهل الإيمان والتصديق بالله ، وبما افترض عليهم على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وفى كتابه ، وبالיום الآخر ، فقالوا لإجابة لقائل ذلك لهم : أنؤمن كما آمن أهل الجهل ، ونصدق بمحمد صلى الله عليه وسلم ، كما صدق به هؤلاء الذين لا عقل لهم ولا أفهام؟" (٢)

فأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهم - فى نظر هؤلاء المنافقين - أهل سفه وجهل ، وخفة فى الأحلام ، وضعف فى الآراء . وهم يستحقون هذا الوصف - بزعم المنافقين - لإيمانهم بدعوة رسولنا عليه الصلاة والسلام حقا وصدقا ، ودخولهم فى دينه ، والتزامهم منهجه واقعا وفعلا ، إذ أن هذا الدين - فى نظر أهل النفاق - باطل لا يستحق الاتباع ، إلى جانب ما يترتب على هذه الدعوة من المصاعب والمشاق ، وفراق

(١) سورة البقرة : من آية ١٣

(٢) تفسير الطبرى ١٢٨/١ (مع اختصار) .

الأوطان ، والتعرض للعداوات بما قد يفسد المال ويتلف النفس ويضعف الأمن والاستقرار ومن ثمّ فصاحب العقل الرشيد ، والرأى السديد - حسب مقولتهم - لا يفكر في التجاوب مع ماجاء به نبى الله عليه الصلاة والسلام . ويبدو أن فقر المؤمنين غالبا هو وجه آخر يضاف إلى ماسبق ، استحقوا به أيضا ذلك الوصف من المنافقين .

يقول الرازى : " وإنما سمي المنافقون المسلمين بالسفهاء ، لأن المنافقين كانوا من أهل الخطر والرياسة ، وأكثر المؤمنين كانوا فقراء ، وكان عند المنافقين أن دين محمد صلى الله عليه وسلم باطل ، والباطل لا يقبله إلا السفية ، فلهذه الأسباب نسبواهم إلى السفاهة" (١).

ويقول صاحب الظلال عن ركب النفاق أيضا :

" وواضح أن الدعوة التي كانت موجهة اليهم في المدينة هي أن يؤمنوا بالإيمان الخالص المستقيم المتجرد من الأهواء ، وإيمان المخلصين الذين دخلوا في السلم كافة ، وأسلموا وجوههم لله ، وفتحوا صدورهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، يوجههم فيستجيبون بكليتهم مخلصين متجردين ، هؤلاء هم الناس الذين كان المنافقون يدعون ليؤمنوا مثلهم هذا الإيمان الخالص الواضح المستقيم .

وواضح أنهم كانوا يأنفون من هذا الاستسلام للرسول صلى الله عليه وسلم ، ويرونه خاصا بفقراء الناس غير لائق بالعلية ذوى المقام ، ومن ثم قالوا قولتهم هذه {أنؤمن كما آمن السفهاء} (٢).

(١) التفسير الكبير ٦٨/٢ .

(٢) في ظلال القرآن ٣٨/١ .

الشبهة الرابعة اتهام المؤمنين بأنهم يتعجلون الأمور دون روية أو تفكير

كان من ضمن شبهات الملأ حول المؤمنين بنى الله نوح عليه السلام أن اتباع هؤلاء المؤمنين لنوح عليه السلام كان (بادى الرأى) .
قال تعالى :

{فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأى ...} (١).

قرأ أبو عمرو بالهمز بعد الدال (بادىء) ، وقرأ الباقر بن بويه (بادى الرأى) (٢).

قال اليزيدى : "من همز أراد : فى مبتدأ الرأى ، وهو أوله ، ومن لم يهمز أخذه من : بدا ، يبدو : أى ظهر ، كقولك ظاهر الرأى" (٣).
وفى المراد بذلك - على كلا القراءتين - أوجه عدة (٤) فى كتب التفسير منها ما ذكره الألوسى فى تفسيره إذ قال : "وأرادوا بقولهم (بادى الرأى) ظاهره ، وهو ما يكون من غير تعمق" (٥).

ثم وضح المعنى فقال : "على معنى اتبعوك فى ظاهر رأيهم أو أوله ولم يتأملوا ولم يتثبتوا" (٦).

(١) سورة هود عليه السلام : من آية ٢٧

(٢) ينظر : بإبراز المعانى ص ٥١٣ ، سراج القارىء المبتدىء ص ٢٤٨ .

(٣) غريب القرآن لليزيدى ، ط ١/ ، ١٤٠٥ هـ ، عالم الكتب ص ١٧٣ ، وينظر تفسير البحر المحيط ٢١٥/٥ .

(٤) ينظر : زاد المسير ٧٨/٤ - ٧٩ ، تفسير البحر المحيط ٢١٥/٥ ، التفسير الكبير ٢١٣-٢١٢/١٧ .

(٥) تفسير روح المعانى ٣٧/١٢ ، وينظر : فتح القدير ٤٩٣/٢ .

(٦) تفسير روح المعانى ٣٨/١٢ .

واقترصر البغوى فى تفسيره للآية الكريمة على هذا الوجه فقال : "قرأ أبو عمرو (بأدىء) بالهمز ، أى أول الرأى ، يريدون أنهم اتبعوك فى أول الرأى من غير روية وتفكر ، ولو تفكروا لم يتبعوك . وقرأ الآخرون بغير همز ، أى ظاهر الرأى ، من قولهم : بدأ الشىء إذا ظهر ، معناه اتبعوك ظاهرا من غير أن يتدبروا ويتفكروا باطنا" (١).

ويوضح ابن كثير شبهة المكذبين فيقول على لسانهم إذ يخاطبون نبيهم نوحا عليه السلام : "هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن ترو منهم ، ولا فكر ولا نظر ، بل بمجرد مادعوتهم أجابوك فاتبعوك ، ولهذا قالوا {وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بآدى الرأى} أى فى أول بأدىء الرأى" (٢).

ويقول معلقا على ما اعتبره المكذبون نقصا وأثاروا حوله الشبهة : "وهذا الذى رموهم به هو عين ما يمدحون بسببه رضى الله عنهم ، فإن الحق الظاهر لا يحتاج إلى روية ولا فكر ولا نظر ، بل يجب اتباعه والانتقاد له متى ظهر" (٣).

وعلى ذلك فهذه إحدى شبهات المستكبرين من قوم نوح عليه السلام حول المؤمنين بالدعوة ، بأنهم يتصفون بالبساطة البلهاء ، والتفكير الساذج ، لا تأمل عندهم ولا روية ، ولا نظر ولا تمحيص ، بل يتعجلون الأمور ، ويتبعون كل مناد دون أدنى تمهل ، وهذا يدل على نقص فى العقل عندهم ، وضعف فى الإدراك لديهم ، ومن كانت هذه حالهم فليس من اللائق ، ولا من المناسب - فى زعم هؤلاء المضلين - السير خلفهم ، أو الاقتداء بهم ، أو سلوك طريقهم ، والرضا بالدخول فى صفهم ، والانضمام لجمعهم ، إذ أن إيمان هؤلاء المؤمنين - وهم بهذا الوصف - لا يضيف للدعوة رصيذا يرفع من

(١) تفسير البغوى ٣٨٠/٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤٤٢/٢ .

(٣) قصص الأنبياء لابن كثير ٩٥/١ .

قدرها ، أو يعلى من شأنها ، أو يعطيها اليقين بصدقها ، أو يشعر بقوة الحق فيها .

قال صاحب الظلال في تعليقه على هذا الاتهام : "وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي" : "أى دون ترو ولا تفكير . وهذه تهمة كذلك توجد دائماً من الملاء العالين لجموع المؤمنين ، أنها لا تتروى ولا تفكر في اتباع الدعوات . ومن ثمّ فهي متهمة في اتباعها واندفاعها ، ولا يليق بالكبراء أن ينهجوا نهجها ولأن يسلكوا طريقها" (١) .

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٨٧٢ .

الشبهة الخامسة

القول بأن المؤمنين من فقراء الناس وأقلهم شأنًا

بقدر من الله سبحانه كان أتباع الرسل عليهم السلام في الغالب - خصوصا في بداية الدعوات - من عامة الناس وضعفائهم ، وليسوا من الأكابر وأصحاب الثروة .

وقد اتخذ الملاء المستكبرون من هذا الوضع الاجتماعي الذي يغلب على المؤمنين أداة يلوونها لنصرة اتجاههم الباطل ، ومجالا لشبهة يثيرونها حول الفئة المؤمنة ، يعللون بها رفضهم لمنهج الله تعالى .

إن الفئة المؤمنة - حسب مقولة المستكبرين - ليسوا ممن يحسب لهم وزن ، أو يعتبر لهم شأن ، من الأشراف وأصحاب الثروة والزعامة في القوم ، وإنما هم مجموعة فقيرة ، ليس لها نصيب من الدنيا ، ولا حول لهم فيها ولا شأن ، هم الأقلون مالا ، وهم الأقلون جاها ، لا منصب لهم ولا سيادة ، ولا مركز لهم في المجتمع ولا مكانة ، أحوالهم ضعيفة ، ووظائفهم وأعمالهم دنيئة ، وبالتالي فإنهم لا يستحقون أن يسلك الأكابر مسلكهم ، أو ينهجوا منهجهم ، فيؤمنوا بما آمنوا به ، ويقفوا بجوارهم في صف المؤمنين . وممن قال بهذه المقولة ، وأثار هذه الشبهة ، أكابر المجرمين من قوم نوح عليه السلام كما قال الله عز وجل :

{فقال الملاء الذين كفروا من قومه مانراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا...} (١).

"قال الواحدى : الأردل جمع ردل ، وهو الدون من كل شىء في منظره وحالاته ، والأراذل جمع الأردل" (٢).

(١) سورة هود عليه السلام : من آية ٢٧

(٢) التفسير الكبير ٢١٢/١٧ .

قال القرطبي : "الأراذل هنا هم الفقراء والضعفاء" (١).
وقال صاحب المنار : "يعنون بهم من دون طبقة الأشراف والأكابر
كالزراع والصناع والعمال" (٢).

فالآية الكريمة تشير إلى أن المملأ اعتبروا قلة المال لدى المؤمنين ،
وخلوهم من الجاه الدنيوى شبهة تحط من شأنهم ، وتدنى من قدرهم ،
وبالتالى فإنه حرى بالمملأ والكبراء أن يترفعوا عن الدخول فى دين دخله
هؤلاء ، وأن يستنكفوا عن معايشة فئة هذه أوصافها ، وهذه مكانتها فى
المجتمع ، ولذا قالوا لنوح عليه السلام أيضا ما حكاه عنهم القرآن :
{قالوا أنؤمن لك واتبعك الأراذلون} (٣).

وعلى هذا النمط من التفكير أيضا سار المملأ من قريش حين استرذلوا
من اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بداية الدعوة ، واعتبروا سلوك
هؤلاء الفقراء سبيل رسول الله صلى الله عليه وسلم شبهة تمنعهم من
الاستجابة ، إذ كيف يدخلون ديننا دخله أولئك الأقلون من الناس رضوان
الله عليهم ، الذين لا خدم لهم ولا حشم ، ولا مال ولا ثروة ، ولا شرف
ولا جاه ، وكيف يرضون لأنفسهم أن يسيروا فى نفس المسار؟
ولذا طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينأى عن هؤلاء
الضعفاء ، بل قالوا له : "اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا" يقصدون بلالا وابن
مسعود وأمثالهما رضوان الله عليهم أجمعين (٤).

إن هؤلاء الزعماء المستكبرين يرون أن إيمان هؤلاء الضعفاء رضوان
الله عليهم لا يوجد للدعوة قيمة أو مكانة ، ولا يجعل لها شأنًا أو وزنا ، بل
إن دخول أمثال هؤلاء فى الإسلام دلالة على بطلانه - بزعمهم - وعلامة على

(١) تفسير القرطبي ١٧/٩ .

(٢) تفسير المنار ٦١/١٢ .

(٣) سورة الشعراء : آية ١١١

(٤) تقدم ص ٧٦-٧٧ .

أن منهج هذه الدعوة غير سديد ولا قوييم ، ولا يقوم على حق أو هدى ، إذ لو كان كذلك لاتبعه الكبراء ، ولكانوا هم السابقين .
ومن ثم فقد أظهروا الأنفة من أن يكونوا تبعاً في الإيمان لهذه الفئة المؤمنة .

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : "مر الملاء من قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده خباب وصهيب وبلال وعمار ، فقالوا يا محمد أرضيت بهؤلاء؟" (١)

وفي رواية ابن جرير : "فقالوا يا محمد ، أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا؟ أأن نصير تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم ، فلعلك إن طردتهم أن نتبعك ، فزلت هذه الآية {ولاتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين} . وكذلك فتننا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين} (٢)" (٣) .

قال ابن كثير في معنى {أهؤلاء من الله عليهم من بيننا} : "أى ما كان الله ليهدى هؤلاء إلى الخير لو كان ماصاروا إليه خيراً ويدعنا" (٤) .
ويقول ابن القيم : "أنكروا أن يكون الله سبحانه أهلهم للهدى والحق وحرمة رؤساء الكفار وأهل العز منهم والثروة ، كأنهم استدلوا بعطاء الدنيا على عطاء الآخرة" (٥) .

هذا هو حال المترفين - فى الغالب - مع أتباع الرسل عليهم السلام ، إذ يحتجون بأنهم يملكون المال والجاه ، والمتاع الدنيوى ، وهذا دليل على أنهم يملكون الحق أيضاً ، وأنهم يسرون فى الاتجاه الصحيح .

(١) سبق تخريجه ص ٧٩ .

(٢) سورة الأنعام : آية ٥٢-٥٣ .

(٣) سبق تخريجه ص ٧٩ .

(٤) تفسير ابن كثير ١٣٥/٢ .

(٥) التفسير القيم لابن القيم ، ط/دار العلوم الحديثة ، بيروت ص ٣١٢ .

وبالمقابل فإن فقر المؤمنين ، وقلة جاههم ، وضعف أحوالهم ، دليل مادي ظاهر - بزعم المستكبرين ، على أن هؤلاء المؤمنين بالدعوات من الفقراء والضعفاء على باطل في دينهم ، وضلال في عقائدهم ، ومن ثمّ فإنهم أولى بالمجابهة ، لا بالتأسي والافتداء .

قال تبارك وتعالى :

{وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون . وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين} (١).

قال ابن كثير : "افتخروا بكثرة الأموال والأولاد ، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله تعالى لهم واعتناؤه بهم ، وأنه ما كان ليعطيهم في الدنيا ثم يعذبهم في الآخرة" (٢).

هذه المقارنة نلاحظها أيضا في قول كبراء قريش من المشركين كما في قول الله جل وعلا :

{وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا} (٣).

والمقام : هو المنزل والمسكن ، والنديُّ بمعنى النادى : وهو المجلس الذى يجتمعون فيه للحديث وتبادل الرأى (٤).

ومعنى الآية "أن هؤلاء الكفرة إذا تليت عليهم آياته تعالى بينة الحجة واضحة البرهان على مقاصدها ، أعرضوا ، وأخذوا يحتجون على فضل ما هم عليه بكونهم أوفر حظا من الدنيا ، لكونهم أحسن منازل ، وأرفع دورا ، وأعمر ناديا ، وأكثر طارقا وواردا ، أى : فكيف نكون ونحن بهذه المثابة

(١) سورة سبأ : آية ٣٤-٣٥

(٢) تفسير ابن كثير ٥٤٠/٣ .

(٣) سورة مريم : آية ٧٣

(٤) ينظر : تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٢٧٥ ، معانى القرآن للنحاس ٣٥١/٤ -

على باطل ، وأولئك الذين هم محتفون في دار الأرقم بن أبي الأرقم على الحق؟" (١).

ويذكر الله تبارك وتعالى من قول فرعون وملئه :
{فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون} (٢).

فالمؤمنون بنبي الله موسى عليه السلام من بنى إسرائيل كانوا تبعاً لآل فرعون ، يقومون بوظائف الخدمة لهم ، ويجدون منهم الازدراء والانتقاص . ومن ثم فإن هذا الوضع الذى يعيشه المؤمنون يمثل - في نظر آل فرعون - شبهة تمنع من الاستجابة ، إذ كيف يرضون لأنفسهم أن ينهجوا نهج بنى إسرائيل التابعين لهم والخدامين؟ وكيف يكون أولئك المؤمنون على الحق وهم بهذا الحال المهين من الذلة والدونية والضعف؟ وكيف يكون آل فرعون على باطل ، وهم أصحاب الملك والثراء ، والشرف والجاه؟ ولعل هذا المنطق أيضاً هو مادفع الملائم من قوم نوح عليه السلام إلى نفي الفضل عن المؤمنين :

{.. وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين} (٣).

قال ابن كثير : "يقولون : مارأينا لكم علينا فضيلة في خلق ولا خلق ولا رزق ولا مال لما دخلتم في دينكم هذا" (٤).

فالملائم الكافرون لا يرون في المؤمنين بالدعوة فضلاً أو خصائص يتميزون بها من مال أو جاه ، أو سيادة أو شرف ، تجعلهم أكثر معرفة ، أو أشد فهماً وإدراكاً ، وكأن الفضل يقاس بالمال ، والفهم يقاس بالجاه ، والمعرفة تقاس بالشرف .

(١) تفسير القاسمى ١٤٢/١١ ، وينظر تفسير ابن كثير ١٣٤/٣ .

(٢) سورة المؤمنون : آية ٤٧

(٣) سورة هود عليه السلام : من آية ٢٧

(٤) تفسير ابن كثير ٤٤٢/٢ .

وحسب هذا المقياس فإن الفئة المؤمنة بنوح عليه السلام لافضل لها
يؤهلها لأن يكون الحق معها ، ولتكون جديرة بأن يسلك الملائم مسلكها ،
ويسير على طريقها ، اتباعا لدين الله تعالى على لسان نبيه نوح عليه السلام.

الشبهة السادسة

اتهام المؤمنين بأنهم يفتقدون الإخلاص وسلامة النية وأن إيمانهم إنما كان لأغراضٍ ومطامعٍ ذاتية

من الشبهات التي تعرض لها فئات من المؤمنين أنهم لم يدخلوا في دين الله جل وعلا عن يقين بصحة الدعوة ، ولم يتبعوا رسولهم عليه السلام عن اقتناع بصدق الداعية ، ولم تتجرد نياتهم في هذا الاتجاه . بل كان الباعث لهم إلى المسارعة بالإيمان ، والاستعجال في الالتزام بالدين ، إنما هو الرغبة في الحصول على مغنم سريعة ، ومتع آنية ، ومصالح مادية .

هذا هو ما يشغل بال المؤمنين - كما يقول الطغاة - ولا يهمهم بعد ذلك الفكرة نفسها هدى كانت أو ضلالا ، حقا أو باطلا ، وليس لهم رغبة في التأمل في الدين الذي أعلنوا الالتزام به أصائب هو أم زائف ، فالتفكير لديهم منصب على المطامع الذاتية ، والشهوات المادية ، والرغبات النفسية ، والأفكار ، ولا المبادئ ، ولا العقائد الدينية .

هذا الاتهام للفئة المؤمنة كان ضمن اتهامات الملأ من قوم نوح عليه السلام كما في قول الله جل شأنه :

{فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي...} (١).

ففى تفسير القرطبي أن معنى (بادي الرأي) "أى ظاهر الرأي ، وباطنهم على خلاف ذلك" (٢).

(١) سورة هود عليه السلام : من آية ٢٧

(٢) تفسير القرطبي ١٨/٩ ، وينظر : التفسير الكبير ٢١٢/١٧ ، تفسير البحر المحيط

٢١٥/٥ ، معاني القرآن للنحاس ٣٤٢/٣ ، معاني القرآن للزجاج ٤٧/٣ .

ويؤيده ماتضمنه رد نوح عليه السلام على شبهات المكذبين مما حكاه القرآن :

{قال وما علمى بما كانوا يعملون . إن حسابهم إلا على ربي لو
تشعرون} (١).

قال الرازى : " وهذا الكلام يدل على أنهم نسبوه مع ذلك إلى أنهم
لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة ، وإنما آمنوا بالهوى والطمع " (٢).

وقال القرطبي : " كأنهم قالوا : إنما اتبعك هؤلاء الضعفاء طمعا في
العزة والمال " (٣).

فالملا هنا يوجهون الاتهام للمؤمنين بالنفاق ، بمعنى أنهم يبطنون غير
ما يظهرون .

فالظاهر من علانيتهم هو الاتجاه إلى مبادئ اقتنعوا بها ، فجهروا
بالإيمان ، واتبعوا نوحا عليه السلام عن بصيرة و يقين .

أما الباطن فغير ذلك - فى زعم المضللين - فالغرض عند هؤلاء المؤمنين
إنما هو الطمع والشهوة ، والرغبة فى المكائنة ، والجرى وراء المصالح
والمكاسب ، وتوقع الوصول - من خلال شعار الدين والدعوة - إلى غايات
لم يكونوا ليأملوا بلوغها دون الدخول فى الدين ، والتظاهر به .

فما الإيمان منهم ، والالتزام بالعقيدة والدين عندهم ، إلا واجهة
لبلوغ المرام ، وستار للوصول إلى تلك الغايات المحددة سلفا فى الأذهان ،
والتفكير فيها يسبق التفكير فى صحة الدين الذى جاء به نوح عليه السلام .
وفى قصة موسى عليه السلام نلاحظ أيضا هذه الشبهة يثيرها فرعون
حول السحرة حين أعلنوا إيمانهم برب العالمين جل وعلا .

(١) سورة الشعراء : آية ١١٢-١١٣

(٢) التفسير الكبير ١٥٥/٢٤ .

(٣) تفسير القرطبي ٨٢/١٣ .

ذلك أن السحرة لما تيقنوا أن ماجاء به موسى عليه السلام هو المعجزة الإلهية ، واستولى الإيمان على قلوبهم ، فسجدوا أمام الجموع الحاشدة لله رب العالمين ، وجهروا باستجابتهم لداعى الإيمان ، فزرع عند ذلك فرعون ، وخاف أن تتحرك تلك الجموع لتقتدى بهم ، وتسلك طريقهم فى الإيمان بالله سبحانه ، انطلاقا من كونهم ، وهم السحرة المهرة ، لم يؤمنوا إلا عن اقتناع جازم بصحة نبوة موسى عليه السلام ، وظهر ما أجرى الله سبحانه على يديه من المعجزة .

لذلك كله سارع فرعون إلى إلقاء الشبهة قبل التهديد والوعيد ، فاتهم أولئك السحرة المؤمنين بأن مسارعتهم إلى الإيمان لموسى عليه السلام تستر أهدافا ومصالح يسعون للحصول عليها ، وأن استجابتهم المباشرة بهذه الصورة توحى بأن فى الأمر سرا غير ما أعلنوه ، بل اتهمهم بأن بينهم وبين نبي الله موسى عليه السلام حبالا موصولة ، ولقاءات متبادلة ، يخططون فيها ضد فرعون ودولته .

يقول الله عز وجل عما اتهم به فرعون أولئك المؤمنين :

{قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ...} (١).

ويقول سبحانه :

{قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة

لتخرجوا منها أهلها ...} (٢).

نلاحظ فى هذه الآيات الكريمة أن فرعون قذف السحرة المؤمنين بمجموعة من الاتهامات المتلاحقة ، وأثار حولهم جملة من الشبهات الموصولة بعضها ببعض ، بغية التشويش على الجمهور ، والتلبيس عليه ، والتشكيك فى اتجاه هؤلاء المؤمنين وفى مقاصدهم ، وبالتالي التنفير من سلوك سبيلهم ، وصرف العوام عن الاقتداء بهم .

(١) سورة الشعراء : من آية ٤٩

(٢) سورة الأعراف : من آية ١٢٣

هذه الاتهامات هي :

أولا : أن إيمان هؤلاء السحرة لم يكن عن تأمل وبصيرة ، ونظر وتفكير ، ولم يكن لقناعة بصدق موسى عليه السلام وصحة ما جاء به ، أو لقوة في الدليل وظهور في المعجزة ، وإنما كانت هناك أهداف أخرى تستتر بهذه الواجهة في الظاهر ، فلهم أغراضهم الخاصة ، ومصالحهم المادية لدى موسى عليه السلام ، ولذا آمنوا به سريعا دون ترو ولا تمحيص ولا أعمال للفكر {قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم} .

ثانيا : أن هؤلاء يجتمعون مع موسى عليه السلام في صفة السحر والمهارة فيه ، بل هم تلامذة له في هذا المجال ، ولذلك فقد حصل بينهم اتفاق وحيلة ، وتواطؤ سابق على إظهار العجز أمامه ، حتى يظهر أمره ، ويروج بين الناس دعوته ، ويفخم في أعين الجماهير شأنه ، ومن ثم فقد كان هناك ميل سابق منهم إليه ، وعزم على التقصير أمام ما جاء به - في زعم فرعون - من السحر {إنه لكبيركم الذي علمكم السحر} ، {إن هذا لمكر مكرتموه} .

"أى إن غلبته لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضا منكم لذلك" (١) .

ثالثا : أن أولئك المؤمنين يخططون ويمكرون بالتنسيق مع موسى عليه السلام ، وهدفهم النهائي من هذا المكر المستمر ، والعمل الدائب ، والخطوة المحكمة ، إنما هو السيطرة على البلد كلها ، والقضاء على أهلها من القبط ، لتكون الرياسة لهم ، والسلطة بأيديهم ، وليذلوا القبط ويهينوهم ، ويشردوهم في الأرض ، ويبطلوا سلطان فرعون ، ويستولوا بذلك على الدولة كلها .

{إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها} .

"أى تجتمعوا أنتم وهو ، وتكون لكم دولة وصوله ، وتخرجوا منها
الأكابر والرؤساء ، وتكون الدولة والتصرف لكم" (١).

ويشارك الملأ طاغيتهم ، فيثيرون الشبهة حول عموم المؤمنين بدعوة
موسى عليه السلام ، ويرمونهم بتهمة الإفساد فى الأرض .
قال تعالى :

{وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض
ويذكرك وآلهتك ...} (٢).

فالمؤمنون - حسب منطق هؤلاء - مرادهم من هذا التحرك ضمن إطار
الدين هو الإفساد فى الأرض ، بغية الوصول إلى أطماعهم ومصالحهم ،
وذلك بنشر الفتنة بين طبقات المجتمع ، وإيجاد الاضطراب ، وإقلاق الأمن ،
والقضاء على مكاسب الجماهير فى وطنهم ، وتفريق شمل الأمة ، وتغيير
عقائد الناس ونظمهم ومناهجهم التى ساروا عليها والتى تقوم على عبادة
فرعون ، والخضوع له ، وتطبيق شرعه وأمره ، وهكذا فالإفساد الذى يزعمه
الملأ يشمل إفساد الناس فى دينهم وديانهم .

هذه هى غاية المؤمنين بالدعوة - فى زعم المجرمين - وهذا هو هدفهم
الذى يسترونه بغطاء ومظهر وواجهة ، هى الالتزام بالإسلام ، والدعوة إلى
رب العالمين .

ولاشك أن لهذا المنطق دوره فى التشكيك بالمؤمنين ، وتنفيذ جمهور
الناس منهم ماداموا - كما يقول الطغاة - يمثلون العقبة الكؤود أمام رخائهم
وسعادتهم ، وأمنهم واستقرارهم ، وخيراتهم ومكاسبهم .

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٣٨ .

(٢) سورة الأعراف : من آية ١٢٧

الشبهة السابعة الطهارة والعفة مطعن فد' المؤمنين بزعمهم

الطهارة والعفة في الحقيقة صفة إيجابية لأصحابها ، تدل فيهم على الجمال والفضيلة ، لكن أهل الفجور المكذبين بنبي الله لوط عليه السلام يعكسون الأمر ، فيجعلونها صفة ذميمة في المؤمنين ، يستحقون من أجلها الاتهام لهم والنفور منهم ، والحذر من معاشتهم .
قال الله سبحانه :

{فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم إنهم
أناس يتطهرون} (١).

{وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس
يتطهرون} (٢).

والآيات تذكر توأصيتهم بطرد المؤمنين بالله سبحانه ، الملتزمين بدينه ، وإخراجهم من البلد ، والاتهام الموجه لهم هو أنهم يتطهرون من سواة الفاحشة ، ويتزهون عن دنس الرذيلة ، ويرفعون عن حماة (٣) المعصية ، ويتعالون عن وحل الرجس وقذارة الشذوذ .

قال الشوكاني : "وجملة (إنهم أناس يتطهرون) تعليل لما أمروا به من الإخراج ، ووصفهم بالتطهر يمكن أن يكون على حقيقته ، وأنهم أرادوا أن هؤلاء يتزهون عن الوقوع في هذه الفاحشة ، فلا يساكنونا في قريتنا" (٤).

(١) سورة النمل : آية ٥٦

(٢) سورة الأعراف : آية ٨٢

(٣) "الحماة : الطين الأسود المنتن" . ترتيب القاموس المحيط ٧٠٢/١ .

(٤) تفسير فتح القدير ٢٢٢/٢ ، وينظر : تفسير الطبرى ٢٣٥/٨ ، تفسير البحر المحيط

"قال ابن عباس : عابوهم بما يمدح به" (١).

وقال قتادة : "عابوهم بغير عيب ، وذموهم بغير ذم" (٢).

وتلك قمة الارتكاس للفطرة ، حين تصبح الرذيلة فضيلة ، والضلالة هداية ، والدنس رفعة ، والفاحشة جمالا ، ويصبح الوالغ في الفاحشة شخصا سويا ، يحيا حياة طبيعية عادية ، بل هي المستحسنة المرغوبة التي يحق لصاحبها الافتخار والمباهاة ، وحين يصبح المتزه عن الفاحشة شخصا غير عادى ، يحمل نفسية غير طبيعية ، ولا يحيا حياة سوية ، إذ لا يستطيع مجاراة القوم صنيعهم ، ومن ثم فهو بهذا الحال لا يستحق المعاشة .
وهذا ما وصف به أهل الكفر والفجور لوطا عليه السلام ومن اتبع دعوته من المؤمنين .

(١) تفسير البحر المحيط ٣٣٥/٤ .

(٢) تفسير الطبرى ٢٣٥/٨ .

الشبهة الثامنة التشاؤم بالمؤمنين

يظهر الملائكة المكذبون بموسى عليه السلام تشاؤمهم منه وممن آمن بدعوته ، فيجعلونهم السبب الأصيل لما يصيبهم من قحط وجذب ، أو شر وبلاء ، أو فتنة وفرقة .

يقول الله تعالى عن آل فرعون :

{فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ...} (١).

قال الشوكاني : " {وإن تصبهم سيئة} أى خصلة سيئة من الجذب والقحط وكثرة الأمراض ونحوها من البلاء {يطيروا بموسى ومن معه} أى يتشاءموا بموسى ومن معه من المؤمنين به " (٢).

هؤلاء المؤمنون بربهم ، المستجيبون لدعوته ، هم - فى نظر آل فرعون - سبب الفتنة ، وأساس المحنة ، وهم العلة الأصيلة لما يعترى الناس من ضيق فى أموالهم ومزارعهم ، أو مكاسبهم وتجاراتهم ، وكلما ازدادت الأزمات فى البلد اتسعت دائرة التشاؤم من آل فرعون بالمؤمنين ، واعتبارهم السبب الأول لما يصيب القوم ، بما جاؤوا به من الدين الجديد والدعوة الغريبة .

تلك المقولة تكررت أيضا على لسان المكذبين من ثمود فى مواجعتهم لنبى الله صالح عليه السلام كما حكى القرآن عنهم :

{قالوا اطيرنا بك وبمن معك ...} (٣).

(١) سورة الأعراف : من آية ١٣١

(٢) فتح القدير ٢/٢٣٧ .

(٣) سورة النمل : من آية ٤٧

قال ابن كثير : "أى مارأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيرا ،
وذلك أنهم لشقائهم كان لا يصيب أحدا منهم سوء إلا قال هذا من قبل
صالح وأصحابه" (١).

فالفئة المؤمنة - في نظر الكافرين - لاخير يرجى من وراءهم ، بل هم
شؤم على الأمة ، والشر كله متوقع بسببهم ، وكلما تأصلوا في المجتمع زاد
البلاء لأجلهم ، وكثرت المصائب بوجودهم ، وكانوا مصدر قلق وعنت
وعناء على الجميع ، وبالقضاء عليهم ، وإزالة أثرهم ، يمكن أن يعرف القوم
طريق الهناء والاستقرار من جديد - كما يزعم الكاذبون المفترون - .

(١) تفسير ابن كثير ٣/٣٦٧ .

الفصل الثاني

المجابهات

ويشتمل على عشرة مباحث :

المبحث الأول : الجحود المستمر والتكذيب بالآيات .

المبحث الثاني : المساومة والترغيب .

المبحث الثالث : الوعيد والتهديد .

المبحث الرابع : الإيذاء النفسى .

المبحث الخامس : الإيذاء البدنى .

المبحث السادس : التضيق والملاحقة .

المبحث السابع : اقتراح الآيات واستعجال الوعيد إمعانا فى
التعنت والعناد

المبحث الثامن : التخطيط والتآمر والإعداد للمواجهة .

المبحث التاسع : التأثير السلبي على عامة الناس للحيلولة

بينهم وبين الدعوة .

المبحث العاشر : المواجهة الداخلية من المنافقين .

(٣٣٢)

المبحث الأول

الجدود المستمر والتكذيب بالآيات

حين اختار الملأ المستكبرون طريق الكفر والعداوة للرسول عليهم السلام كان طبيعياً منهم بعد هذا التوجه أن يعلنوا الإنكار والكفر والتكذيب بشكل متواصل لكل ما يأتي به الرسول عليه السلام طيلة مكثه بينهم ، كما يقرر ذلك بوضوح قول الله سبحانه :

{وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون} (١).

فكلما جاءهم الرسول عليه السلام بآية تزيلية يأتي بها الوحي من رب العالمين سارعوا إلى التكذيب بها وإنكارها كوحى إلهي ، ونسبوا إلى أى مصدر يرد على خواطرهم ، أو يبتكره مكرهم إلا أن يكون الله رب العالمين ، وأثاروا من أجل ذلك الشبهات ونشروا الاتهامات ، وأقاموا الحجج الواهية التي لاتستند إلى دليل أو برهان .

وكلما أورد لهم الرسول عليه السلام آية كونية خارقة مقرونة بالتحدى ، تحمل في طياتها الدليل القاطع والبرهان الساطع على صحة رسالته وصدق مايقول ، ويقين ما يأتي به ، سارعوا كذلك إلى إنكارها جملة وتفصيلاً ، وحملوها أى حمل آخر تحتمله دائرة البشر ، مستبعدين أن تكون تلك المعجزة آية من رب العالمين سبحانه ، عازمين على مواجهتها بكل سبيل ، مستهدفين ألا تظهر المعجزة شاهد صدق للرسول عليه السلام ، ثم يدعون بعد ذلك أن الرسول عليه السلام ماجاءهم ببينة ، وليس بين يديه من الدلائل ما يؤكد صدق ما يدعيه ، وأنه كاذب متكلف فيما جاء به . وهكذا يستمر منهم الجحود والتكذيب حتى تأتيهم العقوبات الإلهية التي تستأصلهم ، أو ينتهى بهم أجل الله المقدر .

تلك صورة من صور المجابهة للحق من الملأ الضالين في حين أن الرسل عليهم السلام جاؤوا بالبينات القاطعة الكافية في بيان صدقهم ، والشهادة لهم بصحة نبواتهم عليهم السلام ، وأن ما أتوا به هو الحق من رب

العالمين ، كما قال الله عز وجل في معرض التسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم فيما يلاقيه من التكذيب :

{وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير}{(١)}.

والمقصود أن الرسل عليهم السلام جاؤا أممهم بالحجج البينات ، والمعجزات الواضحات ، وبالكتب المنزلّة من عند الله سبحانه ، وكل ذلك يؤكّد للأمم صحة نبوات الرسل عليهم السلام وصدقهم فيما جاؤوا به ، وينير لهم بها الحق الساطع{(٢)}.

ومع ذلك كله فقد كذب أولئك المستكبرون واستبدلوا الضلالة بالهدى واختاروا طريق العماية والعناد والجحود .

فهذا نوح عليه السلام يمكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، يأتيهم فيها بشتى الدلائل والبراهين ، وبكل الوسائل والأساليب ، ومع ذلك يصرون على التكذيب والعصيان ، حتى لجأ نوح عليه السلام إلى ربه سبحانه يبثه شكواه :

{قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا . فلم يزدتهم دعائي إلا فرارا . وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا}{(٣)}.

فالدعوة منه عليه السلام متكررة ومتجددة ، وفي المقابل يستمر منهم الصدود ، ويتكرر التكذيب .

ثم يذكر نوح عليه السلام أنه تنقل في دعوتهم من وسيلة إلى وسيلة ومن أسلوب إلى آخر ، ومع هذا يستمر العصيان والجحود :

{ثم إني دعوتهم جهارا . ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم أسرارا}{(٤)}.

(١) سورة فاطر : آية ٢٥

(٢) ينظر معنى الآية في تفسير الطبرى ١٣٠/٢٢ .

(٣) سورة نوح عليه السلام : آية ٥-٧

(٤) سورة نوح عليه السلام : آية ٨-٩

وفي نهاية المطاف :

{قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزدده ماله وولده إلا خسارا .
ومكروا مكرا كبيرا} (١).

ولذا وصف الله عز وجل ماتعرض له نبيه عليه السلام بأنه الكرب
العظيم كما قال سبحانه :
{ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب
العظيم} (٢).

وقال تعالى :

{ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون . ونجيناه وأهله من الكرب العظيم} (٣).
قال ابن كثير : "أى من الشدة والتكذيب والأذى ، فإنه لبث فيهم
ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله عز وجل ، فلم يؤمن به منهم إلا
القليل ، وكانوا يتصدون لأذاه ، ويتواصلون قرنا بعد قرن ، وجيلا بعد
جيل على خلافه" (٤).

والملا منهم يصرحون لنبي الله نوح عليه السلام باستمرار تكذيبهم في
كل الأحوال ، ويطلبون منه إيقاف الجدال معهم وسرد البراهين ، إذ
لا جدوى لذلك في نفوسهم ، ولا أمل في إيمانهم بدعوته :
{قالوا يانوح قد جادلنا فأكثررت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من
الصادقين} (٥).

ويتلاحق التكذيب منهم ويتواصل طيلة مكث نبي الله بينهم حتى جاء
أمر الله سبحانه بالاستئصال كما قال تعالى :

(١) سورة نوح عليه السلام : آية ٢١-٢٢

(٢) سورة الأنبياء عليهم السلام : آية ٧٦

(٣) سورة الصافات : آية ٧٥-٧٦

(٤) تفسير ابن كثير ٣/١٨٥ .

(٥) سورة هود عليه السلام : آية ٣٢

{فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين} (١).

ولما اتجه نوح عليه السلام إلى ربه سبحانه بالدعاء على أولئك الملائم الظالمين بين أن السبب فى دعائه عليهم هو التكذيب .
{قال رب انصرنى بما كذبون} (٢).

وليس المراد بطبيعة الحال التكذيب لأول مرة ، بل إنه عليه السلام مادعا عليهم بالهلاك حتى تتابع منهم الجحود والإجرام ، وارتبط التكذيب بهم فى مجابهة كل ما يأتى به نوح عليه السلام .
وفى قصة هود عليه السلام نلحظ أيضاً وقوف المستكبرين منه موقف الجحود والعناد ، حين يطلبون منه عليه السلام قطع الأمل فى تركهم لدينهم واستجابتهم لدعوته .
قال تعالى :

{قالوا يا هود ماجئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين} (٣).

ولاشك أن هودا عليه السلام جاءهم بالبينات الواضحات التى تشهد له بصحة نبوته وصدق رسالته ، ولكنهم هنا يجابهونه بالتكذيب بكل ما أتاهم به من الآيات ، وينكرون أن يكون شىء من ذلك يعتد به كحجة تؤيده ، وتشهد لما يقول ، فيصرحون له فى خطابهم بعدم قناعتهم أصلاً بكل ما جاءهم به ، وهو عندهم رجل مدع خال من الأدلة والبراهين {ماجئتنا ببينة} ، ولذا فهم يطلبون منه ألا يتوقع منهم أن يتركوا آلهتهم ويخرجوا عن دينهم ويدخلوا فى الدين الذى جاءهم به بمجرد قوله الذى يدعوهم فيه إلى دين الله سبحانه {وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك} ، ثم يكررون له

(١) سورة الأعراف : آية ٦٤
(٢) سورة المؤمنون : آية ٢٦
(٣) سورة هود عليه السلام : آية ٥٣

بأسلوب آخر فيه تأكيد وإقناط وعدم رغبتهم في الاستجابة مهما كثر الحديث وتكرر القول ، ومهما ألح في الدعوة {وما نحن لك بمؤمنين} ، فهذه هي رؤيتهم لن تتغير أبدا ولن تتحول .

وكما صرحوا بذلك لهود عليه السلام في مواجهته فقد صرحوا به أيضا أمام الجماهير حين قالوا :

{إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين} (١).

ويكررون لهود عليه السلام مرة أخرى قرارهم بالجحود ورفض الاستجابة لداعى الإيمان ، ولكن بمقولة أخرى فيها استهتار واستهانة :

{قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين} (٢).

فوعظه عليه السلام - في نظرهم - لا يجدى ، ولن يجدى في اقترابهم من الإيمان ، ولذلك يطلبون منه عليه السلام أن يتوقف عن الموعظة لأنها لن تفيد .

ويلجأ هود عليه السلام إلى ربه يشتكى إليه سبحانه هذا التكذيب الدائم والجحود المستمر :

{قال رب انصرنى بما كذبون} (٣).

ويستجيب الله سبحانه فينزل بأسه بمن تأصل فيهم التكذيب ، قال تعالى :

{فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين} (٤).

وينهج الملأ المستكبرون من ثمود منهج الجحود أيضا ، إذ يعرضون عن دعوة صالح عليه السلام ، ويعلنون تكذيبهم بالآية البينة والمعجزة الخارقة

(١) سورة المؤمنون : آية ٣٨

(٢) سورة الشعراء : آية ١٣٦

(٣) سورة المؤمنون : آية ٣٩

(٤) سورة الأعراف : آية ٧٢

التي أجزاها الله سبحانه على يد نبيه صالح عليه السلام بناء على طلبهم
الآية منه :

{... فأت بآية إن كنت من الصادقين . قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب
يوم معلوم . ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم}{(١)}.

{.. قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في
أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم}{(٢)}.

ولم يكتف أولئك المملأ بالتكذيب والإعراض ، بل اتفق رأيهم على قتل
الناقة التي نهوا عن التعرض لها ، وشجعوا من باشر ذلك وحضوه وأيدوه ،
وكأنهم يرون في ذلك إضعافا لدعوة صالح عليه السلام ، وتوهينا من شأنه
وتخطيما لأمره . قال تعالى :

{.. وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ...}{(٣)}.

{قال المملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم
أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ، قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون . قال الذين
استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون . فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا
يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين}{(٤)}.

{فنادوا أصحابهم فتعاطى فعقر}{(٥)}.

{كذبت ثمود بطغواها . إذ انبعث أشقاها . فقال لهم رسول الله ناقة الله
وسقياها . فكذبوه فعقروها ...}{(٦)}.

(١) سورة الشعراء : من الآيات ١٥٤-١٥٦

(٢) سورة الأعراف : من آية ٧٣

(٣) سورة الإسراء : من آية ٥٩

(٤) سورة الأعراف : آية ٧٥-٧٧

(٥) سورة القمر : آية ٢٩

(٦) سورة الشمس : من الآيات ١١-١٤

وكان ذلك الشقى^(١) الذى تولى عقر الناقة من كبراء ثمود ، يشير إلى ذلك مارواه عبد الله بن زَمْعَة رضى الله عنه "أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يخطب وذكر الناقة والذى عقرها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : {إِذْ أَنْبَعَثَ أَشْقَاهَا} أنبعث لها رجل عزيز عارم^(٢) منيع^(٣) فى رهطه مثل أبى زَمْعَة^(٤)"^(٥).

وفى قصة موسى عليه السلام يتضح التكذيب جلياً متواصلاً ، والجحود متجدداً متلاحقاً ، من فرعون وملئه لموسى عليه السلام ولما جاء به من الدعوة إلى رب العالمين .

فما إن فاتحه موسى عليه السلام فى أمر الدعوة إلى عبادة الله وحده حتى واجهه بالإنكار والرفض وطلب منه ما يثبت دعواه :

{قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين}^(٦).

فأجرى الله سبحانه على يديه المعجزتين الخارقتين ، معجزة العصا تصبح حية تسعى ، واليد يدخلها فى جيبه عليه السلام ثم يخرجها بيضاء من غير سوء :

{فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين}^(٧).

(١) ذَكَرَ أَنَّ اسْمَهُ : قَدَارُ بْنُ سَالِفٍ .

ينظر : تفسير ابن كثير ٥١٧/٤ ، تفسير الطبرى ٢١٤/٣٠ ، فتح البارى ٤٦٨/٦ .

(٢) العارم هو الشرير المفسد الخبيث . ينظر شرح النووى على صحيح مسلم ١٨٨/١٧ .

(٣) "أى قوى ، ذو منعة ، أى رهط يمنعونه من الضيم" . فتح البارى ٩١٤/٨ .

(٤) هو الأسود بن المطلب بن أسد . كان أحد المستهزئين ، ومات على كفره بمكة .

ينظر فتح البارى ٩١٥/٨ .

(٥) رواه البخارى فى كتاب التفسير ، باب تفسير سورة {والشمس وضحاها} ، ومسلم

فى كتاب الجنة ، باب جهنم أعادنا الله منها ١٨٨/١٧ .

(٦) سورة الأعراف : آية ١٠٦ .

(٧) سورة الأعراف : آية ١٠٧-١٠٨ .

وبدلاً من أن يستجيب فرعون للهدى والحق المؤيد بالبينات ، استكبر
عن الإذعان وأصر على الجحود والطغيان كما قال الله جل وعلا :
{ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا
وكانوا قوماً مجرمين}{(١)}.

{فأراه الآية الكبرى . فكذب وعصى}{(٢)}.

{قالوا أجنثنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى
الأرض وما نحن لكما بمؤمنين}{(٣)}.

{وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسطان مبين . فتولى بركنه وقال
ساحر أو مجنون}{(٤)}.

ولا يكتفى فرعون بالتكذيب ، واتهام موسى عليه السلام بأنه ساحر
بل يتحرك والملاً من حاشيته لمواجهة هذا السحر - فى زعمهم - أملاً فى
القضاء على الدعوة ، حين يظهر موسى عليه السلام أمام الناس بمظهر
الساحر المبين لا الرسول من رب العالمين :

{قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره
فماذا تأمرون . قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين . يأتوك بكل
سحار عليم}{(٥)}.

وهكذا كان الرأى من الملأ يشيرون به على فرعون أن يجمع السحرة
المتمكنين من المدائن والأقاليم ، ليقوموا بعملية التحدى والمعارضة لما جاء به
موسى عليه السلام من المعجزة ، ومقصدهم من ذلك أن يظهر موسى عليه
السلام بمظهر الكاذب المفترى الذى يستغل صنعة السحر للدعاء بما ليس محققاً

(١) سورة يونس عليه السلام : آية ٧٥

(٢) سورة النازعات : آية ٢٠-٢١

(٣) سورة يونس عليه السلام : آية ٧٨

(٤) سورة الذاريات : آية ٣٨-٣٩

(٥) سورة الشعراء : آية ٣٤-٣٧

فيه ، وحينئذ تنتهى هذه الدعوة التى أقضت مضاجعهم ، وهزت أركانهم ، ويكون حينها لتكذيبهم ما يبرره ، ولجحودهم وعدائهم لموسى عليه السلام ما يسوغه .

ويصرح فرعون فى مواجهته لموسى عليه السلام بما أجمع أمر الملائة عليه :

{ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى . قال أجبثنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى . فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لانخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى} (١).

والمعنى كما يقول ابن كثير : "إن عندنا سحرا مثل سحرك فلا يفرنك ما أنت فيه فاجعل بيننا وبينك موعدا ، أى يوما نجتمع نحن وأنت فيه فنعارض ماجئت به بما عندنا من السحر فى مكان معين ووقت معين" (٢). وهكذا طلب فرعون إلى موسى تحديد موعد للمباراة مع السحرة ، وترك له اختيار ذلك الموعد للتحدى {فاجعل بيننا وبينك موعدا} وشدد عليه فى عدم إخلاف الموعد زيادة فى التحدى {لانخلفه نحن ولا أنت} وأن يكون الموعد فى مكان مفتوح مكشوف {مكانا سوى} مبالغة فى التحدى" (٣). ويستمر فرعون فى الإعداد للمعارضة بجمع السحرة ، الماهرين فى السحر المتفنين فيه :

{وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم} (٤).

ويأتية السحرة فيعدهم بالمال والجاه :

{وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين . قال نعم وإنكم لمن المقربين} (٥).

(١) سورة طه : آية ٥٦-٥٨

(٢) تفسير ابن كثير ١٥٦/٣ .

(٣) تفسير فى ظلال القرآن ٢٣٤٠/٤ ، وينظر تفسير البحر المحيط ٢٥٤/٦ .

(٤) سورة يونس عليه السلام : آية ٧٩

(٥) سورة الأعراف : آية ١١٣-١١٤

وفي اليوم الموعود يجتمع الناس بتوجيه من فرعون ، ويستعد الباطل لمواجهة الحق ومجاهته ، ويلقى السحرة عصيهم .

{.. فلما ألقوا سحرهم وأعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم} (١).

ويشاء الله سبحانه أن ينصر الحق مع نبيه موسى عليه السلام :

{وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون . فوقع

الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين . وألقى السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون} (٢).

ومع ظهور الحق واستنارته ، واندحار الباطل وهزيمته ، ومع شهادة

البينة والمعجزة القاطعة لموسى عليه السلام بصحة ما جاء به ، مع ذلك كله

يستمر فرعون فيما بدأه من نهج الجحود ، فيعلن أن ما فعله السحرة أمر

مخطط له سابقا مع موسى عليه السلام ، ولولا ذلك لما كان لموسى شأن ،

ولذا فهو عازم على المواجهة والانتقام :

{قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لكم مكرتموه في المدينة

لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون} (٣).

وتمر الأيام ، وتتوالى معها الآيات الإلهية على فرعون وملئه :

{ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون} (٤).

ولكن تلك القلوب الغافلة لا طريق لها إلى التذكر والعظة ، فأصحابها

سادرون في غيهم ، مستمرين في تكذيبهم :

{ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إني رسول رب

العالمين . فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون} (٥).

(١) سورة الأعراف : من آية ١١٦

(٢) سورة الأعراف : آية ١١٧-١٢٢

(٣) سورة الأعراف : آية ١٢٣

(٤) سورة الأعراف : آية ١٣٠

(٥) سورة الزخرف : آية ٤٦-٤٧

{فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه...} (١).

وتتنوع الآيات ، وتتجدد آية بعد آية كما قال سبحانه :

{فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات...} (٢).

كل ذلك لعلهم يفيقون من سباتهم ، ويستيقظون من غفلتهم ، ويعودون مؤمنين بالله سبحانه :

{وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون} (٣).

ولكن أولئك الطغاة ، وفي مقدمتهم فرعون ، قد قرروا أن لارجوع إلى الحق والهدى مهما كانت الدلائل ، ومهما تجددت البراهين ، ومهما علت منارات الإيمان ، فظلوا مستكبرين عن اتباع الحق ، مصرين على الإجرام ، كما قال سبحانه في بيان حالهم :

{... فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين} (٤).

{فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا...} (٥).

بل كانوا كلما نزلت بهم آية من تلك الآيات ، وعقوبة من تلك العقوبات سارعوا إلى موسى عليه السلام ، يناشدونه دعاء ربه أن يزيل عنهم البأس ، مقدمين له العهود الموثقة بالإيمان بدعوته ، والدخول في دين الله سبحانه ، فإذا استجاب الله عز وجل دعاء نبيه عليه السلام ، ورفع عنهم ما هم فيه من البلاء أخلفوا ما وعدوا به ، واستمروا على جحودهم

-
- (١) سورة الأعراف : من آية ١٣١
(٢) سورة الأعراف : من آية ١٣٣
(٣) سورة الزخرف : آية ٤٨
(٤) سورة الأعراف : آية ١٣٣
(٥) سورة النمل : من الآيات ١٣-١٤

وتكذيبهم ، بل جعلوا ذلك علامة على قوة السحر لدى موسى عليه السلام :
 {ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن
 كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل . فلما كشفنا عنهم
 الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون}{(١)}

{وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين}{(٢)} .
 قال ابن كثير : "يقولون أى آية جئتنا بها ، ودلالة وحجة أقمتها ،
 رددناها فلانقبلها منك ، ولانؤمن بك ولا بما جئت به" (٣) .
 فكلما مرت آية جددوا اعلانهم للتكذيب والجحود ، وبرروا موقفهم ،
 وعللوا ما يرون بأنه من نتائج السحر .

ونتيجة لهذا التكذيب المتجدد المتواصل نزل بهم عقاب الله سبحانه
 كما قال تعالى :

{ولقد جاء آل فرعون النذر . كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز
 مقتدر}{(٤)}

{كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم
 وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين}{(٥)}

{فانتقمنا منهم فأغرقناهم ففى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها
 غافلين}{(٦)}

وما حال الملأ من قريش كأبى جهل وأمثاله عن أولئك السابقين ببعيد
 حين قالوا مقولتهم يعلنون فيها ديمومة التكذيب منهم ، ويقنطون بها رسول
 الله صلى الله عليه وسلم من الأمل فى أن يحصل لديهم شىء من الميل إلى
 الإيمان بالدعوة ، والاستجابة للهدى ، والانتقال إلى التوحيد :

(١) سورة الأعراف : آية ١٣٤-١٣٥

(٢) سورة الأعراف : آية ١٣٢

(٣) تفسير ابن كثير ٢/٢٤٠ .

(٤) سورة القمر : آية ٤١-٤٢

(٥) سورة الأنفال : آية ٥٤

(٦) سورة الأعراف : آية ١٣٦

{وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون} (١).

فقد وقفوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم موقف التكذيب بداية ولم ييأس الرسول صلى الله عليه وسلم بل استمر يدعوهم إلى الله سبحانه ، وهم فى ذات الوقت يكررون التكذيب ويستمرئون الجحود ، بل ويطلبون منه صلى الله عليه وسلم أن يتوقف عن دعوتهم إذ لا أمل فى الإذعان لمنهج التوحيد الذى جاء به صلى الله عليه وسلم .

قال الألوسى : "وماذكروه من الجمل الثلاث تمثيلات لنبو قلوبهم عن إدراك الحق وقبوله ، ومح أسماعهم له ، وامتناع مواصلتهم وموافقتهم للرسول صلى الله عليه وسلم ، وأرادوا بذلك إقناطه عليه الصلاة والسلام عن اتباعهم إياه عليه الصلاة والسلام حتى لا يدعواهم إلى الصراط المستقيم" (٢).

وقد تكررت الآيات الكريمة تصف موقف هؤلاء المستكبرين فى الجحود بنبوته عليه الصلاة والسلام ، وإنكار رسالته ، والنفور من دعوته ، ومن ذلك قول الله سبحانه وتعالى :

{... وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا} (٣).

{وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى

الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا . استكبارا فى الأرض ومكر السوء...} (٤).

{ويقول الذين كفروا لست مرسلا...} (٥).

(١) سورة فصلت : آية ٥

(٢) تفسير روح المعانى ٩٦/٢٤ .

(٣) سورة الإسراء : من آية ٤٦

(٤) سورة فاطر : من الآيات ٤٢-٤٣

(٥) سورة الرعد : من آية ٤٣

{وقال الذين كفروا لن نُؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه ...} (١).
قال صاحب الظلال : "فهو العناد والإصرار ابتداء على رفض الهدى
في كل مصادره ، لا القرآن ولا الكتب التى سبقته والتى تدل على صدقه ،
فلا هذا ولا ذاك هم مستعدون للإيمان به ، لا اليوم ولا الغد ، ومعنى هذا أنهم
يصرون على الكفر ، ويجزمون عن قصد بأنهم لن ينظروا فى دلائل الهدى
كائنة ما كانت ، فهو العمد إذن وسبق الإصرار" (٢).

يقول المغيرة بن شعبة رضى الله عنه : "إن أول يوم عرفت رسول
الله صلى الله عليه وسلم أنى كنت أمشى أنا وأبو جهل بن هشام فى بعض
أزقة مكة ، إذ لقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم لأبى جهل : ياأبا الحكم هلم إلى الله عز وجل وإلى رسوله ،
أدعوك إلى الله . فقال أبو جهل : يا محمد هل أنت منته عن سب آلتهنا ،
هل تريد إلا أن نشهد أن قد بلغت فنحن نشهد أن قد بلغت ، فوالله لو أنى
أعلم أن ماتقول حقا ما اتبعتك . فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وأقبل على فقال : فوالله انى لأعلم أن مايقول حق . ولكن بنى قصى
قالوا : فينا الحجابة فقلنا نعم . فقالوا : فينا الندوة فقلنا نعم ، ثم قالوا :
فينا اللواء فقلنا نعم . قالوا : فينا السقاية فقلنا نعم ، ثم أطعموا وأطعمنا ،
حتى إذا تحاكت الركب قالوا : منا نبى ، والله لأفعل" (٣).

وكما تلفظ الملاء من قريش بعبارات التئيس من قبولهم للهدى الإلهى
فقد ردد أحبار يهود مثل ذلك أيضا ليعبروا عما تحمله نفوسهم من الرفض
القاطع للحق الربانى فى دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال الله
تبارك وتعالى عنهم :

{وقالوا قلوبنا غلف ...} (٤).

-
- (١) سورة سبأ : من آية ٣١
(٢) تفسير فى ظلال القرآن ٢٩٠٨/٥ .
(٣) رواه البيهقى فى الدلائل ٢٠٧/٢ ، وأورده ابن كثير فى البداية نقلا عنه ٨٣/٣ .
(٤) سورة البقرة : من آية ٨٨

"أى عليها أغطية" (١) فلا تنفذ اليها كلماته عليه الصلاة والسلام ، ولا تؤثر فيهم المواعظ والبيانات ، ومن ثم فلاجدوى - حسب مرادهم - من الاستمرار في دعوتهم ولا أمل في استجابتهم للحق وإيمانهم برسول الله صلى الله عليه وسلم .

إن هؤلاء الأحرار يختارون طريق التكذيب والجحود مع معرفتهم اليقينية بصحة رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم ، إذ أن التوراة تذكره وتبشر به وتأمّر باتباعه ، ومع ذلك نبذوا الحق وجانبوا الهدى بغيا وحسدا وعنادا ، كما قال الله عز وجل :

{ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون} (٢).

والمقصود هنا أحرار يهود وعلمائهم (٣) الذين أنكروا معرفتهم به عليه الصلاة والسلام من خلال التوراة ، وجحدوا أن يكون فيها إيراد لنبوته صلى الله عليه وسلم ، أو دعوة إلى تصديقه واتباع أمره .

عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : قال ابن صوريا الفطوي (٤) لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا محمد ماجئتنا بشيء نعرفه ، وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك بها (٥).

وعنه رضى الله عنهما أيضا قال : قال مالك بن الصيف (٦) حين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر لهم ما أخذ عليهم من الميثاق وماعهد

(١) تفسير القرطبي ١٩/٢ .

(٢) سورة البقرة : آية ١٠١ .

(٣) ينظر تفسير الطبرى ٤٤٣/١ .

(٤) من يهود بنى ثعلبة بن الفطيون ، من أحرارهم المشهورين . ينظر السيرة النبوية لابن هشام ١١٢/٢ .

(٥) رواه ابن جرير : تفسير الطبرى ٤٤١/١ ، وابن أبى حاتم كما فى لباب النقول ص ٢٣ ، وينظر : السيرة النبوية لابن هشام ١٥١/٢ ، تفسير ابن كثير ١٣٣/١ .

(٦) من أحرار يهود بنى قينقاع . ينظر السيرة النبوية لابن هشام ١١٣/٢ .

الله راليهم فيه : والله ماعهد رالينا فى محمد صلى الله عليه وسلم ، وماأخذ له علينا من ميثاق ، فأنزل الله جل ثناؤه :

{أوكلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون} (١)"(٢).

ويقول أنس بن مالك رضى الله عنه وهو يحكى قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة : " .. فلما جاء نبى الله صلى الله عليه وسلم جاء عبد الله بن سَلَام فقال : أشهد أنك رسول الله ، وأنتك جئت بحق ، وقد علمت يهود أنى سيدهم وابن سيدهم ، وأعلمهم وابن أعلمهم ، فادعهم فاسألهم عنى قبل أن يعلموا أنى أسلمت ، فإنهم إن يعلموا أنى قد أسلمت قالوا فى ماليس فى . فأرسل نبى الله صلى الله عليه وسلم فأقبلوا فدخلوا عليه ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : يامعشر اليهود ، ويلكم ، اتقوا الله ، فوالله الذى لا إله إلا هو ، إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقا ، وأنى جئتكم بحق ، فأسلموا . قالوا : مانعلمه ، قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ، قالها ثلاث مرار ، قال : فأى رجل فيكم عبد الله بن سَلَام . قالوا : ذاك سيدنا وابن سيدنا ، وأعلمنا وابن أعلمنا . قال : أفرايتم إن أسلم . قالوا : حاشا لله ماكان ليسلم ، قال : أفرايتم إن أسلم . قالوا : حاشا لله ماكان ليسلم . قال : ياابن سَلَام اخرج عليهم . فخرج فقال : يامعشر اليهود اتقوا الله ، فوالله الذى لا إله إلا هو ، إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، وأنه جاء بحق . فقالوا : كذبت ، فأخرجهم رسول الله صلى الله عليه وسلم "(٣).

وهكذا لم يؤمن من أحبار يهود إلا القليل ، واختار معظمهم سبيل الجحود مع وضوح دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم لديهم خاصة بما لا يجتمع فى العموم لدى غيرهم .

(١) سورة البقرة : آية ١٠٠

(٢) رواه ابن جرير : تفسير الطبرى ٤٤٢/١ ، وينظر : السيرة النبوية لابن هشام

١٥١/٢ ، تفسير ابن كثير ١٣٤/١ ، لباب النقول ص ٢٣ .

(٣) رواه البخارى فى كتاب فضائل الصحابة ، باب هجرة النبى صلى الله عليه وسلم

وأصحابه إلى المدينة ١٤٢٤/٣ .

لقد جمع أولئك الأخبار المستنكفون بين إنكار شواهد رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم في التوراة ، وأوصافه فيها ، وكونه عليه الصلاة والسلام هو من بشرت به التوراة ، وبين إنكار أن يكون شيء مما جاء به صلى الله عليه وسلم من الآيات يمكن أن يمثل بينة تشهد له بصحة النبوة ، وصدق القول .

وتلك قمة الجحود ، وصدق الله سبحانه إذ يقول :

{الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون}{(١)} .

(٣٥٠)

المبحث الثاني
المساومة والترغيب

يستخدم الملاً المكذبون - أحيانا - أسلوب الإغراء والمساومة ، لاحبا في الرسول عليه السلام وأتباعه المؤمنين ، ولارغبة في التقرب إلى الحق أو قبوله ، وإنما أملا في فتنة الرسول عليه السلام والفئة المؤمنة من حوله ، وإنهاء موقفهم الصلب ، حين يوافقون على التنازل عن مبادئهم ، وحينئذ يسهل القضاء على الدعوة بتخلي أهلها عنها ، أو على الأقل منع انتشارها ، وانكشاف الناس عنها ، لأنها ستظهر أمام الأعين دعوة لامبدأ فيها ولاثوابت لها .

وهذا ما فعله الملاً من قريش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين عرضوا عليه مجموعة من العروض يغرونه بها ، ويرغبونه من خلالها في التنازل عما جاء به من الدين والكف عن دعوة الناس إليه وترك الهجوم على المنهج الشركي الذي يعيشونه .

قال ابن إسحاق :

"حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة - وكان سيذا - قال يوما وهو جالس في نادي قريش ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد وحده : يامعشر قريش : ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيدون ويكثرون فقالوا : بلى ياأبا الوليد قم إليه فكلمه .

فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ياابن أخي إنك منا حيث قد علمت من السطة^(١) في العشيرة ، والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. قال : فقال

(١) السطة بكسر السين وفتح الطاء أي المكانة والخيرية حسبا وشرفا من قولهم : فلان

وسيط في قومه إذا كان أوسطهم نسبا وأرفعهم مجدا .

ينظر لسان العرب ٦/٤٨٣٣ ، ترتيب القاموس ٤/٦١٠ .

له رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل ياأبا الوليد أسمع . قال ياابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا ، حتى لا تقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رِئياً^(١) تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه ..."^(٢) .
وفي رواية البغوى وغيره : " .. إن كنت تريد الرياسة عقدنا لك ألويتنا فكنت رأسا مابقيت ، وإن كانت الباءة زوجناك عشر نسوة تختار من أى بنات قريش ، وإن كان بك المال جمعنا لك ماتستغنى أنت وعقبك من بعدك . ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساكت لا يتكلم ، فلما فرغ قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : بسم الله الرحمن الرحيم {حم} . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته ... { إلى قوله : {فإن أعرضوا فقل أندرتم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود} (٣)"^(٤) .

من خلال ماسبق يمكن للمتأمل أن يلحظ مايلي :

أولا : أن الدافع لهؤلاء الكبراء إلى هذا الترغيب والإغراء ، ليس هو المحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والعطف عليه ، وليس هو الرقة في قلوبهم ، وغلبة الخير على نفوسهم .

إنما الباعث الحقيقي هو المحاولة الجادة في إيقاع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حائل الفتنة في الدين والدعوة ، كما قال الله سبحانه : {وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لا تخذوك خليلا} (٥) .

(١) كانوا يسمون التابع من الجن رِئياً" . السيرة النبوية لابن هشام ص ٢٢٦-٢٢٧ .

(٢) سبق تخريجه ص ١٠٤ .

(٣) سورة فصلت : آية ١-١٣

(٤) سبق تخريجه ص ١٠٤ .

(٥) سورة الإسراء : آية ٧٣

فالمقصد إذن هو إزاحة الرسول صلى الله عليه وسلم عن الدعوة ، وإغراءه بالتنازل عن العقيدة التي يدعو إليها ، والارتداد عن الدين الذي يحمله ، وتركهم وما اختاروه لأنفسهم وللمجتمع من العقيدة والمنهج .
ذلك واضح في تصريح عتبة بن ربيعة لأقرانه حين قال لهم : "ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا" .

فالثمن إذن لهذا العرض هو أن يكف عنهم ، ومظهر الكف بطبيعة الحال هو أن يتوقف فورا عن الدعوة إلى دين الله سبحانه وتعالى .
ثانيا : أن هذا الترغيب وذلك الإغراء هو أحد وسائل الملاءمة في الكيد للدعوة وأهلها ، والمكر بالرسول صلى الله عليه وسلم وبالؤمنين ، أملا في إطفاء جذوتهم ، وتحجيم كياناتهم ، وتضييق دوائرهم ، وتخفيف المنبع الأساسي لهم ، ألا وهو ما يأتي به الرسول صلى الله عليه وسلم عن الله سبحانه ، ولذلك جاء في الرواية أنهم تحركوا (حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يزدون ويكثرُونَ) .
ثالثا : قدم عتبة لعرضه بمقدمة تتضمن الثناء على رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال له : "إنك منا حيث قد علمت من السطة في العشيرة والمكان في النسب" .

وهذا الثناء هو جزء من عملية الإغراء ، والمقصود من ذلك محاولة التأثير نفسيا على رسول الله صلى الله عليه وسلم لعل قناته أن تلين ، فيرضخ لمطالبهم بالكف عن الدعوة .

وقريب من ذلك ما قالته ثمود لنبى الله صالح عليه السلام :

{قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ...} (١)

"أى كنا نرجو أن تكون فينا سيذا مطاعا ننتفع برأيك ونسعد بسيادتك قبل هذا الذى أظهرته من ادعائك النبوة ودعوتك إلى التوحيد" (٢) .

(١) سورة هود عليه السلام : من آية ٦٢

(٢) تفسير فتح القدير ٥٠٧/٢ - ٥٠٨ .

رابعاً : عرض أولئك الأكابر اشتمل على مجموعة من الأمور ترك فيها الاختيار لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليتخير منها ما يرغبه وتميل إليه نفسه .

فقد عرضوا عليه المال ، وعرضوا عليه الملك والسيادة ، وعرضوا عليه الإنفاق على علاجه إن كان يشتكى بأساً ... وهكذا تعددت الإغراءات له عليه الصلاة والسلام ، وكأن لسان حالهم يقول : اطلب ماشئت من أمر الدنيا تحققه لك مقابل إيقاف الدعوة ، والتنازل عن ثوابتها القائمة على توحيد الله سبحانه وعبادته وحده .

خامساً : يتضح كذلك أن هذا الأسلوب في المواجهة هين خفيف على الملاء ، ولذا فهم يرجون ويأملون أن يصلوا إلى هدفهم بهذا الطريق ، لأنه لا يكلفهم الكثير من العناء ، فرضوخ الرسول صلى الله عليه وسلم - في نظرهم - لهذه المساومة ، وانخناؤه تحت سيل الإغراء سيكون كفيلاً بانتهاء الدعوة ، وتفرق المؤمنين بها .

سادساً : ويبدو كذلك أنهم يريدون سحب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مستنقع المادة والشهوة ، فإذا حصل ذلك حسب تخطيطهم - حاشاه صلى الله عليه وسلم - فإن المبدأ سيسقط ، وستنتهى قداسة الدين ، وستزول مكانة الدعوة نفسها ، وسيبقى الناس الأمر كله ، وينمحي أثره في نفوسهم لأنه قائم على الشهوة والمادة ، لاعلى المبدأ والعقيدة ، ومتى تأصل هذا المعنى في النفوس هانت الدعوة ولم يعد لها عامل جذب يشد الناس حولها . وهذا هو ما يهدف إليه الطغاة دائماً .

وحينذاك سيسهل عليهم أيضاً قطع تلك الامتيازات المغرية نفسها بشكل أو بآخر - متى أرادوا - إذ لن يكون هناك أمل في بعث الدعوة من جديد ، بعد ارتباطها في الأذهان بالمادة والشهوات .

وأسلوب آخر كانوا يساومون به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعتمد على مطالبته بالالتقاء معهم في منتصف الطريق ، بحيث يتنازل عن قضية التوحيد في دينه الذى يدعو إليه ، ويتنازلون هم عن بعض دينهم الباطل .

عن محمد بن إسحاق قال : حدثني سعيد بن مينا^(١) قال : "لقى الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب ، وأميمة بن خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا محمد ، هلم فلنعبد ماتعبد ، وتعبد مانعبد ، ونشركك في أمرنا كله ، فإن كان الذي جئت به خيرا مما بأيدينا كنا قد شركناك فيه ، وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذي بأيدينا خيرا مما في يديك ، كنت قد شركتنا في أمرنا ، وأخذت منه بحظك ، فأنزلى الله {قل يا أيها الكافرون} حتى انقضت السورة"^(٢).

هذا الخبر بالإضافة إلى بعض آيات القرآن الكريم كقول الله تعالى :
 {فلاتطع المكذبين . ودوا لو تدهن فيدهنون}^(٣).
 وقوله سبحانه :

{قل أغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون}^(٤).
 وقوله جل وعلا :

{قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ماتعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولي دين}^(٥).

كل ذلك يشير إلى أن هناك مساومة من هذا النوع نفذها الملأ من قريش كجزء من وسائل المواجهة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وهم يريدون بذلك زحزحته صلى الله عليه وسلم عن موقفه الثابت في أمر العقيدة ومسألة الدين ، ويودون تحويل القضية برمتها من صورة المبادئ التي لا يمكن أن تتبدل مادامت حقا وصدقا إلى الشكل التجاري

(١) سعيد بن مينا : بكسر الميم وسكون الياء . يمد ويقصر . المغني ص ٢٤٤ ، الاكمال ٣٠٧/٧ .

(٢) رواه ابن جرير : تفسير الطبرى ٣٣١/٣٠ ، وابن أبي حاتم كما في لباب النقول ص ٢٣٧ . قال أكرم العمري : علته الارسال ، السيرة النبوية الصحيحة ١٠/١٦٣ (الحاشية) ، وينظر : السيرة النبوية لابن هشام ١/٢٩٠ ، فتح القدير ٥/٥٠٨ ، أسباب النزول للواحدى ص ٥٠٥ ، البداية ٣/١١٢ ، سبل الهدى والرشاد ٢/٥٥٩

(٣) سورة القلم : آية ٨-٩

(٤) سورة الزمر : آية ٦٤

(٥) سورة الكافرون : آية ١-٦

القائم على المصلحة المتبادلة ، وعلى كمية الربح والضمن المقدم ، وعلى تنازل الطرفين مقابل الاتفاق ، وهذا بلاشك سيفقد الدين كله صورة العقائد الصحيحة الثابتة التي لاتزول ولا تتغير ، ويجوله إلى مجموعة من الأفكار الأرضية الزائفة القابلة للمساومة والأخذ والعطاء والتحجيم والنقصان حسب الضمن المدفوع والمقابل المقدم .

ومن ثمّ فقد استهدفوا من محاولتهم هذه وغيرها تبيح قضية الدين والمنهج الشرعى لدى نبى الله عليه الصلاة والسلام ، ولأبأس عندهم فى المقابل أن يتنازلوا عن جزء من الدين لديهم ، ذلك أنهم لا يملكون أصلا ديننا صحيحا أو منهجا قائما على الحق الثابت .

ولذلك خاطب الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله عز

وجل :

{فلاتطع المكذبين . ودوا لو تدهن فيدهنون} (١).

والمعنى "ود هؤلاء المشركون يا محمد لو تلين لهم فى دينك بإجابتك إياهم إلى الركون إلى آلهتهم فيلينون لك فى عبادتك إلهك" (٢).
إنهم يرومون فتنته عليه الصلاة والسلام ، وتحويل دعوته عن خطها الأصيل ، ويوم أن تنحرف الدعوة عن مبادئها وثوابتها فسيكون ذلك بداية نهايتها ، وهذا ما يرجون ويأملون .

ويتجه الملاء - أيضا - إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهم ، ليساوموهم فى أمر الدين ، كلما حانت لهم الفرصة ، بغية فتنتهم فى دينهم ، ودفعتهم إلى الارتداد عن الإسلام .

يقول خباب بن الأرت (٣) رضى الله عنه : كنت قينا (٤) بمكة ، فعملت للعاصى بن وائل السهمى سيفا ، فجئت أتقاضاه ، فقال : لأعطيك حتى

(١) سورة القلم : آية ٨-٩

(٢) تفسير الطبرى ٢٩-٢١-٢٢ .

(٣) خباب : بتشديد الباء ، والأرت : بفتح الراء وتشديد التاء .

تقريب التهذيب ص ١٩٢ ، تبصير المنتبه ١٢/١ .

(٤) بفتح القاف وسكون الياء ، أى حدادا . ينظر فتح البارى ٥٤٩/٨ .

تكفر بمحمد (١).

فالعاص بن وائل في هذا الموقف يساوم خبابا رضى الله عنه في دينه ويحاول أن يضغط عليه بحقوقه المالية عنده ، جاعلا منها مجالا للمساومة ، بأن يكون التسديد العاجل ومن ثم استمرار التعامل معه مقابلا للخروج من الفئة المؤمنة ، وإعلان التكذيب بالدعوة ، والكفر بالله سبحانه .

وفي قصة كعب بن مالك رضى الله عنه ، في تخلفه عن غزوة تبوك ، وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم للصحابة رضى الله عنهم باعتزاله رضى الله عنه ، تظهر صورة من صور الإغراء من الملائم المكذبين للفئة المؤمنة ، يقول كعب رضى الله عنه - ضمن روايته - : "فبينما أنا أمشى بسوق المدينة إذا نبطى من أنباط أهل الشام (٢) ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة ، يقول : من يدل على كعب بن مالك ، فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءنى دفع إلى كتابا من ملك غسان ، فإذا فيه : أما بعد فإنه قد بلغنى أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك . فقلت لما قرأتها : وهذا أيضا من البلاء ، فتيممت (٣) بها التنوير (٤) فسجرتة (٥) بها (٦) . فملك غسان يستغل الأزمة النفسية لكعب رضى الله عنه ، وهو في تلك الحالة من الهم والكرب ، ليحاول إغرائه بالمال والمكانة ، وبالعرز

(١) رواه البخارى في كتاب التفسير ، باب قوله {أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن

عهدا} ١٧٦١/٤ ، ومسلم بنحوه في كتاب صفة القيامة ، باب سؤال اليهود النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح ١٣٨/١٧ .

(٢) الأنباط هم فلاحو العجم . ينظر شرح النووى على صحيح مسلم ٩٣/١٧ .

(٣) "أى قصدت" . فتح البارى ١٥٢/٨ .

(٤) "التنوير ما يجز فيه" . فتح البارى ١٥٢/٨ .

(٥) أى أوقدته وأحرقته . ينظر فتح البارى ١٥٢/٨ .

(٦) الحديث بطوله رواه البخارى في كتاب المغازى ، باب حديث كعب بن مالك

١٦٠٣-١٦٠٩ ، ومسلم في كتاب التوبة ، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه ٩٨-٨٧/١٧ .

(٣٥٨)

والشرف ، وبالحياة الرغيدة والعيش في كنف الملوك ، ولاشك أن لكل ذلك مقابلا ، وهو الابتعاد عن دائرة الدعوة والخروج عن دين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واللحاق بالكفر وأهله .

(٣٥٩)

المبحث الثالث
الوعيد والتهديد

يجد الملائكة المكذبون للرسول عليهم السلام أنفسهم أمام آيات بينات ،
وبراهين واضحات ، وحجج قاطعات ، تجعل الحق ظاهراً مبيناً في صف
الرسول عليهم السلام .

وفي المقابل يجدون أنفسهم خالين من الحجة الحقيقية ، فارغين من
البرهان الصحيح ، إلا من شبهة يلبسونها ثوب الحجة لاتأقياً دائماً بما يشتهون
ويتمنون ، من الصد عن سبيل الله ، وإيقاف تيار الدعوة الربانية .

لذلك يلجأ أولئك الملائكة المستكبرون إلى أساليب أخرى ، يرونها ناجعة
في التأثير على الدعوة من الرسول عليهم السلام ، والمؤمنين بدعوتهم .

ومن هذه الأساليب أسلوب التخويف والتوعد والتهديد ، وهم
يقصدون به - بداية - إرهاب الرسول عليه السلام ، لعله يتوقف عن
الاستمرار في الدعوة ، أو على الأقل يجفف من حماسه ونشاطه ، ويقف به
عند حد معين لايزعجهم ، ولايؤثر على منهجهم الجاهل الذي ارتضوه
لحياتهم .

وهم في ذات الوقت يهدفون إلى إرهاب من تواتيه فكرة الاستجابة
للدعوة ، إذ أنه حينئذ سيفكر مرات قبل أن يستجيب ، إذ أن الإيمان بالله
سبحانه والاستجابة للدعوة ستكون عاقبته التعرض لأشكال من التهديد في
النفوس أو المال أو الاستقرار ، وهذا - حسب تخطيطهم - يساعد على تحجيم
المؤمنين في المجتمع ، وتقليص قواعدهم ، كما أن الفئة المؤمنة نفسها قد
يصيبها الخوف على أمنها في حياتها أو غذائها أو استقرارها ، فيتلجج
البعث أو يتردد ، وقد ينسحب من دائرة المؤمنين ليرتد إلى الكفر أملاً في
النجاة من تهديد الطغاة وبطشهم . كل ذلك يأمله الملائكة الكافرون في اتجاههم
لهذا النوع من المجابهة للإيمان وأهله .

وفي قصص الرسول عليهم السلام في القرآن الكريم نماذج وصور لهذا
التهديد والوعيد .

فقد تعرض نوح عليه السلام للتهديد من المستكبرين من قومه ،
والذين بيدهم من السيادة ما يمكنهم من تنفيذ تهديداتهم . كما قال الله
سبحانه وتعالى :

{قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين} (١).

ومن خلال هذه الآية وما قبلها في السياق يتضح لنا العقوبة التي هدد
بها نوح عليه السلام ، والجريمة التي من أجلها استحق - في نظرهم - هذا
التهديد ، والضمن المطلوب من نوح عليه السلام حتى ينجو من الاحتمالات
القائمة لتنفيذ الوعيد .

أما العقوبة التي هدد بها نوح عليه السلام هنا فهي الرجم بالحجارة ،
ومن ثم فهو توعّد بالقتل (٢) بهذه الوسيلة الشديدة الغليظة .

وأما المطلوب منه ليلغى المستكبرون تهديدهم ، ويجمدوا تنفيذه ، فهو
أن يتوقف نبي الله نوح عليه السلام عن الاستمرار في الدعوة وينتهي عن
بذل الجهود لاستقطاب الناس ليدخلوا في دين الله سبحانه ، وأما جريمته
عليه السلام - في زعمهم - فهي دعوته إلى الدين الصحيح المنزل من رب
العالمين ، وتقديم النصيحة لهم بتقوى الله سبحانه ، وعبادته وتوحيده ،
والتوجه له وحده دون سواه ، والبراءة من الحياة الجاهلية القائمة على
الشرك والضلال وعبادة تلك الآلهة المزعومة من دون الله ، وتخويفهم
بعذاب الله تعالى إن هم أصروا على الشرك والكفر .

هذا هو ذنبه الذي يستحق عليه هذا التهديد بالرجم ، لما لم يستطع
أولئك المستكبرون مواجهة نوح عليه السلام بالحجة والبرهان .

قال صاحب الظلال : " فلما أن واجههم نوح عليه السلام بحجته
الواضحة ، ومنطقه المستقيم ، وعجزوا عن المضى في الجدل بالحجة والبرهان
لجأوا إلى ما يلجأ إليه الطغيان كلما أعوزته الحجة ، وخذله البرهان ، لجأوا

(١) سورة الشعراء : آية ١١٦

(٢) ينظر تفسير القرطبي ٨٢/١٣ .

إلى التهديد بالقوة المادية الغليظة التي يعتمد عليها الطغاة في كل زمان
ومكان ، عندما تعوزهم الحجة ، ويعجزهم البرهان :
إقالوا لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين^(١).
وأسفر الطغيان عن وجهه الكالح ، وكشف الضلال عن وسيلته
الغليظة^(٢).

ويتعرض لوط عليه السلام للتهديد بنوع آخر من البطش والإيذاء
يتمثل في النفي من البلد ، والإخراج من الوطن الذي يعيش فيه ،
ولا يتوقف هذا التهديد إلا بثمن ومقابل ، هو الانتهاء من جهته عليه السلام
عن الدعوة ، وتركها بالكلية ، إذا كانت له رغبة في الحياة بأرضه :
إقالوا لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين^(٣).

فلوط عليه السلام - حسب مقولتهم - يستحق الإخراج والنفي لأنه
ارتكب جريمة في حقهم تتمثل في الدعوة - مجرد الدعوة - إلى دين الله
سبحانه وتوحيده ، ونشر الفضيلة ، ومحاربة الفاحشة الشاذة التي انتشرت في
محيطهم .

ولكن هذه الدعوة كانت مخالفة لمنهجهم ، مضادة لرغباتهم وشهواتهم
فكان جوابهم الأخير هو تهديد نبيهم لوط عليه السلام ومن آمن بدعوته ،
وسار على نهج الإيمان والفضيلة ، بالنفي والطرده والإبعاد ، كما قال سبحانه
وتعالى :

إفما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم إنهم
أناس يتطهرون^(٤).

قال ابن تيمية : "ثم إن أهل الفاحشة توعدوهم وتهددوهم بإخراجهم
من القرية .

(١) سورة الشعراء : آية ١١٦
(٢) في ظلال القرآن ٥/٢٦٠٨ .
(٣) سورة الشعراء : آية ١٦٧
(٤) سورة النمل : آية ٥٦

وهذا حال أهل الفجور إذا كان بينهم من ينهاتهم طلبوا نفيه وإخراجه" (١).

ويتلقى نبي الله شعيب عليه السلام ومعه المؤمنون بدعوته المتمسكون بدين ربهم سبحانه تهديد الملأ المستكبرين بالنفى أيضا ، كما قال الله تعالى :
 {قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا ...} (٢).

فالملا يرون أن بقاء شعيب عليه السلام والفئة المؤمنة في البلد سيسبب الفتنة ، وينشئ لهم الحرج ، ويزعجهم بما يدعو إليه ، مما يابون أن يكون منهجا وعقيدة للبلد وأهلها ، ومن ثم فإن الحل القائم - في نظرهم - هو إخراجه والمؤمنين قسرا وجبرا ، ونفيه عن البلد وإبعاده عنها .
 وليس هناك من حل آخر إلا أن ينهى شعيب عليه السلام دعوته ، ويلغى أولئك المؤمنون إيمانهم ، ويعود الجميع إلى منهج القوم ودينهم المتمثل في الشرك والكفر وعبادة الآلهة من دون الله تعالى ، وحرية التصرف المالى فى المعاملات بالطريقة التى تحلو لهم بعيدا عن الانضباط بأى قيود أو ضوابط ، وبغض النظر عن حقوق الآخرين .
 فإما هذا وإما ذاك {لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا} .

قال صاحب الظلال عند قول الله تعالى على لسان شعيب عليه السلام :
 {وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا ...} (٣).

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٣٤/١٥ .

(٢) سورة الأعراف : من آية ٨٨

(٣) سورة الأعراف : من الآيات ٨٧-٨٨

"لقد دعاهم إلى أعدل خطة ، ولقد وقف عند آخر نقطة لا يملك أن يتراجع وراءها خطوة ، نقطة الانتظار والتريث والتعایش بغير أذى وترك كلٌّ وما اعتنق من دين حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ، ولكن الطواغيت لا يرضيهم أن يكون للإيمان في الأرض وجود ممثل في جماعة من الناس لاتدين للطاغوت .

إن وجود جماعة مسلمة في الأرض لاتدين إلا لله ، ولاتعترف بسُلطان إلا سلطانه ، ولاتحكم في حياتها شرعا إلا شرعه ، ولاتتبع في حياتها منهجا إلا منهجه ، إن وجود جماعة مسلمة كهذه يهدد سلطان الطواغيت حتى لو انعزلت هذه الجماعة في نفسها وتركت الطواغيت لحكم الله حين يأتي مواعده .

إن الطاغوت يفرض المعركة فرضا على الجماعة المسلمة حتى لو آثرت هي ألا تخوض معه المعركة ، إن وجود الحق في ذاته يزعج الباطل وهذا الوجود ذاته هو الذي يفرض عليه المعركة مع الباطل ، إنها سنة الله لا بد أن تجرى :

{قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا} .

هكذا في تبجح سافر وفي إصرار على المعركة لا يقبل المهادنة والتعایش" (١) .

وكما تلقى شعيب عليه السلام منهم التهديد بالإبعاد ، فقد تلقى كذلك تهديدهم بالقتل بأسلوب غير مباشر ، حين قالوا له كما حكى القرآن الكريم :

{... وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك ...} (٢) .

(١) في ظلال القرآن ٣/١٣١٨ .

(٢) سورة هود عليه السلام : آية ٩١

"أى لقتلناك بالرجم" (١). "والمقصود من هذا الكلام أنهم بينوا له أنه لاحرمة له عندهم ، ولا وقع له في صدورهم ، وأنهم إنما لم يقتلوه لأجل احترامهم رهطه" (٢).

وفي ذلك فيما يبدو تهديد مبطن له بالتخلي عن قضية الدعوة والرسالة حتى يتسنى له العيش في هدوء وراحة .

وقد ذكر القرآن الكريم أيضا أنهم كانوا يتهددون المؤمنين ويخوفونهم ويتوعدونهم إن هم استمروا على طريق الإيمان بدعوة شعيب عليه السلام ، وذلك في قول الله سبحانه على لسان شعيب عليه السلام مخاطبا المكذبين :

{ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به...} (٣).

والمعنى كما قال ابن جرير : "ولا تجلسوا بكل طريق ، وهو الصراط توعدون المؤمنين بالقتل" (٤).

والقرآن الكريم يخبرنا أن هناك رسلا آخرين عليهم السلام تلقوا التهديد بالنفى والإبعاد إن لم يتنازلوا عما أعلنوه من مبادئ ، ويتركوا ما يعاشونه من مناهج ، ويتوقفوا عما يتحركون لأجله من الدعوة إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له ، واجتناب الطواغيت التي تعبد من دون الله تعالى .

قال الله سبحانه :

{ألم يأتكم نبا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات...} (٥).

(١) تفسير القرطبي ٦١/٩ .

(٢) التفسير الكبري ٤٩/١٨-٥٠ .

(٣) سورة الأعراف : من آية ٨٦ .

(٤) تفسير الطبري ٢٣٨/٨ .

(٥) سورة إبراهيم عليه السلام : من آية ٩ .

وبعد أن ذكر الله عز وجل شيئاً مما أثاره المكذبون في مواجهة الرسل عليهم السلام قال سبحانه عقب ذلك :

{وقال الذين كفروا لرسلكم لن نخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا...}{(١)}.

هذه الآية تقرر أن هذا النوع من الأذى يكاد يكون مجابهة متكررة ، تعرض لها كل رسول .

يقول القرطبي : "خير الكفار الرسل بين أن يعودوا في ملتهم أو يخرجوهم من أرضهم . وهذه سيرة الله تعالى في رسله وعباده" (٢).

وموقفان آخران من مواقف التخويف والوعيد نجدهما في قصة موسى عليه السلام في القرآن الكريم ، أحدهما تهديد فرعون لنبي الله موسى عليه السلام بالسجن ، وذلك في مقولته التي حكاها القرآن الكريم في قول الله سبحانه :

{قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين}{(٣)}.

ذلك أن فرعون حاول أن يثنى موسى عليه السلام عن دعوته بالمحاورة والمجادلة بالباطل في بعض العبارات المتضمنة للشبهات ، يصحبها الاستهزاء والتعجب ، كل ذلك يلبسه ثوب الحجّة والدليل . قال تعالى :

{قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . قال لمن حوله ألا تستمعون . قال ربكم ورب آبائكم الأولين . قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون . قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون}{(٤)}.

ولما وصل الأمر إلى هذا الحد أحس فرعون بهزيمته أمام مطارق الحجج الصحيحة ، والبراهين الساطعة ، وأيقن أن المحاورّة والمجادلة لن تجديه نفعا

(١) سورة ابراهيم عليه السلام : من آية ١٣

(٢) تفسير القرطبي ٩/٢٢٨-٢٢٩ .

(٣) سورة الشعراء : آية ٢٩

(٤) سورة الشعراء : آية ٢٣-٢٨

فقرر فرعون حينذاك أن يقطع سبيل الدليل والبرهان ، وأن يتخذ أسلوباً آخر لا يعتمد على الحجّة ، بل يقوم على البطش والاستعلاء ، والقوة والتخويف ، فقال مقولته التي تحمل التهديد لموسى عليه السلام :

{قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين} (١).

وواضح أن فرعون لا يكتفى من موسى عليه السلام أن يرجع عن مسألة الرسالة ، أو أن يكف عن الدعوة إلى دين الله سبحانه ، أو أن يقف عن الحركة لنشر هذا الدين ، بل المطلوب أكبر من ذلك ، وهو أن يتجرد موسى عليه السلام في نفسه عن ذلك الدين بالكلية ، مادام يحمل في طياته عقيدة التوحيد لله عز وجل ، والتوجه له وحده بالعبادة ، وهو ما يفرضه فرعون ، إذ كان يدعى أنه الرب الذي ينبغي أن يختص وحده بالخضوع ، ومن ثمّ فإن موسى عليه السلام إذا أراد أن ينجو من العقاب - حسب تهديد فرعون - فعليه أن يعلن تنازله عن دين الله سبحانه ، وأن يرفع آيات الخضوع والعبودية لفرعون - وحاشاه عليه السلام - .

والموقف الآخر كان من نصيب السحرة الذين عرفوا الحق وتيقنوه ، فأعلنوا إيمانهم ، وسجدوا لله رب العالمين :

{وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون . فوق الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين . وألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون} (٢).

إذ أن فرعون لم يكن يتوقع أن يرى هذا المشهد للإيمان ، والجماهير محتشدة ، والجموع تمعن النظر في نتيجة التحدي ، وكان الأمر بالنسبة له مفاجأة أزعجته ، وأشعرته بالفرع على سلطانه أن تهتز أركانه ، وعلى تعاضمه أن يخذش ، إذا اقتدت تلك الجماهير بمن آمن من السحرة الأبرار ، فكان أن تحرك للقضاء على ما يمكن أن يوجد إيمان هؤلاء من الآثار والنتائج .

(١) سورة الشعراء : آية ٢٩

(٢) سورة الأعراف : آية ١١٧-١٢٢

وكان مما فعله مواجهة أولئك المؤمنين بالتخويف والسويد فخطبهم مهددا لهم بالانتقام وشدة التنكيل :

{قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم ، إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين} (١).

وهو يريد بذلك التأثير عليهم لعلهم يعودون عن إيمانهم إلى ما كانوا عليه من ملة فرعون ، كما أن فى التهديد تنفيرا لمن تراوده الفكرة بمتابعة أولئك المؤمنين ، والاقتراء بهم فى الانضمام إلى قافلة الإيمان .

وقد أجمل فرعون تهديده للسحرة المؤمنين الأبرار ثم فصله . فكان الإجمال فى قوله كما حكى القرآن الكريم {سوف تعلمون} وهو إجمال فيه تهويل وتفخيم ، ومبالغة وتعظيم ، للعقوبة المنتظرة على الجرم الذى ارتكبه دون أخذ رأى فرعون ومشورته ، هذه الجريمة هى الإيمان برب العالمين ، والكفر بالوهية فرعون .

ثم فصل تلك العقوبة التى هددهم بها :

{لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين} .

"وقطع اليد والرجل من خلاف : هو قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى ، والصلب معلوم ، وليس فى الإهلاك أقوى من ذلك" (٢).

فهى تشتمل فى الواقع على عقوبتين هددهم بهما أولا هما القطع من خلاف ، والثانية الصلب بعد ذلك ، وفيه زيادة تعذيب وخزى وتنكيل . وكان من مقولة فرعون أيضا فى تهديده لأولئك المؤمنين ما حكاه

القرآن الكريم على لسانه :

{.. ولتعلمن أيضا أشد عذابا وأبقى} (٣).

(١) سورة الأعراف : آية ١٢٣-١٢٤

(٢) التفسير الكبير ١٣٥/٢٤ .

(٣) سورة طه : من آية ٧١

وفيها إظهار منه للعظمة والجبروت ، وإشعار بالقدرة على البطش وإنزال أنواع العذاب بالمخالفين لأمره ، والمراد سوف تعلمون من هو صاحب العقاب القوي ، والأخذ الأليم ، يشير إلى نفسه بطبيعة الحال . قال ابن جرير : "يقول : ولتعلمن أيها السحرة أينا أشد عذابا لكم وأدوم أنا أو موسى" (١).

ولعله يريد بعبارته تلك أيضا الاستهانة بموسى عليه السلام . قال الشوكاني : "وهو يريد بكلامه هذا الاستهزاء بموسى لأن موسى لم يكن من التعذيب في شيء" (٢).

وهكذا يواجه فرعون الطاغية تهديده بالتنكيل والبطش الشديد إلى المؤمنين المستندين إلى الحجة والبرهان السديد .

وهذا خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم يتلقون صورا من الوعيد والتخويف أيضا ، فقد أعلن أبو جهل تهديده بأن يطاء عنقه عليه الصلاة والسلام لو شاهده يصلى .

يقول ابن عباس رضى الله عنهما : "قال أبو جهل : لئن رأيت محمدا يصلى عند الكعبة لأطأن على عنقه ، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال : لو فعل لأخذته الملائكة" (٣).

وفي رواية أبي هريرة رضى الله عنه "قال أبو جهل : هل يعفر (٤) محمد وجهه بين أظهركم؟ قال : فقييل : نعم ، فقال : واللات والعزى لئن رأيت ي فعل ذلك لأطأن على رقبتة ، أو لأعفرن وجهه في التراب" (٥).

(١) تفسير الطبرى ١٨٩/١٦ .

(٢) تفسير فتح القدير ٣٧٦/٣ .

(٣) رواه البخارى فى كتاب التفسير ، باب {كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية . ناصية كاذبة خاطئة} ١٨٩٦/٤ .

(٤) "أى يسجد ويلصق وجهه بالعفر وهو التراب" . شرح النووى على صحيح مسلم ١٣٩/١٧ .

(٥) الحديث رواه مسلم فى كتاب صفة القيامة ، باب قوله تعالى {إن الانسان ليطغى . أن رآه استغنى} ١٣٩/١٧ - ١٤٠ .

وفيه نزل قول الله سبحانه وتعالى :

{أرأيت الذي ينهى . عبدا إذا صلى} (١).

قال ابن كثير : "نزلت في أبي جهل لعنه الله ، توعده النبي صلى الله عليه وسلم على الصلاة عند البيت" (٢).

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : "كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلى ، فجاء أبو جهل فقال : ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟ فانصرف النبي صلى الله عليه وسلم فزبره (٣) ، فقال أبو جهل : إنك لتعلم ما بها ناد أكثر منى . فأنزل الله {فليدع ناديه . سندع الزبانية} (٤)" (٥).

هذا هو منهج أبي جهل ، يتوعد نبي الله صلى الله عليه وسلم ، وجريته الصلاة بجوار الكعبة ، ومن أجلها يستحق التهديد في نظر أبي جهل . ثم يتهدده مرة أخرى مخوفا له عليه الصلاة والسلام بكثرة أتباعه وأنصاره .

ولذا قال جل وعلا {فليدع ناديه} .

"والمعنى : ليدع عشيرته وأهله ليعينوه وينصروه" (٦).

ولم ينج المؤمنون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهم من أساليب أبي جهل في التخويف والوعيد ، كل حسب وضعه الاجتماعى ، فإن كان تاجرا كان التهديد بالتضييق عليه في تجارته ، والتأثير

(١) سورة العلق : آية ٩-١٠

(٢) تفسير ابن كثير ٥٢٨/٤ ، وينظر تفسير البغوى ٥٠٧/٤ .

(٣) أى أغلظ له في القول . ينظر النهاية ٢٩٣/٢ .

(٤) سورة العلق : آية ١٧-١٨

(٥) رواه الترمذى في كتاب تفسير القرآن ، باب ومن سورة اقرأ باسم ربك ٤٤٤/٥ ،

وقال هذا حديث حسن غريب صحيح ، وأحمد بنحوه : الفتح الربانى ٣٢٩/١٨

والواحدى في أسباب النزول ص ٤٩٣-٤٩٤ ، وابن جرير : تفسير الطبرى

٢٥٥/٣٠-٢٥٦ ، والحاكم في المستدرک ٥٣٠/٢ ، وصححه ، ووافقه الذهبى .

(٦) تفسير فتح القدير ٤٧٠/٥ ، وينظر تفسير الطبرى ٢٥٥/٣٠ .

عليه ماليا ، وإن كان ذا مكانة كان التهديد بتحطيم مكانته بين القوم ، وتشويه سمعته ، والتأثير على منزلته في المجتمع وهكذا .

روى ابن إسحاق أن أبا جهل كان "إذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومنعة أنبه وأخزاه ، وقال : تركت دين أبيك وهو خير منك ، لنسفهن حلمك ، وَلَنفِيَنَّ^(١) رَأْيِكَ ، ولنضعن شرفك . وإن كان تاجرا قال : والله لنكسدن تجارتك ، ولنهلكن مالك . وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به" (٢) . وهو بذلك يعمل على مواجهة الحق بتهديد الرسول صلى الله عليه وسلم من جهة ، وتهديد أصحابه رضي الله عنهم من جهة أخرى ، لعل ذلك التهديد يجدي في القضاء على الدعوة ، أو التخفيف من شأنها وأثرها ، أو على أبعد الأحوال تحجيم دائرة المؤمنين من أن تتسع ، وقواعدهم من أن تنمو ، فتقتلع الطغاة من الجذور .

(١) أى لنقبحن ونخطأن . ينظر ترتيب القاموس المحيط ٥٤٤/٣ .

(٢) رواه ابن إسحاق دون إسناد : السيرة النبوية لابن هشام ٢٥١/١ ، وينظر : البداية ٧٦/٣ ، السيرة الحلبية ٤٧٨/١ .

(٣٧٢)

المبحث الرابع

الإيذاء النفسى

يعتبر الإيذاء النفسى من أهم وسائل المجابهة من الملأ المكذبين للرسل عليهم السلام ، وأتباعهم من المؤمنين بالدعوة ، الملتزمين بدين الله سبحانه وتعالى .

والهدف من هذا النوع من الإيذاء هو تدمير نفسيات الرسل عليهم السلام وأتباعهم ، وتخطيم معنوياتهم ، وإشعارهم بالإحباط والهوان فى نفوسهم ، وذلك ليخفف الرسل عليهم السلام من توغلمهم الدعوى من جهة وليقل السالكون فى دينهم من جهة أخرى خوفا من التعرض لهذا اللون من الإيذاء ، ولتبقى فى النهاية صورة المرتبطين بالدعوة وأصحاب العلاقة بها أمام العامة من الناس صورة مشوهة مهزوزة ، تتعرض للازدراء والاحتقار والاستهانة ، وللسخرية والتهكم والاستهزاء ، والإنسان بطبعه لايميل إلى أن يكون ضمن دائرة هذا شأنها ومصيرها ، إلا من وفقه الله تعالى للإيمان والثبات على الحق .

وسأذكر هنا - إن شاء الله تعالى - صورتين لهذا النوع من الإيذاء وبعض الأمثلة لذلك :

أولا : الاستهزاء والسخرية والتهكم .

ذلك لون من الإيذاء تعرض له الرسل عليهم السلام جميعا كما قال الله سبحانه وتعالى :

{ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين . وماياتهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون} (١).

{يا حسرة على العباد ماياتهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون} (٢).

{وكم أرسلنا من نبي فى الأولين . وماياتهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون} (٣).

(١) سورة الحجر : آية ١٠-١١

(٢) سورة يس : آية ٣٠

(٣) سورة الزخرف : آية ٦-٧

{وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل
ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا} (١).

وقال عز وجل في معرض التسليّة لرسوله صلى الله عليه وسلم :
{ولقد استهزىء برسلك من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به
يستهزون} (٢).

{ولقد استهزىء برسلك من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف
كان عقاب} (٣).

فهذه الآيات الكريمة تقرّر أنّ الرسل عليهم السلام تعرضوا جميعاً
للسخرية والاستهزاء في أشخاصهم ، كما تعرض دين الله الذى يحملونه
ويدعون إليه إلى التهكم والاستهزاء منه أيضاً ، فالمكذبون يسخرون من
الرسول عليه السلام ، ومن الدين الذى يأتي به ومن العقاب الذى يحذرهم
{واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا} .

فهذا نبى الله نوح عليه السلام يتناول عليه المجرمون بالاستهزاء به
عليه السلام وهو يصنع السفينة تنفيذاً لتوجيه ربه سبحانه وتعالى ، كما قال
عز وجل :

{ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملاً من قومه سخروا منه ...} (٤).

والآية الكريمة تدل على تجدد السخرية منه والاستهزاء به ، وتكرر
ذلك كلما مر عليه ملاً من قومه ، ولعلمهم كانوا يرونه عليه السلام يبنى
سفينته فى البر فكان ذلك باباً لبغيتهم فى التهكم به عليه السلام ، والادعاء
بأنه صار نجاراً بعد أن كان نبياً (٥).

(١) سورة الكهف : آية ٥٦

(٢) سورة الأنعام : آية ١٠

(٣) سورة الرعد : آية ٣٢

(٤) سورة هود عليه السلام : من آية ٣٨

(٥) ينظر تفسير القرطبي ٢٣/٩ ، تفسير الطبري ٣٤/١٢ .

ويستهزىء الملائمة المستكبرون بنبي الله صالح عليه السلام وبرسالته أمام المؤمنين بدعوته ، كما قال عز وجل :

{قال الملائمة الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ...} (١).

والاستفهام هنا ليس على حقيقته ، لأن هؤلاء المستكبرين هم على معرفة بأن أتباعه عليه السلام يعلمون أنه رسول من عند الله سبحانه ، ولكن مقالتهم تلك التي حكاها القرآن {أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه} إنما هي على طريق الاستهزاء والسخرية من صالح عليه السلام ورسالته التي يعلنها (٢).

وفي قصة لوط عليه السلام يقول الله سبحانه وتعالى :

{فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون} (٣).

فالمستكبرون يصفون لوطا عليه السلام ومن آمن بدعوته بالتطهر ، وهم يقصدون - ضمن مقاصدهم - من هذا الوصف السخرية والاستهزاء بهم ، فهم يتكلمون من تزهم عن القذارة ، ورغبتهم عن الرجس وترفعهم عن الفاحشة .

فيجعلون من هذا التنزه والرفعة والطهارة من لوط عليه السلام ومن آمن به مجالا للسخرية والاستهزاء (٤).

وفي قصة شعيب عليه السلام يقول الله تبارك وتعالى عن المكذبين :

{قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لآنت الحليم الرشيد} (٥).

(١) سورة الأعراف : من آية ٧٥

(٢) ينظر : تفسير فتح القدير ٢/٢٢٠ ، تفسير البحر المحيط ٤/٣٣٠ .

(٣) سورة النمل : آية ٥٦

(٤) ينظر : تفسير القرطبي ١٣/١٤٥ ، تفسير روح المعاني ٨/١٧١ .

(٥) سورة هود عليه السلام : آية ٨٧

وهنا كذلك يظهر الاستهزاء والتهمك بنبي الله شعيب عليه السلام ، وبصلاته وعبادته لربه تعالى ، وبمنهج الله الذي جاء به .
فكانهم يصرحون له تهكما بأن كل ماجئت به من الغرائب والعجائب هو نتيجة لصلاتك وعبادتك هذه ، ثم يصفونه - تهكما أيضا - بأنه فيما جاء به الحليم الرشيد .

قال ابن كثير : "يقولون هذا على سبيل الاستهزاء والتهمك والتنقص أصلاتك هذه التي تصلبها هي الآمرة لك بأن تحجر علينا فلانعبد إلا إلهك؟ ونترك مايعبد آباؤنا الأقدمون وأسلافنا الأولون؟ أو أن لا نتعامل إلا على الوجه الذي ترتضيه أنت ونترك المعاملات التي تأبأها وإن كنا نحن نرضاها؟ {إنك لأنت الحليم الرشيد} قال ابن عباس وميمون بن مهران وابن جرير (١) وزيد بن أسلم وابن جرير : يقولون ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء" (٢).

وقال صاحب الظلال : "ويسخر أهل مدين من شعيب كما يتوقع بالسخرية اليوم ناس على دعاة التوحيد الحق ، فيقولون {إنك لأنت الحليم الرشيد} وهم يعنون عكس معناها فالعلم والرشد عندهم أن يعبدوا مايعبد آباؤهم بلا تفكير ، وأن يفصلوا بين العبادة والتعامل في السوق" (٣).
ويوجه فرعون وملؤه أيضا سهام سخريتهم وتهكمهم إلى نبي الله موسى عليه السلام .
قال تعالى :

{ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إني رسول رب العالمين . فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون} (٤).

(١) ابن جرير : بضم الجيم وفتح الراء وسكون الياء - ينظر المحض : ٥٩
(٢) قصص الأنبياء لابن كثير ٢٤٥/١ ، وينظر : تفسير فتح القدير ٥١٩/٢ ، تفسير البحر المحيط ٢٥٣/٥ ، تفسير الطبري ١٠٣/١٢ .
(٣) في ظلال القرآن ١٩٢٠/٤ .
(٤) سورة الزخرف : آية ٤٦-٤٧

فالأية الكريمة تبين أن هؤلاء المستكبرين جابهوا دعوة موسى عليه السلام بالضحك والاستهزاء دون نظر أو تأمل أو رغبة في معرفة الحق ، فالتهمك منهم مصاحب لرؤية الآيات ، وكأنهم قدموا هذا الموقف قبل أن يحاولوا التفكير فيما في هذه الدعوة من الحق واليقين .

قال الألوسي : "أى فاجأهم الضحك منها ، أى استهزؤا بها أول مارأوها ، ولم يتأملوا فيها" (١).

وتبدو السخرية كذلك من فرعون بموسى عليه السلام في الحوار الذي دار بينهما إثر عرض موسى عليه السلام لدعوته .
قال تعالى :

{قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . قال لمن حوله ألا تستمعون . قال ربكم ورب آبائكم الأولين . قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون} (٢).

فالمقصود من قول فرعون لمن حوله {ألا تستمعون} السخرية بموسى عليه السلام ، والتهمك بما جاء به من توحيد الله تعالى ، والتنقص له والازدراء ، خشية أن يتأثر السامعون بمقولته عليه السلام ، فأراد فرعون أن يوهم الحاضرين بأن دعوة موسى عليه السلام لا يعتد بها ، وليس معها من البراهين والأدلة ما يرفع من قدرها ويؤكد حجتها ، بل هى أولى بالتهمك والسخرية (٣).

قال الألوسي : "بالغ اللعين في الإشارة إلى عدم الاعتداد بالجواب المذكور ، حيث أوهم أن مجرد استماعهم له كاف في رده وعدم قبوله" (٤).

ويستهزىء فرعون بموسى عليه السلام مرة أخرى حينما يسميه رسولا في الوقت الذى ينكر رسالته {قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون}

(١) تفسير روح المعاني ٨٧/٢٥ .

(٢) سورة الشعراء : آية ٢٣-٢٧ .

(٣) ينظر تفسير ابن كثير ٣٣٣/٣ .

(٤) تفسير روح المعاني ٧٢/١٩ .

فهذا الإطلاق إنما هو ضرب من التهكم والسخرية (١).

ويلاقي رسولنا صلى الله عليه وسلم هذا اللون من الإيذاء أيضا من أكابر قريش إذ يحكى القرآن الكريم أنهم كانوا لا يتركون فرصة رؤيته صلى الله عليه وسلم دون أن يتعرضوا له بالسخرية والتهكم .
قال تعالى :

{وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى يذكر آلهتكم...} (٢).

فالمستكبرون من قريش كأبى جهل وأمثاله يستهزؤون برسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول بعضهم لبعض ، أو يقولون لعوامهم {أهذا الذى يذكر آلهتكم} والإشارة له عليه الصلاة والسلام تحمل فى طياتها التنقص له صلى الله عليه وسلم ، والمعنى : أهذا هو الذى يتعرض لآلهتكم بالعيب والتسفيه ؟

وهذا كله من باب الاستهزاء والحط من مكانته والتقليل من شأنه عليه الصلاة والسلام (٣).

ومثل ذلك قول الله تبارك وتعالى :

{وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا . إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها...} (٤).

فهم يجعلون منه صلى الله عليه وسلم مجالا للسخرية ومجلا للاستهزاء ، وموضعا للتضاحك فيما بينهم عليه صلى الله عليه وسلم ، يقولون {أهذا الذى بعث الله رسولا} .

والإشارة تتضمن معنى الاستحقار والاستصغار (٥).

(١) ينظر تفسير البيضاوى ١٥٣/٢ .

(٢) سورة الأنبياء عليهم السلام : من آية ٣٦

(٣) ينظر : تفسير البغوى ٢٤٥/٣ ، زاد المسير ٢٤٣/٥ .

(٤) سورة الفرقان : من الآيات ٤١-٤٢

(٥) ينظر : تفسير البيضاوى ١٤٢/٢ ، تفسير البحر المحيط ٥٠٠/٦ .

ثم يزيدون في نسبة السخرية به صلى الله عليه وسلم حينما يجعلونه ضالا في نفسه ، ناشرا للضلالات بينهم ، وأنه أوشك أن ينقلهم مما هم فيه من الهدى إلى ما هو فيه من الضلال - بزعمهم - لولا أنهم ثبتوا على منهجهم ، وصبروا على دينهم ، واستمروا على عبادة آلهتهم التي يعبدونها ، ولم يدعوا له فرصة عليه الصلاة والسلام ليؤثر على أفكارهم وعقائدهم - حسب مقولتهم - {إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها} .

ذلك التهكم به صلى الله عليه وسلم أمام العامة من الناس ، أمر مقصود من كبراء المشركين .

يقول سيد قطب في ظلال الآية الكريمة : "أكان ذلك عن اقتناع منهم بأن شخصه الكريم يستحق منهم هذه السخرية ، وأن ماجاءهم به يستحق منهم هذا الاستهزاء؟

كلا . إنما كانت تلك خطة مدبرة من كبراء قريش للتصغير من أثر شخصيته العظيمة ، ومن أثر هذا القرآن الذي لا يقاوم . وكانت وسيلة من وسائل مقاومة الدعوة الجديدة التي تهددهم في مراكزهم الاجتماعية ، وأوضاعهم الاقتصادية ، وتجردهم من الأوهام والخرافات الاعتقادية التي تقوم عليها تلك المراكز وهذه الأوضاع ، ولقد كانوا يعقدون المؤتمرات لتدبير المؤامرات المحبوكة ويتفقون فيها على مثل هذه الوسيلة ، وهم يعلمون كذبهم فيها عن يقين " .

ثم قال بعد أن ذكر بعض الأمثلة على تخطيطهم : "فما كان اتخاذهم إياه هزوا وقولهم ساخرين {أهذا الذي بعث الله رسولا} بصورة الاستغراب والاستنكار والزراية إلا طرفا من تلك المؤامرات المدبرة لا ينبعث عن حقيقة شعورية في نفوسهم ، إنما يتخذ وسيلة للحط من قدره في أعين الجماهير التي يحرص سادة قريش على استبقائها تحت وصايتهم الدينية ، استبقاء للمراكز الاجتماعية والأوضاع الاقتصادية التي يتمتعون بها في ظل تلك الوصاية ،

شأن قريش في هذا شأن أعداء دعوات الحق في كل زمان وفي كل مكان" (١).

وهكذا كان أولئك الملأ من قريش يسخرون به صلى الله عليه وسلم كلما رأوه .

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : "بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى عند البيت ، وأبو جهل وأصحاب له جلوس ، وقد نخرت جزور بالأمس ، فقال أبو جهل : أيكم يقوم إلى سَلَا (٢) جزور بنى فلان فيأخذه فيضعه في كتفى محمد إذا سجد . فانبعث أشقى القوم فأخذه فلما سجد النبي صلى الله عليه وسلم وضعه بين كتفيه ، قال : فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض ... " (٣).

وعن عروة بن الزبير قال قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما : "ما أكثر ما رأيت قريشا أصابوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كانوا يظهرون من عداوته؟ قال : حضرتهم وقد اجتمع أشرفهم يوما في الحجر فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : مارأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط : سفه أحلامنا ، وشتم آبائنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم . أو كما قالوا . فبينما هم في ذلك إذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل يمشى حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفا بالبيت ، فلما مر بهم غمزوه ببعض القول . قال : فعرفت ذلك في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : ثم مضى فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفت ذلك في

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٥٦٥ .

(٢) السَلَا : اللفاقة التي يكون فيها الولد في بطن الناقة وسائر الحيوان ، وهي من

الآدمية المشيمة . ينظر شرح النووى على صحيح مسلم ١٢/١٥١ .

(٣) الحديث رواه البخارى في كتاب الوضوء ، باب إذا ألقى على ظهر المصلى قدر أو

جيفة لم تفسد عليه صلاته ١/٩٤-٩٥ ، ومسلم - واللفظ له - في كتاب الجهاد ،

باب مالقى النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين ١٢/١٥١-١٥٣ .

وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها ، فوقف ثم قال : أتسمعون يامعشر قريش؟ أما والذي نفسى بيده لقد جئتكم بالذبح . قال فأخذت القوم كلمته حتى مامنهم رجل إلا كأنا على رأسه طائر واقع ، حتى إن أشدهم فيه وصاة^(١) قبل ذلك ليرفؤه^(٢) بأحسن ما يجد من القول ، حتى إنه ليقول : انصرف يا أبا القاسم فوالله ما كنت جهولا . قال : فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم ، فقال بعضهم لبعض : ذكرتكم ما بلغ منكم ، وما بلغكم عنه حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه . فبينما هم في ذلك طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فوثبوا إليه وثبة رجل واحد ، وأحاطوا به يقولون : أنت الذى تقول كذا وكذا؟ لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، أنا الذى أقول ذلك . فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجمع رداءه . قال : فقام أبو بكر رضى الله عنه دونه وهو يبكى ويقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله؟ ثم انصرفوا عنه . فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشا نالوا منه قط^(٣) .

وقال ابن إسحاق : "كان عظماء المستهزئين - كما حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير - خمسة نفر من قومهم ، وكانوا ذوى أسنان وشرف في قومهم : من بنى أسد : الأسود بن المطلب ، ومن بنى زهرة : الأسود بن عبد يغوث ، ومن بنى مخزوم : الوليد بن المغيرة ، ومن بنى سهم العاص بن وائل ، ومن بنى خزاعة : الحارث بن الطلائفة . فلما تبادوا في

(١) يفتح الواو والصاد : أى وصية على إيدائه . ينظر بلوغ الأمانى ٢٠/٢١٩ .

(٢) "أى يسكنه ويرفق به ويدعو له" . النهاية ٢٤١/٢ .

(٣) رواه ابن إسحاق قال : حدثني يحيى بن عروة بن الزبير عن أبيه عروة . سيرة ابن

هشام ١/٢٢١-٢٢٢ ، وأحمد : الفتح الربانى ٢٠/٢١٩-٢٢٠ ، والبيهقى فى الدلائل

٢/٢٧٥-٢٧٦ ، قال الهيثمى : فى الصحيح طرف منه ، رواه أحمد وقد صرح

ابن إسحاق بالسماح وبقيّة رجاله رجال الصحيح . مجمع الزوائد ٦/١٠ ، وقال

شاعر : إسناده صحيح . المسند ١١/٢٢٧ . وينظر : البداية ٣/٦١ ، السيرة الحلبية

الشر وأكثرُوا برسول الله صلى الله عليه وسلم الاستهزاء أنزل الله تعالى عليه :

{فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين . إنا كفيناك المستهزئين . الذين يجعلون مع الله إلهًا آخر فسوف يعلمون} (١) " (٢) .

هذه الروايات وأمثالها تبين عظم ما كان يلاقه رسولنا صلى الله عليه وسلم من السخرية والاستهزاء ، والتهمك والغمز ، من أولئك الملائم قريش ، وتكرارهم لذلك اللون من الإيذاء النفسى بمظاهر متعددة ، وصور مختلفة .

وإن هذا الاستهزاء من الملائم الكافرين ، وتلك السخرية منهم كانت تشمل أيضا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المؤمنين بدعوته المتمسكين بدينه رضى الله عنهم ، كما قال الله سبحانه وتعالى :

{زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا ...} (٣) .

وقال عز وجل :

{إن الذين أجمعوا كانوا من الذين آمنوا يضحكون . وإذا مروا بهم يتغامزون . وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين} (٤) .

والآية الكريمة تحكى بعض مظاهر الإجمام من أولئك المستكبرين من قريش ، حين ينتهزون فرصة مرور طائفة من المؤمنين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهم بأنديتهم ومجالسهم فيتضحكون فيما بينهم بتلك الفئة المؤمنة ، ويغمز بعضهم لبعض - إشارة بالعين أو حركة باليد سخرية وتهكما بالمؤمنين .

(١) سورة الحجر : آية ٩٤-٩٦

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١٤/٢-١٥ ، وينظر : دلائل النبوة للبيهقى ٣١٦/٢-٣١٧ البداية ١٣١/٣ ، السيرة الحلبية ٥٠٨/١-٥١٨ ، تفسير الطبرى ١٤-٦٩-٧٠ ، تفسير ابن كثير ٥٥٩/٢ ، تفسير فتح القدير ١٤٤/٣-١٤٥ ، سبل الهدى والرشاد ٦٠٥/٢-٦١٨ .

(٣) سورة البقرة : من آية ٢١٢

(٤) سورة المطففين : آية ٢٩-٣١

قال في الظلال :

"إنهم كانوا يضحكون من الذين آمنوا استهزاء بهم وسخرية منهم ،
 إما لفقرهم ورثاثة حالهم ، وإما لضعفهم عن رد الأذى ، وإما لترفعهم عن
 سفاهة السفهاء ، فكل هذا مما يثير ضحك الذين أجرموا ، وهم يتخذون
 المؤمنين مادة لسخريتهم أو فكاختهم المرذولة ، وهم يسلطون عليهم الأذى ،
 ثم يضحكون الضحك اللئيم الوضيع مما يصيب الذين آمنوا وهم صابرون
 مترفعون متجملون بأدب المؤمنين .

{وإذا مروا بهم يتغامزون} يغمز بعضهم لبعض بعينه أو يشير بيده أو
 يأتي بجرعة متعارفة بينهم للسخرية من المؤمنين ، وهى حركة وضيعة واطية
 تكشف عن سوء الأدب والتجرد من التهذيب بقصد إيقاع الانكسار فى قلوب
 المؤمنين ، وإصابتهم بالخجل والربكة ، وهؤلاء الأوغاد يتغامزون عليهم
 ساخرين .

{وإذا انقلبوا إلى أهلهم} بعدما أشبعوا نفوسهم الصغيرة الرديئة من
 السخرية بالمؤمنين وإيذائهم {انقلبوا فكهين} راضين عن أنفسهم مبتهجين بما
 فعلوا مستمتعين بهذا الشر الصغير الحقيق" (١).

ومن الأمثلة على هذا التهكم بالصحابة رضى الله عنهم مارواه خباب
 بن الأرت رضى الله عنه قال : "جئت العاصى بن وائل السهمى أتقاضاه
 حقلى عنده ، فقال : لأعطيك حتى تكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم .
 فقلت لا حتى تموت ثم تبعث . قال وإنى لميت ثم مبعوث؟ قلت : نعم . قال
 : إن لى هناك مالا وولدا فأقضيكه ، فنزلت هذه الآية {أفرايت الذى كفر
 بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا} (٢)" (٣).

(١) فى ظلال القرآن ٣٨٦٠-٣٨٦١/٦ ، وينظر تفسير البغوى ٤٦٢/٤ .

(٢) سورة مريم : آية ٧٧

(٣) رواه البخارى فى كتاب التفسير ، باب {أفرايت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين
 مالا وولدا} ١٧٦٠-١٧٦١/٤ ، ومسلم فى كتاب صفة القيامة ، باب سؤال اليهود
 النبى صلى الله عليه وسلم عن الروح ١٣٨/١٧ .

والملاحظ هنا أن العاصي بن وائل لا يكتفى بالسخرية بخباب رضى الله عنه حتى يستهزىء بالإسلام نفسه ، ويتهكم بما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم من عقيدة البعث والجزاء .
ثانياً : الاستهانة والازدراء والغلظة فى الخطاب .

يستهين الملائكة المكذبون عادة برسول الله عليهم السلام وأتباعهم من المؤمنين ، ويشعرونهم بالاحتقار والتنقص والازدراء ، ويقللون من قيمتهم ، ويخفضون من شأنهم ، ويضعون من مكانتهم ، سواء كان هذا فى مواجهتهم أو من ورائهم أمام الجماهير من الناس .

وهم يحاولون بذلك الحيلولة بين تلك الجماهير وبين الرسل عليهم السلام ، خشية التأثير بما جاؤوا به من الدين الصحيح عن الله رب العالمين . كما يستهدف الملائكة من ذلك توهين معنويات الرسول عليه السلام ، والتأثير السلبى فيه ، والضغط النفسى عليه ، حتى يتوقف عن الحركة بدين الله سبحانه ، والحال نفسه بالنسبة للمؤمنين .

إن صور هذا اللون من الإيذاء كثيرة فى حياة الرسل عليهم السلام ، ومن ذلك ما يفهم من قول الله سبحانه على لسان نوح عليه السلام :
 {قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا . فلم يزدتهم دعائي إلا فرارا .
 وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا
 واستكبروا استكبارا} (١) .

فنوح عليه السلام يشتكى إلى ربه سبحانه هو انه على المكذبين من قومه ، ويذكر فى شكواه مظاهر استهانة الكافرين به عليه السلام ، فهم حتى لا يستمعوا إلى حديثه وهو يدعوهم إلى دين الله تعالى يجعلون أصابعهم فى آذانهم ، ويغطون وجوههم بثيابهم .

ولما بلغهم عليه السلام رسالات ربه ، ونصح لهم ، وعرض الحجج والبراهين على أن ماجاء به هو الحق والهدى ، عجزوا فى مقابل ذلك عن

إقامة الحجّة على باطلهم ، وقصروا عن مناظرته بالأدلة ، وانقطعوا عن مواجهته بالبراهين على ما هم فيه من الضلال ، ولم يكن أمامهم حينذاك إلا الشدة في الخطاب ، والغلظة في الجواب ، رغبة منهم في قطع سبيل الحجّة وقفل باب الحوار وإظهارا منهم للاستهانة بنبي الله نوح عليه السلام وماتوعدهم به على مخالفة أمر الدين :

{قالوا يانوح قد جادلنا فأكثرنا جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين} (١).

"عند هذا الحد كان الملأ من قوم نوح عليه السلام قد يسوا من مناهضة الحجّة بالحجّة ، فإذا هم على عادة طبقتهم قد أخذتهم العزة بالاثم ، واستكبروا أن تغلبهم الحجّة ، وأن يذعنوا للبرهان العقلي والفطري ، وإذا هم يتركون الجدل إلى التحدى {قالوا يانوح قد جادلنا فأكثرنا جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين} إنه العجز يلبس ثوب القدرة ، والضعف يرتدى رداء القوة ، والخوف من غلبة الحق يأخذ شكل الاستهانة والتحدى" (٢).

وكما قابلوا نبيهم نوحا عليه السلام بهذه الاستهانة فقد أطلقوا على أتباعه المؤمنين عبارات الاسترذال والاحتقار ، والازدراء والتنقص كما قال الله سبحانه وتعالى :

{فقال الملأ الذين كفروا من قومه مانراك إلا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ...} (٣).

{قالوا أنؤمن لك واتبعك الأراذلون} (٤).

وفي قصة هود عليه السلام كان جواب المكذبين له يحمل في طياته الاستهانة به عليه السلام ، والاستخفاف بما جاء به من الدعوة والدين ، وبما

(١) سورة هود عليه السلام : آية ٣٢

(٢) في ظلال القرآن ١٨٧٥/٤ .

(٣) سورة هود عليه السلام : من آية ٢٧

(٤) سورة الشعراء : آية ١١١

أورده من الحجج والبراهين . قال تعالى :

{قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين} (١).

فهم يشعرونه بعدم اكترائهم لما يقول ، فإن وعظهم ونصحهم وأقام لهم الحجة ، أو سكت عن الوعظ والبيان ، فالأمر لديهم سيان .

قال الألوسي : "{قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين} فإننا لانرعى عما نحن عليه . قالوا ذلك على سبيل الاستخفاف وعدم المبالاة بما خوفهم به عليه السلام ، وعدلوا عن : أم لم تعظ الذى يقتضيه الظاهر للمبالغة فى بيان قلة اعتدادهم بوعظه عليه السلام" (٢).

ويحكى القرآن الكريم أيضا قول المكذبين بنى الله صالح عليه السلام {فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر . ألقى الذكر عليه من بيننا ...} (٣).

ويستشف من مقولتهم الاستهانة بصالح عليه السلام ، والازدراء له ، والتوهين من شأنه ، والتقليل من مكانته ، ومن ثم فهو لا يستحق اختصاصه بالنبوة دون الأكابر والزعماء .

ويسير المستكبرون من أهل مدين على النهج ذاته :

{قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز} (٤).

هذه المقولة منهم تحوى أربع عبارات تحمل فى ثناياها معانى الاستهانة والتنقص ، والازدراء والاحتقار :

الأولى منها قولهم {ما نفقه كثيرا مما تقول} أى لانفهمه ، وهم فى الواقع يفهمون ما يقول ، ولكنهم يقصدون إشعاره بأنهم ليسوا فى حاجة إلى استقبال كلامه ، أو التأمل فى المنهج الذى يعرضه ، أو اتباع الحق الذى

(١) سورة الشعراء : آية ١٣٦

(٢) تفسير روح المعانى ١١١/١٩ .

(٣) سورة القمر : من الآيات ٢٤-٢٥

(٤) سورة هود عليه السلام : آية ٩١

يحملة ، مما يشهد له الدليل والبرهان ، وليس له عندهم قيمة أو مكانة تحفزهم للاهتمام بقوله ، أو تدبر ما يأتي به عليه السلام .

والثانية قولهم {وإننا لنراك فينا ضعيفا} "أى لاقوة لك تقدر بها على أن تمنع نفسك منا وتتمكن بها من مخالفتنا" (١).

والثالثة قولهم {ولولا رهطك لرجمناك} وهم بهذه أيضا يؤكدون له تنقصهم لشخصه ، واستهانتهم بأمره ، وتقليلهم من خطره ، ولذا يذكرون له بأن المانع من قتله وإنهاء تحركه ليس هو فى شخصه ، إذ لاقيمة له عندهم ولا موقع له فى صدورهم ، وإنما المانع هو عشيرته التى لازال لها الاحترام عندهم .

والرابعة قولهم {وماأنت علينا بعزيز} "أى ماأنت علينا بغالب ولاقاهر ولاممتنع" (٢) ويريدون بها كذلك التأكيد على هوانه وضعته فى أعينهم . وفى قصة موسى عليه السلام نلحظ أيضا أمثلة للاستهانة من عدو الله فرعون بموسى عليه السلام ومن اتبعه من المؤمنين .

ففى اللقاءات الأولى بينهما حين دعاه موسى عليه السلام إلى الله تعالى كان الجواب ماحكاه القرآن الكريم :

{قال ألم نريك فينا وليدا ، ولبثت فينا من عمرك سنين . وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين} (٣).

والمتأمل فى هذا الجواب من فرعون يلحظ فيه ملامح المن والازدراء لنبي الله موسى عليه السلام .

فهو يمين عليه باحتضانه وتربيته فى قصر فرعون ، وبالسنوات التى قضاه من عمره هناك قبل خروجه إلى مدين ، ثم يذكره - على وجه التوبيخ له والقدح فيه والخط من مكانته - بجاذة القتل التى حصلت للقبطى

(١) تفسير فتح القدير ٥٢٠/٢ .

(٢) تفسير القرطبي ٦١/٩ .

(٣) سورة الشعراء : آية ١٨-١٩ .

والغرض من ذلك كله الاستهانة بموسى عليه السلام ، وإشعاره بأن وضعه بهذا الوصف والحال لا يؤهله لمرتبة النبوة .

ومثال آخر نلاحظه في مقولة فرعون حين حشد الجموع وخطب فيهم كما قال الله تبارك وتعالى :

إونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون . أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين^(١) .

ففرعون يصف نفسه بالخيرية وفى المقابل يزدري بموسى عليه السلام ويصفه بأوصاف يقصد منها احتقاره والاستهانة به عليه السلام أمام الجماهير والخط من مكانته وقدره فى أعين الناس .

فقد نعتة عليه السلام بأنه (مهين) أى ضعيف حقير أو مبتذل ذليل ، فهو من المهانة وهى القلة أو الذلة^(٢) .

ثم ثنى فرعون بوصف آخر : (ولا يكاد يبين) .

قال ابن الجوزى : "أشار إلى عقدة لسانه التى كانت به ثم أذهبها الله عنه ، فكأنه عيره بشيء قد كان وزال ، ويدل على زواله قوله تعالى : {... قد أوتيت سؤلك يا موسى^(٣) ، وكان فى سؤاله {واحلل عقدة من لساني^(٤) ، وقال بعض العلماء : ولا يكاد يبين الحجة ولا يأتي ببيان يفهم^(٥) .

وعلى كل حال فإن مقصد فرعون هو الترويج على العامة بتصوير موسى عليه السلام فى أذهانهم رجلا ضعيفا حقيرا ، لا قيمة له ولا شأن ، ومن ثم فهو أولى بالتنقص والازدراء لا التصديق والاتباع .

(١) سورة الزخرف : آية ٥١-٥٢

(٢) تفسير روح المعانى ٨٩/٢٥ . وينظر زاد المسير ١٠١/٧ .

(٣) سورة طه : من آية ٣٦

(٤) سورة طه : آية ٢٧

(٥) زاد المسير ١٠١/٧ ، وينظر تفسير ابن كثير ١٣٠/٤ .

ويستهين فرعون وملؤه كذلك بالْمُؤْمِنِينَ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ :

{فَقَالُوا أَنْوْمِنَ لِبَشَرِينَ مِثْلَنَا وَقَوْمِهِمَا لَنَا عَابِدُونَ} (١).

فَأُولَئِكَ الْمُؤْمِنُونَ - فِي نَظَرِ فِرْعَوْنَ وَمَلَأِهِ - لَاعِزٌّ لَهُمْ وَلَا كِرَامَةٌ وَلَا شَأْنٌ لَهُمْ وَلَا قِيَمَةٌ ، بَلْ كَانُوا مُنْقَادِينَ لَنَا خَاضِعِينَ (٢) .
وَكَذَلِكَ تَعَرَّضَ رَسُولُنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلتَّوْهِينِ وَالتَّنْقِيسِ ، سِوَاءَ لِمَنْ شِئْنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ ، أَوْ لَمَّا جَاءَ بِهِ .

يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :

{وَإِذَا تَلَى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرٍ ...} (٣).

وَالْمَعْنَى بِالْإِشَارَةِ الْأُولَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَبِالْأُخْرَى الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ ، وَالْإِشَارَةُ فِي الْمَوْضِعِينَ دُونَ التَّصْرِيحِ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُسْتَكْبِرِينَ تَحْقِيقَ لِمَنْ شِئْنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ ، وَحِطَّ لَمَّا جَاءَ بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ (٤) .

وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ :

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدلِكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبئُكُمْ إِذَا مَزَقْتُمْ كُلَّ مَمزَقٍ أَنْتُمْ لَنفَى خَلْقٍ جَدِيدٍ} (٥) .

وَهُمْ يَعْنُونَ بِالرَّجُلِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمَنْ تَمَّ يَظْهَرُ مَا تَحْوِيهِ مَقُولَتِهِمْ هَذِهِ مِنَ الْاسْتَهْزَاءِ وَالتَّهْكِيمِ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ أَمَامَ الْعَوَامِّ مِنَ النَّاسِ ، وَمَا تَحْوِيهِ كَذَلِكَ مِنَ التَّجْهِيلِ وَالتَّنْقِصِ وَالْإِزْدِرَاءِ حِينَ يَعْبرُونَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِلَفْظِ (رَجُلٍ) كَأَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَهُ .

(١) سورة المؤمنون : آية ٤٧

(٢) ينظر تفسير البيضاوي ١٠٥/٢ .

(٣) سورة سبأ : من آية ٤٣

(٤) ينظر تفسير روح المعاني ١٥٢/٢٢ .

(٥) سورة سبأ : آية ٧

قال الألوسى : " والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بذلك من باب التجاهل ، كأنهم لم يعرفوا منه صلى الله عليه وسلم إلا أنه رجل ، وهو عليه الصلاة والسلام عندهم أظهر من الشمس " (١).

ونلاحظ ذلك أيضا في قول الله سبحانه :

{وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ...} (٢).

فهم يستهينون به عليه الصلاة والسلام حين يكتفون بالإشارة إليه دون التصريح .

وهم يتهكمون به أيضا حين يصفونه بالرسول فى الوقت الذى ينكرون رسالته أصلا (٣).

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم - إضافة إلى ماسبق - يقابل من الملاء غلظة فى الخطاب ، وشدة فى الجواب ، ومن ذلك موقف أبى لهب من رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جهر بالدعوة وأعلنها أمام رجال قريش .

يقول ابن عباس رضى الله عنهما : " لما نزلت {وأندر عشيرتك الأقربين} (٤) صعد النبى صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادى : يا بنى رفهر ، يا بنى عدى لبطون قريش حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك إلا صدقا . قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فقال أبو لهب : تبأ لك سائر اليوم ،

(١) تفسير روح المعاني ١٠٩/٢٢ .

(٢) سورة الفرقان : من آية ٧ .

(٣) ينظر تفسير روح المعاني ٢٣٧/١٨ .

(٤) سورة الشعراء : آية ٢١٤ .

ألهذا جمعتنا؟ فزلت {تبت يدا أبي لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب} (١)" (٢).

وينطق كلام أبي لهب كما هو ملاحظ بالسب والشم ، والتوبيخ والغلظة ، كما ينطق بالاستهانة والازدراء للدعوة التي يجمعهم صلى الله عليه وسلم من أجلها .

فهى - فى زعمه - قضية تافهة لاتستحق أن يجمعهم لها بهذه الصورة ، ويقدم لها بتلك المقدمة .

ومن ذلك أيضا ملاقاه عليه الصلاة والسلام يوم خرج إلى الطائف والتقى بزعمائها داعيا إياهم إلى الله تعالى ، وإلى نصرة دينه سبحانه . فعن عائشة رضى الله عنها "أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال : لقد لقيت من قومك مالقيت ، وكان أشد مالقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل (٣) بن عبد كلال ، فلم يجبنى إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهى (٤) ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب (٥) ... " (٦).

(١) سورة المسد : آية ١-٢

(٢) سبق تخريجه ص ١١٧ .

(٣) ابن عبد ياليل : بكسر اللام ، وهو من أكابر أهل الطائف من ثقيف ، واسمه كنانة . ينظر فتح البارى ٦/٣٨٨ .

(٤) "أى على الجهة المواجهة لى" . فتح البارى ٦/٣٨٨ .

(٥) "أى لم أوطن لنفسى وأتنبه لحالى وللوضع الذى أنا ذاهب إليه ، إلا وأنا عند قرن الثعالب لكثرة همى الذى كنت فيه .

قال القاضى : قرن الثعالب هو قرن المنازل وهو ميقات أهل نجد" . شرح النووى على صحيح مسلم ١٢/١٥٥ .

(٦) رواه البخارى فى كتاب بدء الخلق ، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة فى السماء ، فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ماتقدم من ذنبه ٣/١١٨٠ ، ومسلم فى كتاب الجهاد ، باب مالقى النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين ١٢/١٥٤-١٥٥ .

وفي رواية ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي زيادة تفصيل للحادثة إذ قال : " لما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ، وعمد إلى نفر من ثقيف ، وهم يومئذ سادة ثقيف وأشرفهم ، فجلس إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعاهم إلى الله ، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام ، فقال له أحدهم : هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك ، وقال الآخر : أما وجد الله أحدا يرسله غيرك ، وقال الثالث والله لا أكلمك أبدا ، لئن كنت رسولا من الله كما تقول لآنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندهم وقد يش من خير ثقيف ، وقد قال لهم - فيما ذكر لي - إذ فعلتم ما فعلتم فاكنتموا عني ، وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ قومه عنه ، فيذئروهم^(١) ذلك عليه ، فلم يفعلوا بل أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس ، وألجؤوه إلى حائط لعُتْبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، وهما فيه ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه "^(٢).

لقد اجتمع على رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك الحادثة ثلاث مجابهات متوالية من رؤساء ثقيف ، كلها تحز في نفسية رسول الله صلى الله عليه وسلم وتؤثر في كيانه ، وتصيبه بالهم كما صرح بذلك صلى الله عليه وسلم :

(١) أى يغريهم ويجرؤهم عليه . ينظر ترتيب القاموس المحيط ٢٤٦/٢ .

(٢) رواه ابن إسحاق قال : حدثني يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب القرظي . السيرة النبوية لابن هشام ٢٥/٢-٢٦ (مع اختصار يسير) ، والبيهقي في الدلائل من طريق موسى بن عقبة عن الزهري ٤١٥/٢-٤١٦ مع اختلاف في بعض الألفاظ وينظر : زاد المعاد ٣١/٣-٣٢ ، ٩٨/١-٩٩ ، البداية ٣/١٦٦ ، السيرة الحلبية ٥٢/٢ ، سبل الهدى والرشاد ٥٧٦/٢-٥٧٧ .

قال الألباني في تخريج أحاديث فقه السيرة للغزالي ص ١٢٦ "أخرج هذه القصة ابن إسحاق بسند صحيح عن محمد بن كعب القرظي مرسلا لكن قوله (إن أيتم فاكنتموا على ذلك) وقوله (اللهم وإليك أشكو ...) ذكرهما بدون سند ."

أولها : عبارات الاستهانة والتنقص ، والازدراء والتهكم ، والخط والغمط لشخصه عليه الصلاة والسلام (هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك ، أما وجد الله أحدا يرسله غيرك ، والله لا أكلمك أبدا) كما يلحظ فيها الغلظة في الخطاب والشدة في الجواب .

وثانيها : رفضهم لكتمان خير مجيئه صلى الله عليه وسلم إليهم ، وعدم استجابتهم له في ذلك ، وهم يعلمون أن انتشار الخبر في مكة سيزيد من توهين شأنه صلى الله عليه وسلم لدى الملأ من قريش ، ويجعله في موقف ضعف أمامهم يزيدهم جرأة وشماتة به ، ويغريهم بزيادة الضغط عليه أملا في كسر شوكته عليه الصلاة والسلام .

وذلك أمر يؤثر نفسيا عليه صلى الله عليه وسلم .

وثالثها : إغراء أولئك الرؤساء من ثقيف لعبيدهم وسفهاءهم ، ليتعرضوا له عليه الصلاة والسلام ، وينالوا منه سبا وشتما ، وصياحا وإيذاء ، ولاشك أن لذلك أيضا دوره في التأثير النفسى عليه صلى الله عليه وسلم .

ولما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، ولقى من أهلها الاستجابة والقبول ، بقى أحد زعمائها وأكابرها : عبد الله بن أبي بن سلول على كفره وشركه وذلك قبل أن يدخل في الإسلام نفاقا .

وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم حينذاك بدعوته إلى الله تعالى فرفض الاستجابة ، ولم يكتف بذلك بل كان جوابه في مواجهة دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم يتسم بالاستهانة والغلظة .

فعن أسامة بن زيد رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب على حمار عليه قطيفة فدكية^(١) ، وأسامة وراءه ، يعود سعد بن

(١) "أى كساء غليظ منسوب إلى فدك بفتح الفاء والذال ، وهى بلد مشهور على مرحلتين من المدينة". فتح البارى ٢٩٣/٨ .

عبادة في بني حارث^(١) بن الحزرج قبل وقعة بدر ، فسارا حتى مرا بمجلس فيه عبد الله بن أبي سلول ، وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبي ، فإذا المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود ، وفي المسلمين عبد الله بن رواحة ، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمّر ابن أبي أنفه بردائه ، وقال لاتغبروا علينا . فسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم ، ثم وقف فتزل فدعاهم إلى الله ، وقرأ عليهم القرآن فقال له عبد الله بن أبي ابن سلول أيها المرء لأحسن مما تقول إن كان حقا فلا تؤذنا به في مجالسنا فمن جاءك فاقصص عليه^(٢) .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : لو أتيت عبد الله بن أبي . قال : فانطلق اليه وركب حمارا ، وانطلق المسلمون ، وهى أرض سبخة^(٣) ، فلما أتاه النبي صلى الله عليه وسلم قال : وإليك عنى فوالله لقد آذانى نتن حمارك^(٤) .

ومن خلال هذين الموقفين تتضح المواجهة العنيفة ، والجواب الغليظ ، والرد الجافى من ابن أبي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوته ، يظهر ذلك جليا في عباراته (لاتغبروا علينا ، لأحسن مما تقول إن كان حقا فلا تؤذنا به في مجالسنا فمن جاءك فاقصص عليه ، لقد آذانى نتن حمارك) كما يظهر فيها الاستهانة والاستهتار والازدراء ، والتي نلاحظها أيضا في تغطيته لأنفه بردائه وفي مخاطبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله (أيها المرء)

(١) "أى في منازل بني الحارث ، وهم قوم سعد بن عبادة رضى الله عنه" . فتح البارى ٢٩٣/٨ .

(٢) الحديث بتمامه رواه البخارى في كتاب الأدب ، باب كنية المشرك ٢٢٩٢/٥ - ٢٢٩٣ ، ومسلم في كتاب الجهاد ، باب مالقى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من أذى المشركين والمنافقين ١٢-١٥٧-١٥٩ .

(٣) "بفتح السين والباء ، وهى الأرض التى لاتثبت للملوحه أرضها" . شرح النووى على صحيح مسلم ١٥٩/١٢ .

(٤) الحديث بتمامه رواه مسلم في كتاب الجهاد ، باب مالقى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من أذى المشركين والمنافقين ١٢/١٥٩ .

وهو تعبير فيه جفاء وغلظة .

ولما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم كتبه إلى عدد من الملوك كان الرد من بعضهم عنيفا يتضمن معاني الاستهتار والجفوة والاستهانة ، وكان من أولئك كسرى ملك الفرس (١).

فغن ابن عباس رضى الله عنهما "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بكتابه إلى كسرى مع عبد الله بن حذافة السهمي ، فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين ، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى فلما قرأه مزقه" (٢). وكسرى إنما يقصد بهذا التصرف أن يعبر عن استهانتته برسول الله صلى الله عليه وسلم والحط من شأنه ، والازدراء له ولدعوته عليه الصلاة والسلام وفي أسلوبه هذا سفاهة متناهية ، وغلظة واستهتار .

إن هذا اللون من الإيذاء النفسى لرسول الله صلى الله عليه وسلم لحق كذلك المؤمنين بدعوته من أصحابه رضوان الله عليهم ، فقد كان الملأ من قريش ينظرون إليهم نظرة غمط واحتقار واستهانة ، وخصوصا الفقراء والضعفاء منهم ، إذ طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطردهم قائلين له عليه الصلاة والسلام "اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا" (٣) يعنون مجموعة من فقراء الصحابة رضى الله عنهم ، ممن يكثرون مجالسته عليه الصلاة والسلام . وفي رواية أخرى "إننا لانرضى أن نكون أتباعا لهم فاطردهم عنك" (٤).

كما كان الملأ من قريش يوبخون من يتجه إلى الإيمان ، ويطلقون عليه لفظ (الصابىء) ، وينشرون عنه الدعاية السلبية بأن فلانا قد صبا ، وذلك منهم تنفير عن الإسلام وتأثير على نفسيات المؤمنين .

(١) كسرى : لقب لملوك الفرس ، والمقصود هنا أبرويز بن هرمز بن أنوشروان . ينظر فتح البارى ١٠٦/١ ، ١٦٠/٨ .

(٢) رواه البخارى فى كتاب المغازى ، باب كتاب النبى صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر ١٦١٠/٤ ، وهو أيضا فى كتاب الجهاد ، باب دعوة اليهود والنصارى ١٠٧٤/٣ بلفظ (فلما قرأه كسرى حرقه) .

(٣) سبق تخريجه ص ٧٧ .

(٤) رواه ابن ماجه فى كتاب الزهد ، باب مجالسة الفقراء ١٣٨٣/٢ .

(٣٩٦)

المبحث الخامس

الإيذاء البدني

الإيذاء البدني نوع من المجابهة يلجأ إليه الطغاة حين يرون اتساع الدعوة من جهة ، وعدم تأثير أساليبهم الأخرى من جهة ثانية ، بالإضافة إلى شعورهم بالفشل والهزيمة في ميدان الحجّة والبرهان ، فيتعرضون لأجساد الدعاة من الرسل عليهم السلام وأتباعهم من المؤمنين الصادقين ، يصبون عليها ألوان الأذى والاضطهاد والتعذيب ، بغية إثناء الرسل عليهم السلام عن هذا الطريق .. طريق الدعوة ، ودفع المؤمنين إلى أن ينأوا بأنفسهم عن منهج الرسل عليهم السلام ، وتنفير الجماهير من مجرد التفكير برؤوسهم في الاقتراب من دائرة الإيمان ، أو التعبير بألسنتهم عن الرغبة في الانضمام للفتنة المؤمنة ، والاختراط في سلك الدعوة .

"إن التعذيب والتشويه والتنكيل وسيلة الطواغيت في مواجهة الحق الذي لا يملكون دفعه بالحجة والبرهان ، وعدة الباطل في وجه الحق الصريح" (١).

وسأذكر هنا - بمشيئة الله تعالى - نماذج مما تعرض له الرسل عليهم السلام من هذا النوع من الإيذاء ، ثم نماذج أخرى لما تعرض له المؤمنون من أتباع الأنبياء عليهم السلام .

* حاول الملأ من ثمود قتل صالح عليه السلام ، وأحكموا خطتهم لتنفيذ هدفهم ، ولكن الله سبحانه أبطل مكرهم وحفظ نبيه عليه السلام . قال تعالى :

{وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون . قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ماشهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون . ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين} (١).

(١) في ظلال القرآن ١٣٥١/٣ .

(٢) سورة النمل : آية ٤٨-٥١ .

قال ابن كثير : "يجبر تعالى عن طغاة ثمود ورؤسائهم الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلال والكفر وتكذيب صالح عليه السلام ، وآل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة ، وهموا بقتل صالح أيضا بأن يبيتوه في أهله ليلا فيقتلوه غيلة ، ثم يقولوا لأوليائه من أقربيه أنهم ما علموا بشيء من أمره" (١).

وتحركوا للتنفيذ ، ولكن الله سبحانه عصم رسوله من كيدهم ، وحلت العقوبة التدميرية بهم قبل أن يصلوا إليه عليه السلام كما يدل عليه قول الله سبحانه :

{فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين} .

* وفي قصة إبراهيم عليه السلام يتكرر الحال من الملائكة الكذابين ، حين تحرك نبى الله فكسر الأصنام في معبدها وترك كبيرها ، قاصدا بذلك أن يدفعهم للتفكير والتأمل ليصلوا إلى أنها معبودات لا تملك من خصائص الألوهية شيئا .

ولكن أكابر القوم تأخذهم العزة والاستكبار فيأمرؤا بالقبض على إبراهيم عليه السلام :

{قالوا من فعل هذا بالهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلمهم يشهدون} (٢).

ويأتون بإبراهيم عليه السلام معتقلا أمام العامة (لعلمهم يشهدون) . وتبدأ محاكمته ، وقرارهم فيه جاهز سلفا ، ولكنهم أرادوا أن يحسنوا صورتهم ، ويزينوا موقفهم أمام الناس ، ويظهروا بمظهر الباحثين عن الحق الحاكمين بالعدل .

ومع أن إبراهيم عليه السلام استعلى عليهم بالحجة والبرهان ، وظهر جوابه واضحا ، وانتصر الحق معه ، وأصيب الباطل بالخذلان :

(١) تفسير ابن كثير ٣/٣٦٧ .

(٢) سورة الأنبياء عليهم السلام : آية ٥٩-٦١

{قالوا أنت فعلت هذا بالهتتا يا إبراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون . فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون . قال أف تعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم . أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلاتعقلون}{(١). ولكنهم - مع ذلك كله - أصروا على الباطل ، وتحركوا لمجابهة الحجة بالحديد والنار ، وقرروا نصر باطلهم بالقهر والتعذيب والقتل لنبي الله إبراهيم عليه السلام :

{فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه ...}{(٢).

{قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين}{(٣).

{قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم}{(٤).

ومن هذه الآيات الثلاث نستشف مايلي :

أولا : أن هدفهم من هذا الحكم الجائر على إبراهيم عليه السلام مصرح به فى حيثيات حكمهم (وانصروا آلهتكم) فهو إذن نصر باطلهم ، والحفاظ على ضلالهم الموروث ، ومنهجهم السائد ، القائم على الشرك وعبادة غير الله سبحانه ، ومن ثم الإبقاء على مصالح الكبراء ومراكزهم . ثانيا : أن المحاكمة كانت جائزة ظالمة باطلة ، إذ أن إبراهيم عليه السلام قد أقام عليهم الحجة ، وأزهد باطلهم بالبرهان ، ولكنهم بدلا من اتباع الحق معه عليه السلام بعد أن ظهر لهم قرروا الرد عليه بجواب آخر مضمونه البطش والتنكيل ، ولذا قال تعالى :

{فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه ...}.

فكأنه لم يكن لهم فى نهاية المطاف جواب له عليه السلام إذ سطح الحق بقوة البرهان ، وانقطعوا وغلبوا فى ميدان المناظرة والجدال ، ولم يبق

(١) سورة الأنبياء عليهم السلام : آية ٦٢-٦٧

(٢) سورة العنكبوت : من آية ٢٤

(٣) سورة الأنبياء : آية ٦٨

(٤) سورة الصافات : آية ٩٧

لهم دليل ولا حجة ، فاختاروا أن يردوا عليه بالحديد والنار ، ويجرّكوا لمجابهته القوة والسلطان .

قال القرطبي : "ثم أمر نمرود^(١) بإبراهيم فألقى في النار ، وهكذا عادة الجبارة فإنهم إذا عورضوا بشيء وعجزوا عن الحجّة اشتغلوا بالعقوبة"^(٢). وقال صاحب الظلال : "واندفع أصحاب الأمر والنهي فيهم يزاولون طغيانهم في صورته الغليظة {قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم} ، إنه منطق الحديد والنار الذي لا يعرف الطغاة منطلقا سواه عندما تعوزهم الحجّة وينقصهم الدليل ، وحينما تخرجهم كلمة الحق الخالصة ذات السلطان المبين"^(٣).

ثالثا : يظهر أن الآراء بينهم تعددت في كيفية قتله عليه السلام بعدما قرروا ذلك ، فمن قائل بتحريقه بالنار ، وقائل بقتله بطريقة أخرى ، ويبدو أن الرأي استقر أخيرا على رميه في النار عليه السلام^(٤).

ولعلمهم اختاروا قتله بهذه الوسيلة لشدتها وفضاعتها وعظم التنكيل بها.

قال الفخر الرازي : "إنما اختاروا المعاقبة بالنار لأنها أشد العقوبات ولهذا قيل (إن كنتم فاعلين) أي إن كنتم تنصرون آلهتكم نصرا شديدا فاختاروا أشد العقوبات وهي الإحراق"^(٥).

رابعا : بين الله عز وجل طريقة تنفيذهم قرار القتل تحريقا بالنار بقوله سبحانه :

(١) النمرود بن كنعان هو - كما قيل - ملك بابل بأرض العراق على عهد نبي الله إبراهيم عليه السلام . ينظر : قصص الأنبياء لابن كثير ١٧١/١ ، مع الأنبياء في القرآن لعفيف طيارة ص ١١٨، ١٠٧ .

(٢) تفسير القرطبي ١٨٥/٣ .

(٣) في ظلال القرآن ٢٩٩٣/٥ .

(٤) ينظر تفسير البحر المحيط ١٤٨/٧ .

(٥) التفسير الكبير ١٨٨/٢٢ ، وينظر أضواء البيان ٥٨٨/٤ .

{قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم} .

فالأية تبين أنهم بنوا لتنفيذ الحكم بنيانا ، وملاؤه حطبا ليتوقد نارا ، حتى إذا اشتعل البنيان ، واضطربت ناره ، وتأجج لهيبه ، وعلا شرره ، قذفوا بإبراهيم عليه السلام .

والتعبير القرآنى فى وصف النار تتأجج فى ذلك البنيان وتتوقد فيه بـ{الجحيم}(١) يدل على عظم مافعلوه ، وضخامة مажهزوه من الوقود فى ذلك البنيان لإحراق إبراهيم عليه السلام .

خامسا : لم ينجح أولئك الطغاة فى تنفيذ القرار ، إذ عصم الله تبارك وتعالى نبيه عليه السلام ، وحفظه بمعجزة إلهية بدلت حرارة النار وحرقتها بردا وسلاما على إبراهيم عليه السلام :

{قلنا يانار كونى بردا وسلاما على إبراهيم . وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخرين}(٢) .

{.. فأنجاه الله من النار إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون}(٣) .

{وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين}(٤) .

وخرج إبراهيم عليه السلام من النار سليما معافى لم يصبه من خطرهما شىء . وتلك قدرة الله سبحانه .

* وهذا فرعون لعنه الله يعرض على الملأ من حوله فكرة قتل موسى عليه السلام كما قال تعالى :

(١) قال ابن جرير : "الجحيم عند العرب : جمر النار بعضه على بعض ، والنار على النار" . تفسير الطبرى ٧٥/٢٣ . وينظر تفسير البيضاوى ٢٩٨/٢ ، معانى القرآن للزجاج ٣١٠/٤ .

(١٢) سورة الأنبياء عليهم السلام : آية ٦٩-٧٠

(٣) سورة العنكبوت : من آية ٢٤

(٤) سورة الصافات : آية ٩٨

{وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد}{(١)}

قال ابن كثير : "هذا عزم من فرعون لعنه الله تعالى على قتل موسى عليه السلام أي قال لقومه دعوني حتى أقتل لكم هذا (وليدع ربه) أي لأبالي منه" (٢).

تلك إرادة كانت لفرعون ، ولكن الله سبحانه لم يكتب له التمكين حفظا لرسوله عليه السلام .

* ويخبرنا القرآن الكريم أيضا أن عيسى عليه السلام تعرض لمحاولة القتل على يد أعداء الله من يهود ، ولكن الله سبحانه نجاه منهم بقدرته ، ورفعهم إلى السماء بإرادته عز وجل .

قال سبحانه :

{ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين}{(٣)}

وقال تعالى :

{بما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا . وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً . وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وماقتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وماقتلوه يقينا . بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً}{(٤)}

وفي الآيات إشارة كذلك إلى أن هؤلاء اليهود من طبائعهم قتل الأنبياء عليهم السلام (وقتلهم الأنبياء بغير حق) .

(١) سورة غافر : آية ٢٦

(٢) تفسير ابن كثير ٧٦/٤ .

(٣) سورة آل عمران : آية ٥٤

(٤) سورة النساء : آية ١٥٥-١٥٨

وقد ذكر القرآن الكريم هذا الاتجاه لليهود في تعاملهم مع الأنبياء عليهم السلام في أكثر من موضع ، كما في قول الله جل وعلا :

{... وضربت عليهم الذلة والمسكنة وبأؤوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ...}{(١)}

{ولقد آتينا موسى الكتاب وقفيننا من بعده بالرسول وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون}{(٢)}

{وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين}{(٣)}

{إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم}{(٤)}

{.. وبأؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ...}{(٥)}

{لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ...}{(٦)}

{لقد أخذنا ميثاق بنى إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون}{(٧)}

(١) سورة البقرة : من آية ٦١

(٢) سورة البقرة : آية ٨٧

(٣) سورة البقرة : آية ٩١

(٤) سورة آل عمران : آية ٢١

(٥) سورة آل عمران : من آية ١١٢

(٦) سورة آل عمران : من آية ١٨١

(٧) سورة المائدة : آية ٧٠

وهذه الآيات تؤكد أن قتل الأنبياء عليهم السلام هو مما اعتاده أعداء الله تعالى من اليهود في مجابتهم للرسول عليهم السلام وما جاؤوا به من البيئات والهدى .

* أما رسولنا صلى الله عليه وسلم فقد تعرض لأنواع من الأذى . يقول عليه الصلاة والسلام : "لقد أوذيت في الله وما يؤذَى أحد ، ولقد أخفت في الله وما يخاف أحد" (١).

وأعرض فيما يلي بعض الأمثلة لما تعرض له عليه الصلاة والسلام من ألوان الإيذاء البدنى :

(١) إلقاء الأقدار :

فقد كان بعض المجرمين من قريش ينتهز فرصة صلاته صلى الله عليه وسلم ليلقى على ظهره شيئاً مما يتقذره الناس في العادة .

يقول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : "بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوس ، وقد نخرت جزور بالأمس ، فقال أبو جهل : أيكم يقوم إلى سلا جزور بنى فلان فيأخذه فيضعه في كتفى محمد إذا سجد . فانبعث أشقى القوم فأخذه ، فلما سجد النبي صلى الله عليه وسلم وضعه بين كتفيه ، قال : فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض ، وأنا قائم أنظر ، لو كانت لى منعة (٢) طرحته عن ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والنبي صلى الله عليه وسلم ساجد ما يرفع رأسه ، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة ، فجاءت وهى جويرية

(١) الحديث رواه الترمذى عن أنس رضى الله عنه في كتاب صفة القيامة ٤/٦٤٥ وقال هذا حديث حسن غريب ، وابن ماجه واللفظ له في المقدمة ، باب فضل سلمان وأبي ذر والمقداد ١/٥٤ ، وصححه الألبانى كما في مشكاة المصابيح للخطيب التبريزى ٣/١٤٤٦ ، وصحيح سنن ابن ماجه ١/٣١ .

(٢) بفتح النون : أى لو كان لى قوة تمنع أذاهم ، أو كان لى عشيرة بمكة تمنعنى . ينظر شرح النووى على صحيح مسلم ١٢/١٥٢ .

فطرحته عنه ، ثم أقبلت عليهم تشتمهم ، فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم ... " (١) .

وفي إحدى روايات البخارى : "إذ قال قائل منهم : ألا تنظرون إلى هذا المرأى ، أيكم يقوم إلى جزور آل فلان فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاها فيجسء به ، ثم يهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه؟ فانبعث أشقاهم ... " (٢) .

وفي بعض الروايات تصريح بأشقى القوم الذى تولى تنفيذ المهمة الآتية ، وهو عَقبَةُ بن أبى مَعِيْط (٣) أحد الملاء من قريش (٤) .
(ب) الخنق :

عن عروة بن الزبير قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما : "أخبرنى بأشد ما صنع المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بفناء الكعبة إذ أقبل عقبه ابن أبى معيط ، فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولوى ثوبه فى عنقه فخنقه خنقا شديدا ، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ، ودفع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم" (٥) .

(١) سبق تخريجه ص ٣٨٠ .

(٢) صحيح البخارى ، أبواب سترة المصلى ، باب المرأة تطرح عن المصلى شيئا من الأذى ١٩٤/١ .

(٣) عقبه بن أبى معيط : بضم الميم وفتح العين . الاكمال ٢٧٠/٧٤ .

(٤) ينظر صحيح البخارى ، أبواب الجزية ، باب طرح جيف المشركين فى البئر ١١٦٣/٣ ، صحيح مسلم ، كتاب الجهاد ، باب مالقى النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين ١٥٣/١٢ .

(٥) رواه البخارى فى كتاب التفسير ، باب تفسير سورة المؤمن (غافر) ١٨١٤/٤-١٨١٥ .

(ج) الضرب :

عن أنس رضى الله عنه قال : "لقد ضربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة حتى غشى عليه ، فقام أبو بكر رضى الله عنه فجعل ينادى ويقول : ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟ قالوا من هذا؟ قالوا هذا ابن أبي قحافة المجنون" (١).

وتقدم إيراد حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما والمشمتم على بعض مظاهر الإيذاء من أشرف قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يطوف ، وفيه "حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم ، فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم ، وما بلغكم عنه ، حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه . فبينما هم في ذلك إذ طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد ، وأحاطوا به يقولون : أنت الذى تقول كذا وكذا؟ لما كان يقول من عيب آلهم ودينهم ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم أنا الذى أقول ذلك . فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع رداءه . قال : فقام أبو بكر رضى الله عنه ودونه وهو يبكى ويقول : أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟ ثم انصرفوا عنه فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشا نالوا منه قط" (٢).

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : "قال أبو جهل : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال : فقليل : نعم . فقال : واللات والعزى لئن رأيتته يفعل ذلك لأطأن على رقبتة أو لأعفرن وجهه فى التراب . قال : فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى ، زعم ليطأ على رقبتة ، قال : فما

(١) رواه الحاكم وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي . المستدرک ٣٠/٧٠-٧١ ، وقال الهيثمى : رواه أبو يعلى والبزار ، وزاد فتركوه وأقبلوا على أبي بكر ، ورجاله رجال الصحيح . مجمع الزوائد ١٢/٦ ، وصحح إسناده ابن حجر فى فتح البارى ٧/٢١٥ ، وينظر سبل الهدى والرشاد ٥٧٤/٢ .

(٢) سبق تخريجه ص ٣٨١ .

فجئهم منه إلا وهو يَنْكِصُ^(١) على عقبيه ويتقى بيديه ، قال : فقيل له مالك؟ فقال : إن بينى وبينه لخنذا من نار وهولا وأجنحة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضوا عضوا"^(٢).

وتضمنت رواية موسى بن عُبَيْة عن الزُّهْرِيِّ لخبْر خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف أن سفهاءها بحضٍّ وإغراء من أشرفها "قعدوا له صفيين على طريقه ، فلما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين صفيهم جعلوا لا يرفع رجلية ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة ، وكانوا أعدوها ، حتى أدموا رجلية ، فخلص منهم وهما يسيلان الدماء ..."^(٣).

ويشبه ذلك صنيع أبي لهب برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتبعه في سوق ذي المجاز كما حدث طارق المحاربي^(٤) رضى الله عنه قال : "رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بسوق ذي المجاز وأنا في بياعة^(٥) لي فمر وعليه حلة حمراء ، فسمعتة يقول : يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا . ورجل يتبعه يرميه بالحجارة قد أدمى كعبه وهو يقول : يا أيها الناس لا تطيعوا هذا فإنه كذاب"^(٦).

وضرب عليه الصلاة والسلام وأصابته الجراح يوم أحد .
فعن أنس رضى الله عنه "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كسرت

(١) "ينكص : بكسر الكاف : رجع على عقبيه يمشى على ورائه . شرح النووى على

صحيح مسلم ١٤٠/١٧ .

(٢) سبق تخريجه ص ٣٦٧ .

(٣) رواه البيهقى فى الدلائل ٤١٥/٢ ، وينظر : البداية ١٦٧/٣ ، زاد المعاد ٩٨/١ ،

٣١/٣ ، الروض الأنتف ١٧٧/٢ ، السيرة الحلبية ٥٢/٢ ، سبل الهدى والرشاد

٥٧٧/٢ .

(٤) طارق المحاربي : بضم الميم وتحفيف الحاء وكسر الراء . المغنى ص ٢٤٥ .

(٥) بكسر الباء وفتح الياء ، والجمع بياعات ، وهى الأشياء التى يتبايع بها فى التجارة

ينظر لسان العرب ٤٠٢/١ .

(٦) سبق تخريجه ص ٢٢٤ .

رباعيته^(١) يوم أحد ، وشج في رأسه ، فجعل يسلت الدم عنه ويقول : كيف يفلح قوم شجوا نبيهم ، وكسروا رباعيته ، وهو يدعوهم إلى الله^(٢) . وعن أبي حازم أنه سمع سهل بن سعد رضى الله عنه وهو يسأل عن جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "أما والله إني لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن كان يسكب الماء ، وبما دووى . قال : كانت فاطمة عليها السلام بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تغسله ، وعلى بن أبي طالب يسكب الماء بالمِجَنِّ"^(٣) فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد السدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير فأحرقتها وألصقتها فاستمسك الدم ، وكسرت رباعيته يومئذ ، وجرح وجهه ، وكسرت البيضة^(٤) على رأسه^(٥) .

وفي حديث ابن عباس رضى الله عنهما "اشتد غضب الله على من دمى^(٦) وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم"^(٧) .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : "كأني أنظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم يحكى نبيا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه ، وهو يمسح

-
- (١) "المراد بكسر الرباعية ، وهى السن التى بين الثنية والنباب ، أنها كسرت فذهب منها فلقة ولم تقلع من أصلها" . فتح البارى ٤٦٤/٧ .
- (٢) رواه مسلم فى كتاب الجهاد ، باب غزوة أحد ١٤٩/١٢ .
- (٣) "أى يصب عليها بالترس ، وهو بكسر الميم" . شرح النووى على صحيح مسلم ١٤٨/١٢ ، وينظر ترتيب القاموس ٥٤٣/١ .
- (٤) البيضة : بفتح الباء ، وهى مايلبس فى الرأس من آلات السلاح . ينظر فتح البارى ١٢٠/٦ .
- (٥) رواه البخارى فى كتاب المغازى ، باب ماأصاب النبي صلى الله عليه وسلم من الجراح يوم أحد ١٤٩٦/٤ ، ومسلم فى كتاب الجهاد ، باب غزوة أحد ١٤٨/١٢-١٤٩ .
- (٦) بتشديد الميم ، أى جرحه حتى خرج منه الدم . ينظر فتح البارى ٤٧٤/٧ .
- (٧) رواه البخارى فى كتاب المغازى ، باب ماأصاب النبي صلى الله عليه وسلم من الجراح يوم أحد ١٤٩٦/٤ .

الدم عن وجهه ويقول : اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون" (١).

قال النووى : هذا النبى المشار إليه من المتقدمين ، وقد جرى لنبينا صلى الله عليه وسلم مثل هذا يوم أحد (٢).

قال ابن حجر : "يحتمل أن ذلك لما وقع للنبي صلى الله عليه وسلم ذكر لأصحابه أنه وقع لنبي آخر قبله . وذلك فيما وقع له يوم أحد لما شج وجهه وجرى الدم منه ، فاستحضر فى تلك الحالة قصة ذلك النبي الذى كان قبله فذكر قصته لأصحابه تطيباً لقلوبهم" (٣).

(د) محاولة القتل :

* عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : "إن الملاء من قريش اجتمعوا فى الحجر فتعاقدوا باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ونائلة وأساف لو قد رأينا محمدا لقد قمنا إليه قيام رجل واحد فلم نفارقه حتى نقتله ، فأقبلت ابنته فاطمة رضى الله تعالى عنها تبكى حتى دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : هؤلاء الملاء من قريش قد تعاقدوا عليك لو قد رأوك لقد قاموا إليك فقتلوك ، فليس منهم رجل إلا قد عرف نصيبه من دمك ، فقال يابنية أرينى وضوءاً فتوضأ ثم دخل عليهم المسجد ، فلما رأوه قالوا : ها هوذا ، وخفضوا أبصارهم ، وسقطت أذقانهم فى صدورهم ، وعقرُوا (٤) فى مجالسهم ، فلم يرفعوا إليه بصراً ، ولم يقم إليه منهم رجل ، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قام على رؤوسهم فأخذ قبضة من التراب فقال شأهت الوجوه ، ثم حصبهم بها ، فما أصاب رجلاً منهم من ذلك الحصى

(١) رواه البخارى فى كتاب الأنبياء ، باب {أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم}

١٢٨٢/٣ ، ومسلم فى كتاب الجهاد ، باب غزوة أحد ١٢-١٤٩-١٥٠ .

(٢) شرح النووى على صحيح مسلم ١٥٠/١٢ .

(٣) فتح البارى ٦/٦٤٦ .

(٤) بكسر القاف : أى أصابهم الخوف ، وفجأهم الروع ، فاندھشوا فى أماكنهم .

ينظر النهاية ٣/٢٧٣ .

حصاة إلا قتل يوم بدر كافرا" (١).

* وعن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال : "مارأيت قريشا أرادوا قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا يومما ائتمروا به ، وهم جلوس في ظل الكعبة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى عند المقام ، فقام إليه عتبة بن أبى معيط ، فجعل رداءه في عنقه ، ثم جذبه حتى وجب (٢) لركبتيه وتصايح الناس ، وظنوا أنه مقتول ، قال : وأقبل أبو بكر يشتد حتى أخذ بضبع (٣) رسول الله صلى الله عليه وسلم من ورائه ، وهو يقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله . ثم انصرفوا عن النبي صلى الله عليه وسلم" (٤).

* وحاولوا قتله عليه الصلاة والسلام قبيل هجرته إلى المدينة وذلك حين اجتمع زعماء مكة بدار الندوة ، لمناقشة الوضع القائم ، والموقف الملائم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد أن نما إلى علمهم نبأ الهجرة .

وكان منهم عتبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، والنضر بن الحارث ، وأبو البختري بن هشام ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، وغيرهم من سادة قريش وأشرافها .

تشاور الجميع في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتبادلوا الآراء ، واتفقوا أخيرا على الرأي الذى أبداه أبو جهل إذ قال - فيما روى ابن عباس رضى الله عنهما - "أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتي شابا جليدا (٥) نسيبا وسيطا فينا ، ثم نعطي كل فتي منهم سيفا صارما ، ثم

(١) سبق تخريجه ص ١٦٦ .

(٢) أى سقط . ينظر ترتيب القاموس المحيط ٥٧٤/٤ .

(٣) "الضبع بسكون الباء : وسط العضد ، وقيل : هو ما تحت الابط" . النهاية ٧٣/٣

(٤) الحديث أورده الهيثمى في مجمع الزوائد ١٠/٦-١١ وقال : رواه أبو يعلى والطبرانى وفيه : محمد بن عمرو بن علقمة ، وحديثه حسن ، وبقيّة رجال الطبرانى رجال الصحيح . ورواه ابن حبان أيضا كما ذكر ابن حجر . ينظر فتح البارى ٢١٤/٧ .

(٥) الجليد هو القوى الشديد . ينظر ترتيب القاموس المحيط ٥١٣/١ .

يعمدوا إليه ، فيضربوه بها ضربة رجل واحد ، فيقتلوه فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعا ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فرضوا منا بالعقل^(١) ففعلناه لهم^(٢) .

وفعلا بدأوا في تنفيذ خطتهم ، ورصدت المجموعة المنفذة حول بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لانتهاز اللحظة المناسبة لقتله عليه الصلاة والسلام ، ومعهم أبو جهل^(٣) يطمئن على الخطة ، ويشرف على التنفيذ ، ولكن الله سبحانه وتعالى مكر لنبيه صلى الله عليه وسلم ، فأمر عليه الصلاة والسلام عليا رضى الله عنه بأن ينام على فراشه ، وخرج عليه الصلاة والسلام من بينهم وهم لا يشعرون^(٤) .

وذلك قدر الله سبحانه أن يحفظ رسوله صلى الله عليه وسلم ويعصمه من مكر المشركين كما قال جل وعلا :

{وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين}{^(٥) .

عن ابن عباس رضى الله عنهما في الآية الكريمة قال : "تشاورت قريش ليلة بمكة ، فقال بعضهم : إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق ، يريدون النبي صلى

(١) أى الدية . ينظر النهاية ٢٧٨/٣ .

(٢) الخبر رواه ابن إسحاق : السيرة النبوية لابن هشام ٧٧/٢-٧٨ ، وابن جرير من طريق ابن إسحاق : تفسير الطبرى ٢٢٧/٩-٢٢٨ ، وابن أبى حاتم كما فى لباب النقول ص ١٠٩ ، والبيهقى فى الدلائل ٤٦٦/٢-٤٦٧ ، ونقله ابن كثير فى البداية ٢١٥-٢١٦ ، وروى ابن جرير عن السدى نحوه : تفسير الطبرى ٢٢٨/٩-٢٢٩ وينظر : تفسير ابن كثير ٣٠٢/٢ ، تفسير فتح القدير ٣٠٤/٢ ، زاد المعاد ٥٠/٣-٥١ سبل الهدى والرشاد ٣٢٧/٣ .

(٣) كما فى رواية ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظى مرسلا . السيرة النبوية لابن هشام ٧٩/٢ ، وينظر : زاد المعاد ٥١/٣ ، البداية ٢١٦/٣ .

(٤) ينظر : دلائل النبوة للبيهقى ٤٦٥/٢ ، السيرة النبوية لابن هشام ٧٨/٢-٧٩ زاد المعاد ٥١/٣ ، البداية ٢١٦/٣-٢١٧ ، فتح البارى ٢٩٩/٧-٣٠٠ .

(٥) سورة الأنفال : آية ٣٠

الله عليه وسلم ، وقال بعضهم : بل اقتلوه ، وقال بعضهم : بل أخرجوه ، فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك ، فبات على فراش النبي صلى الله عليه وسلم تلك الليلة ، وخرج النبي صلى الله عليه وسلم حتى لحق بالغار ، وبات المشركون يحرسون عليا يحسبونه النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما أصبحوا ثاروا عليه ، فلما رأوا عليا رد الله عليهم مكرهم... " (١) .

* ويوم أحد وحين هدأ القتال يستغل أبي بن خلف وضع نبي الله عليه الصلاة والسلام ، وقد أصابته الجراحات ، وناله الجهد والعناء ، فيحمل عليه محاولاً قتله صلى الله عليه وسلم .

قال ابن إسحاق : " فلما أسند رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعب أدركه أبي بن خلف وهو يقول أي محمد لانجوت إن نجوت ، فقال القوم : يارسول الله ، أيعطف عليه رجل منا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعوه فلما دنا تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الحربة ، ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة تداً منها (٢) عن فرسه مراراً (٣) .

(١) رواه أحمد : الفتح الرباني ٢٧٧/٢٠-٢٧٨ ، وابن جرير : تفسير الطبري ٢٢٨/٩ وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠٠/٧ وقال : رواه أحمد والطبراني ، وفيه عثمان بن عمرو الجزري ، وثقه ابن حبان وضعفه غيره ، وبقية رجاله رجال الصحيح ، وحسن إسناده ابن كثير في البداية ٢٢١/٣ ، وابن حجر في فتح الباري ٣٠٠/٧ ، وينظر : دلائل النبوة للبيهقي ٣٦٥/٢-٣٦٦ ، تفسير ابن كثير ٣٠٢/٢ ، تفسير البغوي ٢٤٢/٢-٢٤٣ ، تفسير فتح القدير ٣٠٤/٢ .

(٢) قال ابن هشام : " تقلب عن فرسه ، فجعل يتدحرج " . السيرة النبوية ٢٦/٣ .

(٣) رواه ابن إسحاق دون إسناده : السيرة النبوية لابن هشام ٢٥/٣ (مع اختصار يسير) ، والواحدى في أسباب النزول ص ٢٢٩ عن سعيد بن المسيب عن أبيه ، وكذلك الحاكم في المستدرک ٣٥٧/٢ وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وواقفه الذهبي ، والبيهقي في الدلائل من طريق أبي الأسود عن عروة بن الزبير ٢٥٨/٣-٢٥٩ ، ومن طريق موسى بن عقبة عن الزهري ٢١١/٣-٢١٢ ، وينظر : زاد المعاد ١٩٩/٣ ، البداية ٣٦/٤-٣٧ ، السيرة الحلبية ٥١٠/٢ ، تفسير ابن كثير ٤١٥/١-٤١٦ ، ٢٩٦/٢ .

وكانت فيها منيته إذ مات في طريق عودة المشركين إلى مكة ، ونجى الله رسوله عليه الصلاة والسلام .

* ومن محاولات اليهود في هذا الاتجاه ما قام به أعداء الله من يهود بني النضير ، حين أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعينهم في دية قتيلين من بني عامر ، فعزموا على الغدر به وقتله عليه الصلاة والسلام . قال ابن إسحاق : " فلما أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعينهم في دية ذينك القتيلين ، قالوا : نعم ، يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت ، مما استعنت بنا عليه ، ثم خلا بعضهم ببعض ، فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد - فمن رجل يعلو على هذا البيت ، فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش فقال : أنا لذلك ، فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلى رضوان الله عليهم .

فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعا إلى المدينة ، فلما استلبث^(١) النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه قاموا في طلبه ، فلقوا رجلا مقبلا من المدينة ، فسألوه عنه ، فقال : رأيت داخل المدينة ، فأقبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى انتهوا إليه صلى الله عليه وسلم ، فأخبرهم الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به " (٢) .

(١) من اللبث وهو الإبطاء والتأخر . ينظر النهاية ٣٢٤/٤ .

والمقصود أنهم رضوان الله عليهم استبطأوا عودته عليه الصلاة والسلام وكانوا يظنون أنه قام حاجة وسيعود إلى مجلسهم .

(٢) رواه ابن إسحاق قال حدثني يزيد بن رومان . السيرة النبوية لابن هشام ١٢١/٣ ، والبيهقي في الدلائل عن موسى بن عقبة ١٨٠/٣ ، وابن جرير من طريق ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي بكر : تفسير الطبري ١٤٤/٦ ورواه أيضا عن يزيد بن أبي زياد ١٤٤/٦-١٤٥ ، وعن عكرمة مختصرا =

وفي رواية لابن جرير أن الشقي الذي قدم فكرة الاغتيال كان رأس القوم حبي بن أخطب (١).

* ويقوم اليهود بمحاولة أخرى لقتله عليه الصلاة والسلام إثر غزوة خيبر ، وكانت الوسيلة هذه المرة : السم .

فعن أنس رضى الله عنه "أن امرأة يهودية أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم بشاة مسمومة ، فأكل منها ، فجيء بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألها عن ذلك ، فقالت : أردت لأقتلك . قال : ما كان الله ليسلطك على ذلك ، قال : أو قال : علي ، قال : قالوا : ألا تقتلها؟ قال : لا قال : فما زلت أعرفها (٢) في لهوات (٣) رسول الله صلى الله عليه وسلم" (٤).

هذه اليهودية هي زينب بنت الحارث ، امرأة سلام بن مشكم ، وأخت مرحب (٥) زعيم يهود (٦) وقد فعلت فعلتها هذه بعد فتح خيبر .

يقول أبو هريرة رضى الله عنه : "لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاة فيها سم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اجمعوا لي من كان هاهنا من اليهود . فجمعوا له - وكان مما سألهم عليه

= ١٤٥/٦ ، وينظر : المغازى للواقدي ٣٦٤-٣٦٥ ، السيرة الحلبية ٥٥٩/٢-٥٦١ ، البداية ٨٦/٤ ، تفسير ابن كثير ٣٣١/٤ ، تفسير فتح القدير ٢٠/٢ ، زاد المعاد ١٢٧/٣-١٢٨ ، وبوب البخارى فقال : باب حديث بنى النضير ومخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم في دية الرجلين وما أرادوا من الغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم . صحيح البخارى ، كتاب المغازى ١٤٧٨/٤ .

(١) ينظر تفسير الطبرى ١٤٤/٦ .

(٢) "أى العلامة ، كأنه بقى للسم علامة وأثر" . شرح النووى ١٧٩/١٤ .

(٣) "جمع لهاة ، وهى اللحامات فى سقف أقصى الفم" . النهاية ٢٨٤/٤ .

(٤) رواه البخارى فى كتاب الهبة ، باب قبول الهدية من المشركين ٩٢٣/٢ ، ومسلم

واللفظ له فى كتاب السلام ، باب السم ١٧٨/١٤ .

(٥) مرحب : بفتح الميم والحاء وسكون الراء . المغنى ص ٢٢٨ ، تهذيب الأسماء ٨٦/٢

(٦) ينظر : السيرة النبوية لابن هشام ٢٨٨/٣ ، البداية ٢٣٩/٤-٢٤٠ ، سنن أبى داود

كتاب الديات ٦٤٨/٤ ، زاد المعاد ٣٣٥/٣ ، فتح البارى ٣٠٠/١٠ ، شرح النووى

على صحيح مسلم ١٧٩/١٤ .

الصلاة والسلام - قال : هل جعلتم في هذه الشاة سما؟ فقالوا : نعم . فقال :
ما حملكم على ذلك؟ فقالوا : أردنا إن كنت كاذبا نستريح منك ، وإن كنت
نبيا لم يضرك" (١).

وهذه الرواية تشير إلى أن محاولة الاغتيال هذه لرسول الله صلى الله
عليه وسلم لم تكن مجرد عمل فردي من زينب بنت الحارث ، بل هي مؤامرة
دبرها وتواطأ عليها يهود ، لكن الله سبحانه حفظ نبيه عليه الصلاة والسلام
وعصمه من كيدهم ، ونجاه مما أرادوا به من الشر والهلاك .

هذا النوع من الأذى لم يتعرض له الرسل عليهم السلام فحسب ، بل
تعرض له أتباعهم المؤمنون أيضا .

إذ أن الطغاة حين يرون أن محاولاتهم مع الرسل عليهم السلام
لا تجدى ، وأن السبل قد استعصت عليهم في محاولة القضاء على دعوة الله
سبحانه مع أنبيائه عليهم السلام ، وأن هؤلاء الرسل عازمون على الاستمرار
فيما كلفهم الله عز وجل به من الدعوة إلى دينه ، حينئذ يتجه أعداء
الدعوة إلى المؤمنين بالدعوات ، فيسومونهم سوء العذاب ، بغية إرهاب الفئة
المؤمنة ، وإبعادها عن طريق الرسل عليهم السلام ، وتخويف من لازالت
الفكرة تراوده بالانضمام إلى ذلك الصف المؤمن، وتحذيره من الاقتراب .
يقول صاحب الظلال : "إن الطواغيت يتوجهون أولا إلى الداعية
ليكف عن الدعوة ، فإذا استعصم بإيمانه وثقته بربه ، واستمسك بأمانة
التبليغ وتبعته ، ولم يرهبه التخويف بالذى يملكه الطغاة من الوسائل ،
تحولوا إلى الذين اتبعوه ، يفتنونهم عن دينهم بالوعيد والتهديد ، ثم
بالبطش والعذاب .

إنهم لا يملكون حجة على باطلهم ، ولكن يملكون أدوات البطش
والإرهاب ، ولا يستطيعون إقناع القلوب بجاهليتهم ، وبخاصة تلك التي عرفت

(١) رواه البخارى في كتاب الطب ، باب ما يذكر في سم النبي صلى الله عليه وسلم

الحق فما عادت تستخف بالباطل ، ولكنهم يستطيعون البطش بالمصرين على الإيمان ، الذين أخلصوا الدينونة لله فأخلصوا له السلطان" (١).

ومن صور هذه الملاحقة لأجساد المؤمنين بالإيذاء والتنكيل ما فعله فرعون مع السحرة الأبرار لما أعلنوا إيمانهم ، إذ أصدر تهديده لهم بالعقوبة قتلا وصلبا على جذوع النخل :

{الأقطن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين} (٢).

{.. فلاقطن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أننا أشد عذابا وأبقى} (٣).

ويبدو أن فرعون نفذ العقوبة فيهم فعليا ، فقتلهم جميعا .

قال ابن كثير : "الظاهر من هذه السياقات أن فرعون لعنه الله صلبهم وعذبهم رضى الله عنهم . قال عبد الله بن عباس وعبيد بن عمير كانوا من أول النهار سحرة ، فصاروا من آخره شهداء بررة ، ويؤيد هذا قولهم : {.. ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين} (٤)" (٥).

وممن ناله فرعون بالأذى أيضا امرأته آسية (٦) (٧) رضى الله عنها ، والتي ضرب الله بها المثل للمؤمنين فقال سبحانه :

(١) فى ظلال القرآن ١٣٢٢/٣ .

(٢) سورة الأعراف : آية ١٢٤

(٣) سورة طه : من آية ٧١

(٤) سورة الأعراف : من آية ١٢٦

(٥) قصص الأنبياء لابن كثير ٣٨٦/٢ ، وينظر تفسير الطبرى ٢٣/٩-٢٤ .

(٦) فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعري رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم : "كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء الا آسية امرأة

فرعون ، ومريم بنت عمران ، وان فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على

سائر الطعام" . رواه البخارى فى كتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى {وضرب الله

مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون} ١٢٥٢/٣ ، ومسلم فى كتاب فضائل الصحابة ،

باب فضائل خديجة رضى الله عنها ١٥-١٩٨-١٩٩ .

(٧) آسية : بهمزة بعدها ألف ، وبكسر السين وفتح الياء . الإكمال ٩٢/١ .

وَضْرَبَ اللهُ مِثْلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةً فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ^(١).

فَعَنْ سَلْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : "كَانَتْ امْرَأَةً فِرْعَوْنَ تَعَذَّبُ بِالشَّمْسِ فَإِذَا انصَرَفُوا عَنْهَا أَظْلَمَتْهَا المَلَأُكَةُ بِأَجْنَحَتِهَا ، وَكَانَتْ تَرَى بَيْتَهَا فِي الجَنَّةِ"^(٢).
 قَالَ ابْنُ حَجْرٍ : "اخْتَارَتِ القَتْلَ عَلَى المَلِكِ ، وَالعَذَابَ فِي الدُّنْيَا عَلَى النِّعَمِ الَّتِي كَانَتْ فِيهِ"^(٣).

وَمِنْهُمْ مَاشِطَةُ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ ، كَمَا رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا
 قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "لَمَّا كَانَتْ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي أُتِيتُ عَلَى رَاحِئَةٍ طَيِّبَةٍ ، فَقُلْتُ : يَا جَبْرِيْلُ مَا هَذِهِ الرَّاحِئَةُ الطَّيِّبَةُ؟ قَالَ : هَذِهِ رَاحِئَةُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ وَأَوْلَادِهَا ، قُلْتُ : وَمَاشَأُنْهَا؟ قَالَ : بَيْنَا هِيَ تَمشُطُ ابْنَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ سَقَطَ المِدرَى^(٤) مِنْ يَدِهَا ، فَقَالَتْ : بِسْمِ اللهِ ، فَقَالَتْ لَهَا ابْنَةُ فِرْعَوْنَ : أَيْ؟ قَالَتْ : لَا ، وَلَكِنْ رَبِّي وَرَبُّ أَبِيكَ اللهُ ، قَالَتْ : أَخْبِرْهُ بِذَا؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، فَأَخْبَرْتَهُ ، فَدَعَاهَا فَقَالَ : يَا فُلَانَةَ ، وَإِنْ لَكَ رَبًّا غَيْرِي؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ ، فَأَمْرٌ بِبِقْرَةٍ^(٥) مِنْ غُحَّاسٍ فَأَحْمِيْتِ ثُمَّ أَمْرٌ بِهَأَنَّ تَلْقَى هِيَ وَأَوْلَادِهَا فِيهَا . قَالَتْ : إِنْ لِي إِلَيْكَ حَاجَةٌ ، قَالَ : وَمَا حَاجَتُكَ؟ قَالَتْ : أَحِبُّ أَنْ تَجْمَعَ عِظَامِي وَعِظَامَ أَوْلَادِي فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ فَتَدْفِنُنَا جَمِيعًا . قَالَ : ذَلِكَ عَلَيْنَا مِنَ الحَقِّ ، قَالَ : فَأَمْرٌ بِأَوْلَادِهَا فَأَلْقَوْا بَيْنَ أَيْدِيهَا وَاحِدًا وَاحِدًا

(١) سورة التحريم : آية ١١

(٢) رواه الحاكم في المستدرک ٥٣٨/٢ وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي . وينظر تفسير فتح القدير ٢٥٦/٥ .

(٣) فتح الباری ٥٥٣/٦ .

(٤) المِدرَى بكسر الميم وسكون الدال وفتح الراء "شئٌ يعمل من حديد أو خشب على شكل سن من أسنان المشط وأطول منه يسرح به الشعر المتلبد" . النهاية ١١٥/٢ ، وينظر ترتيب القاموس ١٧٧/٢ .

(٥) "قال الحافظ أبو موسى : الذي يقع لي في معناه أنه لا يريد شيئاً مصوغاً على صورة البقرة ، ولكنه ربما كانت قدراً كبيرة واسعة ، فسامها بقرة ، مأخوذاً من التبقر : التوسع ، أو كان شيئاً يسع بقرة تامة بتوابلها فسميت بذلك" . النهاية ١٤٥/١ .

إلى أن انتهى ذلك إلى صبي لها مرضع وكأنها تقاعست^(١) من أجله ، فقال :
يا أمه ، اقتحمي فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، فاقتممت^(٢) .
ويجربنا القرآن الكريم أن فرعون أعلن عزمه على البطش بالمؤمنين ،
كما في قول الله جل شأنه :

{ فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا
نساءهم ... }^(٣) .

{ وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض
ويذكرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنما فوقهم قاهرون }^(٤) .
قال ابن كثير : " هذا القتل للغلمان من بعد بعثة موسى وإنما كان على
وجه الإهانة والإذلال والتقليل لملاً بنى لإسرائيل ولئلا يكون لهم شوكة
يمنتعون بها " ^(٥) .

لقد كان ذلك البلاء والبطش من فرعون وملئه للفئة المؤمنة عظيماً إلى
الحد الذي كان يصيب المؤمنين بالخشية من تعرضهم للفتنة كما قال سبحانه :

-
- (١) أى تأخرت . ينظر النهاية ٨٧/٤ .
(٢) رواه أحمد من طريق حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن
ابن عباس رضى الله عنهما . الفتح الرباني ١٤٧/٢٠ ، والبيهقى في الدلائل
٣٨٩/٢ ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٣٤/١ " رواه أحمد والبخاري والطبراني في
الكبير والأوسط ، وفيه عطاء بن السائب وهو ثقة ولكنه اختلط " . قال الساعقي
معلقاً على كلام الهيثمي : " قلت : قال العلماء : إن حماد بن سلمة سمع من
عطاء قبل اختلاطه ، وعلى هذا فالحديث صحيح " . بلوغ الأماني ١٤٧/٢٠ ، وقال
ابن كثير : " إسناده لا بأس به " تفسير ابن كثير ١٥/٣ ، ورواه أيضاً الحاكم في
المستدرک ٥٣٨-٥٣٩ ، وصححه ، ووافقه الذهبي .
(٣) سورة غافر : من آية ٢٥
(٤) سورة الأعراف : آية ١٢٧
(٥) قصص الأنبياء لابن كثير ٣٨٨/٢ .

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ...﴾ (١).

"أى يصرفهم عن دينهم بالعقوبات" (٢).

ومن صور التعذيب واضطهاد المؤمنين أيضا مارواه صهيب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "كان ملك فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر فلما كبر قال للملك : إني قد كبرت فابعث إني غلاما أعلمه السحر . فبعث إليه غلاما يعلمه ، فكان في طريقه إذا سلك راهب ، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه ، فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه ، فإذا أتى الساحر ضرب ، فشكى ذلك إلى الراهب فقال : إذا خشيت الساحر فقل : حبسنى أهلى ، وإذا خشيت أهلك فقل : حبسنى الساحر . فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس ، فقال : اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل ، فأخذ حجرا فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضى الناس ، فرماها فقتلها ومضى الناس ، فأتى الراهب ، فقال له الراهب : أى بنى أنت اليوم أفضل منى ، وقد بلغ من أمرك ما أرى ، وإنك ستبتلى ، فإن ابتليت فلا تدل على ، وكان الغلام يبرىء الأكمه (٣) والأبرص ويداوى الناس من سائر الأدواء ، فسمع جليس للملك كان قد عمى فأتاه بهدايا كثيرة ، فقال : ماهنالك أجمع إن أنت شفيتنى ، فقال إني لأشفى أحدا ، وإنما يشفى الله ، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك ، فأمن بالله فشفاه الله ، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس ، فقال له الملك : من رد عليك بصرك؟ قال ربي قال : ولك رب غيرى؟ قال : ربي وربك الله ، فأخذه ، فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام ، فجىء بالغلام ، فقال له الملك : أى بنى قد بلغ من سحرك

(١) سورة يونس عليه السلام : من آية ٨٣

(٢) تفسير القرطبي ٢٣٦/٨ .

(٣) "الأكمه : الذى خلق أعمى" . شرح النووى على صحيح مسلم ١٣٠/١٨ .

ما يبرىء الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل ، فقال : إني لأشفي أحدا ، وإنما يشفي الله فأخذه ، فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب ، فجيء بالراهب ، فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى ، فدعا بالمشار ، فوضع المشار^(١) في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه ، ثم جيء بجليس الملك ، فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى ، فوضع المشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه ، ثم جيء بالغلام ، فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى ، فدفعه إلى نفر من أصحابه ، فقال : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروتة^(٢) فإن رجع عن دينه ، وإلا فاطرحوه ، فذهبوا به ، فصعدوا به إلى الجبل فقال اللهم اكفنيهم بما شئت ، فرجف بهم الجبل فسقطوا ، وجاء يمشى إلى الملك فقال له الملك : ما فعل أصحابك؟ قال : كفانيهم الله ، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : اذهبوا به فاحملوه في قرقور^(٣) فتوسطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فاقدفوه ، فذهبوا به ، فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا ، وجاء يمشى إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك؟ قال كفانيهم الله ، فقال للملك : إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به ، قال : وما هو؟ قال : تجمع الناس في صعيد^(٤) واحد ، وتصلبني على جذع ، ثم خذ سهما من كنانتي ، ثم ضع السهم في كبذ القوس^(٥) ، ثم قل : بسم الله رب الغلام ، ثم ارمني ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني ، فجمع الناس في صعيد واحد ، وصلبه على جذع ، ثم أخذ سهما

- (١) المشار : مهموز ، وروى المنشار بالنون ، وهما لغتان صحيحتان . ينظر شرح النووى على صحيح مسلم ١٣٠/١٨ .
- (٢) أى أعلاه ، وهى بضم الذال وكسرها . ينظر شرح النووى على صحيح مسلم ١٣٠/١٨ .
- (٣) "القرقور بضم القافين : السفينة الصغيرة" . ينظر شرح النووى على صحيح مسلم ١٣١/١٨ .
- (٤) "الصعيد هنا : الأرض البارزة" . شرح النووى على صحيح مسلم ١٣١/١٨ .
- (٥) أى مقبضها عند الرمي . ينظر شرح النووى على صحيح مسلم ١٣٣/١٨ .

من كنانته ثم وضع السهم في كبد القوس ، ثم قال : بسم الله رب الغلام فوق السهم في صدَّغِه^(١) ، فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات ، فقال الناس : آمنا برب الغلام ، آمنا برب الغلام ، فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ : أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذِرُ ، قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذْرُكَ ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ ، فَأَمَرَ بِالْأَخْدُودِ^(٢) فِي أَفْوَاهِ السِّكِّ^(٣) فَخُدَّتْ ، وَأَضْرَمَ النَّيْرَانَ ، وَقَالَ : مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَن دِينِهِ فَأَحْمُوهُ^(٤) فِيهَا ، أَوْ قِيلَ لَهُ اقْتَحِمْ ، فَفَعَلُوا ، حَتَّى جَاءَتْ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا ، فَقَالَ لَهَا الْغَلَامُ : يَا أُمَّهُ ، اصْبِرِي فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ"^(٥).

يقول الله جل وعلا :

إِقْتُلْ أَصْحَابَ الْأَخْدُودِ . النَّارُ ذَاتُ الْوُقُودِ . إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ . وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ . وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ^(٦).

وفي عهد رسولنا صلى الله عليه وسلم واجهت الفئة المؤمنة أيضا أصنافا من الأذى الجسدى على يد الملائم من قريش ، أملا في فتنتهم عن دينهم وعقيدتهم ، ومواجهة الدعوة التي غزت مكة وأصبح لها شأن ، خصوصا وهم يرون المؤمنين تتسع قاعدتهم كل يوم ، ويزيد عددهم كلما مر الوقت .

(١) الصدغ بضم الصاد وإسكان الدال : ما بين العين والأذن . ينظر ترتيب القاموس المحيط ٨٠٦/٢ .

(٢) "الأخدود هو الشق العظيم في الأرض ، وجمعه أخاديد" . شرح النووى على صحيح مسلم ١٣٣/١٨ .

(٣) "السكك : الطرق ، وأفواهاها : أبوابها" . شرح النووى على صحيح مسلم ١٣٣/١٨ .

(٤) فأحموه : بهمزة قطع بعدها حاء ساكنة ، والمعنى : ارموه فيها ، من قولهم : حميت الحديد إذا أدخلتها النار لتحمى . ينظر شرح النووى على صحيح مسلم ١٣٣/١٨ .

(٥) رواه مسلم في كتاب الزهد . باب قصة أصحاب الأخدود ١٣٠/١٨-١٣١ .

(٦) سورة البروج : آية ٤-٨

قال ابن إسحاق : " ثم إن الإسلام جعل يفشو بمكة في قبائل قريش في الرجال والنساء ، وقريش تحبس من قدرت على حبسه ، وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين " (١) .

وكان أصحاب الأمر والنهى في كل قبيلة هم الذين يرفعون راية الإيذاء والتنكيل ، والتعذيب والاضطهاد ، لمن آمن من قبيلتهم .

قال ابن إسحاق : " ثم إنهم عدوا على من أسلم واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه ، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، فجعلوا يجسونهم ، ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر ، من استضعفوا منهم ، يفتنونهم عن دينهم ، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذى يصيبه ، ومنهم من يصلب لهم ، ويعصمه الله منهم " (٢) .

فكلما كان المؤمن من الطبقة الضعيفة حسب المقياس الاجتماعى السائد كان ذلك أدعى لزيادة نسبة الأذى التى يتعرض لها من أكابر المجرمين كأبى جهل الذى كان يواجه المسلمين بالأذى حسب مستوياتهم الاجتماعية ، وأحوالهم المالية .

يقول ابن إسحاق : " كان أبو جهل إذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومَنعة أُنبه وأخزاه ، وقال : تركت دين أبيك وهو خير منك ، لنسفن حلمك ، ولننفلن رأيك ، ولنضعن شرفك ، وإن كان تاجرا قال : والله لنكسدن تجارتك ، ولنهلكن مالك ، وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به " (٣) .

ولقد كان ما يتعرض له الصحابة رضوان الله عليهم من البلاء عظيما عظم ما يحوك في صدور الملامن قريش من حقد تجاه الإسلام الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورغبتهم الأكيدة في محوه من الوجود ،

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢٢٦/١ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢٤٨/١ ، وينظر : البداية ٧٤/٣ ، السيرة الحلبية

٤٧٨/١ ، سبل الهدى والرشاد ٤٧٦/٢ .

(٣) تقدم ص ٣٧١ .

واجتثائه من الأصول والجدور ، لو تيسرت لهم السبل ، ولكن الله حافظ دينه ومتم أمره .

عن سعيد بن جبيرة قال : قلت لعبد الله بن عباس رضى الله عنهما :
 "أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم؟ قال نعم والله ، إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه ، حتى ما يقدر على أن يستوى جالسا من شدة الضر الذى نزل به ، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة ، حتى يقولوا له : آلات والعزى إلهك من دون الله؟ فيقول : نعم ، حتى إن الجعل (١) ليمر بهم ، فيقولون له : أهذا الجعل إلهك من دون الله؟ فيقول : نعم ، افتداء منهم مما يبلغون من جهده" (٢).

هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم الذين تحملوا الأذى كثيرون ، وأكتفى بذكر نماذج ممن تعرض للإيذاء البدنى من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهم :

* بلال بن رباح رضى الله عنه .

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : "كان أول من أظهر إسلامه سبعة : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر ، وعمار ، وأمه سمية ، وصهيب ، وبلال ، والمقداد ، فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فممنعه الله بعمه أبي طالب ، وأما أبو بكر فممنعه الله بقومه ، وأما سائرهم فأخذهم المشركون ، وألبسوهم أدرع الحديد ، وصهروهم في الشمس ، فما منهم من أحد إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلالا فإنه هانت عليه نفسه في الله ، وهان عليه قومه ، فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في

(١) الجعل بضم الجيم وفتح العين : دابة سوداء من دواب الأرض تشبه الخنفساء ، وجمعه جعلان . ينظر لسان العرب ٦٣٨/١ .

(٢) رواه ابن إسحاق قال : حدثني حكيم بن جبيرة عن سعيد بن جبيرة . السيرة النبوية لابن هشام ٢٥١/١ ، وينظر : البداية ٧٦/٣ ، زاد المعاد ٢٣/٣ ، سبل الهدى والرشاد ٤٧٦/٢ .

شعاب مكة وهو يقول : أحد أحد" (١).

"وكان أمية بن خلف يخرجها إذا حميت الظهرية ، فيطرحه على ظهره في بطحاء (٢) مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لاتزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى ، فيقول وهو في ذلك البلاء : أحد أحد" (٣).

ولما استنقذه أبو بكر رضى الله عنه - بفضل من الله سبحانه - كان بلال رضى الله عنه في تلك اللحظات يتقلب في جمر المحنة .
عن قيس قال : "اشترى أبو بكر بلالا وهو مدفون في الحجاره بخمس أواق ذهبا ... " (٤).

وأشير هنا الى مقولة أمية "لاتزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى" والتي تؤكد أن لاجريمة ولاذنب لبلال رضى الله عنه وإخوانه إلا أنهم رضوا بالإسلام ديننا ، وانضموا الى ركب الهدى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .
إن هذا فقط هو الذى أثار حنق الملائم المستكبرين كأمية بن خلف وأمثاله من الطغاة .

(١) رواه ابن ماجه فى المقدمة ، باب فضل سلمان وأبى ذر والمقداد رضى الله عنهم ٥٣/١ ، وأحمد . الفتح الربانى ٢٠/٢١٤ . قال شاکر : إسناده صحيح . المسند ٣١٩/٥ ، والحاكم وصححه ، ووافقه الذهبي . المستدرک ٣/٣٢٠ ، والبيهقى فى الدلائل ٢/٢٨١-٢٨٢ ، وحسنه الألبانى . صحيح سنن ابن ماجه ١/٣٠ ، وينظر البداية ٣/٣٨-٣٩ .

(٢) البطحاء : سيل واسع فيه دقاق الحصى ، وبطحاء مكة . أى مسيل واديها . ينظر : ترتيب القاموس ١/٢٨٥ ، النهاية ١/١٣٤ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١/٢٤٨ ، وينظر : البداية ٣/٧٤ ، حلية الأولياء لأبى نعيم ، ط ١/١ ، ١٤٠٩ هـ ، دار الكتب العلمية ١/١٤٨ ، السيرة الحلبية ١/٤٧٩ ، سبل الهدى والرشاد ٢/٤٧٦-٤٧٧ ، صفة الصفوة ١/٤٣٧ ، الاصابة ١/٣٢٦ .

(٤) سير أعلام النبلاء ، ط ٦ ، ١٤٠٩ هـ ، مؤسسة الرسالة ١/٣٥٣ ، من رواية ابن عيينة قال الذهبي : إسناده قوى ، ورواه ابن أبى شيبة بإسناد صحيح كما ذكر ابن حجر ينظر فتح البارى ٧/١٢٥ وينظر الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر . ١٨٢/١ .

{وما نقيموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد}{(١)}.

* آل ياسر رضى الله عنهم .

مر آنفا حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى ذكر صنيع المشركين بالسابقين إلى الإسلام من الضعفاء رضوان الله عليهم ، ومنهم عمار بن ياسر وأمه سمية رضى الله عنهما .

وروى جابر بن عبد الله رضى الله عنهما "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بعمار وأهله وهم يعذبون ، فقال : أبشروا آل عمار وآل ياسر ، فإن موعدكم الجنة" (٢).

وما زالوا بعمار بن ياسر رضى الله عنهما يذيقونه أصناف العذاب حتى وافقهم - ظاهرا - فى بعض ما يريدون ، وأنزل الله فيه وفى أمثاله قوله تبارك وتعالى :

{من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ...}{(٣)}.

قال ابن كثير : "روى العوفى عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى عمار بن ياسر حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فوافقهم على ذلك مكرها ، وجاء معتذرا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأنزل الله هذه الآية ، وهكذا قال الشَّعْبِيُّ وقتادة وأبو مالك" (٤).

(١) سورة البروج : آية ٨

(٢) رواه الحاكم فى المستدرک ٤٣٨/٣ وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، ورواه كذلك البيهقي فى الدلائل ٢٨٢/٢ ، والطبرانى فى الأوسط كما فى جمع الزوائد ٤٨٠/٩-٤٨١ قال الهيثمى : رجاله رجال الصحيح غير ابراهيم بن عبد العزيز المقوم وهو ثقة ، وينظر : حلية الأولياء ١٤٠/١ ، زاد المعاد ٢٢/٣ ، السيرة النبوية لابن هشام ٢٥٠/١ ، البداية ٧٦/٣ ، السيرة الحلبية ٤٨٣/١ .

(٣) سورة النحل : من آية ١٠٦

(٤) تفسير ابن كثير ٥٨٧/٢ ، وقد صحح الألبانى نزول الآية فى عمار رضى الله عنه لمجىء ذلك من طرق ساقها ابن جرير . فقه السيرة للغزالي ص ١٠٤ (الحاشية) ، وينظر : تفسير الطبرى ١٨١/١٤-١٨٢ ، تفسير فتح القدير ١٩٨/٣ .

قال ابن عبد البرّ: "وهذا مما اجتمع أهل التفسير عليه" (١).

"ويمر عدو الله أبو جهل بسمية أم عمار ، وهى تعذب وزوجها وابنها فيطعنها مجربة في فرجها" (٢) فتسقط رضى الله عنها لتكون أول شهيد في الإسلام .

يقول مجاهد : "أول شهيد كان في الإسلام استشهد أم عمار سمية ، طعنها أبو جهل مجربة في قبلها" (٣).

* خَبَابُ بنِ الأَرْتِّ (٤) رضى الله عنه .

عن أبى لَيْلى الكِنْدى قال : "جاء خباب إلى عمر ، فقال : ادن ، فما أجد أحق بهذا المجلس منك إلا عمار ، فجعل خباب يريه آثارا بظهره مما عذبه المشركون" (٥).

* عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

قال ابن إسحاق : حدثني يحيى بن عروة بن الزبير ، عن أبيه ، قال : "كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال : اجتمع يوما أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : والله ماسمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط ، فمن رجل يسمعه موه؟ فقال عبد الله بن مسعود : أنا ، قالوا انا نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم ان أرادوه ، قال

(١) الاستيعاب ١١٣٦/٣ .

(٢) زاد المعاد ٢٣/٣ (بتصرف يسير) ، وينظر : صفة الصفوة ٦٠/٢ ، سير أعلام النبلاء ٤٠٩/١ ، فتح البارى ٢٩/٧ .

(٣) رواه البيهقى في الدلائل ٢٨٢/٢ ، وأحمد كما في البداية ٧٦/٣ ، وابن سعد كما في الإصابة ٧١٣/٧ وصحح إسناده ابن حجر . وينظر : السيرة الحلبية ٤٨٣/١ سبل الهدى والرشاد ٤٨٢/٢ ، الاستيعاب ١٨٦٤/٤ .

(٤) خباب : بتشديد الباء الأولى ، والأرت : بفتح الراء وتشديد التاء : تهذيب الأسماء ١٧٤/١ ، تقريب التهذيب ص ١٩٢ .

(٥) رواه ابن ماجه في المقدمة ، باب فضائل خباب رضى الله عنه ٥٤/١ ، وأحمد في فضائل الصحابة ٨٥٧/٢ . وينظر : حلية الأولياء ١٤٤/١ ، السيرة الحلبية ٤٨٣/١ سبل الهدى والرشاد ٤٧٩/٢ ، وصححه الألبانى ، صحيح سنن ابن ماجه ٣١/١ .

دعوني فإن الله سيمنعني ، قال فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى ، وقريش في أُنديتها حتى قام عند المقام ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم رافعا بها صوته {الرحمن . علم القرآن} (١) قال : ثم استقبلها يقرؤها . قال : فتأملوه فجعلوا يقولون : ماذا قال ابن أم عبد؟ قال : ثم قالوا إنه ليتلو بعض ماجاء به محمد ، فقاموا إليه فجعلوا يضربون في وجهه ، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ماشاء الله أن يبلغ . ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا في وجهه ، فقالوا له : هذا الذي خشينا عليك ، فقال : ما كان أعداء الله أهون على منهم الآن ، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدا ، قالوا : لا ، قد أسمعتهم مايكرهون" (٢).

* أبو ذرّ الغفاري رضي الله عنه .

روى أبو ذر رضي الله عنه خبر مجيئه إلى مكة ولقائه برسول الله صلى الله عليه وسلم ومن ثم إسلامه رضي الله عنه ، وقد ذكر أبو ذر رضي الله عنه في روايته تعرضه للأذى في جسده آنذاك مرتين من مشركي قريش .

الأولى كانت لمجرد سؤاله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يوحى بالرغبة في لقائه والاستماع إليه .

يقول أبو ذر رضي الله عنه : "فأتيت مكة فتضعفت (٣) رجلا منهم ، فقلت : أين هذا الذي تدعونه الصابئ ، فأشار إليّ فقال : الصابئ ، فمال

(١) سورة الرحمن : آية ١-٢ .

(٢) رواه ابن إسحاق قال : حدثني يحيى بن عروة بن الزبير عن أبيه . السيرة النبوية لابن هشام ٢٤٥/١ ، وأحمد من طريق ابن إسحاق بتمامه . فضائل الصحابة ٨٣٧/٢-٨٣٨ ، قال محققه وصلى الله محمد عباس : مرسل رجاله ثقات . وينظر السيرة الحلبية ٤٧٦/١ ، سبل الهدى والرشاد ٤٦٨/٢-٤٦٩ .

(٣) "يعنى نظرت الى أضعفهم فسألته لأن الضعيف مأمون الغائلة غالبا" . شرح النووى على صحيح مسلم ٢٨/١٦ .

على أهل الوادى بكل مدرة^(١) وعظم حتى خررت مغشيا على ، قال :
فارتفعت حين ارتفعت كأني نُصب أحمر^(٢) ، قال فأتيت زمزم فغسلت عنى
الدماء وشربت من مائها"^(٣).

وواضح أن هذا الهجوم على أبى ذر رضى الله عنه ، وضربه بهذا
الشكل المبرح ، كان قبل إسلامه ، وجريته هى البحث عن صاحب الدعوة
للاستماع إليه ، والتأمل فيما جاء به ، والتفكير فى أمر الإسلام ، وذلك
مما يريده أهل الكفر وحماته .

أما الثانية فقد كانت بعد إسلامه حين جهر رضى الله عنه بذلك فى
جموع قريش .

يقول أبو ذر رضى الله عنه حاكيا دخوله على رسول الله صلى الله
عليه وسلم برفقة على بن أبى طالب رضى الله عنه وماحصل إثر ذلك :
"فمضى ومضيت معه ، حتى دخل ودخلت معه على النبي صلى الله عليه
وسلم ، فقلت له : اعرض على الإسلام ، فعرضه فأسلمت مكاني ، فقال لى :
ياأبا ذر اكنم هذا الأمر ، وارجع إلى بلدك ، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل . فقلت
والذى بعثك بالحق ، لأصرخن بها^(٤) بين أظهرهم ، فجاء إلى المسجد وقريش
فيه ، فقال : يامعشر قريش ، إنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا

(١) المدرة بفتح الميم والبدال ، والجمع المدر وهو قطع الطين اليابس . ينظر لسان
العرب ٤١٥٩/٦ .

(٢) يعنى من كثرة الدماء التى سالت ، والنصب بضم النون ، وبضم الصاد واسكانها
هو الصنم والحجر كانت الجاهلية تنصبه وتذبح عنده فيحمر بالدم ، وجمعه أنصاب
ينظر شرح النووى على صحيح مسلم ٢٨/١٦ .

(٣) الخبر بطوله رواه مسلم فى كتاب فضائل الصحابة رضى الله عنهم ، باب فضائل
أبى ذر رضى الله عنه ٣١-٢٧/١٦ .

(٤) "أى بكلمة التوحيد ، والمراد أنه يرفع صوته جهارا بين المشركين ، وكأنه فهم أن
أمر النبي صلى الله عليه وسلم له بالكتمان ليس على الايجاب ، بل على سبيل
الشفقة عليه ، فأعلمه أن به قوة على ذلك ، ولهذا أقره النبي صلى الله عليه وسلم
على ذلك" . فتح البارى ٢٢٣/٧ .

عبده ورسوله ، فقالوا : قوموا إلى هذا الصابئ^(١) ، فقاموا فَضْرِبَتْ
 لأموت^(٢) ، فأدركني العباس فأكب عليَّ ثم أقبل عليهم ، فقال : ويلكم ،
 تقتلون رجلا من غفار ، ومتجركم وممركم على غفار ، فأقلعوا عني ، فلما
 أن أصبحت الغد رجعت ، فقلت مثل ماقلت بالأمس ، فقالوا : قوموا إلى
 هذا الصابئ ، فصنع بي مثل ما صنع بالأمس ، وأدركني العباس فأكب عليَّ ،
 وقال مثل مقالته بالأمس^(٣) .
 * شهداء يوم بئر معونة^(٤) .

وكانوا سبعين من خيار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
 بعثهم عليه الصلاة والسلام الى بعض قبائل نجد لدعوتهم إلى الإسلام ، فغدر
 بهم عامر بن الطفيل ، واستشار عليهم بعض أهل الكفر فهجموا عليهم
 وأعملوا فيهم السيوف قتلا ، فلم ينج منهم إلا واحد تركوه وبه رمق رضى
 الله عنهم .

وقد روى البخارى القصة فى صحيحه مختصرة عن أنس رضى الله عنه
 قال : "بعث النبي صلى الله عليه وسلم أقواما من بنى سليم^(٥) إلى بنى عامر فى
 سبعين ، فلما قدموا قال لهم خالى^(٦) : أتقدمكم ، فإن أمنونى حتى أبلغهم

-
- (١) الصابئ : من صبا يصبو إذا انتقل من شىء إلى شىء ، وكانوا يسمون من أسلم
 صابيا . ينظر فتح البارى ٢٢٣/٧ .
 (٢) المعنى "ضربت ضربا لايبالى من ضربنى أن لو أموت منه" . فتح البارى ٢٢٣/٧ .
 (٣) الحديث بطوله رواه البخارى فى كتاب المناقب ، باب قصة إسلام أبى ذر رضى
 الله عنه ١٢٩٤/٣-١٢٩٦ ، ومسلم فى كتاب فضائل الصحابة رضى الله عنهم ،
 باب فضائل أبى ذر رضى الله عنه ٣٢/١٦-٣٤ .
 (٤) بئر معونة : "موضع فى بلاد هذيل بين مكة وعسفان" . فتح البارى ٤٨٢/٧ .
 (٥) التحقيق كما ذكر ابن حجر أن المبعوث هم القراء من الأنصار ، والمبعوث إليهم
 هم بنو عامر ، وأن بنى سليم هم الذين غدروا بالقراء المذكورين رضى الله عنهم
 والوهم فى هذا السياق من حفص بن عمر شيخ البخارى . ينظر فتح البارى
 ٢٣/٦ .
 (٦) هو حرام بن ملحان رضى الله عنه . ينظر فتح البارى ٤٩٢/٧ .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلا كنتم منى قريبا ، فتقدم فأمنوه ،
 فبينما يحدثهم عن النبي صلى الله عليه وسلم إذ أومؤوا إلى رجل منهم ،
 فطعنه فأنفذه ، فقال : الله أكبر فزت ورب الكعبة ، ثم مالوا على بقية
 أصحابه فقتلوهم إلا رجلا أعرج صعد الجبل ، فأخبر جبريل عليه السلام
 النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قد لقوا ربهم فرضى عنهم وأرضاهم ... " (١)

وفي رواية ابن إسحاق زيادة تفصيل إذ قال :

"قدم أبو براء عامر بن مالك ملاعب الأسنة على رسول الله صلى الله
 عليه وسلم المدينة ، فعرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام ،
 ودعاه إليه ، فلم يسلم ، ولم يبعد من الإسلام ، وقال : يا محمد لو بعثت رجلا
 من أصحابك إلى أهل نجد ، فدعوهم إلى أمرك ، رجوت أن يستجيبوا لك ،
 فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني أخشى عليهم أهل نجد ، قال أبو
 براء : أنا لهم جار ، فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك .

فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المنذر بن عمرو في أربعين (٢)
 رجلا من أصحابه من خيار المسلمين ، فساروا حتى نزلوا بئر معونة ، وهي
 بين أرض بني عامر وحرّة بنى سليم ، فلما نزلوها بعثوا حرام بن ملحان
 بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عدو الله عامر بن الطفيل ، فلما
 أتاه لم ينظر في كتابه حتى عدا على الرجل فقتله ، ثم استصرخ عليهم بنى
 عامر ، فأبوا أن يجيبوه إلى مادعاهم إليه ، وقالوا لن نخفر أبا براء ، وقد
 عقد لهم عقدا وجوارا ، فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سليم من عصية (٣)
 ورِعْل (٤) وذكوان ، فأجابوه إلى ذلك ، فخرجوا حتى غشوا القوم ، فأحاطوا
 بهم في رحالهم ، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ، ثم قاتلوهم حتى قتلوا من

(١) رواه البخارى في كتاب الجهاد ، باب من ينكب في سبيل الله ١٠٣١/٣ ، ومسلم

بنحوه في كتاب الإمارة ، باب ثبوت الجنة للشهيد ٤٦/١٣-٤٧ .

(٢) الصحيح أنهم سبعون كما في رواية البخارى .

(٣) عصية : بضم العين وفتح الصاد وتشديد الياء . الإكمال ٢١٤/٦ .

(٤) رعل : بكسر الراء وسكون العين . الإكمال ٧٧/٤ ، المغنى ص ١١١ .

عند آخرهم إلا كعب بن زيد ، تركوه وبه رمق ... " (١) .

ولم يكن لهم من ذنب - رضى الله عنهم - إلا أنهم دعاة إلى دين الله
جل وعلا ، ورسول لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) رواه ابن إسحاق قال : حدثني أبي إسحاق بن يسار عن المغيرة بن عبد الرحمن
وعبد الله بن أبي بكر وغيره من أهل العلم قالوا ... السيرة النبوية لابن هشام
١١٦/٣ (مع اختصار) . قال الألباني : صحيح مرسل ، فقه السيرة للغزالي ص ٢٧٧
(الحاشية) ، وروى الطبراني نحوه عن كعب بن مالك رضى الله عنه كما فى مجمع
الزوائد ١٨٤/٦ قال الهيثمى : رجاله رجال الصحيح ، وينظر : دلائل النبوة
للبهقي ٣/٣٤٣ ، زاد المعاد ٣/٢٤٦-٢٤٧ ، فتح الباري ٧/٤٩٢ .

(٤٣٢)

المبحث السادس

التضييق والملاحقة

لا يكتفى الملامكذبون بإثارة الشبهات حول الدعوة والدعاة ، ولا يكتفون بالإيذاء النفسى والبدنى للرسول عليهم السلام وأتباعهم من المؤمنين ، بل يعملون أيضا على محاولة إثناء الرسل عليهم السلام ومن استجاب لهم عن طريق الإيمان والدعوة بأسلوب آخر هو التضييق عليهم ، وحصارهم عباديا ، ودعويا ، واقتصاديا ، لتحجيم دوائريهم ، والتقليص من تأثيرهم الخارجى ، والتقليل من تحركهم ، وجعله فى أضيق نطاق ، وإشغالهم كذلك فى معاشهم والتفكير فى طعامهم وشرابهم ، ليكون ذلك أكبر همهم ، فلا يشغلهم حينئذ هم آخر من هموم الإيمان والدعوة .

بل إن الطغاة يتجاوزون حدود المكان والبلد ، فى متابعتهم لأحوال الرسل عليهم السلام والفئات المؤمنة ، والتضييق عليهم ، فيعملون على ملاحقتهم خارج أرضهم ، حتى لا يدعوا لهم مجالا للتنفس بحرية ، أو التوسع فى قواعدهم ودوائريهم ، أو إيجاد أرض خصبة للانتشار فيها ، وتكوين قاعدة قوية للإسلام ، أو تهيئة الظروف والجو المناسب لتربية النفوس على معانى الوحي الإلهى .

ومن الأمثلة على تلك الملاحقة للدعوة فى قصص القرآن الكريم ، ما حكاه الله تبارك وتعالى عن فرعون وملاحقته لموسى عليه السلام والمؤمنين من بنى إسرائيل ، حين خرجوا من مصر تنفيذا لأمر الله سبحانه ، نجاة بدينهم ، وانتقالا إلى أرض أخرى يعبدون الله فيها بأمن واستقرار وطمأنينة .

قال تعالى :

{وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون . فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين . إن هؤلاء لشرذمة قليلون . وإنهم لنا لغائظون . وإنما لجميع حاذرون} (١) .

ثم قال سبحانه :

{فأتبعوهم مشرقين} (١).

وقال سبحانه :

{فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا...} (٢).

لقد خرج موسى عليه السلام من بلاد فرعون هو ومن معه من المؤمنين ، وأصبح الجو خاليا لفرعون ، إذ لم تعد للدعوة حركة في بلاده ، فكان المتوقع حينئذ أن يسر فرعون بخروج أولئك المؤمنين ، بالنظر إلى كراهيته المتأصلة في نفسه ضد الدعوة وأهلها ، لكن فرعون الطاغية وملاؤه من حوله ، لا يرضيهم ذلك ولا يعجبهم ، إنهم لا يهدأون حين يرون الدعوة قد وجدت لها مجالا للانطلاق ، والكراهية عندهم لدين الله متأصلة لا ترتبط بالموقع والمكان ، ولذا فهم لا يسمحون للدعوة بالهدوء والاطمئنان في أى أرض أو بلاد ، مادام ذلك في مكنتهم .

إن خروج موسى عليه السلام والمؤمنين معناه انعتاقهم من بطش فرعون وجبروته ، وانفكاكهم من أسرهم وطغيانه ، ومن مضايقته وهم تحت سلطانه ، ومعناه أيضا أن الفرصة لهم أصبحت كبيرة ، والأمل عندهم واسع في التوسع بهدوء ، والتربية في استقرار ، وتعلم دينهم على روية . ذلك أمر يزعج الطغاة ، ويثير الرعب في أفئدتهم ، فليس من المعقول عندهم أن يبقى رعاة الدين والحق طلقاء ، وليس الأصل لديهم أن لا يجد المؤمنون بالدعوة حرجا وضيقا وهم يلتزمون تعاليم دينهم .

ومن ثم فقد قرر فرعون ملاحقة المؤمنين ، وأعد للأمر عدته ، إذ أمر بجمع الجموع من شتى المدائن ، وإعداد العدة ، وأصدر بيانه للجنود والجموع بأن هؤلاء الفارين شردمة لا يؤبه لها ، ولكنها مع قلة مكائنها وضعف أمرها تعمل أعمالا تغيظ وتغضب ولذلك فنحن مستعدون لها ،

(١) سورة الشعراء : آية ٦٠

(٢) سورة يونس عليه السلام : من آية ٩٠

متيقظون لهم ، متجهزون بالسلاح والعدة لملاحقتهم والقضاء عليهم :
 {فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين . إن هؤلاء لشرذمة قليلون . وإنهم
 لنا لغائظون . وإنا لجميع حاذرون} (١).

وبعد هذه التعبئة النفسية والدعاية الجماهيرية تحرك فرعون وملؤه على
 رأس تلك الجيوش للحاق ببني إسرائيل ومهاجمتهم ، ومنعهم من النجاة
 بدينهم {فأتبعوهم مشرقين} (٢). "أى فى وقت شروق الشمس" (٣).
 ولكن الله سبحانه كتب نصره للمؤمنين ، وأهلك فرعون وجنده :
 {فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانقلب فكان كل فرق
 كالطود العظيم . وأزلفنا ثم الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم
 أغرقنا الآخرين} (٤).

إن الملأ المستكبرين يرفضون أن يدعوا المجال للمؤمنين لتطبيق دينهم
 بحرية ، وليتلاقوا فيما بينهم فى أمن وطمأنينة ، وليأخذوا عن نبينهم عليه
 السلام ما جاء به عن ربهم سبحانه وتعالى ، حتى وإن أعلن الرسول
 والمؤمنون عزمهم على اتخاذ موقف الصبر وعدم المواجهة .
 لقد طلب شعيب عليه السلام من حماة الكفر - ماداموا قد أصروا على
 باطلهم - أن يتركوه ومن معه من المؤمنين وماهم فيه من الدين الذى
 ارتضوه لأنفسهم ، فلا يتعرضوا لهم ، ويسير كل على منهجه حتى يأتى حكم
 الله سبحانه :

{وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا
 حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين} (٥).
 وطلب موسى عليه السلام كذلك من آل فرعون أن يعتزلوه :

(١) سورة الشعراء : آية ٥٣-٥٦

(٢) سورة الشعراء : آية ٦٠

(٣) معانى القرآن للزجاج ٩٢/٤ .

(٤) سورة الشعراء : آية ٦٣-٦٦

(٥) سورة الأعراف : آية ٨٧

{وإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون} (١).
"أى فلا تتعرضوا لى ودعوا الأمر بينى وبينكم مسالمة إلى أن يقضى
الله بيننا" (٢).

إن هذا المطلب مع توسطه وانصافه ، وهدوئه ومسالمة ، وبعده عن
الإثارة والتصريح بالمواجهة ، لكنه لا يرضى أولئك المنسلطين ، ومن ثمّ كان
جواب الملاء من قوم شعيب عليه السلام ماحكاه القرآن فى قول الله جل
شأنه :

{قال الملاء الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك
من قريتنا أو نتعودن فى ملتنا ...} (٣).

وكان الجواب لموسى عليه السلام استمرارا فى مظاهر الإجرام ،
والبطش والتضييق ، والقهر والإيذاء ، حتى اتجه نبى الله إلى ربه يشكو
الظالمين :

{فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون} (٤).

وهذا يشير لإشارة واضحة إلى أن هؤلاء المستكبرين لا يرضيهم إلا أن
يرضخ الرسول عليه السلام والمؤمنون للمنهج الشركى والوضع الجاهلى ،
ويتخلوا عن الدين الحق والدعوة إليه ، وإلا فليستمر التضييق ، ولتستمر
الملاحقة .

إن "الطغيان قلما يقبل النصفة ، فهو يخشى الحق أن يظل ظليقا يحاول
أن يصل إلى الناس فى سلام وهدوء ، ومن ثم يحارب الحق بالبطش ولايسلم
أبدا ، فمعنى المسالمة أن يزحف الحق ويستولى فى كل يوم على النفوس
والقلوب ، ومن ثم يبطش الباطل ويرجم ، ولايعتزل الحق ولايدعه يسلم أو
يستريح" (٤).

-
- (١) سورة الدخان : آية ٢١
 - (٢) تفسير ابن كثير ١٤١/٤ .
 - (٣) سورة الأعراف : من آية ٨٨
 - (٤) سورة الدخان : آية ٢٢
 - (٥) فى ظلال القرآن ٣٢١٣/٥ .

ولقد كان أسلوب التضييق والملاحقة للدعوة سمة من السمات البارزة في علاقة الملائمة من قريش برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي تعاملهم مع المؤمنين بالدعوة رضوان الله عليهم .

والصور والمواقف في ذلك متعددة ، أذكر منها مايلي :

(أ) التضييق والحصار لشعائر الدين وتعاليمه :

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : "كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلى ، فجاء أبو جهل فقال : ألم أنك عن هذا؟ ألم أنك عن هذا؟" (١) وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : "قال أبو جهل : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال : فقيل : نعم ، فقال : واللوات والعزى لئن رأيتته يفعل ذلك لأطأن على رقبتة أو لأعفرن وجهه في التراب . قال : فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى ، زعم ليطأ على رقبتة ، قال : فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقى بيديه ، قال : فقيل له : مالك؟ فقال : إن بيني وبينه لخدقا من نار وهولا وأجنحة ... " (٢).

وفيه (٣) نزل قول الله تعالى :

{أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى} (٤).

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : "بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى عند البيت ، وأبو جهل وأصحاب له جلوس ، وقد نخرت جزور بالأمس ، فقال أبو جهل : أيكم يقوم إلى سلا جزور بنى فلان فيأخذه فيضعه في كنفى محمد إذا سجد فانبعث أشقى القوم فأخذه ، فلما سجد النبي صلى الله عليه وسلم وضعه بين كتفيه ، قال : فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض ... " (٥).

(١) سبق تخريجه ص ٣٧٠ .

(٢) سبق تخريجه ص ٣٦٩ .

(٣) ينظر : تفسير الطبرى ٢٥٦/٣٠ ، تفسير ابن كثير ٥٢٨/٤ ، تفسير البغوى ٥٧/٤ .

(٤) سورة العلق : آية ٩-١٠ .

(٥) سبق تخريجه ص ٣٨٠ .

ويقول عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما : "بيننا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط ، فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولوى ثوبه فى عنقه فخنقه خنقا شديدا ..."(١).

تلك بعض الأمثلة للتضييق عليه صلى الله عليه وسلم فى عبادته . أما أصحابه رضوان الله عليهم فقد كانوا يلاقون من التضييق عنتا كبيرا دفعهم فى كثير من الأحيان - خصوصا فى فترة الدعوة الأولى - إلى الاتجاه إلى عبادة الله تعالى سرا فى خفية عن أعين المشركين ، بل إن الكثير منهم لم يكن ليتمكن من إعلان إسلامه والجهربه ، إذ أن الكشف عن شىء من ذلك معناه التعرض لأذى رجال الكفر فى قريش ، كما حصل لأبى ذر رضى الله عنه حين نطق بالشهادتين علنا مجاهرا بإسلامه أمام أعين القوم وسمعهم (٢) ، وما حصل لابن مسعود رضى الله عنه لما جهر بتلاوة آيات من سورة الرحمن (٣) ، وما تعرض له آخرون كثير من الصحابة رضوان الله عليهم لما انكشف إسلامهم أو ظهر شىء من شعائر دينهم (٤).

إن هؤلاء الكبراء المضلين يتجهون هذا الاتجاه فى التضييق على الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم فى شعائرهم التعبدية رغبة فى تحجيم آثار هذا الدين فى المجتمع ، والحيلولة بينه وبين ظهور معالمه ، وشيوع شعائره ، وانتشار أمره ، كما أنهم يقصدون إشعار أولئك المؤمنين بأنهم منبوذون فى أرضهم ، لاتلقى تحركاتهم وقيامهم بشعائر دينهم قبولا من أوساط الكبراء ، فقد يدفع ذلك أفرادا منهم إلى الرجوع عن الدين ، والارتداد إلى منهج الكفر ، خوفا من استمرار التضييق والملاحقة والأذى ، وشعورا منهم باليأس من إمكانية الغلبة لهذا الدين .

(١) سبق تخريجه ص ٤٠٥ .

(٢) ينظر ص ٤٢٧-٤٢٩ .

(٣) ينظر ص ٤٢٦-٤٢٧ .

(٤) الأمثلة كثيرة فى كتب السير والتراجم ، وورد شىء من ذلك فى المطلب السابق .

ويزداد انزعاج هؤلاء المستكبرين إذا كان لتلك الشعائر أثرها في الجماهير ، ودورها في تحريك الفطر السليمة لتفكر في أمر الدين ، وما يحمله من الحق والهدى ، وإشعال جذوة الخير في النفوس .
إن تلك مرحلة أكبر وأعظم لا يتحمل الأكابر المكذبون وجودها ، ويحاربونها بشدة .

ذلك أن وجود الشعائر التعبدية على المستوى الفردي الخاص مما لا يطلع عليه الآخرون أمر لا يرضى دائماً أولئك الملأ من قريش ، وقد يجابهونه بالتضييق إلا أنه على كل حال يبقى مسألة هينة مادام في هذا المحيط الفردي لكن الأمر يختلف تماماً حين يرون هذه الشعائر التعبدية تحولت من المستوى الفردي البحت إلى المستوى الجماعى ، والتأثير الجماهيرى ، وأصبحت تؤثر في العامة بالقذوة والإيحاء .

إنهم حينئذ لا يهدأون أبداً ، ولا يسمحون لذلك الوضع بالاستمرار ، لأن ذلك معناه انتشار الدين وتعاليمه على مستوى العامة والجماهير .
وبهذا الشكل فهم يحاربون كل ألوان الدعوة إلى هذا الدين ، لأنها تخرج الإسلام من الدائرة الفردية إلى التأثير على الآخرين ، وانضمامهم بالتالى إلى صف المؤمنين .

ولا يخرج لون من ألوان الدعوة عن هذا التضييق والحصار ، حتى تلك الدعوة الصامتة التى لا يتكلم فيها أصحابها بألسنتهم ، وإنما تنطق شخصياتهم وتطبيقهم العملى بعظمة هذا الدين ، وأحقيته ، وما يحمله من النور والهدى واليقين ، والطمأنينة والاستقرار . ذلك الشعور من هؤلاء الملأ من قريش يمكن أن نجد صورة واضحة له فيما حصل لأبى بكر الصديق رضى الله عنه . فعن عائشة رضى الله عنها قالت : " لم أعقل أبوى قط إلا وهما يدينان الدين ^(١) ، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله صلى الله عليه

وسلم طرفي النهار بكرة وعشية ، فلما ابتلى المسلمون خرج أبو بكر مهاجرا نحو أرض الحبشة ، حتى إذا بلغ برك الغماد^(١) لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة^(٢) فقال : أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر : أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي ، قال ابن الدغنة : فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج ، إنك تكسب المعدوم ، وتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فأنا لك جار^(٣) ، ارجع واعبد ربك ببلدك . فرجع وارتحل معه ابن الدغنة ، فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش ، فقال لهم : إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج ، أخرجون رجلا يكسب المعدوم ، ويصل الرحم ، ويحمل الكل ، ويقري الضيف ، ويعين على نوائب الحق؟ فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة ، وقالوا لابن الدغنة : مر أبا بكر فليعبد ربه في داره فليصل فيها وليقرأ ماشاء ، ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به ، فإننا نخشى أن يفتن نساءنا وأبنائنا . فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر ، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره ، ولا يستعلن بصلاته ، ولا يقرأ في غير داره ، ثم بدا لأبي بكر^(٤) فابتنى مسجدا بفناء داره وكان يصل فيه ، ويقرأ القرآن ، فينقذ عليه^(٥) نساء المشركين وأبنائهم ، وهم يعجبون منه وينظرون إليه ، وكان أبو بكر رجلا بكاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن ، وأفزع^(٦) ذلك أشراف قريش من المشركين ، فأرسلوا إلى ابن

(١) برك الغماد : بفتح الباء وحكى كسرهما وسكون الراء ، وبكسر الغين وحكى

ضمهما وتخفيف الميم . وهو موضع على مسافة خمس ليال من مكة إلى جهة اليمن

ينظر : المغنى ص ٣٦ ، تبصير المنتبه ١/١٤٤ ، فتح الباري ٧/٢٩٤ .

(٢) الدغنة : بفتح الدال وكسر الغين وتخفيف النون ، وهى أمه ، وقيل أم أبيه .

والقارة بتخفيف الراء اسم قبيلة ، وكانوا حلفاء بني زهرة من قريش . ينظر فتح

الباري ٧/٢٩٤ .

(٣) "أى مجير ، أمنع من يؤذيك" . فتح الباري ٧/٢٩٥ .

(٤) "أى ظهر له رأى غير الرأى الأول" . فتح الباري ٧/٢٩٥ .

(٥) المقصود أنهم يجتمعون ويتدافعون ويزدحمون على مشاهدته . ينظر فتح الباري

٧/٢٩٦ .

(٦) "أى أخاف الكفار ، لما يعلمونه من رقة قلوب النساء والشباب ، أن يميلوا إلى

دين الإسلام" . فتح الباري ٧/٢٩٦ .

الدغنة ، فقدم عليهم ، فقالوا : إنا كنا أجرتنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره ، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجدا بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه ، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبنائنا ، فانهه فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل ، وإن أبي إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك ، فإنا قد كرهنا أن نخفرك ، ولسنا مقربين لأبي بكر الاستعلان .

قالت عائشة : فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال : قد علمت الذي عاقدت لك عليه ، فأما أن تقتصر على ذلك ، وإما أن ترجع إليّ ذمتي ، فإني لأحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له ، فقال أبو بكر : فإني أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله عز وجل" (١).

إن هذا الموقف الذي مر به أبو بكر رضى الله عنه هو نموذج ومثال واضح للتضييق على الدعوة ، ومحاوله حصارها في محيط أهلها ، وققل أى ثغرة يمكن أن ينتقل عن طريقها أثر هذا الدين إلى الآخرين .
ومن خلال تلك الحادثة يمكن الإشارة إلى مايلي :

* إن تفكير أبي بكر رضى الله عنه في الهجرة إلى الحبشة في حد ذاته كان نتيجة لهذا التضييق المستمر على الصحابة رضوان الله عليهم ، سواء في عملهم بالإسلام وتنفيذهم لشعائره وتعاليمه ، أو في عملهم للإسلام دعوة راليه ونشرا لمعلمه .

ولذا جاء في رواية ابن إسحاق أن أبا بكر رضى الله عنه "حين ضاقت عليه مكة ، وأصابه فيها الأذى ، ورأى من تظاهر قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مارأى ، استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة فأذن له" (٢).

(١) رواه البخارى في كتاب فضائل الصحابة ، باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة ٣/١٤١٧-١٤١٨ .

(٢) من رواية ابن إسحاق قال : حدثني الزهري عن عروة عن عائشة رضى الله عنها السيرة النبوية لابن هشام ١/٢٩٨-٣٠٠ .

ولما لقيه ابن الدغنة وسأله عن سبب خروجه قال أبو بكر رضى الله عنه كما فى رواية البخارى : "أخرجنى قومى فأريد أن أسيح فى الأرض وأعبد ربى" ، وفى رواية ابن إسحاق : "أخرجنى قومى وآذونى وضيقوا علىّ" فسبب الهجرة إذن هو التضيق الشديد على تحرك القوم بالإسلام ، وحصارهم فى عبادتهم ودينهم ، فأراد أبو بكر رضى الله عنه أن ينتقل من هذه الأرض التى يحاصر فيها الإسلام ، إلى أرض أخرى يجد فيها الحرية فى الالتزام بالإسلام وتعاليمه .

ولما كان هذا سبب الخروج كانوا هم فى الواقع المخرجين له ولذا قال "أخرجنى قومى" .

* كان شرط أشرف قريش للقبول بجوار ابن الدغنة لأبى بكر رضى الله عنه هو أن يكتفى أبو بكر رضى الله عنه فى مسألة الدين بالشعائر العبادية فى خاصة نفسه ، وأن يستسر بها ولا يعلنها أمام العامة "مر أبا بكر فليعبد ربه فى داره ، فليصل فيها وليقرأ ماشاء ، ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به ، فإننا نخشى أن يفتن نساءنا وأبنائنا" .
وذلك يدل على أمرين :

الأول : التضيق الشديد ، والحصار المحكم ، الذى كان الملاء من قريش يحاولون فرضه على الدعوة ، وعلى الملتزمين بها من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهم ، حتى فى شعائر الدين التى لا تتجلى فيها الدعوة إلى الإسلام .

الثانى : أن الملاء من قريش يمكن أن يقدموا موافقتهم على مضمض إذا كان الأمر يتعلق بالشعائر التعبدية الفردية التى لا يطلع عليها الجمهور ، وبالتالى فليس لها تأثير خارجى (مر أبا بكر فليعبد ربه فى داره ، فليصل فيها وليقرأ ماشاء) .

ولكنهم لا يمكن أبدا أن يسمحوا بأن يتحرك الصحابة رضوان الله عليهم من أجل الدين ودعوة الناس إليه ، والتأثير فى الأفكار ، وتصحيح العقائد والتصورات والمفاهيم .

إن ذلك أمر مرفوض حتما لدى الملأ من قريش ، ويعتبرون ذلك لو حصل قضية شائكة تؤرقهم وتؤذيهم (ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به) ثم بينوا السبب في تحذيرهم من الاستعلان بشعائر الدين فقالوا (فإننا نخشى أن يفتن نساءنا وأبنائنا) .

فهم يخشون من أن يتحول الأمر من مجرد علاقة فردية بالله سبحانه إلى مرحلة أخرى تتم فيها الدعوة إلى هذا الدين والتأثير به في عموم الناس ومحاولة مخاطبة الفطر السليمة فيهم لجذبهم إلى الإسلام والدين الحق .

* يبدو أن الملأ من قريش كانوا يحسون بما في هذا الدين من جاذبية وكونه يخاطب الفطرة في الانسان ، وأن الحق فيه قريب من النفس لو أتيح لها أن تتأمل فيه بحرية ، دون أى مؤثرات أو ضغوط خارجية ، وهذا الإدراك منهم هو الذى يدفعهم للخشية من هذا الدين حين يعرض مبادئه ، وهو ما يدفعهم كذلك للتضييق عليه ، والحصار لرجاله القائمين عليه حتى لا تحصل الفتنة - حسب تعبيرهم - (فإننا نخشى أن يفتن نساءنا وأبنائنا) . وهذا الذى حصل ، فقد فزع الأشراف وأصابهم الرعب لما رأوا نساءهم وأبنائهم وهم يستمعون إلى قراءة أبى بكر رضى الله عنه ، ويشاهدون صلاته لما ابتنى له مسجدا فى فناء داره ، وبدأوا يتأثرون بما يرون .

ومن ثم تحركوا سريعا لتشديد الحصار من جديد ، ولزيادة الأذى والتضييق ، فكلموا ابن الدغنة ، وطلبوا منه أن يرفع حمايته عن أبى بكر إذا أراد أن يستمر فى الاستعلان بدينه . (إننا كنا أجرينأبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه فى داره ، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجدا بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه ، وإننا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبنائنا ، فانه فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه فى داره فعل ، وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك ، فإننا قد كرهنا أن نخفرك ، ولسنا مقرين لأبى بكر الاستعلان) . وكانت هذه وسيلة ضغط على أبى بكر رضى الله عنه ، لم يرضخ لها فرد لابن الدغنة جواره .

ومن مظاهر حصار الدعوة والتضييق عليها أيضا محاولات الملأ من قريش في الضغط على رسول الله صلى الله عليه وسلم من خلال عشيرته ، والمتمثلة في أبي طالب الذي كان يذب عنه - عصبية - ويحميه .

عن عَقِيل^(١) بن أبي طالب رضى الله عنه قال : "جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك يأتينا في أفئتنا ، وفي نادينا ، فيسمعنا ما يؤذينا به ، فإن رأيت أن تكفه عنا فافعل ، فقال لى : يا عقيل ، التمس لى ابن عمك ، فأخرجته من كَبَس^(٢) من أكباس أبي طالب ، فأقبل يمشى معى ، يطلب الفىء يمشى فيه ، فلا يقدر عليه ، حتى انتهى إلى أبي طالب ، فقال له أبو طالب : يا ابن أخى ، والله ما علمت ، ان كنت لى لمطاعا ، وقد جاء قومك يزعمون أنك تأتيهم في أفئتهم وفي ناديمهم ، تسمعهم ما يؤذيههم ، فإن رأيت أن تكف عنهم ، فحلق ببصره إلى السماء ، فقال : والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحدكم من هذه الشمس شعلة من نار . فقال أبو طالب : والله ما كذب ابن أخى قط ، ارجعوا راشدين"^(٣).

ويقول ابن إسحاق : "فلما رأيت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعجبهم^(٤) من شىء أنكروه عليه ، من فراقهم وعيب آلهتهم ، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حذب عليه ، وقام دونه ، فلم يسلمه لهم ، مشى رجال من أشرف قريش إلى أبي طالب : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، وأبو البختري ، والأسود بن المطلب ، وأبو جهل ، والوليد بن المغيرة ، ونبيّه^(٥) ومنبه ابنا الحجاج ، والعاص بن وائل ، أو من مشى منهم ، فقالوا : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ،

(١) عقيل : بفتح العين . تهذيب الأسماء ١/٣٣٧ ، تبصير المنتبه ٣/٩٦٠ .

(٢) الكبس بكسر الكاف وسكون الباء : بيت صغير . ينظر النهاية ٤/١٤٣ .

(٣) رواه الطبرانى وأبو يعلى كما فى مجمع الزوائد ٦/٨-٩ قال الهيثمى : رجال أبي يعلى رجال الصحيح ، ورواه البيهقى فى الدلائل ٢/١٨٦-١٨٧ ، والبخارى فى التاريخ كما فى البداية ٣/٥٥ ، والدلائل ٢/١٨٧ ، وحسنه الألبانى : سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/١٤٧-١٤٨ .

(٤) أى لا يرضيهم بالرجوع عما ينكروه عليه . ينظر ترتيب القاموس ٣/١٤٥ .

(٥) نبيه بن الحجاج : بضم النون وفتح الباء وسكون الياء . المغنى ص ٢٥٢ .

وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلى بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه ، فقال لهم أبو طالب قولا رفيقا ، وردهم ردا جميلا ، فانصرفوا عنه " (١) .

ولما لم يروا لمقاتلتهم أثرا في الواقع عادوا إليه ليناقشوه الأمر من جديد .

يقول ابن إسحاق : " ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى ، فقالوا له : يا أبا طالب ، إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا ، وإننا قد استنهييناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإننا والله لانصير على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين " (٢) .

وواضح أنهم يقصدون وضع أبي طالب أمام خيارين اثنين :
أولهما : أن يلزم ابن أخيه محمدا عليه الصلاة والسلام بالتوقف عن دعوته ، والامتناع عن الحديث فيما جاء به من دين الله سبحانه ، والانتهاز عن التعرض لما في منهج القوم من الضلال .
وثانيهما : أن يعلن رفع الحماية عن محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن ثم يتمكنون من التعامل معه بجرية أكبر للقضاء عليه وعلى دعوته .

(ب) التضييق والحصار المعيشي :

تلك إحدى قواعد أبي جهل في محاربة المؤمنين .
فقد كان إذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومنعة أئبه وأخزاه ، وقال : تركت دين أبيك وهو خير منك ، لنسفهن حلمك ، وكفيلن رأيك ، ولنضعن شرفك ، وإن كان تاجرا قال : والله لنكسدن تجارتك ، ولنهلكن

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١٩٩/١-٢٠٠ ، وينظر : البداية ٦٢/٣-٦٣ ، السيرة الحلبية ٤٦١/١ ، سبل الهدى والرشاد ٤٣٦/٢ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢٠٠/١ ، وينظر : البداية ٦٣/٣ ، السيرة الحلبية ٤٦٢/١ ، سبل الهدى والرشاد ٤٣٦/٢-٤٣٧ .

مالك ، وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به "(١).

فأبو جهل وأمثاله يتواصلون بالتضييق على المؤمنين في معاشهم وتجاراتهم ، وسد أبواب العمل والكسب أمامهم ، وإغلاق مجال الربح في وجوههم ، حتى تبقى الفئة المؤمنة فقيرة المال ، ضعيفة الحال ، يشغلها أمر المعيشة والأرزاق عن الدعوة والإسلام .

بل ويتخذون من هذا التضييق وسيلة للضغط على المؤمنين ودفعهم لاختيار طريق الكفر الذى يسير فيه القوم ، بالإضافة إلى تحذير الآخرين من سلوك سبيل المؤمنين .

ومن أبرز صور هذا التضييق من الملأ المكذبين في قريش تلك الحرب الاقتصادية المعلنة التى تحالفوا فيها وتعاهدوا ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من أصحابه رضوان الله عليهم ، والمتعاطفين معهم عصبية من بنى هاشم .

وكانت الاتفاقية بينهم تتضمن المقاطعة التامة فى الشؤون التجارية ، والعلاقات الاجتماعية ، فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم ، ولا يشتركون منهم ولا يبيعونهم .

قال ابن إسحاق : " فلما رأَت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزلوا بلدا أصابوا به أمنا وقرارا ، وأن النجاشى قد منع من لجأ إليه منهم ، وأن عمر قد أسلم ، فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وجعل الإسلام يفسو فى القبائل اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، على أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئا ، ولا يبتاعوا منهم ، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه فى صحيفة ، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم .

فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب ابن عبد المطلب ، فدخلوا معه في شعبه واجتمعوا إليه ، وخرج من بني هاشم أبو لهب - عبد العزى بن عبد المطلب - إلى قريش فظاهروهم^(١). وقد أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم - فيما بعد - إلى هذه الحادثة ، وذلك فيما رواه أبو هريرة رضى الله عنه قال : "قال النبي صلى الله عليه وسلم من الغد يوم النحر ، وهو بمنى : نحن نازلون غدا بجيف بني كنانة ، حيث تقاسموا على الكفر^(٢). يعنى بذلك المحصب^(٣) ، وذلك أن قريشا وكنانة تحالفت على بني هاشم وبني عبد المطلب ، أو بني المطلب ، أن لا يناكحوهم ، ولا يبايعوهم ، حتى يسلموا إليهم النبي صلى الله عليه وسلم"^(٤).

ولقد كان لذلك الحصار أثره البالغ في التضييق على المؤمنين ، فأصابهم من الجوع والحاجة ما لا يعلمه إلا الله سبحانه ، وجهدوا سنوات متتالية لا يجدون فيها من الطعام ما يسدون به الرمق "حتى كان يسمع أصوات صبيانهم يتضاغون^(٥) من وراء الشعب من الجوع"^(٦).

-
- (١) رواه ابن إسحاق دون اسناد: السيرة النبوية لابن هشام ٣٧٨/١-٣٧٩ ، ورواه البيهقي في الدلائل بنحوه من طريق موسى بن عقبة عن الزهري ٣١١/٢-٣١٢ ، وينظر : زاد المعاد ٢٩/٣-٣١ ، فتح الباري ٢٤٤/٧-٢٤٥ ، البداية ١٠٥/٣-١٠٧ ، السيرة الحلبية ٢٥/٢-٢٦ ، سبل الهدى والرشاد ٥٠٢/٢-٥٠٤ .
- (٢) أى "تحالفوا وتعاهدوا عليه" . شرح النووى على صحيح مسلم ٦١/٩ .
- (٣) المحصب " بفتح الحاء والصاد وتشديدها وهو الشعب الذى تخرجه إلى الأبطح بين مكة ومنى " . النهاية ٣٩٣/١ .
- (٤) و"الجيف ما انحدر عن غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء" . فتح الباري ١٨/٨ .
- (٥) رواه البخارى في كتاب الحج ، باب نزول النبي صلى الله عليه وسلم مكة ٥٧٦/٢-٥٧٧ ، ومسلم في كتاب الحج ، باب استحباب النزول بالمحصب يوم النفر ٦١/٩ .
- (٥) يتضاغون : أى يبكون ويصيحون . ينظر لسان العرب ٢٥٩٣/٤ .
- (٦) العبارة من رواية البيهقي في الدلائل عن ابن إسحاق ٣١٥/٢ .

ففى رواية الزهرى "فلبث بنو هاشم فى شعبهم يعنى ثلاث سنين (١) ، واشتد عليهم البلاء والجهد ، وقطعوا عنهم الأسواق ، فلا يتركوا طعاما يقدم مكة ولا يبيعا إلا بادروهم إليه فاشتروه" (٢) .

قال السهيلي : "وفى الصحيح (٣) أنهم جهدوا حتى كانوا يأكلون الخبث (٤) وورق السم (٥) ، حتى إن أحدهم ليضع كما تضع الشاة ، وكان فيهم سعد بن أبى وقاص" (٦) .

يقول سعد رضى الله عنه : "لقد رأيتنى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، خرجت من الليل أبول ، وإذا أنا أسمع بقعقة شىء تحت بولى فإذا قطعة جلد بعير ، فأخذتها فغسلتها ، ثم أحرقتها فوضعتها بين حجرين ، ثم استفتتها وشربت عليها من الماء ، فقويت عليها ثلاثا" (٧) .

-
- (١) بدأت المقاطعة فى محرم سنة سبع من البعثة ، واستمرت حتى نقض الاتفاق إثر تحرك بعض رجال قريش . ينظر : زاد المعاد ١/٩٨ ، ٣٠/٣ ، السيرة النبوية لابن هشام ٢/١٠٣ ، سبل الهدى والرشاد ٢/٥٠٤ .
- (٢) دلائل النبوة للبيهقى ٢/٣١٢ ، وينظر : الروض الأنف ٢/١٢٧-١٢٨ ، سبل الهدى والرشاد ٢/٥٠٣-٥٠٤ ، السيرة النبوية لابن هشام ١/٢٨١-٢٨٢ .
- (٣) الذى وقفت عليه قول عتبة بن غزوان رضى الله عنه - ضمن خطبته - "ولقد رأيتنى سابع سبعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مالنا طعام إلا ورق الشجر حتى قرحت أشداقنا ، فالتقطت بردة فشقتها بينى وبين سعد بن مالك (هو ابن أبى وقاص رضى الله عنه) فاتزرت بنصفها ، واتزر سعد بنصفها ... " رواه مسلم فى كتاب الزهد ١٨/١٠٢ .
- (٤) الخبث بفتح الباء : الورق الساقط من الشجر ، والخبث باسكان الخاء : ضرب الشجر بالعصا ليتناثر ورقها . ينظر النهاية ٢/٧ .
- (٥) السم بفتح السين وضم الميم "هو ضرب من شجر الطلح ، الواحدة سمرة" . النهاية ٢/٣٩٩ ، ترتيب القاموس ٢/٦١٠ .
- (٦) الروض الأنف ٢/١٢٧ .
- (٧) رواه أبو نعيم فى الحلية ١/٩٣ من طريق ابن إسحاق قال حدثنى صالح بن كيسان عن بعض آل سعد عن سعد رضى الله عنه .

(ج) ملاحقة الدعوة وأهلها خارج مكة :

لم يكتف الملاء من قريش بالتضييق على الدعوة داخل مكة ، وإيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فيها بشتى أنواع الأذى ، بل اتجهوا إلى ملاحقتها خارجها أيضا .

ذلك أن أولئك المشركين لم يكن ليرضاهم أن يجد المؤمنون دارا آمنة في أى بقعة من الأرض ، يشعرون فيها بالطمأنينة والاستقرار ، في دينهم وأنفسهم وأموالهم ، ويجدون فيها الحرية في المجاهرة بدعوتهم وإعلان إسلامهم ، وتطبيق شعائر دينهم .

ومن ثمَّ كان هؤلاء المستكبرون من قريش يبذلون الجهود في قطع كل محاولة يقوم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه للانتشار خارج مكة ، وانتقال الدعوة عن طريقهم إلى بلاد أخرى يمكن أن تكون قواعد آمنة للدعوة وأهلها ، يحدوهم الأمل في إبقاء الدعوة محاصرة داخل مكة ، حتى تتآكل من داخلها ، فينتهى أثرها في الداخل بعد حين ، في الوقت الذى لا يكون لها فيه أى امتداد في الخارج .

ومن النماذج على هذه الملاحقة ما يأتى :

أولا : ملاحقة المهاجرين إلى الحبشة ، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهم :

عن أم سلمة رضى الله عنها قالت :

"لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار : النجاشى ، أمنا على ديننا وعبدنا الله تعالى ، لأنؤذَى ولا نسمع شيئا نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشا ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشى فينا رجلين منهم جلددين ، وأن يهدوا للنجاشى هدايا مما يستطرف^(١) من متاع مكة ، وكان من أعجب ما يأتى منها

(١) أى يستحسن من الجديد المستحدث الذى يعجب من يشاهده . ينظر لسان العرب

الأدم^(١)، فجمعوا له أدما كثيرا ، ولم يتركوا من بطارقتة^(٢) بطريقا إلا أهدوا له هدية ، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص ، وأمروهما بأمرهم ، وقالوا لهما : ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلمنا النجاشي فيهم ، ثم قدما إلى النجاشي هداياه ، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم ، قالت : فخرجا حتى قدما على النجاشي ، ونحن عنده بخير دار عند خير جار ، فلم يبق من بطارقتة بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلمنا النجاشي ، وقالوا لكل بطريق منهم : إنه ضوى^(٣) إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع ، لانعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردوهم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم ، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم ، فإن قومهم أعلى بهم عينا^(٤) وأعلم بما عابوا عليهم ، فقالوا لهما نعم . ثم إنهما قدما هداياهم إلى النجاشي فقبلها منهما ، ثم كلماه فقالا له أيها الملك ، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لانعرفه نحن ولا أنت وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائهم لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه ، قالت : ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي . قالت : فقالت بطارقتة حوله : صدقا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم . قالت : فغضب النجاشي ، ثم قال : لاها الله ، إذن لأسلمهم

(١) بضم الهمزة والذال : جمع أديم وهو الجلد . ينظر لسان العرب ٤٥/١ .

(٢) جمع بطريق بكسر الباء ، وهو القائد ، الحاذق بالحرب وأمورها بلغة الروم ، وهو صاحب منصب عندهم . ينظر : ترتيب القاموس ٢٨٧/١ ، النهاية ١٣٥/١ .

(٣) ضوى : أى لجأ . ينظر ترتيب القاموس ٤٦/٣ .

(٤) "أى أبصر بهم وأعلم بحالهم" . النهاية ٢٩٥/٣ ، وينظر الروض الأنف ٩٢/٢ .

إليهما ، ولايكد قوم^(١) جاوروني، ونزلوا بلادى ، واختاروني على من سواى حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم ، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ، ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما ، وأحسنت جوارهم ماجاوروني .

قالت : ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ، ثم قال بعضهم لبعض : ماتقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا : نقول والله ماعلمنا ، وماأمرنا به نبينا صلى الله عليه وسلم كائنا فى ذلك ماهو كائن ، فلما جاءوا - وقد دعا النجاشى أسأفته ، فنشروا مصاحفهم^(٢) حوله - سألهم فقال لهم : ماهذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به فى دينى ، ولافى دين أحد من هذه الملل؟ قالت : فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب فقال له : أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام - قالت : فعدد عليه أمور الإسلام - فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ، ليردوننا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ،

(١) أى لايمكر بهم ولايرادون بسوء . ينظر لسان العرب ٣٩٦٥/٥ .

(٢) المصاحف جمع مصحف ، وهو الجامع للصحف المكتوبة . ينظر لسان العرب

وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورجبنا في جوارك ، ورجونا أن لانظلم عندك أيها الملك . قالت : فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قالت : فقال له جعفر : نعم ، فقال له النجاشي : فاقرأه على ، قالت : فقرأ عليه صدرا من (كهيعص) ، قالت : فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته^(١) ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم ، حين سمعوا ماتلا عليهم ، ثم قال لهم النجاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة^(٢) واحدة ، انطلقا ، فلا والله لأسلمهم إليكما ، ولا يكادون .

قالت : فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص : والله لآتينه غدا عنهم بما أستأصل به خضراءهم^(٣) . قالت : فقال له عبد الله بن أبي ربيعة ، وكان أتقى الرجلين فينا : لاتفعل ، فإن لهم أرحاما ، وإن كانوا قد خالفونا قال : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد ، قالت : ثم غدا عليه من الغد ، فقال له : أيها الملك ، إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولا عظيما فأرسل إليهم فسلمهم عما يقولون فيه . قالت : فأرسل إليهم ليسألهم عنه . قالت : ولم ينزل بنا مثلها قط ، فاجتمع القوم ، ثم قال بعضهم لبعض ماذا تقولون في عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا : نقول والله ما قال الله ، وما جاءنا به نبينا ، كائنا في ذلك ما هو كائن . قالت فلما دخلوا عليه قال لهم : ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟ قالت : فقال جعفر بن أبي طالب نقول فيه الذي جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم ، نقول : هو عبد الله

(١) اخضلت لحيته : أى ابتلت بالدموع . ينظر النهاية ٤٣/٢ .

(٢) المشكاة : الكوة غير النافذة - والكوة الخرق في الخائط - وقيل : هى الحديدية التى يعلق عليها القنديل ، ومراد النجاشي أن القرآن والإنجيل كلاهما من مصدر واحد ، والجميع كلام الله سبحانه . ينظر لسان العرب ٢٣١٥/٤ ، ٣٩٦٤/٥ .

(٣) أى سوادهم ومعظمهم ، والمراد : ماأمكن به من القضاء عليه . ينظر لسان العرب

ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول (١). قالت : ف ضرب النجاشي بيده إلى الأرض ، فأخذ منها عودا ، ثم قال : والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود ، قالت : فتناخرت (٢) بطارقتة حوله حين قال ما قال ، فقال : وإن نخرتم والله ، اذهبوا فأنتم شيوم بأرضى - والشيوم الآمنون - من سبكم غرم ، ثم قال : من سبكم غرم ، ثم قال : من سبكم غرم ، ما أحب أن لي دبرا (٣) من ذهب ، وأنى آذيت رجلا منكم ، ردوا عليهما هداياهم فلاحاجة لي بها ، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي ، فأخذ الرشوة فيه وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه .

قالت : فخرجا من عنده مقبوحين مردودا عليهما ماجاءا به ، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار (٤).

إن هذه الحادثة تمثل صورة من صور الملاحقة للدعوة وللمؤمنين بها ، ويمكن تحليلها فيما يلي :

* لقد كان الباعث على هجرة المؤمنين إلى الحبشة هو الفرار بالدين من الحواجز والعقبات التي كان الملأ من قريش يضعونها في وجه الإسلام ، والدعاة إليه ، والمتمسكين به ، والبحث عن مكان آمن مستقر يمكن فيه إظهار شعائر دين الله سبحانه ، بعيدا عن تلك الحواجز والعقبات ، وذلك التضييق من أعداء الدين .

(١) سميت بذلك لانقطاعها عن الرجال . ينظر النهاية ٩٤/١ .

(٢) قال في النهاية ٣٢/٥ : "أى تكلمت ، وكأنه كلام مع غضب ونفور" .

(٣) بفتح الدال وسكون الباء ، وهو الجبل . ينظر : ترتيب القاموس ١٤٥/٢ ، السيرة النبوية لابن هشام ٢٦٨/١ .

(٤) رواه ابن إسحاق : السيرة النبوية لابن هشام ٢٦٥-٢٦٨ ، وأحمد من طريق ابن إسحاق بتمامه : الفتح الرباني ٢٠-٢٢٦-٢٢٨ ، قال الهيثمي : "رجال رجال الصحيح غير ابن إسحاق ، وقد صرح بالسماع" مجمع الزوائد ٢٨/٦ ، وصححه الساعاتي في بلوغ الأمان ٢٠/٢٢٩ ، وشاكر : المسند ٣/١٨٠ ، والألباني : فقه السيرة للغزالي ص ١١٥ (الحاشية) .

يظهر ذلك في كلمات جعفر رضى الله عنه "فعدا علينا قومنا ، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الحبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك " .

* أزعجت هذه الهجرة سادة قريش وأفزعتهم ، إذ أنها تعنى نجات طائفة من المؤمنين بدينها من الفتنة والإيذاء والتضييق الشديد بمكة ، وتعنى أيضا حصول المؤمنين على أرض يأمنون فيها ويستقرون ، ويتمكنون فيها من توحيد ربهم وعبادته سبحانه في طمأنينة ، والنمو بعقيدتهم وإسلامهم في هدوء ، والتلقى والعطاء في دوائهم على منهج الله سبحانه دون عنت . وكلا الأمرين مر على الملأ من قريش ، يصيبهم بالقلق والرعب ، وتغلى من أجل ذلك الأحقاد في القلوب ، وهم يرون المؤمنين قد خرجوا من سلطتهم ، ونجوا من أيديهم ، في الوقت الذى كانوا فيه ينفسون في هؤلاء المؤمنين وأمثالهم حقدهم على الإسلام ، وبغضهم لعقيدته . ومن ثم تحرك أصحاب النفوذ من قريش لمحاولة تغيير هذا الوضع الجديد ، وهدم بناءه ، والقضاء على هذه الدائرة الإيمانية البعيدة عن السيطرة والرقابة والتسلط .

وبعد التآمر والتخطيط كان قرارهم بإرسال سفيرين إلى النجاشى لمحاولة التأثير عليه ليطرد هؤلاء المؤمنين من بلاده ، ويضطرهم إلى العودة إلى مكة ليعيشوا من جديد تحت تسلط أهل الشرك من قريش .

* الغاية عند أولئك الملأ من قريش تبرر الوسيلة ، ولذا فلما منع عندهم من استعمال كل وسيلة في سبيل الضغط على النجاشى ، والوصول إلى هدفهم في طرد المؤمنين من الحبشة ، ولذا اتفقوا على تقديم الرشاوى في ثوب الهدايا المستطرفة التى تعجب أهل الحبشة للبطارقة ، في مقابل أن يقوموا بدورهم في الضغط على النجاشى ، وأن يضموا صوتهم إلى صوت السفيرين في المطالبة بطرد المؤمنين وتسليمهم ، بناء على أن (قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوهم عليه) .

* وكان من ضمن الخطة الموضوعة أن يحاول السفيران الوصول إلى الهدف قبل أن يحصل التمكين للمؤمنين من قول كلمتهم في القضية ، وإبداء رأيهم في أسباب هجرتهم ، وموقف القوم منهم .

إن لذلك دلالة الواضحة على رعب حماة الباطل من الحق الذي يحمله الإسلام ، وعلى يقينهم بأن ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الدين الصحيح ، الذي يحوى من الأدلة والبراهين ما يؤكد الهدى والحق فيه .

وهم بدلا من الاتجاه إلى الإسلام ليجعلوه عقيدة لهم ودينا ، يعملون على هدمه ، والتضييق على كلمته أن تظهر ، وعلى الحق فيه أن يأخذ طريقه إلى الناس .

ومن ثم فقد أصابتهم الحشية من أن يستمع النجاشي إلى كلمة الحق فيتأثر بها - وهذا ما حصل - فكان ترتيبهم أن يعملوا على تحقيق رغبتهم في طرد المؤمنين بناء على حيثياتهم ومطالباتهم ، دون الرجوع إلى المؤمنين لسماع دفاعهم ومبرراتهم وأقوالهم (ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص ، وأمروهما بأمرهم وقالوا لهما : ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلمنا النجاشي فيهم ، ثم قدما إلى النجاشي هداياه ، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم" ، ولذا قالت أم سلمة رضی الله عنها : "ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي" .

وفعلا فقد طلب السفيران من البطارقة بعد تقديم الرشاوى لهم أن يشاركوهما في مطالبة النجاشي بتسليم المؤمنين قبل أن يسمع منهم (فلم يبق من بطارقتهم بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلمنا النجاشي ، وقالوا لكل بطريق منهم : إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع ، لانعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشرف قومهم ، ليردهم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم ، فإن قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم ، فقالوا لهما : نعم) .

* نفذ سفيرا قريش محاولتين للتأثير على النجاشى لإصدار قراره بطرد المؤمنين .

الأولى منهما يتهمان فيها المؤمنين أمام النجاشى بمجموعة من الاتهامات هى :

(١) أنهم أهل سفه وطيش وضالة فى التفكير .

(٢) أنهم جاءوا ببدعة مستحدثة ودين جديد ، ليس هو الوثنية التى يعرفونها ، وليس هو النصرانية التى يعرفها الملك - وهما بهذا الاتهام يجركان التزعة والعصبية الدينية لدى الملك ذى الديانة النصرانية فى الأصل . ولذا فهم يطلبون من الملك تسليمهم لإرجاعهم إلى مكة ، والمبرر فى هذا المطلب أن أشرف قريش أعلم بهذه الفئة ، ومايعالجها ، ومايعيدها إلى رشدها وصوابها .

(أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، وجاؤوا بدين ابتدعوه ، لانعرفه نحن ولأنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشرف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه) .

وتحركت البطارقة لتأييد هذا الرأى فقالوا : "صدقا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما ، فليرداهم إلى بلادهم وقومهم) .

والمحاولة الثانية كانت بعد فشل المحاولة الأولى ، إذ قال عمرو بن العاص بعد الخروج من مجلس الملك (والله لآتينه غدا بما استأصل به خضرائهم) ، (والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد) . وكان اتهامها فى الصميم ، إذ أنه يتعلق بدين الملك وعقيدته ، والأمر فيها خطير ، وكلام عمرو معناه أن هذه الفئة المؤمنة تخالف الملك وتناكفه فى عقيدته التى يدين بها ، وأنها تحط من قيمة من تقده النصارى وتؤله . عيسى بن مريم عليه السلام .

ومن ثمَّ فإنَّ هذه الفئة - حسب هذا الاتهام - تؤسس للفتنة الدينية في بلاد الحبشة ، ويمكن أن يصل بها الأمر إلى زرع الفرقة ، ونشر الاضطراب ، وتأليب الرأى العام ضد النجاشى نفسه .

(أيها الملك إنهم يقولون فى عيسى بن مريم قولا عظيما ، فأرسل إليهم فسلمهم عما يقولون فيه) .

* خيب الله عز وجل أمل الملأ من قريش ، إذ فشلت محاولتا السفيرين فى التأثير على الملك ، واستصدار القرار بتسليم المؤمنين . وكان ذلك بفضل الله وتوفيقه أولا ثم بجواب جعفر رضى الله عنه والذى يجمع بين الرد الشرعى الواضح دون مواربة ، وبين الهدوء والحكمة والأدب والحنكة^(١) .

فقد ركز فى جوابه فى اللقاء الأولى على مايلى :

- وصف الأوضاع السيئة فى الجاهلية .

- وصف الإسلام الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم

ومايجمله من الحق والهدى والخير .

- السبب الذى دفعهم إلى الهجرة ، وهو ملاقوه من الأذى والتضييق .

- سبب اختيارهم للحبشة خصوصا ، وهو رجاء ما عرف به النجاشى

واشتهر عنه من العدل ، وكراهية الجور والظلم .

- تلاوة مقدمة سورة مريم بناء على طلب النجاشى .

وكان جوابه فى اللقاء الثانى مقتصرأ على البيان فى هدوء للقول الحق

فى عيسى بن مريم عليه السلام ، وأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى

مريم .

وأراد الله سبحانه بالنجاشى وبالمؤمنين خيرا ، إذ بكى حين سمع

آيات الله تتلى فى المجلس الأول ، ثم قال قولته "إن هذا الذى جاء به

(١) الحنكة يضم الحاء : السن والتجربة والبصر بالأمر ، يقال : حنكت الشىء ، أى

فهمته وأحكمته . ينظر لسان العرب ١٠٢٨/٢ .

عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا فلا والله لأسلمهم إليكما" ، وقال في المجلس الثاني بعد استماعه لقول جعفر في عيسى بن مريم عليه السلام ، وبعد أن أخذ عودا من الأرض : "والله ماعدا عيسى بن مريم ماقلت هذا العود" ، ثم قال : "اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي" أي آمنون ، وبهذا كتب الله لهم الأمان في الحبشة ، وعاد السفيران إلى مكة دون أن تنجح خطة الملاء من قريش في اللحاق بالمؤمنين .

ثانيا : ملاحقة المهاجرين إلى المدينة .

ومن الأمثلة على ذلك ملاحقة أبي جهل بن هشام لعياش بن أبي ربيعة رضى الله عنه لما خرج من مكة مهاجرا .

يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : "أتعدت - لما أردنا الهجرة إلى المدينة - أنا وعيَّاش^(١) بن أبي ربيعة ، وهشام بن العاص بن وائل السهمي ، التناضب من أضاة بني غفار^(٢) ، فوق سرف^(٣) ، وقلنا : أينما لم يصبح عندها فقد حبس فليمض صاحبه ، قال : فأصبحت أنا وعياش بن أبي ربيعة عند التناضب ، وحبس عنا هشام وفتن فافتتن .

فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقاء ، وخرج أبو جهل بن هشام ، والحارث بن هشام ، إلى عياش بن أبي ربيعة ، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما ، حتى قدما علينا المدينة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، فكلماه وقالوا له : إن أمك قد نذرت أن لايمس رأسها مشط حتى تراك ولا تستظل من شمس حتى تراك ، فرق لها ، فقلت له : يا عياش ، إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم ، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت ، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت ، قال : فقال أبر

(١) عياش : بتشديد الياء . الاكمال ٦/٦٤ .

(٢) التناضب : بكسر الضاد ، جمع تنضب ، وهو ضرب من الشجر ، تألفه الحرياء ، وأضاة بني غفار على بعد عشرة أميال من مكة ، والأضاة : الغدير . ينظر الروض الأنف ٢/٢٢٦-٢٢٧ .

(٣) سرف : بفتح السين وكسر الراء ، موضع يبعد عن مكة نحو عشرة أميال ، وفيه بنى الرسول صلى الله عليه وسلم بيمونة رضى الله عنها . ينظر النهاية ٢/٣٦٢ ، المغن . ص ١٢٦ .

قسم أُمى ، ولى هنالك مال فأخذه ، قال : فقلت : والله إنك لتعلم أنى لمن أكثر قریش مالا ، فلك نصف مالى ولا تذهب معهما ، قال فأبى على إلا أن يخرج معهما ، فلما أبى إلا ذلك قال : قلت له : أما إذا قد فعلت ما فعلت ، فخذ ناقتى هذه ، فإنها ناقة نجبية ذلول ، فالزم ظهرها ، فإن رابك من القوم ريب ، فانج عليها .

فخرج عليها معهما ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، قال له أبو جهل يا ابن أختى ، والله لقد استغلظت بعيرى هذا ، أفلا تعقبنى على ناقتك هذه؟ قال : بلى ، قال : فأناخ ، وأناخا ليتحول عليهما ، فلما استتوا بالأرض عدوا عليه ، فأوثقاه رباطا ، ثم دخلا به مكة ... " (١) .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو له بالخلص والنجاة كما روى أبو هريرة رضى الله عنه "أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يدعو فى الصلاة : اللهم أنج عيَّاش بن أبى ربيعة ، وسَلَمَة بن هشام ، والوليد بن الوليد ، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين" (٢) .

ففك الله جل وعلا أسره ونجاه ، إذ تمكن من الخروج من مكة مهاجرا ، وكان ذلك قبل فتح مكة (٣) .

ثالثا : ملاحقة الرسول صلى الله عليه وسلم فى هجرته إلى المدينة . قرر كبراء المشركين ذلك حين نما إلى علمهم خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبى بكر رضى الله عنه من مكة مهاجرين ، إذ ساءهم هذا الخبر وأزعجهم ، ورأوا فيه نجات بالدعوة وانطلاقا لها من جهة ، وخطورة عليهم من جهة أخرى حين يتم الأمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

-
- (١) رواه ابن إسحاق قال : حدثنى نافع عن عبد الله بن عمر عن أبيه عمر رضى الله عنه . السيرة النبوية لابن هشام ٧٢-٧١/٢ ، والبيهقى فى الدلائل ٤٦١/٢١-٤٦٢ ، والبزار كما فى مجمع الزوائد ٧٦/٦-٧٧ ، قال الهيثمى : رجاله ثقات .
- (٢) رواه البخارى فى كتاب الإكراه ٢٥٤٦/٦ ، ومسلم فى كتاب المساجد ، باب استحباب القنوت فى جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة ١٧٦/٥-١٧٧ .
- (٣) ينظر : السيرة النبوية لابن هشام ٢٩٤/١ ، دلائل النبوة للبيهقى ٤٦٠/٢ .

وسلم بالمدينة ، ويكون له فيها النفوذ والسلطان . فتحركوا لملاحقة رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتقاله ، كما أعلنوا عن مكافأة ضخمة لمن يأتي به صلى الله عليه وسلم ، وبصاحبه أبي بكر رضى الله عنه ، قتيلين أو أسيرين .

وخرجت بالفعل مجموعات من المشركين للبحث عنه صلى الله عليه وسلم ، ووصلوا إلى جبل ثور الذى كان يجتفى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبو بكر رضى الله عنه ، واقتربوا من الغار الذى كانا يجتفیان فيه ، ولكن الله سبحانه سلم ، إذ عاد المشركون دون اكتشاف مكانهما .

يقول أبو بكر رضى الله عنه : "كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم فى الغار فرأيت آثار المشركين ، قلت يارسول الله لوأن أحدهم رفع قدمه رأنا قال : ماظنك باثنين الله ثالثهما" (١).

وكان ممن لحقه أيضا حين اتجه صلى الله عليه وسلم إلى المدينة سراقه بن مالك ، أملا فى الحصول على المكافأة الموعودة .

يقول أبو بكر رضى الله عنه فى سياق حكايته خبر الهجرة :
 "... فارتحلنا والقوم يطلبوننا ، فلم يدركنا أحد منهم ، غير سراقه بن مالك بن جعشم على فرس له ، فقلت : هذا الطلب قد لحقنا يارسول الله ، فقال : لا تحزن إن الله معنا" (٢).

ويفصل سراقه بن مالك رضى الله عنه خبر لحاقه برسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول :

(١) رواه البخارى فى كتاب التفسير ، باب قوله تعالى {ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا} ١٧١٢/٤-١٧١٣ ، ومسلم فى كتاب فضائل الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، باب من فضائل أبى بكر الصديق رضى الله عنه . ١٤٩/١٥ .

(٢) الحديث رواه البخارى فى كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب المهاجرين . ١٣٣٦/٣-١٣٣٧ ، ومسلم فى كتاب الزهد ، باب حديث الهجرة ١٤٧/١٨-١٥٠ .

"جاءنا رسل كفار قريش ، يجعلون في رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر دية كل واحد منهما^(١)، لمن قتله أو أسره ، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بنى مُدَلِّج ، أقبل رجل منهم ، حتى قام علينا ونحن جلوس ، فقال : ياسراقة ، إني قد رأيت أنفا أسوكة^(٢) بالساحل ، أراها محمدا وأصحابه ، قال سراقة : فعرفت أنهم هم ، فقلت له : إنهم ليسوا بهم ، ولكنك رأيت فلانا وفلانا ، انطلقوا بأعيننا^(٣) ، ثم لبثت في المجلس ساعة ، ثم قمت فدخلت ، فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسى ، وهى من وراء أكمة^(٤) ، فتحبسها علىّ وأخذت رحى ، فخرجت به من ظهر البيت ، فخططت بزجه^(٥) الأرض وخفضت عاليه^(٦) ، حتى أتيت فرسى فركبتها ، فرفعتها^(٧) تقرب بي^(٨) حتى دنوت منهم ، فعثرت بى فرسى فخررت عنها ، فقامت فأهويت يدي إلى كنانتي ، فاستخرجت منها الأزلام فاستقسمت بها^(٩) ، أضرهم أم لا ، فخرج الذى أكره^(١٠) ، فركبت فرسى وعصيت الأزلام ،

(١) "أى مائة من الابل" . فتح البارى ٣٠٥/٧ .

(٢) "أى أشخاصا" . فتح البارى ٣٠٥/٧ .

(٣) "أى فى نظرنا يبتغون ضالة لهم" . ينظر فتح البارى ٣٠٥/٧ .

(٤) الأكمة : الموضع المرتفع عما حوله . ينظر ترتيب القاموس ١٦٥/١ .

(٥) "فخططت بزجه الأرض" أى أمكنت أسفله ، والزج بضم الزاى : الحديدية التى فى

أسفل الرح . ينظر فتح البارى ٣٠٦/٧ .

(٦) قال ابن حجر : "أمسكه بيده ، وجر زجه على الأرض فخطها به ، لئلا يظهر بريقه

لمن بعد عنه ، لأنه كره أن يتبعه منهم أحد فيشركوه فى الجعالة" . فتح البارى

٣٠٦/٧ .

(٧) "أى أسرع بها السير" . فتح البارى ٣٠٦/٧ .

(٨) من التقريب : وهو نوع من السير ، قال فى النهاية ٣٥/٤ "قرب تقريبا إذا عدا

عدوا دون الإسراع" .

(٩) الأزلام : جمع زلم بفتح الزاى وضمها ، وهى القداح التى كانت فى الجاهلية ،

مكتوب عليها الأمر والنهى ، افعل ولا تفعل ، كان الرجل منهم يضعها فى وعاء

له ، فإذا أراد أمرا مهما أدخل يده فأخرج منها زلما ، فإن خرج الأمر مضى لما

يريد ، وإن خرج النهى كف عنه ولم يفعله . ينظر النهاية ٣١١/٢ .

(١٠) "فخرج الذى أكره" أى لاتضرهم . فتح البارى ٣٠٦/٧ .

تَقَرَّبَ بِي ، حَتَّى إِذَا سَمِعْتَ قِرَاءَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ لَا يَلْتَفِتُ وَأَبُو بَكْرٍ يَكْثُرُ الْاِلْتِفَاتَ ، سَاخَتْ (١) يَدَا فَرَسِي فِي الْأَرْضِ ، حَتَّى بَلَغْتَا الرُّكْبَتَيْنِ فَخَرَّتْ عَنْهَا ، ثُمَّ زَجَرْتَهَا فَنَهَضَتْ ، فَلَمْ تَكُدْ تَخْرُجُ يَدَيْهَا ، فَلَمَّا اسْتَوَتْ قَائِمَةً ، إِذَا لِأَثَرِ يَدَيْهَا عَثَانٌ (٢) سَاطِعٌ فِي السَّمَاءِ مِثْلَ الدِّخَانِ ، فَاسْتَقْسَمْتُ بِالْأَزْلَامِ فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ ، فَنَادَيْتُهُمْ بِالْأَمَانِ ، فَوَقَفُوا فَرَكِبْتُ فَرَسِي حَتَّى جِئْتُهُمْ ، وَوَقَعَ فِي نَفْسِي حِينَ لَقِيتُ مَالِقِيَّتَ مِنَ الْحَبْسِ عَنْهُمْ أَنَّ سَيَظْهَرُ أَمْرُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقُلْتُ لَهُ : إِنْ قَوْمُكَ قَدْ جَعَلُوا فِيكَ الدِّيَةَ ، وَأَخْبَرْتَهُمْ أَخْبَارَ مَا يَرِيدُ النَّاسُ بِهِمْ ، وَعَرَضْتَ عَلَيْهِمُ الزَّادَ وَالْمَتَاعَ ، فَلَمْ يَرِزَانِي (٣) وَلَمْ يَسْأَلَانِي ، إِلَّا أَنْ قَالَ : أَخْفِ عَنَّا . فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَكْتُبَ لِي كِتَابَ أَمْنٍ ، فَأَمَرَ عَامِرَ بْنَ فَهَيْرَةَ ، فَكَتَبَ فِي رَقْعَةٍ مِنْ أُدِيمٍ ، ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٤) .

وَيَشَاءُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَعِصِمَ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَحْفَظَهُ مِنْ كَيْدِ أَوْلِيَاءِكَ الْمَلَأَ مِنْ قَرِيشٍ ، وَيَفْشَلُ مَحَاوَلَاتِهِمْ فِي اللَّحَاقِ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَاعْتَقَالَهُ أَوْ قَتَلَهُ ، وَأَنْ يَصِلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى الْمَدِينَةِ سَالِمًا مَنْصُورًا .

(١) "أَيُّ غَاصَتْ" . فَتْحُ الْبَارِي ٣٠٦/٧ .

(٢) عَثَانٌ : بِيَضْمِ الْعَيْنِ ، أَيُّ دِخَانٌ . يَنْظُرُ فَتَحُ الْبَارِي ٣٠٧/٧ .

(٣) أَيُّ لَمْ يَأْخُذْ مَا مَعِيَ ، وَلَمْ يَنْقُصَانِي مِنْهُ شَيْئًا . يَنْظُرُ فَتَحُ الْبَارِي ٣٠٧/٧ .

(٤) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ فِضَائِلِ الصَّحَابَةِ رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، بَابِ هِجْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ١٤٢٠/٣-١٤٢١ .

المبحث السابع

اقتراح الآيات ، واستعجال الوعيد
إمعانا فداً التعتت والعناد

من كمال عدل الله سبحانه ورحمته وحكمته أن لا يحاسب عباده ولا يعاقب الخارجين عن أمره عز وجل ، إلا بعد اقامة الحجّة ، وذلك بإرسال الرسل ، لتبليغ الناس الدين الذى ارتضاه تبارك وتعالى ، ودعوتهم إلى التمسك به ، وتحذيرهم من مخالفته والخروج عنه .
قال سبحانه :

{رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل...} (١).

وقال جل شأنه :

{... وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا} (٢).

ومن كمال عدله ورحمته وحكمته جل وعلا أيضا أن أيد رسله عليهم السلام بالآيات البينات التى تشهد بصدقهم ، وتؤكد أنهم رسل من عند الله حقا يتلقون عنه الوحي ويبلغونه للناس ، وتكون لهم حججا واضحة ، وبراهين قاطعة على صحة ما جاءوا به ، بحيث يظهر للمتأمل المنصف ، الباحث عن الحق ، المتجرد عن الهوى والغرض ، أن من أوتي الآية الخارقة والمعجزة الباهرة ، هو رسول من عند الله صدقا ، وأن ما جاء به هو الدين الحق من رب العالمين .

هذا هو دأب الرسل جميعا عليهم السلام ، وإن تنوعت بينهم صورة المعجزة والآية البينة .

يقول الله تعالى :

{تلك القرى نقص عليك من أنبائها ، ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات ...} (٣).

{ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات ...} (٤).

(١) سورة النساء : من آية ١٦٥

(٢) سورة الإسراء : من آية ١٥

(٣) سورة الأعراف : من آية ١٠١

(٤) سورة يونس عليه السلام : من آية ٧٤

{ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات...} (١).

فهذه الآيات الكريمة تبين أنه مامن رسول إلا وقد أيده الله تعالى بالبينات الدالة على صدقه ، الشاهدة بنبوته .

عن أبي هريرة رضى الله عنه "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : مامن الأنبياء من نبي إلا قد أعطى من الآيات (٢) مأمثله آمن عليه البشر (٣) ، وإنما كان الذى أوتيت وحيا (٤) أوحى الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة" (٥).

قال ابن حجر : "هذا دال على أن النبي لا بد له من معجزة تقتضى إيمان من شاهدها بصدقه ، ولا يضره من أصر على المعاندة" (٦).

"والمعنى أن كل نبي أعطى آية أو أكثر ، من شأن من يشاهدها من البشر أن يؤمن به لأجلها" (٧).

ومع ذلك فقد كان المكذبون للرسالات ، الكافرون بالرسول عليهم السلام - وفي مقدمتهم أكابر مجرميهم - يتعننون في مواجهة أنبيائهم بطلب

(١) سورة إبراهيم عليه السلام : من آية ٩

(٢) "أى المعجزات الخوارق" . فتح البارى ٧/٩ .

(٣) أى آمن له ، أو به ، وعبر بعلی لتضمنها - كما يقول ابن حجر - معنى الغلبة ، أى يؤمن بذلك مغلوبا عليه بحيث لا يستطيع دفعه عن نفسه ، لكن قد يجحد فيعاند ينظر فتح البارى ٧/٩ .

(٤) المعنى كما يقول ابن حجر "أى ان معجزتى التى تحدت بها : الوحي الذى أنزل على ، وهو القرآن ، لما اشتمل عليه من الإعجاز الواضح ، وليس المراد حصر معجزاته فيه ، ولأنه لم يؤت من المعجزات ما أوتى من تقدمه ، بل المراد أنه المعجزة العظمى التى اختص بها دون غيره ...". ينظر فتح البارى ٨/٩ - ٩ ، ٣٠٩/١٣ ، شرح النووى على صحيح مسلم ١٨٨/٢ .

(٥) رواه البخارى فى كتاب فضائل القرآن ، باب كيف نزول الوحي ١٩٠٥/٤ ، ومسلم - واللفظ له - فى كتاب الإيمان ، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ١٨٦/٢ .

(٦)، (٧) فتح البارى ٧/٩ .

الآيات ، واقتراح الاقتراحات ، واستعجال الوعيد والعذاب وما أنذروا به من العقوبات .

وهذا الصنيع منهم لم يكن باعثة عدم تبين الحق لهم في منهج الرسول عليه السلام ، لضعف دلائله وبراهينه ، وهم يرغبون الوصول إليه ، ولم يكن الدافع إليه غبشا في معالم الطريق الذى جاءت به الرسل عليهم السلام فلا يعلمون اتجاه الهدى ، وهم يريدون تمييزه وإدراكه كلا ، فإن الحق قد سطع مع الرسل عليهم السلام بما جاءوا به من الحجج والبراهين .

ولكنهم يتجهون إلى هذا الأسلوب لمجرد المجابهة للرسل عليهم السلام وإمعانا منهم فى التعنت والعناد ، والتكذيب والجحود ، فى مواجهة الدلائل والبيانات ، وتعمدا منهم للمماحكة والتمحل مع الأنبياء ، ورغبة منهم كذلك فى الاستهزاء والسخرية بهم ، بالتقلب فى المطالب والاقتراحات ، وإيجاد المبرر لما يظهرونه من التكذيب والعداء بادعاء أن هؤلاء الرسل عليهم السلام كاذبون فعلا ، ودليل ذلك عدم استجابتهم لما يطلب منهم من الآيات ، وعدم تجاوبهم مع ما يطرح عليهم من الاقتراحات .
والواقع أن هؤلاء معاندون جاحدون ، قد قرروا عدم الاستجابة بداية مهما شاهدوا من دلائل الهدى وموحيات الإيمان ، ومهما حوصروا بالحجج والبيانات .

إن لسان حال هؤلاء يقول مقولة فرعون وملئه ، والتي حكاها القرآن الكريم فى قوله سبحانه :

{وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين} (١).
"فهو الجموح الذى لا تروضه تذكرة ، ولا يرده برهان ، ولا يريد أن ينظر ولأن يتدبر ، لأنه يعلن الإصرار على التكذيب قبل أن يواجه البرهان - قطعا للطريق على البرهان - وهى حالة نفسية تصيب المتجربين ، حين يدمغهم الحق ، وتجبهم البينة ، ويطاردهم الدليل ، بينما هو وهم

ومصلحتهم وملكهم وسلطانهم كله في جانب آخر غير الحق والبينة والدليل" (١).

وفي قصص القرآن الكريم نماذج عديدة لهذا النوع من المجابهة .
ففي قصة نوح عليه السلام ، وبعد إيراد مدار من المخاطبة بينه وبين
الملا من قومه ، ذكر الله سبحانه أنهم قالوا في نهاية ذلك الحوار :
{ .. يأنوح قد جادلنا فأكثرنا جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من
الصادقين } (٢).

فالملا يطلبون من نوح عليه السلام أن يوقف منهج الحوار والجدال ،
وأن يعجل العقاب الموعود ، والعذاب الذي يخوفهم به إن كان صادقا فيما
جاء به عليه السلام .

وكذلك يفعل أكابر عاد من المكذبين :

{ قالوا أجننتا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن
كنت من الصادقين } (٣).

{ قالوا أجننتا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين } (٤).
وكذلك الملا المستكبرون من ثمود :

{ ففعلوا الناقاة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت
من المرسلين } (٥).

وكان ذلك أيضا جواب المكذبين بنبي الله لوط عليه السلام :

{ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من
الصادقين } (٦).

(١) في ظلال القرآن ٣/١٣٥٨ .

(٢) سورة هود عليه السلام : من آية ٣٢

(٣) سورة الأعراف : آية ٧٠

(٤) سورة الأحقاف : آية ٢٢

(٥) سورة الأعراف : آية ٧٧

(٦) سورة العنكبوت : آية ٢٩

وفي قصة شعيب عليه السلام يطلب المكذبون العذاب الذي خصصوه
وذكروا صفته ، فقالوا لنبي الله شعيب عليه السلام ما حكاه القرآن :

{فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين} (١).

"أى إن كنت صادقا أنك نبي فادع الله أن يسقط علينا كسفا من
السماء أى قطعاً من السماء عقوبة" (٢).

وفي قصة موسى عليه السلام يقترح فرعون فى خطابه لقومه بعض
الاقتراحات ، للاستدلال بها - فى زعمه - على صدق موسى عليه السلام ،
وقد ذكرها القرآن الكريم على لسان فرعون :

{فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين} (٣).

قال ابن كثير فى تفسير الآية : "قوله {فلولا ألقى عليه أسورة من
ذهب} وهى ما يجعل فى الأيدى من الحلى . قاله ابن عباس رضى الله عنهما
وقنادة وغير واحد {أو جاء معه الملائكة مقترنين} أى يكنفونه خدمة له
ويشهدون بتصديقه" (٤).

وهذه الاقتراحات من فرعون إنما هى للتمحل والتعنت ، وإلا فكم من
آية بينة ، وكم من معجزة قاهرة ، جاء بها موسى عليه السلام ، ولكنه
العناد ، ومجرد التبرير أمام الجهلة من الناس .

إن غرض هؤلاء الذين أورد القرآن الكريم مقولاتهم إنما هو فى
الحقيقة التعنت والعناد ، والتعجيز والإفحام بزعمهم ، والتكذيب والاستبعاد
لصحة الرسالات ، وصدق المرسلين عليهم السلام ، ويصحب ذلك كله
الاستهزاء بالرسول عليه السلام ، وبما جاء به تبشيراً وإنذاراً .

(١) سورة الشعراء : آية ١٨٧

(٢) تفسير النسفى ٥٨٥/٢ .

(٣) سورة الزخرف : آية ٥٣

(٤) تفسير ابن كثير ١٣٠/٤ .

وفي عهد رسولنا صلى الله عليه وسلم كان هذا الأسلوب أيضا أحد أساليب الملأ من قريش ، في مواجهة دعوته عليه الصلاة والسلام ، والقرآن الكريم يبين في كثير من الآيات استعجالهم للوعيد ، وطلبهم نزول العذاب وتساؤلهم عن موعد ماينذرون به من العقاب .

ومن ذلك قوله تعالى :

{وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم} (١).

والقائل هو أبو جهل كما جاء في الصحيحين من رواية أنس رضى الله عنه (٢).

ومن ذلك أيضا قول الله عز وجل :

{ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده...} (٣).

{ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون . يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين} (٤).

{ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين} (٥).

ومنه كذلك قوله سبحانه :

{ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة...} (٦).

أى "بالبلاء والعقوبة قبل الرخاء والعافية" (٧).

(١) سورة الأنفال : آية ٣٢

(٢) ينظر صحيح البخارى ، كتاب التفسير ، باب {وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم} ١٧٠٥/٤ ، صحيح مسلم ، كتاب صفة القيامة ، باب سؤال اليهود النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح ١٣٩/١٧ .

(٣) سورة الحج : من آية ٤٧

(٤) سورة العنكبوت : آية ٥٣-٥٤

(٥) في مواضع متعددة منها : سورة الأنبياء عليهم السلام : آية ٣٨

(٦) سورة الرعد : من آية ٦

(٧) تفسير الطبرى ١٠٥/١٣ .

إن هذه الآيات وغيرها يصور بوضوح سوء أدب هؤلاء القوم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين يقابلون ماجاء به عليه الصلاة والسلام ، وما يبشرهم به وينذرهم من الوعد والوعيد ، بالتهكم والاستهزاء ، وبالتحدى والعناد ، فيطالبونه صلى الله عليه وسلم بأن يعجل لهم هذا العذاب الذى يحذرهم منه ، وأن يأتيهم به سريعا دون تأخير ، ولهم فى ذلك أمل أن يظهر عليه الصلاة والسلام بمظهر العاجز ، ومن ثمَّ يمكنهم أن يستبعدوا صحة نبوته صلى الله عليه وسلم .

أما طلب الآيات فقد ظهر كذلك جليا فى تعامل هؤلاء المشركين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .
والقرآن الكريم يذكر أمثلة كثيرة للاقتراحات التى كانوا يقترحونها ، والآيات التى كانوا يطالبونه بها صلى الله عليه وسلم تعنتا منهم وعنادا ، وتمحلا وتعجيزا .

وكانت هذه المطالبة منهم للآيات ترد أحيانا مجملة ، دون تفصيل للاقتراح ، أو تخصيص للآية .

ومن الأمثلة على ذلك ما أوردته الآيات الكريمة التالية :

{وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه ...} (١).

{وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ...} (٢).

{ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه ...} (٣)

{ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ...} (٤).

{وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه ...} (٥).

(١) سورة الأنعام : من آية ٣٧

(٢) سورة الأنعام : من آية ١٠٩

(٣) سورة يونس عليه السلام : من آية ٢٠

(٤) سورة الرعد : من آية ٧

(٥) سورة طه : من آية ١٣٣

{بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون}{(١)}.

{وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ...}{(٢)}.

فهذه الآيات الكريمة تبين أنهم كانوا يطلبون من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بخارقة مادية ، كالتى جرت على أيدي الرسل السابقين عليهم السلام ، كإحياء الموتى ، أو إبراء الأكمه والأبرص ، وكنافة صالح عليه السلام ، وما أشبه ذلك .

وأحيانا يرد الاقتراح من هؤلاء المشركين مفصلا ، ببيان الخارقة المادية التى يطلبون رسول الله صلى الله عليه وسلم بتنفيذها ، والإتيان بها لتكون له آية ، وليمكن بالتالى تصديقه على أساسها فيما يزعمون .

ومن الأمثلة على ذلك مايلي :

* يقول الله سبحانه وتعالى :

{وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ...}{(٣)}.

هذه الآيات الكريمة تذكر مجموعة المطالب التى اقترحها أولئك الملائ من قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليأتيهم بإحداها تكون له آية شاهدة بصحة ما جاء به :

وأول هذه الاقتراحات : تفجير العيون بأرضهم وبلادهم يتدفق منها الماء ويفور .

(١) سورة الأنبياء عليهم السلام : آية ٥

(٢) سورة العنكبوت : من آية ٥٠

(٣) سورة الإسراء : من الآيات ٩٠-٩٣

الثاني : أن يحصل له صلى الله عليه وسلم بأرضهم بستان من النخيل والعنب ، تتفجر الأنهار من خلاله .

الثالث : أن يسقط عليهم السماء قطعا .

الرابع : أن يأتي لهم بالله سبحانه (تعالى وتزده عما يقول الظالمون) وبالملائكة يقابلونهم مقابلة ويعاينونهم .

الخامس : أن يحصل له صلى الله عليه وسلم بيت من الذهب .

السادس : أن يصعد عليه الصلاة والسلام أمامهم في درج إلى السماء وفي هذه الحالة لابد - حتى يتم التصديق - أن ينزل عليهم كتابا منشورا يقرأونه ، خاصة بهم ، فيه الأمر لهم بالإيمان به صلى الله عليه وسلم واتباعه (١).

إن هذه المطالب المختلفة من هؤلاء الملائكة يتضح فيها العناد ، ويبرز فيها التعنت والمماحكة ، ويظهر فيها أن مجرد الرغبة في الاقتراح هو الباعث على تلك الاقتراحات والمطالب ، لاحبا منهم للحق ، ولارغبة منهم في بلوغ الهدى والصواب .

* ويقول تبارك وتعالى :

{وقالوا لولا أنزل عليه ملك ...} (٢).

ويقول عز وجل :

{وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون . لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين} (٣).

ففى الآيتين الكريمتين بيان لمطلب من المطالب التي اقترحتها المشركون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهونزول الملائكة معه عليه الصلاة والسلام ، يصاحبونه في تبليغ الدعوة ، ويشاركونه في إنذار البشر ،

(١) ينظر تفسير الطبرى ١٥٩/١٥-١٦٤ ، وغيره .

(٢) سورة الأنعام : من آية ٨

(٣) سورة الحجر : آية ٦-٧

ويشهدون له بصحة النبوة ، ويؤيدونه في دعوى الرسالة (١).

* ويقول عز وجل :

{وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا . أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ...} (٢).

والآية هنا توضح أنهم يطالبون بتحقيق أحد ثلاثة اقتراحات ، حتى يتسنى لهم التفكير فى الإيمان بما جاء به صلى الله عليه وسلم .

الأول : ما ذكرته الآيتان السابقتان وهو نزول ملك من الملائكة لينذر الناس معه صلى الله عليه وسلم ، ويكون له مصدقا .

والثانى : أن يلقى إليه صلى الله عليه وسلم كثر من السماء ، لينفق منه ويستغنى به عن التكسب وطلب المعاش .

والثالث : أن يكون له بستان يأكل منه عليه الصلاة والسلام (٣).

* ويقول تبارك وتعالى :

{وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ...} (٤).
وفى هذه الآية الكريمة أيضا بيان لطلبهم المتكرر بنزول الملائكة ، بالإضافة إلى مطلب آخر اقترحوه أيضا ، هو رؤية الله تبارك وتعالى عيانا ، يشهد لنبيه صلى الله عليه وسلم ويصدقه فيما جاء به . تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا (٥).

* ويقول سبحانه :

{وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله ...} (٦).

(١) ينظر تفسير ابن كثير ٥٤٧،١٢٤/٢ وغيره .

(٢) سورة الفرقان : من الآيات ٧-٨

(٣) ينظر تفسير البغوى ٣٦١/٣-٣٦٢ ، وغيره .

(٤) سورة الفرقان : من آية ٢١

(٥) ينظر زاد المسير ١٠/٦ وغيره .

(٦) سورة يونس عليه السلام : من آية ١٥

وهذه صورة أخرى لما يطلبه المضلون من الآيات ، فهم هنا يقترحون عليه صلى الله عليه وسلم أن يلغى القرآن الذى جاءهم به ، ويأتيهم بقرآن آخر يختلف فى غظه وتأليفه ومضمونه عما يتلى عليهم ، أو يبدل فى نفس القرآن الذى بين أيديهم فيغير من مضامينه ، ويحول من سياقه وتأليفه (١). ومن اقتراحاتهم أيضا مارواه ابن عباس رضى الله عنهما قال : "سأل أهل مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن ينحى عنهم الجبال فيزدرعوا ، ف قيل له : إن شئت أن تستأنى بهم ، وإن شئت أن تؤتيهم الذى سألو ، فإن كفروا هلكوا كما أهلكت من قبلهم الأمم . قال : لا بل أستأنى بهم . فأنزل الله تعالى :

{وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ...} (٢)" (٣).

وفى رواية أخرى عنه رضى الله عنه قال : "قالت قريش للنبي صلى الله عليه وسلم ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك ، قال : وتفعلوا؟ قالوا : نعم . قال : فدعا ، فأتاه جبريل فقال : إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك : إن شئت أصبح الصفا لهم ذهباً ، فمن كفر منهم بعد ذلك أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، وإن شئت فتحت لهم باب الرحمة والتوبة ، قال : بل باب التوبة والرحمة" (٤).

(١) ينظر تفسير ابن كثير ٤١٠/٢ وغيره .

(٢) سورة الإسراء : من آية ٥٩

(٣) رواه أحمد : الفتح الرباني ١٩٣/١٨ ، وذكر ابن كثير أن إسناده جيد . ينظر البداية ٦٨/٣ ، ورواه ابن جرير فى التفسير ١٠٨/١٥ ، والواحدى فى أسباب النزول ص ٢٩٥-٢٩٦ ، والحاكم فى المستدرک ٣٩٤/٢ وصححه ، ووافقه الذهبى ، وينظر : مجمع الزوائد ١٤٠/٧-١٤١ ، لباب النقول ص ١٣٧ .

(٤) رواه أحمد ، وصحح شاكر إسناده : المسند ٢٦/٤ ، ونقله ابن كثير بالإضافة إلى الرواية السابقة ثم قال : وهذان إسنادان جيدان . البداية ٦٨/٣ ، وينظر مجمع الزوائد ١٤٠/٧-١٤١ .

إن هؤلاء الملأ من قريش وهم يطالبون بهذه الآيات المتعددة والاقتراحات المتفاوتة ، إنما ينهزمهم إلى ذلك مجرد التعنت والمكابرة ، والصلف والمعاندة ، والرغبة في المناكفة والمماحكة ، والتنويع في خططهم للمواجهة والمجابهة ، والأمل الذى يحدوهم فى تعجيزه وإفحامه صلى الله عليه وسلم أمام العوام ، وإلا فهم قد قرروا العداة والتكذيب ، والكفر والمخالفة ، قبل المطالبة بالآيات ، ولن يتغير الحال مهما رأوا من الدلائل والبيانات ، مادامت القلوب يفيض بها الاستكبار والعناد ، ويدفعها إلى النفور والإعراض .

فهم - كما يقول ابن كثير - "لو علم الله منهم أنهم يسألون ذلك استرشادا لأجيبوا إليه ، ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفرا وعنادا" (١) . ذلك ما يؤكد القرآن الكريم ، ويصرح به عن أولئك المستكبرين ، كما فى قول الله سبحانه وتعالى :

{ومأتأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين} (٢) .

{ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين} (٣) .

{ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ...} (٤) .

{ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شئ قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون} (٥) .

(١) تفسير ابن كثير ٦٣/٣ .

(٢) سورة الأنعام : آية ٤

(٣) سورة الأنعام : آية ٧

(٤) سورة الأنعام : من آية ٢٥

(٥) سورة الأنعام : آية ١١١

إولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا إنما سكرت
أبصارنا بل نحن قوم مسحورون^(١).
{وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم^(٢).
{اقتربت الساعة وانشق القمر . وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر
مستمر^(٣).
{... ولئن جئتهم بأية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون^(٤).

-
- (١) سورة الحجر : آية ١٤-١٥
(٢) سورة الطور : آية ٤٤
(٣) سورة القمر : آية ١-٢
(٤) سورة الروم : من آية ٥٨

(٤٧٧)

المبحث الثامن

التخطيط والتآمر والإعداد للمواجهة

لاشك أن أعداء الدعوات يتحركون في المكر بالرسول عليهم السلام وأتباعهم المؤمنين ، ويجابهون الدعوة للقضاء عليها ، عن سابق تخطيط وإعداد ، وبعد تشاور وتآمر .

ومن البدهى القول كذلك بأنهم لا يسيرون في هذا الاتجاه بعفوية وانطلاق عشوائى ، بل يسبق الحركة منهم ترتيب وتنظيم ، وحض وتأليب ، وتفكير متبادل فى أنجح الوسائل للصد عن دين الله سبحانه ، ومواجهة دعوته ، والقضاء على الرسل عليهم السلام والسائرين فى ركب الإيمان . ومما يشير إلى هذا الأسلوب فى المواجهة فى قصص القرآن الكريم ، ما حكاه الله تبارك وتعالى عن أكابر المجرمين من ثمود ، فى محاولتهم قتل نبي الله صالح عليه السلام .

يقول سبحانه :

«وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون . قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ماشهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون . ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون»^(١).

ومن خلال هذه الآيات الكريمة يمكن ملاحظة العناصر التالية :

أولا : أن أولئك الملاء من ثمود كان دأبهم الإفساد والإجرام ، ومحاربة الصلاح والإصلاح .

قال ابن كثير : "ولمّا غلب هؤلاء على أمر ثمود لأنهم كانوا كبراءهم ورؤساءهم . قال العوفى عن ابن عباس : هؤلاء هم الذين عقروا الناقة ، أى الذين صدر ذلك عن رأيهم ومشورتهم"^(٢).

ثانيا : محاولة قتل صالح عليه السلام لم تكن تصرفا فرديا ، ولمّا كانت نتاج تحرك جماعى ، يستهدف القضاء على الدعوة التى جاء بها صالح عليه السلام .

(١) سورة النمل : آية ٤٨-٥٠

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٣٦٧ .

ثالثا : هناك تأمر واضح ، وتواطؤ محكم ، وتعاون وثيق ، بين هؤلاء
المفسدين للكيد بصالح عليه السلام ، كما أن هناك تأليبا متبادلا فيما بينهم
وتأكيدا غليظا على الاستمرار في تنفيذ ما اتفقوا عليه ، وعدم النكوص عنه ،
يدل على ذلك قول الله سبحانه عنهم :

{ قالوا تقاسموا بالله لنبيته وأهله } .

قال أبو حيان : "الظاهر أن قوله (تقاسموا) فعل أمر محكى بالقول ،
وهو قول الجمهور ، أشار بعضهم على بعض بالحلف على تبئيت صالح" (١)
عليه السلام .

وقراءة حمزة والكسائي بالتاء على الخطاب (لتبئيته) (٢) .

وهي تؤكد هذا المعنى أيضا .

والمقصود أنهم "تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح عليه
السلام" (٣) .

وكان كلا منهم يؤكد على المضي فيما تم الاتفاق عليه ، ويزيد الأمر
توثيقا بمطالبة الجميع بالحلف وتقديم البيعة على تنفيذ ما أبرموه .

رابعا : واضح كذلك أن هؤلاء اجتمعوا في لقاء سابق على محاولة
التنفيذ ، دبروا فيه خطة محكمة ، ورتبوا فيه أسلوب التنفيذ بدقة ، كما
فكروا فيما بعد تنفيذ العملية ، والاحتمالات القائمة لردود الفعل المتوقعة من
آل صالح عليه السلام ، وهياؤا لهذه الاحتمالات الحلول المناسبة .

فاختاروا موعد تنفيذ العملية في هدأة الليل (لنبيته) "والبيات مباغته
العدو ومفاجأته ، بالإيقاع به ليلا وهو غافل" (٤) .

وذلك ليتمكنوا من الغدر والفتك به في ظلمة الليل دون أن يرد
احتمال فضحهم ، وكشف جريمتهم .

(١) تفسير البحر المحيط ٨٣/٧ ، وينظر تفسير الطبرى ١٧٢/١٩ .

(٢) ينظر سراج القارىء المبتدىء ص ٣١٣ .

(٣) تفسير ابن كثير ٣٦٧/٣ .

(٤) تفسير روح المعاني ٢١٣/١٩ .

كما هيأوا الجواب فيما لو اتهموا بالعملية ، وفي ذلك إشارة إلى أنه قد تمكنت منهم خصومة صالح عليه السلام ، وعرف عنهم العداء له ، والرغبة في القضاء على دعوته ، ويبدو أن هذا هو الذى جعلهم يضعون الاحتمال بتوجه الاتهام إليهم ، ومن ثم فقد فكروا فى الرد المناسب (ثم لنقولن لوليه ماشهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون) ، فكان تخطيطهم أن يكون جوابهم لآل صالح عليه السلام وعشيرته أنهم لم يشهدوا ما وقع أصلا ، فضلا عن أن يقارفوه أو يشاركوا فيه ، فهم بعيدون كل البعد عن العملية ، تنفيذًا ومشاركة أو حتى حضورًا فى المكان ، ثم يعزمون على تأكيد النفى بجزم وشدة (وإنا لصادقون) فى كونهم لا يعلمون من الأمر شيئًا .

قال الألوسى : "واختاروا نفى شهود مهلك أهله على نفى قتلهم إياهم قصدا للمبالغة كأنهم قالوا ماشهدنا ذلك ، فضلا عن أن نتولى إهلاكهم" (١) . ولما حصل منهم من التخطيط والتدبير ، والاحتياى والتأمر ، وصف الله فى الآيات صنيعهم بالمكر (ومكروا مكرا) .

وفى قصة موسى عليه السلام نلحظ كذلك تأمر فرعون وملئه ، وتخطيطهم للقضاء على الدعوة ، وإعدادهم لمواجهة المؤمنين .
قال سبحانه :

{قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون} (٢) .

فرعون يستشير الملأ من حوله فى الموقف المناسب من موسى عليه السلام ، وينتج هذا التشاور رأيا من الملأ يقول بتأخير أمر موسى عليه السلام والتصرف المناسب حياله ، حتى يتم بعث الرسل والعاملين إلى المدائن والأقاليم ، لجمع السحرة المهرة ليقوموا بمهمة المعارضة لما جاء به موسى عليه السلام ، أملا فى إظهار المعجزة مع موسى عليه السلام بمظهر السحر فتسقط الدعوى ، وينقضى الأمر بهزيمة موسى عليه السلام :

(١) تفسير روح المعانى ٢١٣/١٩ .

(٢) سورة الشعراء : آية ٣٤-٣٥ .

{قالوا أرجه وأخاه وأبعث فى المدائن حاشرين . يأتوك بكل سحر
عليم}{(١)}.

ويبدو أن فرعون اضطر لهذا التشاور وهذه المبادلة للآراء مع جيروته
وطغيانه وتألّفه ، وذلك لضخامة الأمر لديه ، وعظم المسألة فى نفسه ،
وخشيته على قضية الربوبية التى يدعيها ، وبالتالى فقد آثر أن يشرك من
حوله فى القضية تألّفا واستجلابا ليقفوا معه ، ويحاربوا تلك الدعوة الجديدة
بهمة وحماس .

وتحرك أصحاب الأمر والنهى ، وبذلوا جهودهم فى إعداد العدة ،
وتجميع السحرة من شتى أرجاء البلاد :
{فجمع السحرة لميقات يوم معلوم}{(٢)}.

وتم ترتيب أمر المواجهة ، وتهيئة الجو المناسب للنتيجة الأفضل
والأثر الأكبر ، وذلك بتجميع الناس ، وحثهم على حضور المعارضة التى
ستبطل أمر موسى عليه السلام ، إضافة إلى نشر الدعاية المؤثرة فى الجماهير :
{وقيل للناس هل أنتم مجتمعون . لعنا نتبع السحرة إن كانوا هم
الغالبين}{(٣)}.

كما تم شحذ همم السحرة باغرائهم بالمال والجاه :
{فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين . قال
نعم وإنكم إذا لمن المقربين}{(٤)}.

كل ذلك يدل على التخطيط السابق والتدبير المحكم ، لعناصر المقاومة
كلها ، حتى يتم الأمر بدقة ، وينتهى بإبطال دعوة موسى عليه السلام ، ومن
هنا كان التعبير القرآنى دقيقا فى قوله سبحانه :

(١) سورة الشعراء : آية ٣٦-٣٧

(٢) سورة الشعراء : آية ٣٨

(٣) سورة الشعراء : آية ٣٩-٤٠

(٤) سورة الشعراء : آية ٤١-٤٢

{فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى} (١).

وقوله تعالى :

{ثم أدبر يسعى} (٢).

ولكن الله عز وجل أبطل مكرهم ، وأفشل سعيهم وكيدهم .
كما نلاحظ التأليب والتحريض على المجابهة في قول الملأ لفرعون كما
حكى القرآن :

{وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض
ويذكرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون} (٣).
فالملأ يحاولون تأليب فرعون ، وإشعاره بأنهم مهتمون مثله بأمر
القضاء على موسى عليه السلام وإبطال دعوته ، وأن القضية تحتاج إلى
تحرك أكبر ، وأنه ليس من التصرف المناسب أن يترك موسى والمؤمنون معه
بهذه الصورة .

ويأتي جواب فرعون ليطمئنهم بأنه سيبذل مايراه مناسبا في هذه
المرحلة تجاه المؤمنين {قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنا فوقهم
قاهرون} .

قال في الظلال :

"إنه مشهد التآمر والتناجى بالإثم والتحريض ، بعد الهزيمة والخذلان
في معركة الإيمان والطغيان . مشهد الملأ من قوم فرعون يكبر عليهم أن
يذهب موسى ناجيا والذين آمنوا معه .. فإذا الملأ يتناجون بالشر والإثم ،
وهم يهيجون فرعون على موسى ومن معه ، ويخوفونه عاقبة التهاون في
أمرهم من ضياع الهيبة والسلطان ، باستشراء العقيدة الجديدة في ربوبية الله
رب العالمين ، فإذا هو هائج مائج مهدد متوعد ، مستعز بالقوة الغاشمة التي

(١) سورة طه : آية ٦٠

(٢) سورة النازعات : آية ٢٢

(٣) سورة الأعراف : آية ١٢٧

بين يديه ، وبالسلطان المادى الذى يرتكن رآليه" (١).

ولما جاء الوحى إلى موسى عليه السلام من ربه سبحانه ، بالخروج من مصر بمن آمن معه من بنى إسرائيل ، وعلم فرعون بخروجهم ، تحرك مباشرة للإعداد لملاحقتهم ومواجهتهم ، فأرسل عماله لتجميع الجموع ، وتنظيم مجىء الجنود من أقاليم مصر ، وتهيئة ما يلزم للمواجهة القادمة مع المؤمنين الهاربين :

{وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى انكم متبعون . فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين . إن هؤلاء لشرذمة قليلون . وإنهم لنا لغائظون . وإننا لجمع حاذرون} (٢).

وتخطيط فرعون هنا يشمل نوعين من التعبئة :

التعبئة العددية : {فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين} .
 والتعبئة النفسية والاعلامية للجيش وللجماهير (إن هؤلاء لشرذمة قليلون . وإنهم لنا لغائظون . وإننا لجمع حاذرون) .
 ويقصد فرعون بذلك التهوين من شأن المؤمنين ، وأن أمر القضاء عليهم هين وميسور ، وأن الاستعداد لهم يمضى على أفضل حال .
 وسار الملأ من قريش على نفس الخطأ ، إذ كانوا يتآمرون ضد دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتشاورون ويتبادلون الآراء فى الوسائل المناسبة لمجاہته عليه الصلاة والسلام .
 وكثيرا ما كانوا يخططون بينهم ، للاتفاق على أسلوب معين للتعامل معه صلى الله عليه وسلم والفئة المؤمنة من حوله .
 ومن ملاح مجاہتهم للدعوة كذلك التأليب والتحريض المتبادل فيما بينهم على حماية باطلهم فى مواجهة ما جاء به صلى الله عليه وسلم ، كما قال عز وجل :

(١) فى ظلال القرآن ١٣٥٣/٣ (مع اختصار يسير) .

(٢) سورة الشعراء : آية ٥٢-٥٦

{وانطلق الملاً منهم أن امشوا واصبروا على آلهتمكم...} (١).
هؤلاء الظالمون يتناجون بالكيد والمكر برسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوته ، وإثارة الشبهة حولها ، كما قال تعالى :
{لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون
السحر وأنتم تبصرون} (٢).

قال الألوسى : "ولمّا أسروا ذلك لأنه كان على طريق توثيق العهد ،
وترتيب مبادئ الشر والفساد ، وتمهيد مقدمات المكر والكيد ، فى هدم أمر
النبوة ، وإطفاء نور الدين" (٣).
وحيثما أراد الملاً من قريش مواجهته عليه الصلاة والسلام باستخدام
أسلوب المساومة والإغراء ، كان ذلك أيضاً عن اتفاق بينهم وتشاور
وتخطيط .

روى ابن إسحاق قال : حدثنى يزيد بن زياد عن محمد بن كعب
القرظى قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة - وكان سيدا - قال يوماً وهو
جالس فى نادى قريش ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى المسجد
وحده : يامعشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه ، وأعرض عليه أمورا ،
لعله يقبل بعضها ، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة
ورأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيدون ويكثرُونَ ، فقالوا
بلى ياأبا الوليد قم إليه فكلمه . فقام إليه عتبة... (٤).

فمن الملاحظ فى هذا الموقف أن قيام عتبة بهذا التحرك فى المواجهة لم
يكن فردياً ، إنما كان بعد تشاور مع أقرانه من سادة قريش ، وقام للتنفيذ
بعد أن أخذ الموافقة الجماعية منهم ، على أن يقدم بعض العروض لرسول
الله صلى الله عليه وسلم ، مقابل تجميد مسألة الدعوة والتوحيد .

(١) سورة ص : من آية ٦

(٢) سورة الأنبياء عليهم السلام : آية ٣

(٣) تفسير روح المعانى ٩/١٧ .

(٤) سبق تخريجه ص ١٠٤ .

ولقد كانوا كذلك يتبادلون الآراء في مجالسهم ، حول المقولة المناسبة التي يجدر بهم أن ينشروها بشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتباحثون في الشبهة المناسبة حول الدعوة ، والتي يمكن أن يكون لها أساس تجدد به القبول لدى عامة الناس .

عن ابن عباس رضى الله عنهما "أن الوليد بن المغيرة اجتمع ونفر من قريش ، وكان ذا سن فيهم ، وقد حضر الموسم ، فقال : إن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأيا واحدا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ، ويرد قولكم بعضه بعضا . فقالوا : فأنت يا أبا عبد شمس ، فقل وأقم لنا رأيا تقوم به ، فقال : بل أنتم فقولوا أسمع فقالوا : نقول كاهن ، فقال : ما هو بكاهن ، لقد رأيت الكهان فما هو بزمزمة^(١) الكهان ، فقالوا : نقول : مجنون ، فقال : ما هو بمجنون ، ولقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بجُننقه ولا تخالجه^(٢) ولا وسوسته ، قالوا : فنقول : شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، قد عرفنا الشعر برجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه^(٣) ، فما هو بالشعر ، قالوا : فنقول : ساحر ، قال : فما هو بساحر ، قد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفشه ولا عقده ، فقالوا : ما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال : والله إن لقوله حلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة^(٤) ، فما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول لأن تقولوا ساحر ، فتقولوا : هو ساحر يفرق بين المرء وبين أبيه ، وبين المرء وبين أخيه ، وبين المرء وبين زوجته ، وبين المرء وعشيرته فتفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون للناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد

(١) "الزمزمة: صوت خفى لا يكاد يفهم" . لسان العرب ١٨٦٦/٣ .

(٢) أى تمايله فى مشيته ، وتجاذبه يمينا وشمالا . ينظر لسان العرب ١٢٢٣/٢ .

(٣) من أنواع الشعر وبجوره المعروفة عند أهله . وينظر ترتيب القاموس ٣٠٦/٢ ، ٥٠٧/٤ ، ٢٧٣/١ ، ٥٩٣/٣ .

(٤) قال السهيلي : "قول الوليد : إن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة . استعارة من النخلة التي ثبت أصلها ، وقوى وطاب فرعها إذا جنى ، والنخلة هي العذق بفتح العين" . الروض الأنف ٢١/٢ .

إلا حذروه إياه ، وذكروا لهم من أمره " (١) .

إن هذا الاجتماع يمثل صورة واضحة لتخطيط أهل الكفر من قريش ، وتشاورهم حول أنجع الأساليب في مقاومة الدعوة ، وتشويه صورتها . واجتماعهم هذا كان قبيل الموسم الذي يقصد الناس فيه مكة من شتى الجهات ، والهدف منه أمران :

أولهما دراسة وضعهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام القادمين إلى مكة ، والبحث عن أفضل الطرق للحيلولة بين القادمين وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم والاستجابة له .

والثاني : الحذر من التناقض في مقولاتهم ، والاختلاف في طعنهم الذي يطعنون به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جاءهم به من الدين ومحاوله الاتفاق على مقولة واحدة يعتمدها الجميع في التعامل مع القادمين إلى مكة .

ولذا فهم يتبادلون الآراء في ذلك الاجتماع ، ويناقشون كل رأى ، ويرده عليهم الوليد مبينا عدم ملاءمته كجواب عن حقيقة حاله عليه الصلاة والسلام ، وسقوطه كشبهة في الميزان العقلي السليم ، ومن ثم يخشى من عدم حصول القبول له في قلوب العامة من الناس .

ومع أن كل الشبه والأقوال التي طرحت في هذا الاجتماع لم تكن مناسبة في نظر الوليد : كاهن ، مجنون ، شاعر ، ساحر ، ومع هذا فإن الوليد ارتأى لهم في النهاية أن القول الأخير مع ما عليه من ملاحظات يبدو أنه هو الأقرب للقبول والتصديق لدى العوام ، وعليه فإن الخطة التي أقرت في نهاية الاجتماع هي أن يشيعوا عن الرسول صلى الله عليه وسلم الاتهام بأنه ساحر .

(١) رواه البيهقي في الدلائل من طريق ابن إسحاق ٢/٢٠٠ ، ونقله عنه ابن كثير في البداية ٣/٧٩ ، وينظر : السيرة النبوية لابن هشام ١/٢٠٣-٢٠٤ ، سبل الهدى والرشاد ٢/٤٧٢-٤٧٣ .

وزيادة في الإيهام وحبكا من الوليد للمؤامرة أمام الجمع من قريش يذكر لهم بعض الشواهد التي يمكن أن يستخدموها كأدلة تؤكد للناس سحر نبي الله صلى الله عليه وسلم ، إذ هو في نظر الوليد (ساحر يفرق بين المرء وبين أبيه ، وبين المرء وبين أخيه ، وبين المرء وبين زوجته ، وبين المرء وعشيرته).

وهذا أمر يمكن أن ينخدع به الجاهلون .

وهكذا خرجوا من هذا الاجتماع بهذه الخطة والمكيدة ، لتكون إحدى طرق المقاومة للدعوة التي لا بد أن يتسامع بها القادمون في الموسم ، فتكون تلك الخطة - حال تنفيذها - كالحصانة للجماهير من التأثير بالدعوة ، والداعية رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكثيرة هي المواقف التي يمكن من خلالها استشفاف ملامح التخطيط والتآمر ، والإعداد والتشاور ، في مواجهة أولئك الملأ من قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم والفئة المؤمنة .

ومن ذلك - إضافة إلى ما سبق - ما فعله رجال قريش من المشركين ، حين هاجر بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحبشة ووجدوا فيها الأمن والاستقرار ، إذ أزعج هذا الخير الملأ من قريش ، وساءهم ذلك الوضع الجديد ، وهذه النقلة المتقدمة للفئة المؤمنة ، فاجتمعوا لحبك المؤامرة المناسبة لهذه المرحلة الجديدة ، وهذا الظرف المستجد .

قال ابن إسحاق : " فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد آمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة ، وأنهم قد أصابوا بها دارا وقرارا ، ائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جليدين إلى النجاشي ، فيردهم عليهم ليفتنوهم في دينهم ، ويخرجوهم من دارهم التي اطمأنوا بها ، وأمّنوا فيها ، فبعثوا عبد الله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص بن وائل ، وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقتة ، ثم بعثوهما إليه فيهم " (١) .

والتخطيط والتآمر هنا واضح ، والمكر والدهاء ظاهر ، فقد علم هؤلاء المتنفذون في قريش بخروج هذه المجموعة المؤمنة إلى الحبشة ، فأحسوا بالخطر والترقب والانزعاج ، وهم يرونهم يعيشون في الحبشة أوضاعا طيبة نسبيا ، يحسون فيها بالأمن والاطمئنان ، ورأوا أن ذلك خطرا عليهم على المدى البعيد أو القريب ، وأنه لا بد من مقاومة هذا الامتداد للمؤمنين ، وعدم الاستسلام للوضع الجديد ، والعمل على بقاء المؤمنين في قلق دائم ومستمر ، ومن ثم فقد اجتمعوا لتدارس الأمر ، وإعداد التدابير الملائمة ، والاتفاق على التصرف المناسب حيال هذا الأمر الواقع ، وكان أن خرجوا من اجتماعهم بخطة مكونة من عنصرين :

الأول : إرسال رجلين مناسبين اختاروهما فيما يبدو بدقة ، ليمثلا أكابر قريش عند النجاشي ، وليطلبوا منه طرد الفئة المؤمنة التي استقرت بأرضه .

والثاني : اختيار مجموعة من الهدايا المناسبة ، لتكون عامل تأثير على النجاشي وبطارقته ، فيلبوا للوفد طلبه الذي جاء من أجله .
ولكن الله سبحانه أفضل خطتهم وأبطل مكرهم .

وقر الأيام ، ويهاجر المؤمنون بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، ويعزم الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه على الهجرة ، ويعلم رجال قريش بذلك ، فيؤلمهم هذا الخبر أيضا ، إذ أحسوا أن هجرته صلى الله عليه وسلم قد تكون البداية لتحول بطنىء ، ولكنه مؤثر في موازين القوى ، وبعد أن كان بيدهم استضعاف المؤمنين واضطهادهم ، سينتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم والعصبة المؤمنة من مرحلة الضعف ، وسيصبحون في مركز قوة ، قد يؤهلهم لإمساك زمام المبادرة ، والتحول من الدفاع إلى الهجوم ، بعد أن كان زعماء مكة ممسكين بزمام المبادرة في مواجهة الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين في المكان والزمان الذي يريدون .

ويبدو أن هذا التفكير وهذا الإحساس بالخطر هو الذى دفع الملائم من حماة الكفر إلى أن يجتمعوا من جديد - كما يجتمعون دائماً لكيد الإسلام وأهله - لمناقشة هذا الوضع ، والخروج بالقرار المناسب فى هذه التطورات الحساسة فى نظرهم ، وترتيب التصرف الملائم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بشكل سريع ، قبل أن يخرج من أرضهم مهاجراً عليه الصلاة والسلام . يقول ابن القيم : " فلما رأى المشركون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تجهزوا وخرجوا وحملوا وساقوا الذرارى والأطفال والأموال إلى الأوس والخزرج ، وعرفوا أن الدار دار منعه ، وأن القوم أهل حلقة^(١) وشوكة وبأس ، فخافوا خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ، ولحوقه بهم ، فيشتد عليهم أمره ، فاجتمعوا فى دار الندوة ، ولم يتخلف أحد من أهل الرأى والحجاء^(٢) منهم ليتشاوروا فى أمره " (٣) .

كان الهدف من الاجتماع إذن هو وضع الخطة المناسبة لمواجهة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بالنظر إلى التطورات الأخيرة التى حصلت بهجرة المؤمنين إلى المدينة ، وتوقع لحوق الرسول صلى الله عليه وسلم بهم . تشاور هؤلاء وتبادلوا الرأى فى الموقف المناسب مقدمين لذلك بأن الخطر داهم ، والاحتمال قائم بتحريك الرسول صلى الله عليه وسلم - لو تيسر له سبيل الهجرة - مع من اتبعه خارج مكة لمبادأة المشركين بالهجوم إذ قال بعضهم لبعض (إن هذا الرجل قد كان من أمره ماقد رأيتم ، فإننا والله مانأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا فأجمعوا فيه رأياً) . وكانت الآراء المعروضة ثلاثة ، أولها : حبسه عليه الصلاة والسلام حتى يأتيه الموت ، وثانيها : نفيه وإخراجه من مكة ، ولا يضر بعد ذلك استقراره فى أى مكان ، وثالثها : قتله عليه الصلاة والسلام بعملية ذات تخطيط وتنفيذ جماعى .

(١) بسكون اللام ، أى سلاح . ينظر لسان العرب ٩٦٩/٢ .

(٢) الحجاء بكسر الحاء : العقل . ينظر ترتيب القاموس ٥٩٨/١ .

(٣) زاد المعاد ٥٠/٣ .

تبودلت هذه الآراء وبعد مناقشتها رجحت كفة الرأي الثالث ، وتقبله المجتمعون ومالوا إليه ، وكان الذى اقترحه أبو جهل ، إذ قال فى الاجتماع "والله إن لى فيه لرأيا ماأراكم وقعتم عليه بعد ، قالوا : وماهو ياأبا الحكم؟ قال أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليدا نسيبا وسيطا فينا ، ثم نعطي كل فتى منهم سيفا صارما ، ثم يعمدوا إليه ، فيضربوه ضربة رجل واحد ، فيقتلوه ، فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم" (١).

خرج الملأ وهم متفقون على هذه الخطة ، وتحركوا بعد ذلك لوضعها موضع التنفيذ .

والملاحظ فى تلك الخطة أنها أخذت بالحسم فى القضية ، إذ أن حبه عليه الصلاة والسلام أو نفيه لن يكون - حسب مقولتهم فى الاجتماع - حلا جذريا ، بل سيطيل أمد المشكلة ، وسيثير المتعاطفين معه صلى الله عليه وسلم ليلتفوا حول الفكرة ، ويتحركوا المناهضة قريش ، ولذا قرر الملأ اتخاذ اجراء القتل المباشر .

كما أن الخطة وضعت فى الحسبان موقف عشيرته صلى الله عليه وسلم والذين سيثأرون له - عصبية - ولاريب ، ولذلك كان الرأي أن يعملوا على تفريق دمه فى القبائل ، بحيث لاتكون مهمة التنفيذ فردية ، وإنما يقوم بها مجموعة من كل القبائل ولن تستطيع بنو عبد مناف حينها أن تثار من القبائل جميعا ، وسترضخ لما هو دون ذلك من الدية ، وبذلك سينتهى الموضوع - فى نظرهم - بأقل الخسائر .

ذلك مكرهم ، ولكنه مكر البشر على كل حال .

قال الله سبحانه :

{وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين}{(١)}

هذا التخطيط منهم لضرب الإسلام ومواجهة الدعوة يحتاج - إضافة إلى الجهد الفكرى والبدنى - إلى امداد مادية لتهيئة العدة ووسائل المجابهة ، والملا من قريش - كأمثالهم من خصوم الإسلام وأعدائه - مستعدون لذلك ، ولابأس لديهم بالتضحية الآنية بالمال من أجل التخطيط والإعداد ، ويتحركون في أكثر من اتجاه لضمان التمويل المادى الذى يسمح لهم بتجهيز أكبر قدر ممكن من عدة المواجهة، بغية القضاء على دين الله تعالى والصد عن سبيله .

ذلك ما يقرره الله سبحانه في قوله عز وجل :

{إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فيسيفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون...}{(٢)}

والآية عامة في كفار قريش كما رجح ابن جرير (٣).

وصورة أخرى من صور التآمر نلاحظها في تحركات الملا من يهود ، الذين يفرقهم عن كفار قريش الفكر والعقيدة ، ويجمعهم بهم مناهضة الإسلام ، والعداء لرسول الله صلى الله عليه وسلم والفئة المؤمنة . ومن ثم فإن الملا من يهود لا يتورعون عن مد الجسور مع مشركى قريش واستقبالهم ، وشد الرحال إليهم ، مادام المقصود من هذا التواصل هو العدو المشترك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والإسلام الذى يدعو إليه .

إن دور الملا من يهود واضح ومكشوف في إيجاد الأرضية المشتركة مع أعداء الله من قريش ، وتآليبهم وتحريضهم للتخطيط ضد الدعوة ، وضربها

(١) سورة الأنفال : آية ٣٠

(٢) سورة الأنفال : من آية ٣٦

(٣) ينظر تفسير الطبرى ٢٤٦/٩ ، وقال ابن كثير في تفسير الآية : "وعلى كل تقدير

فهى عامة وإن كان سبب نزولها خاصا" ٣٠٧/٢ .

في عقر دارها ، وبذل المحاولة تلو المحاولة لتجميع الجموع وإعداد القوة العسكرية القادرة على مواجهة دولة الإسلام في المدينة .
 هذا التحرك من المملأ من يهود لم يقف حائلا دونه ما أبرموه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من العهود والمواثيق على أن لا يقفوا ضده ، ولا يتمالئوا مع المحاربين له ، وذلك حين أصبحت المدينة دارا للإسلام ، وموئل قوة له . لقد كانوا مدفوعين إلى تلك العهود خوفا على أنفسهم ، وحرصا على سلامتهم ، ورغبة في إعطاء أنفسهم فرصة للتفكير ، والتخطيط للوسائل المناسبة للمجابهة .

أما في الحقيقة والواقع فقد كانوا مستعدين لنكث الوعود ، وخيانة العهود ، والغدر بالمسلمين ، كلما تحينت لهم فرصة الفتنة ، وكلما لاحت لهم بارقة أمل في التحالف مع القوى المناوئة للدعوة .
 {إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون} (١) .

ومواقف المملأ من يهود في هذا الاتجاه كثيرة ، أكتفى منها بموقفهم المخزى قبيل غزوة الخندق ، في تجميع الجموع ، وتأليب القوى الكافرة وتخريبها ، وتهوين أمر المواجهة عليها ، والتنسيق بين تلك الأحزاب للهدف النهائي : الهجوم على دولة الإسلام بالمدينة ، لاكتساحها وإنهاء الوجود الإسلامي فيها .

عن عروة بن الزبير وغيره ، قالوا : "إنه كان من حديث الخندق أن نفرا من اليهود - منهم سلام بن أبي الحقيق النَّضْرِي (٢) ، وحيي بن أخطب النَّضْرِي ، وكنانة بن أبي الحقيق النَّضْرِي ، وهوذة بن قيس الوائلي ، وأبو عمّار الوائلي - في نفر من بني النضير ، ونفر من بني وائل ، وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خرجوا حتى قدموا

(١) سورة الأنفال : آية ٥٥-٥٦

(٢) سلام بن أبي الحقيق : بتشديد اللام ، وبضم الحاء وفتح القاف وبياء التصغير . المغني ص ٧٩ ، ١٣٠ .

على قريش مكة ، فدعوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله ، فقالت لهم قريش : يامعشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه فهم الذين أنزل الله تعالى فيهم :

{ألم تر إلى الذين أتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا} (١).

إلى قوله تعالى :

{فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيرا} (٢).

قال : فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمعوا لذلك واتعدوا له .

ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاؤوا غطفان فدعوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه ، وأن قريشا قد تابعوهم على ذلك ، فاجتمعوا معهم فيه " (٣) .

قال ابن إسحاق : " وخرج عدو الله حيي بن أخطب النضري ، حتى أتى كعب بن أسد القرظي ، صاحب عقد بني قريظة وعهدهم ، وكان قد وادع رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه ، وعاهده على ذلك وعاقده فلما سمع كعب يحيي بن أخطب أغلق دونه حصنه ، فاستأذن عليه ، فأبى أن يفتح له ، فناداه حيي : ياكعب ، افتح لي ، قال : ويحك يا حيي ، إنك امرؤ

(١) سورة النساء : آية ٥١

(٢) سورة النساء : آية ٥٥

(٣) رواه ابن إسحاق : السيرة النبوية لابن هشام ٣/١٤٧-١٤٩ (مع اختصار يسير) ، وذكر أكرم العمرى أنه صحيح مرسل . السيرة النبوية الصحيحة ٢/٤١٩ (الحاشية) ورواه ابن جرير من طريق ابن إسحاق : تفسير الطبري ٢١/١٢٩-١٣٠ ، والبيهقي كذلك في الدلائل ٣/٤٠٨-٤٠٩ ، ونقله ابن كثير في البداية ٤/١٠٨ ، وأورد ابن كثير في التفسير نحوه من رواية ابن إسحاق عن ابن عباس رضى الله عنهما ٤/٥١٣ ، وذكر العمرى أن إسناده حسن . السيرة الصحيحة ٢/٤١٩ (الحاشية) ، وينظر : زاد المعاد ٣/٢٧٠-٢٧١ ، المغازي للواقدي ٢/٤٤١-٤٤٢ .

مشئوم ، إني قد عاهدت محمدا ، فلست بناقض ما بيني وبينه ، ولم أر منه إلا وفاء وصدقا ، قال : ويحك ، افتح لي أكلمك ، قال : ما أنا بفاعل ، قال : والله إن أغلقت دوني إلا تخوفت على جشيشتك^(١) أن آكل معك منها ، فأحفظ الرجل^(٢) ، ففتح له ، فقال ياكعب ، جئتك بعز الدهر ، وببحر طام^(٣) ، جئتك بقريش على قاداتها وساداتها ، حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة^(٤) ، وبغطفان على قاداتها وساداتها ، حتى أنزلتهم بذنب نَقَمَى^(٥) إلى جانب أحد ، قد عاهدوني وعاهدوني أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدا ومن معه ، فقال له كعب بن أسد : جئتني والله بذل الدهر ، وبجَهَام^(٦) قد هراق ماءه ، يرعد ويبرق ليس فيه شيء ، فدعني ومحمدا وما أنا عليه ، فلم أر من محمد إلا صدقا ووفاء ، فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة والغارب^(٧) ، حتى سمح له على أن أعطاه عهدا من الله وميثاقا : لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا أن أدخل معك في حصنك ، حتى يصيبني ما أصابك ، فنقض كعب بن أسد عهده ، وبرىء مما كان عليه فيما بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٨) .

- (١) هي الحنطة تطحن ثم يلقي عليها لحم أو تمر وتطبخ . ينظر النهاية ٢٧٣/١ .
- (٢) أى أغضبه . ينظر لسان العرب ٩٣٠/٢ .
- (٣) أى علا ماؤه وغمر وكثر ، من طم الماء إذا كثر . ينظر لسان العرب ٢٧٠٥/٤ .
- (٤) رومة بضم الراء وسكون الواو : بئر بالمدينة ، بالشمال الغربي من الحرم النبوي وتعرف أيضا ببئر عثمان . ينظر ترتيب القاموس ٤١٦/٢ .
- (٥) نَقَمَى بفتح النون والقاف والميم : اسم موضع بالمدينة . ينظر ترتيب القاموس ٤٣٣/٤ .
- (٦) الجَهَام بفتح الجيم "السحاب لاماء فيه ، أو قد هراق ماءه" . ترتيب القاموس ٥٤٩/١ .
- (٧) قال السهيلي : "هذا مثل ، وأصله في البعير ، يستصعب عليك ، فتأخذ القراد من ذروته وغارب سنامه ، وتفتل هناك ، فيجد البعير لذة فيأنس عند ذلك ، فضرب هذا الكلام مثلا في المراوغة والمخاتلة" . الروض الأنف ٢٧٧/٣ .
- (٨) من رواية ابن إسحاق عن عروة وغيره كما في تفسير الطبري ١٣٠/٢١ ، وينظر : السيرة النبوية لابن هشام ١٥٤/٣-١٥٥ ، دلائل النبوة للبيهقي ٤٠٠/٣-٤٠١ ، البداية ١١٨/٤ ، زاد المعاد ٢٧١/٣-٢٧٢ ، تفسير البغوي ٥١١/٣ ، المغازي للواقدي ٤٥٤/٢-٤٥٧ .

وبذلك اجتمعت الجموع ، وتحزبت الأحزاب ، مختلفة مشاربهم ،
متعددة أفكارهم ومصالحهم ، متفرقة أديانهم وعقائدهم ، ويجمعهم هدف
واحد هو القضاء على الدعوة وأهلها .
يقول الله تعالى :

{يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم
ريحاً و جنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً. إذ جاؤوكم من فوقكم ومن
أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا .
هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً} (١).

قال الألوسي : " المراد بالجنود الأحزاب ، وهم قريش يقودهم أبو
سفيان ، وبنو أسد يقودهم طليحة ، و غطفان يقودهم عيينة ، وبنو عامر
يقودهم عامر بن الطفيل ، وبنو سليم يقودهم أبو الأعور السلمى ، وبنو
النضير رؤساؤهم حبي بن أخطب وأبناء أبي الحقيق ، وبنو قريظة سيدهم
كعب بن أسد" (٢).

ويمكن من خلال هذا العرض لما قام به اليهود من الإعداد للمواجهة
العسكرية للمسلمين في غزوة الأحزاب أن نقف على الحقائق التالية :

أولاً : الحقد الدفين ، والكراهة المتأصلة ، لدى الملأ المكذبين من يهود
تجاه الإسلام وأهله ، حتى وإن لم يجاهرُوا بذلك في مرحلة معينة ، حفاظاً
على مصالحهم ، وترقباً لأمد قريب يعدون فيه ويستعدون ، ولذلك فإنهم
مهما أبرموا من العقود ، ووثقوا من العهود ، فإن الكره للرسول صلى الله
عليه وسلم ودعوته يظل يمزق أفئدتهم ويجرى في عروقهم ، ومن ثم فإنهم
يتحينون الفرص ، لتحويل مافي نفوسهم من جحيم الحقد إلى سموم واقعية
يبثونها لتصيب الإسلام وأهله ، ويتحركون في هذا الإطار على كل مستوى
يتهيأ لهم ، من أجل ترتيب الجهد اللازم لمناوشة المؤمنين ، وضربهم بما
يوقف امتداد دعوتهم ، أو يجمدها عن التأثير والانتساع .

(١) سورة الأحزاب : آية ٩-١١

(٢) تفسير روح المعاني ١٥٥/٢١ .

ثانيا : وانطلاقا من هذا الشعور الممتلىء غيظا وحنقا على الإسلام ، فإنهم لا يتورعون عن رفع راية الغدر ، ولا يتخرجون عن نكت العهود ونقض المواثيق المبرمة بينهم وبين رجال الإسلام ، بمجرد أن يستأنسوا من أنفسهم قوة ، أو يلحظوا في الفئة المؤمنة موقف ضعف ، أو يجدوا المرحلة مناسبة ، والفرصة متحينة ، والجو مهيأ ، بتبدل في موازين القوى ، أو بتحالفات يمكن أن تنشئ قوة يحسب حسابها ، وتكون في نظرهم أداة قادرة على مجابهة الإسلام ورسول الإسلام صلى الله عليه وسلم ، حينذاك لن يتردد الملائم من يهود في التحرك للمواجهة ، واستغلال نقاط القوة التي يأنسونها لمصلحتهم ، وكل ذلك مبنئ على تخطيطهم وتقديرهم للمصالح .

ثالثا : ليس لدى الملائم من يهود - كذلك - أية غضاضة في التحالف مع أى قوة تستطيع أن تؤثر سلبا في وضع المسلمين ، وانتشار دعوتهم ، وليس لهم في ذلك أية ضوابط تحكمهم ، أو مبادئ يوجبون على أنفسهم مراعاتها .

إن الميزان الذى يقيسون به المسألة هى المصلحة التى توصلهم - حسب تصورهم - إلى هدفهم وبغيتهم .

ومن أجل ذلك لا يمانعون في الارتباط مع أعدائهم بالأمس ، أعدائهم في الفكرة ، وأعدائهم في العقيدة ، مادامت المصلحة تجيز لهم ذلك في مرحلتهم التى يعيشونها بغض النظر عن الماضى ، وبغض النظر أيضا عن أى اختلافات في الفكر أو العقيدة ، مهما كانت الفوارق ضخمة ، ومهما كانت سببا للعداء في السابق ، فإن المصلحة الآنية يمكن أن تجمعهم .

من هذا التصور ، وبحسب هذا الميزان ، يتحرك حبي بن أخطب في مجموعة من أكابر يهود إلى مكة ليلتقوا بقريش ، أعداء الأمس في العقيدة والمنهج ، ليطلبوا منهم أن تتشابك الأيدي ، وأن تجتمع القوى ضد العدو المشترك .

رابعاً : من الواضح أن الهدف المشترك لهذا التحالف والتآمر ، وهذا التلاقى بين قوتين متباينتين فكرياً وعقدياً هو هدم الإسلام الذى بعث به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالذى يجمعهم هو العداء لهذا الدين ، والهـم المتبادل بين كل تلك القوى المتحالفة المتآمرة هو استئصال شأفة الإسلام ، وإيقاف امتداد الدعوة واتساعها ، والقضاء على الرسول صلى الله عليه وسلم والطائفة المؤمنة فى عقر دارها .

هذا هو ما صرح به حِيَّ بن أُخْطَب وسَلَّام بن أبى الحَقِيق وغيرهم من ملأ يهود للمتنفذين من قريش (إننا سنكون معكم عليه حتى نستأصله) وأخبروا غطفان (أنهم سيكونون معهم عليه) صلى الله عليه وسلم ، ثم يعود حِيَّ فيقول لكعب بن أسد (جئتك بقريش على قاداتها وساداتها .. وبغطفان على قاداتها وساداتها .. قد عاهدوني وعاقدوني أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه) .

هذا هو هدفهم ، وهذه هى بغيتهم ، التى تحالفوا من أجلها ، وعقدوا لها لقاءات التآمر ، وقلبوا الأمور ، وأعدوا العدة ، وهياؤوا الخطة .

خامساً : فى سبيل هذا الهدف ، ومن أجل إغراء قريش ، وتحميسها للمشاركة تهون المبادئ لدى حِيَّ بن أُخْطَب وأشباهه ، وتتنـيـر الأفكار ، وتنقلب المفاهيم ، وتصبح عقيدة قريش التى كانوا يخطئون بها بالأمس صواباً فى هذه المرحلة الجديدة ، يشنون عليها ويصححونها ويجعلون الحق مع أهلها ، ومن ثمَّ فالوثنية والشرك أهـدى وأولى وأفضل من دين الله جل وعلا - فى زعم الملأ من يهود - (بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه) . وكل ذلك منهم إغراء لقريش ، وتنشيط لأصحاب الأمر والنهى فيها ليوافقوا على فكرة التحالف ، بغية المناهضة للدعوة ومواجهة أهلها .

وكان هناك لون آخر من الإغراء لدى حِيَّ بن أُخْطَب ورفاقه ، لتأييد خطتهم التى تحركوا من أجل تحويلها إلى واقع ينفذ .

فقد وعدوا قريشاً بأنهم سيهيئون كل امكانياتهم وقواتهم لصالح هذا التحالف الشركى اليهودى التآمرى (إننا سنكون معكم) .

وحيثما انتقل الملاء من يهود إلى غطفان أغروهم بالتعاون الوثيق (سيكونون معهم عليه) ومنوهم بمرود سخي في مقابل المشاركة الفعلية في القتال ، يتمثل في نصف ثمار خيبر^(١) ، كما أغروهم بأن هناك قوى أخرى أعطت موافقتها ، وهي جاهزة للتحرك (وأن قريشا قد تابعوهم على ذلك) وبالتالي فالقوى المشاركة لها وزنها وقوتها ، وهذا ما يوحى للآخرين بأن لهذه الأحزاب فرصتها الكبيرة في النصر ، وهو أمر يغرى بالمشاركة ، وقد فعلت غطفان .

وكذلك فعل حيي في إغرائه لكعب بن أسد زعيم بني قريظة ، حين أخبره بتجهز قوى الشرك ، وإحاطة جيوشها بالمدينة .. (جئتكم بعز الدهر وبيحر طام ، جئتكم بقريش على قاداتها وساداتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة ، وبغطفان على قاداتها وساداتها حتى أنزلتهم بذنب نَقَمَى إلى جانب أحد ، قد عاهدوني وعاهدوني على أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدا ومن معه " .

فالعلمية إذن جاهزة ، ونجاحها مضمون ، والقوى المشتركة المتآمرة ضخمة وكبيرة ، وقد تحركت فعلا ، واقتربت لحظة النصر .

والمقصد من هذا الطرح هو إغراء بني قريظة للمشاركة في التنفيذ ، إذ أن موقعها في المدينة يهيئ لها المشاركة الفعالة في المجابهة ، واشتراكها مع أحزاب الكفر سيكون ضربة معنوية قاصمة للمؤمنين .

وعلى كل حال فالتحريض والتأليب ، والتآمر والتخطيط ، واضح فيما حصل من التحركات التي أشرت إليها ، سواء في دائرة الملاء من يهود أنفسهم ، أو في العلاقة بينهم وبين الملاء من قريش وغيرهم ، وكان الهدف من هذا التأليب توسيع قاعدة الأحزاب المشاركة في العملية والتي تروم مواجهة الإسلام في حرب فاصلة .

(١) ورد ذلك في رواية موسى بن عقبة . ينظر دلائل النبوة للبيهقي ٣/٣٩٨-٣٩٩ .

ويشاء الله سبحانه أن يحفظ دينه {فأرسلنا عليهم ريحا و جنودا لم تروها} .

وأختم بصورة أخرى من صور التآمر من الملأ المكذبين ضد الدعوة ، تتمثل في شخصية أبي عامر الفاسق (١) ، أحد سادة الأوس في الجاهلية . قال ابن إسحاق : "قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة - كما حدثني عاصم بن عمر بن قتادة - وسيد أهلها عبد الله ابن أبي سلول ، لا يختلف عليه في شرفه اثنان ، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين حتى جاء الإسلام غيره ، ومعه في الأوس ، رجل هو في قومه من الأوس شريف مطاع : أبو عامر عبد عمرو بن صيفى بن النعمان" (٢) .

ولما ظهرت دعوة الإسلام بالمدينة أصر أبو عامر هذا على الكفر وصرح به ، ورفض الاستجابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل وقرر المجابهة ليشفى ما اشتعل في نفسه من الغل والحسد ، والحقد والغیظ . بدأ أبو عامر رحلته في المؤامرات ضد الدعوة ، بخروجه إلى مكة مباعدا عن الإسلام وأهله ، ومتحالفا مع عصابة الكفر من قريش متآمرا معها في مواجهة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال ابن إسحاق : "أما أبو عامر فأبى إلا الكفر والفراق لقومه حين اجتمعوا على الإسلام ، فخرج منهم إلى مكة ببضعة عشر رجلا ، مفارقا

(١) هو عبد عمرو بن صيفى ، كان يسمى أبو عامر الراهب ، لتنصره في الجاهلية وترهبه ، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم - فيما روى عنه - الفاسق . ينظر : السيرة النبوية لابن هشام ١٩٢/٢ ، ١٠/٣ ، زاد المعاد ١٩٦/٣ ، البداية ١٨/٤ ، ٢٧/٥ ، تفسير ابن كثير ٣٨٧/٢ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١٩٢/٢ (مع اختصار يسير) ، وينظر : زاد المعاد ١٩٦/٣ السيرة الحلبية ٥٢٤/٢ ، سبل الهدى والرشاد ٦١١/٣-٦١٢ .

للإسلام ، ولرسول الله صلى الله عليه وسلم" (١).

وهناك التقى مع قريش على خط العداة والمواجهة ، وكان يقدم الوعود والأمانى لسادة قريش بأنه لازال يحمل المكانة التى يعرفها فى قومه من الأوس ، وسيكون لذلك أثره فى التثبيط والتخذيل إذا حانت ساعة المواجهة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولذلك شارك أبو عامر قريشا حربهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى أحد وكان فى مقدمة الجيش ، متوقعا أن يجد من الأوس إقبالا عليه ، وتخاذلا من أجله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الواقع كان نحيبا لآماله بتقدير من الله سبحانه .

قال ابن إسحاق فى معرض حديثه عن مشاركة أبى عامر فى غزوة أحد فى صف المشركين : " وكان يعد قريشا أن لو قد لقى قومه لم يختلف عليه منهم رجلان ، فلما التقى الناس كان أول من لقيهم أبو عامر فى الأحابيش وعبدان أهل مكة ، فنادى يامعشر الأوس ، أنا أبو عامر ، قالوا : فلاأنعم الله بك عينا يافاسق ، فلما سمع ردهم عليه قال : لقد أصاب قومى بعدى شر ، ثم قاتلهم .. " (٢).

يأس أبو عامر من استجابة قومه من الأوس أو تأثرهم به ، ولكن الرجل لم ييأس من المواجهة ، وقرر لنفسه دورا تآمريا ضد الإسلام لابد من المضى فيه .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١٩٣/٢ ضمن رواية ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة . وينظر : زاد المعاد ١٩٦/٣ ، السيرة الحلبية ٥٢٤/٢ ، المغازى للواقدي ٢٠٥/١-٢٠٦ ، تفسير ابن كثير ٣٨٧/٢ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١٠/٣ من رواية ابن إسحاق قال : حدثنى عاصم بن عمر ابن قتادة (وفيه اختصار يسير) . وينظر : زاد المعاد ١٩٦/٣ ، البداية ١٨/٤ ، السيرة الحلبية ٥٢٤/٢ ، المغازى للواقدي ٢٢٣،٢٠٦/٢ ، تفسير ابن كثير ٣٨٨-٣٨٧/٢ .

واستمر يؤلب المشركين ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
ويشارك في المواجهات العسكرية ضد المسلمين من جهة ، ويجرى اتصالاته
التآمرية مع أعداء الله في المدينة من المنافقين من جهة أخرى ، ويتواصل
معهم ، ويتلقى منهم الأخبار ويعرف من خلالهم مايجرى في المدينة من
الوقائع ، وماير بها من الأحداث ، ولاشك أنه يستفيد من كل ذلك في
المكر بالمؤمنين والكيد للإسلام .

ويبدو أنه لما وجد الأمور تجرى على غير مايجب ، والمواجهات
العسكرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم تبوء بالخسائر والهزيمة ، بل
ويأخذ نبى الله صلى الله عليه وسلم زمام المبادرة ، فتفتح مكة ، ويعلو دين
الله فيها .

لما رأى ذلك كله ، وتيقن أن مشركى قريش ومن حولهم قد كسرت
شوكتهم ، ولم يعد لهم كبير خطر وقوة ، آثر أن يلجأ إلى قوة أخرى لازال
لها كيائها ، ويحسب لها حسابها ، ولازالت تحمل من القوة والعدة مايمكنها
من البطش والقهر ، لعله أن يجد هناك مجالا جديدا للتآمر ضد الدعوة ،
فخرج إلى هرقل ملك الروم طالبا منه النصرة على رسول الله صلى الله
عليه وسلم^(١) ، ويبدو أنه وجد منه وعودا في هذا الاتجاه ، ومكث عنده
يؤلب ويخطط للتنفيذ ، واتصل أثناء ذلك بعملائه في داخل المدينة من
المنافقين ، طالبا منهم التجهز ، وإعداد العدة للمواجهة المنتظرة ، كما طلب
منهم إيجاد معقل مناسب ، وواجهة آمنة ، يمكن من خلالها الاتصال بهم ،
ويستطيع إرسال كتبه اليهم فيها ، فبنى أتباعه من المنافقين مسجد الضرار ،
والذى نزل فيه قول الله سبحانه :

{والذين اتخذوا مسجدا ضارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن
حارب الله ورسوله من قبل ...} (٢).

(١) ينظر : السيرة النبوية لابن هشام ١٩٣/٢ ، البداية ٢٧/٥ ، تفسير البغوى ٣٢٦/٢

تفسير القرطبي ١٦٣/٨ ، تفسير الطبرى ٢٣/١١ .

(٢) سورة التوبة : من آية ١٠٧

والمقصود بمن حارب الله ورسوله في الآية هو أبو عامر هذا (١)،
والذى كان قد بعث إلى المنافقين - كما في رواية ابن عباس رضى الله
عنهما - أن (ابنوا مسجدكم ، واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح ،
فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم ، فأتى بجند من الروم ، فأخرج محمدا
وأصحابه) (٢).

ولكن الله سبحانه وتعالى نصر دينه ، وحفظ نبيه صلى الله عليه وسلم
إذ جاءه الوحي من الله تعالى بما يراد من الكيد ، فأمر بهدم المسجد
ولإحراقه ، أما أبو عامر فقد مات هناك في غربته ، وانتهت بموته صورة من
صور الكيد والتآمر .

(١) ينظر : تفسير الطبرى ٢٣/١١ ، تفسير القرطبي ١٦٣/٨ ، زاد المسير ٣٣٩/٣-٣٤٠ ،
تفسير البغوى ٣٢٦/٢ .

(٢) رواه ابن جرير في التفسير ٢٤/١١ ، والبيهقى في الدلائل ٢٦٢/٥-٢٦٣ ، وينظر :
لباب النقول ص ١٢٥ ، زاد المعاد ٥٥٠/٣ ، تفسير ابن كثير ٣٨٨/٢ ، البداية
٢٧/٥ ، تفسير البغوى ٣٢٦/٢ ، تفسير فتح القدير ٤٠٤/٢ .

المطلب التاسع

التأثير السلبي على عامة الناس
للحيلولة بينهم وبين الدعوة

الجماهير هم وعاء الدعوة ودائرتها التي يتحرك فيها الرسل عليهم السلام ، لجذب الناس إلى العقيدة الصحيحة والمنهج الإلهي ، عن طريق الإقناع بالدليل وإقامة الحجة ، والتبشير بالهناء الدنيوى والسعادة الآخروية لمن ارتضى دين الله تعالى ، والإنذار بعقاب الله سبحانه لمن خالف أمره . إن الجماهير هم الحقل الذى يبذر فيه الرسل عليهم السلام بذور الحق والخير والهدى ، يرجون ثماتها ، ويعملون على الاعتناء بها ، ليكون الحصاد فئات مؤمنة موحدة لربها عز وجل ، متبرئة من عبادة الطواغيت .

والملاّ المكذبون - عادة - يخشون هذه العاقبة ، فيعملون على تفجير هذا الحقل ، قبل أن يجد الرسل عليهم السلام المجال للبذر فيه ، ويبذلون جهودهم ، مستهدفين الحيلولة بين الجماهير وبين الرسل عليهم السلام ، وتآليب العوام ضدهم ، وتخديرهم منهم ، واستمالتهم إلى صف الكفر ومواجهة الدعوة ، والتأثير عليهم بكل وسيلة ، بغية قطع الأمل لدى الرسل عليهم السلام فى إمكانية الاستجابة لهم ، أو - على أقل تقدير - التقليل من أعداد المؤمنين المستجيبين لدعوة الله سبحانه ، وتجميع هذه الفئة المؤمنة ، والعمل على أن لا تتسع قاعدتها ، أو يعظم صفها ، أو تكبر دائرتها ولهم فى ذلك وسائل وأساليب ، يؤثرون بها على العامة والجماهير ، ويقللون من المناصرين والمتعاطفين مع الدعوة أو من آمن بها .

كما أنهم يبذلون جهودا فى التهيئة النفسية للجماهير لتقبل رأى الملاّ فى الدعوة والرسول والمؤمنين ، ولتوافق على كل أنواع المواجهة ضدهم ، وذلك بنشر الدعاية السيئة المغرضة حول الرسول والمؤمنين ، حتى تسوء سمعتهم ، وتتدنّى مكانتهم ، فى أعين الناس ، فيتمكن الملاّ حينئذ من ضرب الدعوة دون أى اعتراض .

وما ذكّر سابقا فى المبحث المتعلق بإثارة الشبهات يدخل ضمن هذا الإطار ، إذ أن من أهم أهداف الإثارة للشبهات صد الناس عن سبيل الله سبحانه ، بنشر دعاية سيئة ، وصورة مشوهة ، عن وضع الرسل عليهم السلام ، والتلبيس على العامة ، والحيلولة بينها وبين الإدراك الصحيح لأهداف الدعوة ، ومفاهيم الدين .

وكذلك فإن ما ذكر آنفا من أنواع المجابيات يهدف الملائم المكذبون منه - ضمن أهدافهم وأغراضهم - إلى التأثير بطريقة أو بأخرى على العامة ، حتى لا يفكروا في قبول الدعوة ، أو الاستجابة للرسول عليهم السلام ، أو الانضمام للفئة المؤمنة .

وأذكر هنا بعض النماذج من قصص الرسل عليهم السلام تظهر فيها المحاولات الجادة للتأثير على عامة الناس واستمالتهم ، أو تأليبهم وتخريضهم ، أو وضع الحواجز للحيلولة بينهم وبين الرسل عليهم السلام .
ففى قصة نوح عليه السلام يشتكى نبي الله إلى ربه مكر الأكاير والرؤساء :

{ومكروا مكرا كبارا} (١).

وأحد مظاهر هذا المكر والكيد يتمثل فى تحذيرهم للعامة من اتباع نوح عليه السلام ، ونهيههم عن السير على منهجه الداعى إلى عبادة الله وتوحيده ، وترك عبادة الآلهة المدعاة من دونه سبحانه :

{وقالوا لاتذرن آلهتكم ولاتذرن ودا ولاسواعا ولايغوث ويعوق ونسرا} (٢).

فالأكاير المجرمون فى مقولتهم هذه يحضون الناس على الثبات على منهج الشرك ، والاستمرار فى عبادة الآلهة التى يقصدونها .

وهم ينسبون هذه الآلهة إلى الجمهور الذى يخاطبونه (آلهتكم) رغبة فى تحميسهم ، وإثارة نخوتهم وحميتهم ، وتأليبهم ضد نوح عليه السلام الذى يقف أمام هذه الآلهة ، يحط من شأنها ، ويقلل من قيمتها ، وهى آلهتهم التى مازالت من عهود آبائهم لها القداسة والعبادة .

هذا التحذير صورة من صور الحيلولة بين الجماهير وبين اتباع نوح عليه السلام ، بغية إبقاء الناس على ما هم عليه من منهج الضلال ، ولذلك

(١) سورة نوح عليه السلام : آية ٢٢

(٢) سورة نوح عليه السلام : آية ٢٣

قال الله سبحانه عن أولئك الرؤساء :

{وقد اضلوا كثيرا...} (١).

وكذلك يفعل الملائمة من عاد ، حين يحذرون عامتهم من اتباع هود عليه السلام وطاعته فيما جاء به من الدين ، وينفرونهم من التفكير في الاستجابة له عليه السلام :

{ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذاً لخاسرون} (٢).

فقرروا أمام العامة أن طاعة هود عليه السلام سبيل إلى الغبن والنقص والخسران ، ومن ثم فإن الواجب عدم التفكير أصلاً في سلوك سبيله عليه السلام ، أو الدخول في دينه .

وتلك أيضاً صورة من صور التأثير على الناس بغية تحجيم التوجه إلى الدين الصحيح ، وتقليل المناصرين لهود والمتعاطفين معه عليه السلام . وفي قصة شعيب عليه السلام يخبرنا القرآن الكريم أن الملائمة المستكبرين كانوا يبذلون المحاولات في وضع الحواجز والعوائق بين الجمهور والعوام وبين نبي الله شعيب عليه السلام .

يظهر ذلك القصد من الملائمة في الحيلولة بين الناس وبين دعوة الله سبحانه في مقولة شعيب عليه السلام ناصحاً لهم ، كما حكى القرآن الكريم :

{ولاتقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً..} (٣).

فالآية الكريمة تشير إلى أنهم كانوا يقفون في وجه القادمين لملاقاة شعيب عليه السلام ، القاصدين الاستماع إليه ، ومعرفة معالم دعوته (٤) ،

(١) سورة نوح عليه السلام : من آية ٢٤

(٢) سورة المؤمنون : آية ٣٤

(٣) سورة الأعراف : من آية ٨٦

(٤) ينظر تفسير الآية في : تفسير القرطبي ١٥٩/٧ ، تفسير روح المعاني ١٧٨/٨ ، تفسير

البغوي ١٨١/٢ ، تفسير فتح القدير ٢٢٤/٢ .

ويبدلون جهودهم في الحيلولة بين هؤلاء وبين اللقاء بشعيب عليه السلام ، خشية أن يلحظوا مافيها من الحق والهدى ، فتخالط بشاشته قلوبهم ، وحينذاك تتسع دائرة المؤمنين ، وهذا مايزعج الطغاة من أهل مدين ، ويؤزهم إلى وضع العقبات التي تحول بين نبي الله عليه السلام وبين عموم الناس .

ذلك أن اللقاء الهادئ الخالي من المؤثرات الخارجية والضغوط المختلفة سيؤدي - بعد توفيق الله سبحانه - إلى القناعة بالدعوة والإيمان بها واختراق العقيدة الحقة أعماق القلوب .
ومن ثمَّ يعمل الملاءم الكذوبون ويحاولون في خطوتهم الأولى أن لا يحصل ذلك أصلاً .

كما كان المستكبرون من قوم شعيب عليه السلام يحدرون الناس من اتباع نبي الله والإيمان بدعوته ، ويطلقون صفة الخسران على من يستجيب لتلك الدعوة :

{وقال الملاءم الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون} (١) .
ويبدو أن هذا الصنيع منهم هو إجراء وقائي - في نظرهم - وتحصين للجماهير من التأثير بالفكر والعقيدة في منهج الله الذي جاء به شعيب عليه السلام ، فيؤلبون تلك الجماهير ضد الدعوة ، ويستميلونهم إلى صفهم في الإصرار على الكفر والتكذيب ، ويحدرونهم بشكل غير مباشر من الاحتكاك والاقتراب من الفئة المؤمنة ، إذ أن الدخول في دين شعيب عليه السلام - في زعمهم - دلالة على غبن صاحبه وجهالته (٢) ، وأولى بالجماهير أن تنأى بنفسها عن هذا المصير السيء والعاقبة الخاسرة ، وأن تحرص على سلامتها ونجاتها ، وذلك بالابتعاد عن طريق الإيمان ، ومخالفة اتجاه شعيب عليه السلام .

(١) سورة الأعراف : آية ٩٠

(٢) روى عن ابن عباس في تفسير (الخاسرون) قال : (مغبونون) وعن عطاء (جاهلون) . ينظر : تفسير البحر المحيط ٣٤٥/٤ ، تفسير روح المعاني ٦/٩ .

وفي قصة موسى عليه السلام نجد فرعون يتحرك أيضا في هذا الاتجاه ،
ليمنع الناس من الاستجابة للهدى ، كما قال تعالى :
{.. وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا
في تباب} (١).

قال الشوكاني : " (وصد عن السبيل) أى سبيل الرشاد ، قرأ الجمهور
(وصد) بفتح الصاد والذال ، أى صد فرعون الناس عن السبيل " (٢).

فهو يصد عامة الناس عن الإيمان ، ويستميلهم ضد موسى عليه السلام
بشتى الوسائل ، وهو في كل ذلك يوهمهم بأنه يختار لهم من المناهج ما يختار
لنفسه ، ويدلهم على أحسن الطرق وأفضل السبل الموصلة إلى الخير والسعادة
{... قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد} (٣).

وهو يقصد بذلك طريقه ومنهجه الذى يرتكز على طاعته والخضوع
المطلق له ، واتخاذها إلها يعبد من دون الله جل وعلا .

هذا هو طريق السعادة الذى يدل الجماهير عليه ، وغير ذلك نهايته -
في زعم فرعون - الدمار والتعاسة والشقاء .

ولكن الواقع ما قرره الله سبحانه :

{وأضل فرعون قومه وما هدى} (٤).

ونلاحظ كذلك محاولات فرعون في التأثير على رعيته ، واستنقظابهم ضد

الدعوة ، فيما فعله إثر قراره بمعارضة ما جاء به موسى عليه السلام :

{فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا

سوى} (٥).

(١) سورة غافر : من آية ٣٧

(٢) تفسير فتح القدير ٤/٤٩٢ ، وفي زاد المسير ٧/٤٤ "قرأ عاصم وحمزة والكسائي

(وصد) بضم الصاد ، والباقون بفتحها" . وينظر غيث النفع في القراءات السبع

لعلى النورى الصفاقسى ص ٣٤١ ، ط / دار الفكر (بهامش سراج القارىء المبتدىء

لأبى القاسم البغدادي) .

(٣) سورة غافر : من آية ٢٩

(٤) سورة طه : آية ٧٩

(٥) سورة طه : آية ٥٨

ففرعون بداية جمع السحرة من أوساط رعيته في مختلف المدائن والأقاليم :

{وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم} (١).

وكون منهم فرقة معارضة لا يستهان بها في مواجهة ماجاء به موسى عليه السلام ، واستمالهم بأكثر من إغراء :

{فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين . قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين} (٢).

فأغراهم بالمال والسعة ، وبالمنصب والشهرة ، وبالغ في ترغيبهم وتأليبهم وشحذ همهم للوقوف بعزم وحماس ضد موسى عليه السلام حتى أوصى بعضهم بعضا :

{قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى . فأجمعوا كيدكم ثم اتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى} (٣).

ثم حاول فرعون - كذلك - أن يستفيد من خطته بخصوص معارضة موسى عليه السلام في استهداف عامة الناس أيضا وكسبهم إلى جانبه ، من خلال إثارتهم وتهيجهم ضد دعوة موسى عليه السلام ، ولتستقر في أذهانهم - من خلال مشاهدة المعارضة الحاسمة - الشبهة القائمة بأن موسى عليه السلام ماهو إلا ساحر ، ومن ثمَّ يحصل الحاجز النفسى بين تلك الجموع وبين موسى عليه السلام ودعوته .

قال سيد قطب : "وتعلق فرعون وملؤه بحكاية السحر ، وأرادوا - في أغلب الظن - أن يغرقوا الجماهير بها ، بأن يعقدوا حلقة للسحر يتحدثون بها موسى وماعه من آيات تشبه السحر في ظاهرها ، ليخرجوا منها في النهاية

(١) سورة يونس : آية ٧٩

(٢) سورة الشعراء : آية ٤١-٤٢

(٣) سورة طه : آية ٦٣-٦٤

بأن موسى ليس إلا ساحرا ماهرا ، وبذلك ينتهى الخطر الذى يخشونه على معتقداتهم الموروثة ، وعلى سلطانهم فى الأرض وهو الأساس ، ونرجح أن هذه كانت الدوافع الحقيقية لمهرجان السحرة ، بعدما أفصح القوم عن شعورهم بالخطر الحقيقى الذى يتوقعونه " (١) .

وأمر فرعون من أجل هذا الهدف بجمع الجماهير وحثهم واستعجالهم لحضور المشهد العظيم :

{وقيل للناس هل أنتم مجتمعون . لعننا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين} (٢) .

ويظهر من خلال هذه الدعوة للاجتماع محاولة تحريك الناس ، وإشعال حماسهم ضد موسى عليه السلام ، وتقديم الغلبة والانتصار عليه فى حسهم وشعورهم .

{لعننا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين} (٣) .

وعن طريق هذا الإيحاء وهذه الدعاية تشحن نفوسهم بالكراهية لما جاء به موسى عليه السلام ، ويتهيئون نفسيا للرضا بالوقوف فى الصف المناهض للدعوة .

ولما خرج موسى عليه السلام وأتباعه المؤمنون من مصر بوحي من الله سبحانه ، وقرر فرعون ملاحقتهم ، وجيش من أجل ذلك الجيوش سريعا ، اتجه فرعون إلى تهيئة العامة نفسيا ، والتأثير عليهم معنويا للوقوف معه بقوة .

قال تعالى :

{وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون . فأرسل فرعون فى

(١) فى ظلال القرآن ١٨١٤/٣ .

(٢) سورة الشعراء : آية ٣٩-٤٠ .

(٣) ينظر تيسير الكريم الرحمن ٤٦٤/٣ .

المدائن حاشرين . إن هؤلاء لشرذمة قليلون . وإنهم لنا لغائظون . وإنا لجميع حاذرون } (١).

فقد وصف فرعون موسى عليه السلام وأتباعه بأنهم شرذمة "والشرذمة الجمع القليل المحتقر" (٢)، وبالتالي فإننا لأنابه لهم ، وليس لهم من القوة والعدة ما يخيفنا ، وهزيمتهم سهلة ميسورة ، كما وصفهم بأنهم يفعلون أمورا ويتصرفون تصرفات تصيبنا بالحنق والغیظ والغضب ، ولذا لا بد من مواجهتهم للقضاء عليهم ، ونحن على كل حال مستعدون لهم ، متيقظون لأمرهم ، جاهزون لإلحاق الهزيمة بهم .

وفرعون في كل ذلك يريد رفع معنويات تلك الجموع حوله ، واستمالتها لجانبه ، وتعبئتها نفسيا ومعنويا ضد قافلة الإيمان ، ومن ثم يرتبط القوم به ، ويتهيئون للتصرف بأمره وإرادته ، ولا يبقى مجال في نفوسهم للتعاطف مع المؤمنين الذين خرجوا بدينهم من طغيان فرعون وجبروته .

وحين بعث خاتم الأنبياء رسولنا صلى الله عليه وسلم ، وقام بمكة ينذر الناس ، وينشر دين الله تعالى ، كان الملأ من قريش أيضا يبذلون المحاولات المتوالية في صد الناس عن الدعوة ، والحيلولة بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتأثير عليهم بشتى الأساليب .

إن الملأ من قريش يهتمهم أمر الجماهير بما يحقق مقاصدهم ، ويقوى موقفهم تجاه الدعوة ، ولذا فهم يعملون جاهدين على إبعاد العامة عن دوائر التأثير بمفاهيم الدين ، ومناهج الدعوة .

ومن وسائلهم في هذا الاتجاه ما ذكره الله تبارك وتعالى عنهم في قوله عز وجل :

{وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون} (٣).

(١) سورة الشعراء : آية ٥٢-٥٦

(٢) تفسير القرطبي ٦٩/١٣ .

(٣) سورة فصلت : آية ٢٦

فهم ينهون الناس عن الاستماع لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتلو كلام الله سبحانه ، خشية أن يتأثروا بإعجازه وبيانه ، ولذلك يحاولون ألا يتم الاستماع أصلا ، لأن نتيجة ذلك - في نظرهم - غير مضمونة ، وقد تكون النهاية - فيما لو أتيح المجال وأزيلت العقبات - تآثر الكثيرين بالحق واقتناعهم به ، ودخولهم في دين الله أفواجا ، وهذا ما لا يريدون أن يحصل . بل إنهم لا يكتفون بنهي عامتهم عن الاستماع ، ولكنهم يضيفون إلى ذلك التحريض والتأليب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك بأمر العامة باللغو عند سماع القرآن (والغوا فيه) قال مجاهد : "بالمكاء والتصفير والتخليط في المنطق على رسول الله صلى الله عليه وسلم" (١).

ويبدو أن مقصدهم من هذا الأسلوب أمران :

الأول : إبعاد العامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن طريق هذا التحذير لهم ، والحيلولة بينهم وبين الاستماع إلى ما يتلوه عليه الصلاة والسلام من الآيات البينات ، والتي كانوا يخشون من تأثيرها في النفوس ، خصوصا وأنهم يدركون هذا التأثير حتما ، بما يحسونه في ذات نفوسهم مما يقاومون جواذبه في قلوبهم مقاومة عنيفة ، نتيجة ما يملكهم من العناد والاستكبار .

والثاني : استغلال هؤلاء العامة كسلاح لهم يحاربون به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين يطلبون منهم عدم السماح له عليه الصلاة والسلام بالقراءة في حرية وهدوء وأمان ، وذلك بإثارة الوضع حوله ، ورفع الأصوات ، والتخليط في الكلمات ، والصفير ، والإتيان بما لا معنى له من العبارات .

كل ذلك بغية التأثير على نفسيته صلى الله عليه وسلم ، وإشعاره بالإحباط ، وسد الطرق أمام انطلاقه عليه الصلاة والسلام بدعوة الله تعالى بالإضافة إلى صد من قصد الاستماع من الناس عن أن يجد فرصة لسمع من

رسول الله صلى الله عليه وسلم ماجاء به من الحق والهدى .
ويذكر القرآن الكريم أيضا أنهم كانوا ينهون الناس بشكل مباشر عن
لقائه صلى الله عليه وسلم .
قال تعالى :

{وهم ينهون عنه وينأون عنه ...} (١).

قال البغوى : "أى ينهون الناس عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم
(وينأون عنه) أى يتباعدون عنه بأنفسهم" (٢).

كما أنهم يعملون على تنفير عامتهم من الحق ، ويجركون من أجل
ذلك حميتهم الجاهلية ، ويشيرون عصبيتهم لأوضاعهم الشركية ، كما قال
تعالى :

{وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما
كان يعبد آباؤكم ...} (٣).

قال الألوسى : "وإضافة الآباء إلى المخاطبين لا إلى أنفسهم لتحريك
عرق العصبية فيهم ، مبالغة في تقريرهم على الشرك ، وتنفيرهم عن
التوحيد" (٤).

ولقد كان أكابر المشركين يحرصون فى اهتمام بالغ على عدم ظهور
التأثر بالدعوة الجديدة داخل طبقة الأشراف منهم والسادة ، حتى لا يكون
ذلك بداية لإقبال العامة على الدعوة ، والتأثر بها متابعة واقتداء وتأسيا .
ومن ذلك موقفهم حين أظهر الوليد شيئا من التأثر بالقرآن ، وأثنى عليه ،

(١) سورة الأنعام : من آية ٢٦

(٢) تفسير البغوى ٩١/٢ ، واختار ابن جرير هذا القول فى تفسير الآية . ينظر تفسير

الطبرى ١٧٣/٧ ، وكذلك ابن كثير . ينظر تفسير ابن كثير ١٢٧/٢ .

(٣) سورة سبأ : من آية ٤٣

(٤) تفسير روح المعانى ١٥٩/٢٢ .

إذ قال زعماء قريش : "والله لئن صبأ الوليد لتصبأن قريش" (١).
 فهم يخشون أن يكون تأثر شخص كالوليد بن المغيرة - أحد رؤساء
 قريش - سبياً في إيمان الكثير من العامة ، ودخولهم في دين الله تعالى ،
 ولذلك عملوا على القضاء السريع على هذا التوجه لدى الوليد من أول
 خطواته ، وإن كان لم يتعد في الواقع دائرة الظاهر والاحتمال .
 ولما استمع أبو جهل والأخنس وأبو سفيان إلى رسول الله صلى الله
 عليه وسلم ، وهو يقرأ القرآن ليلاً ، وكل منهم لا يعلم عن مجيء الآخر ،
 كانوا يقولون إذا تلاقوا في الصباح ، وجمعهم الطريق ، وتفاجأ كل منهم
 بحضور الآخر "لاتعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه
 شيئاً" (٢).

فهم يتواصلون بأن لا يسمحوا بموقف ضعف منهم أمام دعوة نبي الله
 صلى الله عليه وسلم ، يمكن أن يؤثر سلبيًا - حسب تفكيرهم - في العامة من
 دونهم .

ومن وسائل الملاء أيضاً في الحيلولة بين رسول الله صلى الله عليه
 وسلم وبين جمهور الناس ، محاولتهم إيجاد نوع من الحصار عليه صلى الله
 عليه وسلم يمنع من التواصل مع القادمين إلى مكة ، ويوجب عنه عليه
 الصلاة والسلام الاستجابة منهم ، إذ يخشون أن يحصل التأثر من هؤلاء
 القادمين بدعوته صلى الله عليه وسلم ، وماتتضمنه من الحق ، وما يؤيدها من
 الحجّة والبيّنة ، ومن ثمّ يمثل ذلك امتداداً للدعوة خارج مكة ، يمكن أن
 يكون - فيما بعد - عامل ضغط على قريش .

(١) خير الوليد بن المغيرة وثناؤه على القرآن تقدم ص ١٠٥-١٠٦ .
 وهذه العبارة من رواية ابن جرير عن ابن عباس رضی اللہ عنہما . ينظر تفسير
 الطبري ١٥٦/٢٩ ، وأورده ابن كثير في التفسير من رواية العوفي عن ابن عباس
 رضی اللہ عنہما ٤٤٢/٤-٤٤٣ ، وذكرها البغوي في التفسير ٤١٤/٤ ، وينظر سبل
 الهدى والرشاد ٤٧٢/٢ .

(٢) الخبر تقدم ص ١٢٥-١٣٠ .

ففى رواية ابن عباس رضى الله عنهما "أن الوليد بن المغيرة اجتمع ونفر من قريش ، وكان ذا سن فيهم ، وقد حضر الموسم ، فقال : إن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأيا واحدا ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ، ويرد قولكم بعضه بعضا" .
وتبادلوا الحديث فى الرأى المناسب الذى يواجهون به القادمين إلى مكة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم اتفقوا أخيرا على أن يكون الاتهام العام الموحد لرسول الله صلى الله عليه وسلم هو أنه ساحر .
"فجعلوا يجلسون للناس حين قدموا الموسم ، لا يمر بهم أحد إلا حذروه راياه ، وذكروا لهم من أمره" (١) .

فمقصدهم من هذا التآمر أن تجتمع كلمتهم على مقولة واحدة لتكون هى الإشاعة المعتمدة عنه صلى الله عليه وسلم ، أمام القادمين من خارج مكة ، لينفروهم بها ، ويحولوا بينهم وبين الاستماع إليه صلى الله عليه وسلم ، ويحذروهم مخالطته ومجالسته ، اعتمادا على الصورة المنفرة ، والدعاية السيئة ، التى يحيطون بها شخصيته عليه الصلاة والسلام .

وكلما كان القادم ذا شرف وسيادة كان الحرص على تحصينه ضد الدعوة أشد ، والاهتمام بتأليبته وتخريضه أعظم ، وذلك بتحذيره بأسلوب أو بآخر من اللقاء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو حضور مجلسه ، أو الاستماع إليه ، كما فعلوا مع الطفيل بن عمرو الدوسى وكان شريفا سيدا فى قومه ، إذ حرصوا على الاجتماع به بمجرد وصوله مكة ، لتعبئته ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان مما قالوا له "يا طفيل ، إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد أعضل بنا ، وقد فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبين الرجل وبين زوجته ، وإنما نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيئا ... " (٢) .

(١) الحبر بطوله تقدم ص ٤٨٥-٤٨٦ .

(٢) من خير إسلام الطفيل بن عمرو رضى الله عنه ، وقد تقدم ص ٦٦-٦٧ .

ومن وسائلهم كذلك : ملاحظته عليه الصلاة والسلام في جولاته الدعوية بالدعاية المغرضة ، ليهدموا ما بينه في قلوب الناس ، وليضعوا الحوائل بين عامة الناس وبين الاستجابة له صلى الله عليه وسلم .

عن ربيعة بن عباد رضى الله عنه قال : " رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجاهلية بسوق ذى المجاز ، وهو يقول : يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا . قال : يرددها مرارا ، والناس مجتمعون عليه يتبعونه ، وإذا وراءه رجل أحول ذو غديرتين وضىء الوجه يقول : إنه صابىء كاذب فسألت من هذا؟ فقالوا : عمه أبو لهب " (١) .

وعنه رضى الله عنه أيضا ، قال : " رأيت أبا لهب بعكاظ ، وهو يتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول : يا أيها الناس ، إن هذا قد غوى ، فلا يغوينكم عن آلهة آبائكم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يفر منه ، وهو على أثره ... " (٢) .

وعنه رضى الله عنه أيضا قال : " رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى في منازلهم قبل أن يهاجر إلى المدينة يقول : يا أيها الناس ، إن الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا . قال : ووراءه رجل يقول : يا أيها الناس ، إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم . فسألت من هذا الرجل؟ قيل : أبو لهب " (٣) .

وعنه رضى الله عنه أيضا ، قال : " إني لمع أبا رجل شاب أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبع القبائل ، ووراءه رجل أحول وضىء ذو جمعة ، يقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على القبيلة ، ويقول : يا بنى فلان ، إني رسول الله اليكم ، أمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفذ عن الله ما بعثني به . فإذا فرغ

(١) سبق تخريجه ص ٢٢٤ .

(٢) سبق تخريجه ص ٢٦٥ .

(٣) سبق تخريجه ص ٢٨٧ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم من مقالته قال الآخر من خلفه : يا بني فلان إن هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الحي من بني مالك بن أقيش إلى ماجاء به من البدعة والضلالة ، فلا تسمعوا له ولا تتبعوه فقلت لأبي : من هذا؟ قال : عمه أبو لهب" (١).

وعن طارق المحاربي رضى الله عنه ، قال : " رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بسوق ذي المجاز ، وأنا في بياعة لى ، فمر وعليه حلة حمراء ، فسمعتة يقول : يا أيها الناس ، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا . ورجل يتبعه يرميه بالحجارة قد أدمى كعبه ، وهو يقول : يا أيها الناس ، لاتطيعوا هذا فإنه كذاب" (٢).

وقد كان لهذه الدعاية السيئة الخبيثة ، والحملة الإعلامية المنظمة ، من رجال قريش ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم أثرها السلبى فى استجابة الناس وإقبالهم على الدعوة .

يشير إلى ذلك مارواه جابر بن عبد الله رضى الله عنهما "أن النبي صلى الله عليه وسلم لبث عشر سنين يتبع الناس فى منازلهم فى الموسم ومجنة" (٣) وعكاظ ومنازلهم من منى : من يؤوينى ، من ينصرنى حتى أبلغ رسالات ربي فله الجنة . فلا يجد أحدا ينصره ولا يؤويه ، حتى أن الرجل ليرحل من مصر أو من اليمن إلى ذى رحمه ، فيأتيه قومه ، فيقولون له : احذر غلام قريش لا يفتنك ، ويمشى بين رحالهم يدعوهم إلى الله عز وجل

(١) سبق تخريجه ص ٢٣٦ .

(٢) سبق تخريجه ص ٢٢٤ .

(٣) مجنة : "بفتح الميم وكسرهما ، مع فتح الجيم ، والنون مشددة : موضع بأسفل مكة على أميال ، وكان يقام بها للعرب سوق ، وفتح الميم أكثر من كسرهما" . بلوغ الأمانى ٢٧٠/٢٠ .

وهم يشيرون إليه بالأصابع... "(١).

ومع كل ذلك فقد وفق الله عز وجل قلوبنا تجاوزت تلك العوائق ،
لتقبل الحق بعد أن عرفته ، وتستجيب للإسلام بعد أن أيقنت به ، وتتبع
نبي الله صلى الله عليه وسلم بعد أن صدقته وآمنت برسالته ، وتثبت على
الإيمان بعد أن ذاقت طعمه وحلاوته .

يقول جابر رضى الله عنه فى الرواية ذاتها : " .. حتى بعثنا الله من
يثرب ، فيأتيه الرجل منا ، فيؤمن به ، ويقرئه القرآن ، فينقلب إلى أهله ،
فيسلمون بإسلامه ، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من
المسلمين يظهرون الإسلام ، وبعثنا الله إليه ، فائتمرنا ، واجتمعنا ، وقلنا :
حتى متى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطرد فى جبال مكة ويخاف ،
فرحلنا حتى قدمنا عليه فى الموسم ، فواعدنا بيعة العقبة... "(٢).

(١) الحديث رواه أحمد : الفتح الرباني ٢٠/٢٦٩-٢٧٠ ، وحسن إسناده ابن حجر فى
فتح الباري ٧/٢٨٢ ، وقال ابن كثير " وهذا إسناده جيد على شرط مسلم ولم
يخرجه " ، البداية ٣/١٩٥ ، ورواه البيهقي فى الدلائل ٢/٤٤٢-٤٤٣ ، وأورده
الهيثمي فى مجمع الزوائد ٦/٥٤-٥٦ ، وقال : رواه أحمد والبخاري .. ورجال
أحمد رجال الصحيح ، ورواه الحاكم ، واللفظ له ، وصححه ، ووافقه الذهبي .
المستدرک ٢/٦٨١-٦٨٢ .

(٢) جزء من رواية جابر رضى الله عنه المذكورة آنفا .

المبحث العاشر

المواجهة الداخلية من المنافقين

ظهر المنافقون في المدينة بشكل جلي بعد غزوة بدر ، وكان الرأس فيهم عبد الله بن أبيّ ، صاحب الشرف والسيادة قبل قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل كان أهل المدينة يستعدون لتتويجه ملكا عليهم كما ذكر سعد بن عبادة رضى الله عنه (١).

ولما جاء الإسلام ، وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، كان سواد (٢) الأوس والخزرج يتجهون إلى دين الله سبحانه ، ويستجيبون لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، إلا أن عبد الله بن أبي آثر أن يخالف ويستنكف ، إذ اختار طريق الكفر ، حين رأى الأمور تسير على غير ما يهوى والملك المنتظر يضيع من بين يديه ، وقومه ينقادون طواعية لرسول الله عليه الصلاة والسلام ، فثارت كوامن الحسد في نفسه ، وغلا الحقد في قلبه ، فأعلن في البداية موقفه صريحا بالكفر والتكذيب ، لكن غزوة بدر كان لها دور في أن يؤثر ابن أبي تغيير أسلوبه في المواجهة ، إذ كانت تلك الغزوة بداية مرحلة جديدة ، ظهر فيها أمر الإسلام ، وعلا شأنه ، وأصبحت له دولة وقوة ، حتى "قال ابن أبي ومن معه من المشركين عبدة الأوثان : هذا أمر قد توجه ، فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام فأسلموا" (٣).

وهكذا آثر عبد الله بن أبي وأمثاله أن يتوجهوا هذا التوجه الجديد ، فدخلوا في الإسلام ظاهرا ، بينما الكفر متمكن في بواطنهم ، مستخف في صدورهم .

يقول ابن كثير : " فلما كانت وقعة بدر العظمى ، وأظهر الله كلمته ، وأعز الإسلام وأهله ، قال عبد الله بن أبي ابن سلول - وكان رأسا في المدينة ، وهو من الخزرج ، وكان سيد الطائفتين في الجاهلية ، وكانوا قد

(١) تقدم ص ١٣٥-١٣٦ .

(٢) "سواد القوم : معظمهم ، وسواد الناس : عوامهم ، وكل عدد كثير" . لسان العرب ٢١٤١/٣ .

(٣) من خير سبق تخريجه ص ٥٥ .

عزموا على أن يلكوه عليهم ، فجاءهم الخير وأسلموا ، واشتغلوا عنه ، فبقى في نفسه من الإسلام وأهله - فلما كانت وقعة بدر قال : هذا أمر قد توجه ، فأظهر الدخول في الإسلام ، ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونخلته ، وآخرون من أهل الكتاب ، فمن ثمّ وجد النفاق في أهل المدينة" (١).

وقال صاحب الظلال : "كانت غزوة بدر الكبرى قد وقعت ، وكتب الله فيها النصر للمسلمين على قريش ، وكان هذا النصر بظروفه التي تم فيها والملابسات التي أحاطت به ، تبدو فيه رائحة المعجزة الخارقة ، ومن ثم اضطر رجل كعبد الله بن أبيّ ابن سلول من عظماء الخزرج أن يتزل عن كبريائه وكراهته لهذا الدين ونبيه صلى الله عليه وسلم ، وأن يكبت حقه وحسده للرسول الكريم ، وأن ينضم - منافقا - للجماعة المسلمة وهو يقول هذا أمر قد توجه ، أي ظهرت له وجهة وهو ماض فيها لايرده عنها راد" (٢).

ومن ثم تكونت جماعة المنافقين في المدينة يقود ركبها ، ويحظ طريقها ويبارك منهجها عبد الله بن أبي ابن سلول .

وأصبحت هذه الفئة بؤرة شر ، ومعسكر كفر ، داخل المجتمع الإسلامي ، وكانت لهم مؤامراتهم ضد الإسلام ، ومحاولاتهم في المكر والكيد بالمسلمين .

وسأذكر فيما يلي بعض سمات هؤلاء المنافقين في مواجعتهم للإسلام وأهله :

أولا :

إظهار الانتماء للمجتمع المسلم ، كستار لحقدهم وعداوتهم ، وغطاء لتحركهم في بذر الشر داخل صفوف المسلمين .

(١) تفسير ابن كثير ٤٧/١ .

(٢) في ظلال القرآن ٣٤٤/١ .

ذلك أن هؤلاء المنافقين يجمعهم مع دوائر الكفر من اليهود والمشركين الكراهية للإسلام وأهله ، والعداوة للرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين ، والرغبة العارمة في القضاء عليهم ، وكسر شوكتهم ، وهدم دينهم وعقيدتهم ، واستئصال دولتهم .

ولكنهم يفترقون عنهم في الوسيلة فقط ، إذ أن أولئك اختاروا المجابهة الصريحة المعلنة ، أما هؤلاء فقد اختاروا لهم طريقاً آخر يجمعون فيه بين إرضاء رغباتهم ، وتنفيذ مآربهم ، وتحقيق أحلامهم في هدم بنيان الإسلام ، وبين الحفاظ على مصالحهم ومواقعهم ، والاطمئنان على أنفسهم وأموالهم من أن يتعرض لها المسلمون ، فكان أن اختاروا لأنفسهم إظهار الإيمان ، وإعلان الإسلام ، والجهر بالانتماء لمجتمع المؤمنين على سبيل النفاق ، بينما هم في الباطن مصرون على كفرهم وشركهم ، يملأ نفوسهم الحقد والبغض لكل مظاهر الإسلام ومكتسباته التي تتسع يوماً بعد يوم ، وتثور في صدورهم معالم الكراهية والعداوة للرسول صلى الله عليه وسلم .

وفي اعتقادهم أن هذه الوسيلة تمكنهم من مواجهة الإسلام داخل مجتمعه وبين أهله في سهولة وهدوء ، دون إثارة أو إضاعة للمصالح الخاصة وبثمن أقل وأيسر ، ومفعول أشد وآكد .

وعن هذا المسلك لتلك الفئة يقول الله سبحانه وتعالى :

{ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين} (١).

قال ابن جرير : "أجمع أهل التأويل على أن هذه الآية نزلت في قوم

من أهل النفاق ، وأن هذه الصفة صفتهم" (٢).

ويقول مجاهد : "هذه الآية إلى ثلاث عشرة في نعت المنافقين" (٣).

ويقول عز وجل :

(١) سورة البقرة : آية ٨

(٢) تفسير الطبري ١١٦/١ .

(٣) رواه ابن جرير . ينظر تفسير الطبري ١١٦/١ .

أويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون^(١).
ويقول تبارك وتعالى :

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ
وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ^(٢).

فهم أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم يشهدون له بالرسالة في
جزم وتأکید ، مصرحين له بالإيمان ، معلنين له الولاء .

وهم أمام المؤمنين يجهرون بالانتماء لصفوفهم ، والرغبة في الخير
والفلاح لهم ، غير أنهم في الحقيقة مسرون للكفر ، مبطنون للعداوة ،
كارهون للإسلام أن تقوم له قائمة ، أو يكون له عز ومنعة ، راغبون في
هدمه وإذلال أهله ، مهما أظهروا من معسول القول ، أو جميل الصورة ،
كما وصفهم الله سبحانه بقوله :

وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ
خَشَبٌ مَسْنَدَةٌ يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ
أَنَّى يُؤْفَكُونَ^(٣).

فهذه الآية الكريمة تؤكد أن مظاهر هؤلاء المنافقين وأشكالهم تختلف
عن حقائقهم ومضامينهم ، وأن حسن وجوههم ، وفصاحة ألسنتهم ،
وحلاوة كلامهم ، وعذوبة ألفاظهم ، ما هي إلا ستار لما تخفيه صدورهم من
كوامن الحقد على دين الله سبحانه ورسوله عليه الصلاة والسلام .

قال أبو السعود في تفسير الآية : " (وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ)
لضخامتها ، ويروك منظرهم لصباحة وجوههم (وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ)
لفصاحتهم ، وذلاقة ألسنتهم ، وحلاوة كلامهم ، وكان ابن أبي جسيما
فصيحا يحضر مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من أمثاله وهم

(١) سورة التوبة : آية ٥٦

(٢) سورة المنافقون : آية ١

(٣) سورة المنافقون : آية ٤

رؤساء المدينة ، وكان عليه الصلاة والسلام ومن معه يعجبون بهياكلهم ،
ويسمعون إلى كلامهم" (١).

وكذلك وصفهم زيد بن أرقم رضى الله عنه فقال : "كانوا رجالا
أجمل شيء" (٢).

هذا هو ظاهرهم ، أما حقيقتهم فكما قال الله جل وعلا : {كأنهم
خشب مسندة} .

ومغالاة في النفاق ، وستر الاتجاه الكيدى التآمري ، كان عبد الله بن
أبي سلول يقف أمام الجموع المؤمنة في مسجد رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، داعيا لهم في حماس مفتعل أن ينصروا رسول الله صلى الله
عليه وسلم .

روى ابن إسحاق قال : "كان عبد الله بن أبي سلول - كما
حدثني ابن شهاب الزهري - له مقام يقومه كل جمعة لا ينكر ، شرفا له في
نفسه وفي قومه ، وكان فيهم شريفا ، إذا جلس رسول الله صلى الله عليه
وسلم يوم الجمعة وهو يخطب الناس ، قام فقال : أيها الناس ، هذا رسول
الله صلى الله عليه وسلم بين أظهركم ، أكرمكم الله وأعزكم به ، فانصروه
وعزروه (٣) ، واسمعوا له وأطيعوا ، ثم يجلس ، حتى إذا صنع يوم أحد
ما صنع (٤) ورجع بالناس ، قام يفعل ذلك كما كان يفعله ، فأخذ المسلمون
بشبابه من نواحيه ، وقالوا : اجلس ، أي عدو الله ، لست لذلك بأهل ،
وقد صنعت ما صنعت" (٥).

(١) تفسير أبي السعود ٢٥٢/٨ ، وينظر : تفسير البغوي ٣٤٨/٤ ، تفسير فتح القدير
٢٣٠/٥ .

(٢) جزء من حديث رواه البخاري في كتاب التفسير ، باب {وإذا رأيتهم تعجبك
أجسامهم} ١٨٦٠-١٨٦١ .

(٣) أي وقروه وعظموه وأعينوه . ينظر لسان العرب ٢٩٢٤-٢٩٢٥ .

(٤) حين اتخذ بأتباعه عائدا إلى المدينة .

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ٤٦/٣-٤٧ ، ونقله ابن كثير في التفسير ٣٦٩/٤ ، وفي
البداية ٥٩/٤ ، وينظر : المغازي للواقدي ٣١٨/١ ، السيرة الحلبية ٥٤٩/٢ .

فهذا الموقف من ابن أبي وأمثاله ما هو إلا من أجل حماية مصالحهم ،
وتثبيت مقامهم في المجتمع المنتمى إلى الإسلام ، المطبق لهديه وتعاليمه ،
وليكون ذلك ستارا يتحركون خلفه بحرية في هدم الإسلام ، ويخططون بهدوء
للمكر برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالمؤمنين ، ووزع الفتنة والفرقة في
صفوفهم ، ولا بأس أن يكون ذلك أحيانا باسم الإسلام والمصلحة .

إن هؤلاء موقنون في قرارة نفوسهم أنه لا يمكن لهم أن يعيشوا في
المجتمع المسلم في أمان ، في الوقت الذي يعملون فيه على الإجهاز على
الإسلام ، ومجابهة المسلمين ، إلا بهذا الأسلوب المتلون المتقلب المراوغ ،
وصدق الله سبحانه إذ وصفهم بقوله عز وجل :

{... وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ..} (١).

قال ابن كثير : "هذا شأن المنافقين ، يظهرون للمؤمنين الإيمان والمودة
وهم في الباطن بخلاف ذلك من كل وجه" (٢).

ثانيا :

الاستهزاء والتنقص ، والطعن والتجريح .

يستغل المنافقون لقاءاتهم الخاصة بأكابرهم ، كابن أبي وأضرابه ، أو
بأحبار اليهود في الاستهزاء بالمؤمنين ، وإظهار التنقص لهم والاستخفاف
والتهمك بهم .

قال تعالى :

{وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم
إنما نحن مستهزون} (٣).

قال ابن كثير : "شياطينهم سادتهم وكبرائهم ورؤسائهم من أحبار
اليهود ورؤساء المشركين والمنافقين" (٤).

(١) سورة آل عمران : من آية ١١٩

(٢) تفسير ابن كثير ٣٩٩/١ .

(٣) سورة البقرة : آية ١٤

(٤) تفسير ابن كثير ٥١/١ .

فهم يصرحون بالإيمان إذا قابلوا فئة من المؤمنين ، وإذا التقوا بأمثالهم في دوائر الكفر والشرك ، أظهروا كفرهم وعداءهم ، وولاءهم الكامل لمعسكر الكفر بشتى أصنافه ، وصرحوا بأن إعلانهم للإيمان ماهو إلا سخرية بالمؤمنين ، وتلاعب بالدين ، واستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم (إنما نحن مستهزئون) .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : "أى إنما نحن نستهزىء بالقوم ونلعب بهم" (١) .

ومن ذلك ماجاء في قول الله سبحانه :

{ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن ...} (٢) .

والآية الكريمة تكشف بعض مواقف المناققين ، فتشير إلى أن من طبيعتهم إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، طعنا بالقول ، وقدحا في شخصه ، وذما له عليه الصلاة والسلام ، فإذا نبههم البعض منهم باحتمال انكشاف أمرهم ، وبلوغ خبرهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، زادوا موقفهم سوءا وتبجحا ، بإظهارهم عدم المبالاة ، ووصفهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بقولهم (هو أذن) .

قال ابن كثير : "يقولون (هو أذن) أى من قال له شيئا صدقه فينا ، ومن حدثه صدقه ، فإذا جئناه وحلفنا له صدقنا . روى معناه عن ابن عباس ومجاهد وقتادة" (٣) .

وهم يقصدون الطعن والذم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والاستخفاف والتهمك به ، وذلك بوصفه عليه الصلاة والسلام بأنه سماع لكل مايلقى عليه ، مصدق لكل مايقال له ، دون إدراك أو تمييز ، فهو عليه الصلاة والسلام - في زعم هؤلاء المناققين - موسوم بالغفلة والسذاجة -

(١) رواه ابن جرير . ينظر : تفسير الطبرى ١٣١/١ ، تفسير البغوى ٥١/١ .

(٢) سورة التوبة : من آية ٦١

(٣) تفسير ابن كثير ٣٦٦/٢ .

وحاشاه صلى الله عليه وسلم - (١).

ولما قال ابن أبي ماقال يوم المريسيع مما ذكره القرآن في قول الله سبحانه :

{هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا...} (٢).
وعرض عليه بعض الصحابة رضى الله عنهم أن يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستغفر له ، كان الجواب من رأس النفاق أن لوى رأسه وحركه استهزاء وسخرية ، واستكبارا وإعراضا (٣) كما قال الله تبارك وتعالى :

{وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم وأرأيتهم يصدون وهم مستكبرون} (٤).

إن الاستهزاء والطعن والذم والتنقص الذى يصدر من المنافقين ، كان يسع المؤمنين أيضا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ومن ذلك ما رواه عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : "قال رجل فى غزوة تبوك فى مجلس : مارأينا مثل قرائنا هؤلاء ، أرغب بطونا ، ولا أكذب ألسنا ، ولا أجبن عن اللقاء ، فقال رجل فى المجلس : كذبت ، ولكنك منافق ، لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم ، ونزل القرآن ... " (٥).
يقول الله تبارك وتعالى :

(١) ينظر تفسير فتح القدير ٣٧٥/٢ .

(٢) سورة المنافقون : من آية ٧

(٣) ينظر : تفسير الطبرى ١٠٨/٢٨-١١٠ ، تفسير القرطبي ٨٣/١٨ ، فتح البارى ٢٣٦/٨ .

(٤) سورة المنافقون : آية ٥

(٥) رواه ابن جرير فى التفسير ١٧٢/١٠ ، قال شاکر : صحيح الإسناد ٣٣٤/١٤ ، ورواه ابن أبى حاتم كما فى لباب النقول ص ١١٩ .

يُحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم قل استهزئوا
إن الله مخرج ما تحذرون . ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله
وآياته ورسوله كنتم تستهزئون . لاتعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم إن نَعَفَ عن
طائفة منكم نَعَذِب طائفة بأنهم كانوا مجرمين^(١) .

ومن أفاعيل عبد الله بن أُبَيِّ في هذا الباب اتهامه الشنيخ لأم المؤمنين
عائشة رضى الله عنها بالمنكر من الفعل مع صفوان بن المعطل^(٢) رضى الله
عنه ، وذلك إثر قدومه بها بعد تأخرها عن الجيش فى غزوة المريسيع ،
وكانت تبحث عن عقد لها فقدته ، ولما وجدته وعادت كان الجيش قد سار
إلى المدينة ، وهم يظنونها فى هودجها^(٣) رضى الله عنها^(٤) .

انتهز زعيم المنافقين تلك الحادثة ليطنعن فى عرض رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، بإشاعة ذلك الاتهام الحبيث ، وبإذاعته ونشره وترديده ، أملا فى
إيجاد الفتنة ، وتشويه سمعة بيت النبوة ، ورغبة فى التأثير على نفسية رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، وهدم مكانته ومزنته ، حين يتناقل الناس الاتهام
والتشكيك ، فيسقط شأنه عليه الصلاة والسلام ، وتقل هيئته ، ويتردد
أتباعه .

لقد كان ابن أبى هو المحرك لتلك الفتنة ، وهو البادىء بذلك الاتهام
وهو المذيع لتلك الإشاعة ، ينقلها من جمع إلى جمع ، ومن أذن إلى أذن ،
فقد وجد الحبيث فى تلك الحادثة "متنفسا" ، فتنفس من كرب النفاق والحسد
الذى بين ضلوعه ، فجعل يستحكى الافك ويستوشيه ، ويشيعه ويذيعه ،

(١) سورة التوبة : آية ٦٤-٦٦

(٢) صفوان بن المعطل : بضم الميم وفتح العين وتشديد الطاء المفتوحة . المغنى ص ٢٣٥

(٣) "الهودج بفتح الهاء مركب من مراكب النساء" . شرح النووى على صحيح مسلم
١٠٤/١٧ .

(٤) ينظر خبر الإفك مفصلا من رواية عائشة رضى الله عنها فى صحيح البخارى ،
كتاب المغازى ، باب حديث الافك ١٥١٧/٤-١٥٢٢ ، وفى صحيح مسلم ، كتاب
التوبة ، باب فى حديث الافك ١٠٢/١٧-١١٣ .

ويجمعه ويفرقه ، وكان أصحابه يتقربون به إليه" (١).
يقول الله جل شأنه :

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ
لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢).
وقد صرحت عائشة رضی الله عنها بالذی تولى كبر الإفك ، إذ قالت
"فهلك في من هلك ، وكان الذی تولى كبر الإفك عبد الله بن أبي ابن
سلول" (٣).

وفي رواية أخرى : "وأما المنافق عبد الله بن أبي فهو الذی كان
يستوشيه" (٤) ويجمعه ، وهو الذی تولى كبره (٥) (٦).

لقد كان ذلك الاتهام شديد الوقع على بيت النبوة ، وتأثر به رسول
الله عليه الصلاة والسلام كثيرا ، حتى قام صلى الله عليه وسلم فخطب في
المسلمين ، معلنا ثقته في عائشة رضی الله عنها ، وفي صفوان رضی الله عنه
ومصرحا بغضبه وتضايقه عليه الصلاة والسلام ممن يشيع الاتهام ويروج
له .

تقول عائشة رضی الله عنها : "فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم
من يومه ، فاستعذر من عبد الله بن أبي ، وهو على المنبر ، فقال : يامعشر
المسلمين ، من يعذرني (٧) من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي ، والله

(١) زاد المعاد ٣/٢٦٠ .

(٢) سورة النور : آية ١١

(٣) ضمن رواية عائشة رضی الله عنها ، ومضى تخريجها آنفا .

(٤) "أى يستخرجه بالبحث والمسألة ، ثم يفشيه ويشيعه ويحركه ولا يدعه يخمد" .

شرح النووى على صحيح مسلم ١٧/١١٦ .

(٥) بكسر الكاف : أى معظمه . ينظر شرح النووى على صحيح مسلم ١٧/١٠٥ .

(٦) صحيح مسلم ، كتاب التوبة ، باب في حديث الإفك ١٧/١١٥ .

(٧) قال النووى : "معنى (من يعذرني) : من يقوم بعذرى إن كافأته على قبيح فعاله

ولا يلومنى ، وقيل معناه : من ينصرنى ...". شرح النووى على صحيح مسلم

١٧/١٠٩ .

ما علمت على أهلى إلا خيرا ، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا ، وما يدخل على أهلى إلا معى" (١).

ويشاء الله جل وعلا أن ينزل القرآن ببراءة عائشة رضى الله عنها ، وأن تنتهى تلك الفتنة ، والتي أراد لها ابن أبى أن يطول زمنها ، ويتسع تأثيرها ، ويكون لها دورها ، فى تحجيم شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوته ، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد غير ذلك.

ثالثا :

التخذيل والإرجاف والتشيط :

كان من خطة عبد الله بن أبى ابن سلول وأتباعه المنافقين ، فى مناهضة الإسلام ، ومجابهة الرسول صلى الله عليه وسلم ، بذل المحاولات فى زرع بذور الفتنة بين المسلمين ، والتأثير السلبى عليهم معنويا ، ومحاربتهم نفسيا ، بالتخذيل والتشيط ، ونشر الأراجيف ، والتشكيك فى القدرات والإمكانيات ، أملا فى زعزعة الصفوف ، وإضعاف النفوس ، وإثارة الفرقة ، وإيجاد الاختلاف فى الكلمة ، والتنازع فى الرأى ، والهلع والإحباط فى الأفئدة .

والأمثلة على ذلك فى تاريخ ابن أبى وأتباعه المنافقين كثيرة ، أذكر منها ما أشارت إليه بعض الآيات التى تناولت غزوة أحد ، وغزوة الأحزاب وغزوة تبوك .

* ففى يوم أحد اعتمد الرسول صلى الله عليه وسلم الرأى القائل بالخروج من المدينة لملاقاة المشركين (٢) ، وتحرك عليه الصلاة والسلام فى جيش يقارب الألف رجل (٣) ، وشاركه عبد الله بن أبى رأس النفاق فى

(١) ضمن رواية عائشة رضى الله عنها ، وسبق تخريجها قريبا .

(٢) ينظر : السيرة النبوية لابن هشام ٦/٣ ، دلائل النبوة للبيهقى ٢٠٧/٣-٢٠٨ ، زاد

المعاد ١٩٣/٣ ، السيرة الحلبية ٤٩٠/٢-٤٩١ ، البداية ١٤/٤-١٥ .

(٣) ينظر : السيرة النبوية لابن هشام ٧/٣ ، السيرة الحلبية ٤٩٢/٢ ، البداية ١٥/٤-١٦

الخروج أول الأمر ، ولكنه كان قد بيت للمؤمنين مكيدة يزعزع بها صفوفهم ، ويثير الفزع في قلوبهم ، ويقلل من احتمالات نصرهم ، إذ ما إن قطعوا مسافة يسيرة من المدينة ، حتى انسحب ابن أبي مع مجموعة كبيرة من أتباعه ، مستغلا مكانته بين قومه وشرفه فيهم ، وعاد إلى المدينة بثلاث الجيش تقريبا خاذلا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وحتى يبرر تحركه ، ويجعله مسألة طبيعية ، فقد صرح بأن قراره يعتمد على المصلحة العامة ، وأن تصرفه نابع من حرصه على دماء المسلمين وأمنهم مظهرا نغمته على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في تجاوزه لرأيه ، وأخذه برأى الشباب القائل بالخروج من المدينة لملاقاة العدو .

كما يبرر انسحابه - في مكر وخبث - بأن الغالب عدم حصول القتال فعليا مع المشركين ، ومن ثمّ فلاحاجة لاستمراره في المسير .

عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : "لما خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى أحد رجع ناس ممن خرج معه ... " (١).

قال ابن حجر : "يعنى عبد الله بن أبي وأصحابه" (٢).

وفي رواية ابن إسحاق : "حتى إذا كانوا بالشوط بين المدينة وأحد ، اتخذ عنه عبد الله بن أبي ابن سلول بثلاث الناس ، وقال : أطاعهم وعصاني ، ماندرى علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس ، فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب ، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام ، أخو بني سلمة ، يقول : يا قوم ، أذكركم الله ألا اتخذلوا قومكم ونييكم عندما حضر من عدوهم ، فقالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ، ولكننا لانرى أن يكون قتال" (٣).

(١) رواه البخارى في كتاب المغازى ، باب غزوة أحد ١٤٨٨/٤ .

(٢) فتح البارى ٤٥٢/٧ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٧/٣ من رواية ابن إسحاق قال : حدثني الزهرى ، ومحمد بن يحيى ، وعاصم بن عمر ، والحسين بن عبد الرحمن ، وغيرهم من علمائنا ، كلهم قد حدث بعض الحديث عن يوم أحد . =

ويشاء الله تعالى أن يكشف ستر ابن أبيّ ، ويفضح موقفه ، في قوله عز وجل :

{وما أصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله وليعلم المؤمنين . وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون . الذين قالوا لآخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ماقتلوا قل فادروا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين} (١).

قال ابن جرير : "يعنى تعالى ذكره بذلك عبد الله بن أبى ابن سلول المنافق وأصحابه ، الذين رجعوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه ، حين سار النبي صلى الله عليه وسلم إلى المشركين بأحد لقتالهم ، فقال لهم المسلمون تعالوا قاتلوا المشركين معنا ، أو ادفعوا بتكثيركم سوادنا فقالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون لسرنا معكم إليهم ، ولكننا معكم عليهم ، ولكن لانرى أنه يكون بينكم وبين القوم قتال ، فأبدوا من نفاق أنفسهم ماكانوا يكتمونه ، وأبدوا بألسنتهم بقولهم {لو نعلم قتالا لاتبعناكم} غير ماكانوا يكتمونه ويخفونه ، من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأهل الإيمان به" (٢).

والآيات الكريمة تشير أيضا إلى أن هؤلاء المنافقين لم يكتفوا بالعودة عن القتال ، والانسحاب من الجيش ، وخذلان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اللحظات الحرجة ، بل كانوا ينفذون كيدا آخر ، ويسددون إلى معنويات المسلمين سهما جديدا ، يتمثل فى تثبيط المؤمنين عن الجهاد مع

= وذكره ابن كثير فى التفسير ٤٢٥/١ من رواية ابن إسحاق بنفس الإسناد ، ورواه ابن جرير من طريق ابن إسحاق أيضا . تفسير الطبرى ١٦٧/٤-١٦٨ ، وينظر : دلائل النبوة ٣/٢٠٨، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٤ ، السيرة الحلبية ٤٩٤/٢ ، زاد المعاد ٣/١٩٤ ، البداية ١٦/٤ .

(١) سورة آل عمران : آية ١٦٦-١٦٨

(٢) تفسير الطبرى ١٦٧/٤ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك لما انتهت الغزوة ، واستشهد من استشهد من قومهم وعشائريهم ، قالوا ما حكاه عنهم القرآن {لو أطاعونا ماقتلوا} "أى لو سمعوا من مشورتنا عليهم فى القعود وعدم الخروج ماقتلوا مع من قتل" (١).

ويستشف من تلك المقولة كذلك أن أهل النفاق استغلوا ماتعرض له المسلمون يوم أحد من القتل والجراح ، ليثيروا فى النفوس مشاعر الإحباط والحرص على الحياة ، والندم على الجهاد .

* وفى يوم الأحزاب حين حوصرت المدينة من طوائف الكفر المتحالفة وعاش المسلمون أياما عصيبة ، ومحنة قاسية ، يصورها القرآن الكريم فى قول الله سبحانه :

{ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا . إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا} (٢).

حينذاك انتهز المنافقون الفرصة كعادتهم ، واستغلوا تلك الحادثة فى التشييط والإرجاف والتشكيك ، وزعزعة الصفوف والقلوب . قال تعالى : {وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا} (٣).

إذ لما حفر الصحابة رضوان الله عليهم الخندق ، ومعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم واستعصت على بعضهم صخرة - كما فى رواية ابن عباس رضى الله عنهما - "قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : دعونى فأكون أول من ضربها ، فقال : بسم الله ، فضربها ، فوَقعت فلقة ثلثها ،

(١) تفسير ابن كثير ٤٢٥/١ .

(٢) سورة الأحزاب : آية ٩-١١

(٣) سورة الأحزاب : آية ١٢

فقال : الله أكبر ، قصور الروم ورب الكعبة ، ثم ضرب أخرى ، ف وقعت
فلقة ، فقال : الله أكبر ، قصور فارس ورب الكعبة .
فقال عندهما المنافقون : نحن نخندق على أنفسنا ، وهو يعدنا قصور
فارس والروم" (١) .

فالمنافقون يجعلون من هذه الأحوال الشديدة للمسلمين يوم الأحزاب
وما يعيشونه من الكرب والخوف ، دليلاً مادياً ملموساً على أن وعود الرسول
صلى الله عليه وسلم للمؤمنين بالنصر والتمكين ، ماهى إلا أوهام لاحقائق
لها ، وأحلام لأمل فى تحقيقها ، وأباطيل وخيالات بعيدة عن الواقع .
وهم بمثل هذا المنطق يأملون أن يفتوا فى عضد المؤمنين ، ويفقدوهم
الثقة فيما يأتيهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ويفضح الله سبحانه أفاعيل أخرى للمنافقين فى تلك الغزوة فيقول عز
وجل :

{وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لامقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق
منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وماهى بعورة إن يريدون إلا فرارا} (٢) .
فالآية الكريمة تكشف الدور الذى كان يقوم به بعض المنافقين فى
تشبيط الناس صراحة ، ودعوتهم إلى ترك الجهاد والمرابطة مع رسول الله
صلى الله عليه وسلم فى تلك الحال العصيبة ، وابتغاء السلامة بالفرار من
معسكر المؤمنين ، والعودة إلى منازلهم بالمدينة {لامقام لكم فارجعوا}
ويتحرك فريق آخر للانسحاب ، ولكن بأسلوب مراوغ ، ظاهره النظام
والطاعة والمصلحة ، وحقيقته الفرار والتخذيل والتشبيط {ويستأذن فريق
منهم النبى} .

(١) أورده الهيثمى بطوله فى مجمع الزوائد ٦/١٩٠-١٩١ وقال : رواه الطبرانى ورجاله
رجال الصحيح غير عبد الله بن أحمد بن حنبل ونعيم العبدى وهما ثقتان ،
وأورده ابن كثير فى البداية ٤/١١٥-١١٦ نقلا عن الطبرانى . وينظر السيرة الحلبية
٢/٦٤٠ .

(٢) سورة الأحزاب : آية ١٣

قال ابن جرير : "يقول تعالى ذكره ويستأذن بعضهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإذن بالإنصراف عنه إلى منزله ، ولكنه يريد الفرار والهرب من عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم" (١).

وتضمنت الآية الكريمة العذر الذي أظهره هؤلاء لترك المرابطة {يقولون إن بيوتنا عورة} "أى غير حصينة ، معرضة للعدو والسراق ، فأذن لنا حتى نحصنها ثم نرجع إلى العسكر" (٢).

ففى حديث حذيفة رضى الله عنه وهو يحكى بعض مشاهدته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم "فلقد رأيتنا ليلة الأحزاب ، ونحن صافون قاعدون : أبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا ، وقريظة اليهود أسفل منا نخافهم على ذرارينا ، ومأنت علينا ليلة قط أشد ظلمة ، ولا أشد ريحا فى أصوات ريحها أمثال الصواعق وهى ظلمة ، مايرى أحد منا أصبعه ، فجعل المنافقون يستأذنون النبى صلى الله عليه وسلم ويقولون : إن بيوتنا عورة وماهى بعورة ، فما يستأذنه أحد منهم إلاأذن له ، فىأذن لهم ، فيتسللون..." (٣).

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : "بعثنى خالى عثمان بن مظعون لأبيه بلحاف ، فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم ، فاستأذنته ، وهو بالخذق ، فأذن لى ، وقال : من لقيت فقل لهم : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم أن ترجعوا . وكان ذلك فى برد شديد ، فخرجت ولقيت الناس ، فقلت لهم : إن رسول الله يأمركم أن ترجعوا ، قال : فلاوالله ماعطف

(١) تفسير الطبرى ١٣٥/٢١ .

(٢) تفسير أبى السعود ٩٤/٧ .

(٣) الحديث بطوله رواه البيهقى فى الدلائل ٤٥١/٣-٤٥٣ ، ونقله ابن كثير فى التفسير .

٤٧١/٣-٤٧٢ ، البداية ١٣١/٤-١٣٢ .

وأصل الحديث مختصرا رواه مسلم فى كتاب الجهاد ، باب غزوة الأحزاب . ١٤٥/١٢-١٤٦ .

على منهم اثنان أو واحد" (١).

وفي رواية ابن جرير "قال : فما يلوى أحد منهم عنقه" (٢).

ومن رواية عروة بن الزبير .. "وقد كان جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر بما أجمعت له قريش وغطفان ، فضرب الخندق على المدينة ، وعمل فيه ترغيباً للمسلمين في الأجر ، وعمل المسلمون فيه ، فدأب رسول الله صلى الله عليه وسلم ودأبوا ، وأبطأ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن المسلمين في عملهم ذلك رجال من المنافقين ، وجعلوا يورّون (٣) بالضعيف من العمل ، فيتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا إذن ... " (٤).

ومن رواية عروة أيضاً أن أوس بن قيثي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك أمام أشرف من قومه من بني حارثة : "إن بيوتنا عورة ، وهى خارجة من المدينة ، ائذن لنا ، فترجع إلى نسائنا وأبنائنا وذرائنا" (٥).

إن ما يظهره هؤلاء المنافقون من الأعذار ، وما يستندون إليه من التبريرات ، يخالف الحقيقة التى يخفونها ، والواقع الذى يسرونه ، والمتمثل فى رغبتهم فى ترك المرابطة ، خذلانا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقعودا عن نصرته ، وأملا فى أن تنكسر شوكتة عليه الصلاة والسلام ومن

(١) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد ١٩٦/٦ وقال : رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ورجاله رجال الصحيح .

(٢) تفسير الطبرى ١٢٧/٢١ ، ونقله عنه ابن كثير فى التفسير ١٢٧/٢١ .

(٣) أى يخفون ويسترون نفاقهم . ينظر ترتيب القاموس ٦٠٤/٤ .

(٤) رواه البيهقى من طريق ابن إسحاق قال حدثنا يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير ، وحدثنا يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظى . دلائل النبوة ٤٠٩/٣ ، وينظر : السيرة النبوية لابن هشام ١٤٩/٣ ، السيرة الحلبية ٦٣٣/٢ .

(٥) رواه البيهقى فى الدلائل من طريق ابن إسحاق بالإسناد المذكور آنفاً ٤٣٥/٣-٤٣٦ و ينظر : السيرة النبوية لابن هشام ١٥٦/٣ ، البداية ١١٩/٤ ، تفسير الطبرى ١٣٥/٢١ ، تفسير ابن كثير ٤٧٣/٣ .

معه من المؤمنين الصادقين ، إضافة إلى هلعهم وحرصهم البالغ على السلامة والعافية ، وأن تكون لهم عند الأحزاب الكافرة يد تحفظهم وتنجيهم ، وتخصهم بالحماية والمكانة ، فيما لو حصل ما يرجونه من الهزيمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ولذلك فضحهم الله عز وجل بقوله :

{وماهى بعورة ، إن يريدون إلا فرارا} .

* وفى غزوة تبوك يستعلن أمر النفاق من جديد إذ "قام المنافقون بحرب دعائية عند إعلان النفير ، فمضوا يشبطون الناس ، ويقولون (لاتنفروا فى الحر) فقد كان الحر شديدا ، وكان الناس يفيئون إلى ظلال الأشجار ، فكان المنافقون يستغلون ذلك لإشاعة روح التخاذل" (١) .

وإذا كان بعض هؤلاء قد شارك فى الغزوة لغرض فى نفسه ، عله أن يجد مجالا للكيد والتآمر وابتغاء الفتنة ، فإن الكثير منهم قرر التخلف ، والقعود عن الجهاد مع المؤمنين ، بعد أن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بالتجهز للخروج .

وفى هذه الفئة المنافة يقول الله تبارك وتعالى :

{فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا لاتنفروا فى الحر ...} (٢) .

فهم يجمعون بين القبائح ، إذ تشتعل صدورهم كراهية للجهاد باعتباره سببا لنصر الإسلام وعزة المسلمين ، كما يهتزون فرحا لمخالفتهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقعودهم عن نصره الدين الذى يحقدون فى دواخلهم عليه ، وعلى أهله من المؤمنين ، ثم يضيفون إلى ذلك التحرك لتشبيط الناس وتخليطهم بالتركيز على مايتوقع فى الخروج إلى تبوك من مظاهر المشقة والعنت ، وتضخيم ذلك بغية الإرجاف وإثارة الذعر فى النفوس .

(١) السيرة النبوية الصحيحة ٥٢٦/٢ .

(٢) سورة التوبة : من آية ٨١

وكان على رأس من تخلف من أهل النفاق متعللين بالأعذار الواهية زعيمهم عبد الله بن أبي (١).

قال ابن إسحاق : " وكان الذين استأذنوه من ذوى الشرف - فيما بلغنى - منهم : عبد الله بن أبي ابن سلول ، والجُدُّ بن قيس (٢) ، وكانوا أشرافا فى قومهم ، فثبطهم الله لعلمه بهم أن يخرجوا معه فيفسدوا عليه جنده ، وكان فى جنده قوم أهل محبة لهم ، وطاعة فيما يدعونهم إليه ، لشرفهم فيهم " (٣).

وقد هتك الله جل شأنه أستار هؤلاء المنافقين فى سورة براءة (٤) ، وكشف مواقفهم فى آيات كثيرة ، ومن ذلك - إضافة إلى ماضى - قول الله سبحانه :

{ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين . لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين . لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون . ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين} (٥).

هذه الآيات الكريمة توضح بعض معالم الكيد والمكر من ابن أبى ومن سار على نهجه من المنافقين .

(١) ينظر : السيرة النبوية لابن هشام ١٤٤/٤ ، البداية ١٠/٥-١١ ، أسباب النزول

للواحدى ص ٢٤٦ ، السيرة الحلبية ١٠٢/٣ .

(٢) الجد بن قيس : بفتح الجيم وتشديد الدال . تكملة الإكمال ٨٢/٢ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١٨٥/٤ ، ونقله ابن كثير فى التفسير ٣٦١/٢ ، وابن

جرير فى التفسير ١٤٤/١٠ .

(٤) هى سورة التوبة وتسمى الفاضحة . قال سعيد بن جبیر : سألت ابن عباس رضى

الله عنه عن سورة براءة فقال : تلك الفاضحة ، مازال يتزل : ومنهم ومنهم ،

حتى خفنا ألا تدع أحدا . تفسير القرطبي ٤٠/٨ .

(٥) سورة التوبة : آية ٤٦-٤٩

فهم حين يخرجون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يعملون على
إفساد أوضاع المؤمنين ، ومحاربتهم نفسياً ، وزعزعة صفوفهم بكل وسيلة :
{لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً} "والخبال الفساد والنميمة ،
وإيقاع الاختلاف والأراجيف" (١) ، {ولأوضعوا خلالكم} "أى أسرعوا في
الدخول بينكم للتفريق والإفساد" (٢) ، وهدفهم من ذلك فتنة المؤمنين :
{يبغونكم الفتنة} أى "يحاولون أن يفتنوكم ، بإيقاع الخلاف فيما بينكم ،
وإلقاء الرعب في قلوبكم ، وإفساد نياتكم" (٣) .

هذه الرغبة في فتنة المؤمنين ليست أمراً جديداً عند أولئك المنافقين ،
بل هى ديدن لهم وطبيعة ، وهى منهج لهم وخطة يسيرون عليها : {لقد
ابتغوا الفتنة من قبل ، وقلبوا لك الأمور} .

قال ابن جرير : "يقول تعالى ذكره : لقد التمس هؤلاء المنافقون الفتنة
لأصحابك يا محمد ، التمسوا صدهم عن دينهم ، وحرصوا على ردهم إلى
الكفر بالتخذييل عنه ، كفعل عبد الله بن أبى بك وبأصحابك يوم أحد ،
حين انصرف عنك بمن تبعه من قومه" (٤) .

إن رؤوس النفاق يتحركون عن تدبير وتخطيط ، وتأمل وتفكير ،
وتقليب فيما بينهم للآراء ، وبحث فى الوسائل المناسبة لكيد الإسلام ،
والمكر بالمؤمنين ، والتخذييل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم {لقد ابتغوا
الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور} "أى اجتهدوا ودبروا لك الحيل والمكايد
ودوروا الآراء فى إبطال أمرك" (٥) .

وهم فى كل الأحوال يحملون فى نفوسهم البغض والكراهة لهذا الدين
{حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون} إذ يسوءهم ، ويثقل كاهلهم ،

(١) تفسير القرطبي ١٠٠/٨ .

(٢) التفسير القيم ص ٢٩٤ .

(٣) تفسير أبى السعود ٧١/٤ (مع اختصار) .

(٤) تفسير الطبرى ١٤٧/١٠ .

(٥) تفسير أبى السعود ٧٢/٤ .

أن يشاهدوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتحا ونصرا ، وللإسلام تقدما وانتشارا .

هؤلاء المنافقون كانوا يقدمون بين يدي تخلفهم وقعودهم مبررات سخيفة وأعدارا كاذبة ، وقد أوردت الآيات مثالا على ذلك في قول الله سبحانه :

{ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ...} .

وقد ذكر المفسرون^(١) أن الآية نزلت في الجد بن قيس ، ووردت بذلك روايات ، منها ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : " لما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يخرج الى غزوة تبوك ، قال للجد بن قيس : يا جد بن قيس ، ماتقول فى مجاهدة بنى الأصفر؟ قال : يارسول الله ، إني امرؤ صاحب نساء ، ومتى أرى نساء بنى الأصفر أفتتن ، أفتأذن لى فى الجلوس ولا تفتنى؟ فأنزل الله {ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألى فى الفتنة سقطوا} "^(٢) .

والمعنى : لاتتوقعنى فى الإثم بالخروج معك ومشاهدة بنات الروم ، ولم يكن هناك فى الحقيقة من عذر إلا النفاق هو الباعث لهم على التخلف ، وبه يقعون فى الفتنة الحقيقية ، وبسببه يتلبسون بالإثم والحسرة ، المودى بهم

(١) قال ابن كثير فى التفسير ٣٦٢/٢ : " هكذا روى عن ابن عباس ومجاهد وغير واحد أنها نزلت فى الجد بن قيس ، وقد كان الجد بن قيس هذا من أشرف بنى سلمة " . وقال ابن جرير : " وبذلك من التأويل تظاهرت الأخبار عن أهل التأويل " . تفسير الطبرى ١٤٨/١٠ ، وينظر : أسباب النزول للواحدى ص ٢٤٦ ، زاد المعاد ٥٢٦-٥٢٧/٣ ، تفسير البغوى ٢٩٩/٢ ، زاد المسير ٣٠٤-٣٠٥/٣ .

(٢) رواه الطبرانى كما فى مجمع الزوائد ١٠٦/٧ قال الهيثمى : فيه يحيى الحماني وهو ضعيف ، ورواه البيهقى من طريق ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبى بكر بن حزم . دلائل النبوة ٥/٢١٣-٢١٤ ، وينظر : تفسير الطبرى ١٤٨-١٤٩/١٠ ، تفسير ابن كثير ٣٦٢-٣٦١/٢ ، لباب النقول ص ١١٨ ، البداية ٦/٥ ، دلائل النبوة ٥/٢٢٥ ، السيرة النبوية لابن هشام ٤/١٤٠ ، تفسير فتح القدير ٣٦٨/٢ .

إلى عذاب الله جل وعلا (١) {ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة
بالكافرين}.

تلك بعض الأمثلة للإرجاف والتخذيل والتشبيط الذى يتقن المنافقون
توجيهه كسلاح يحاولون به تمزيق المجتمع الإسلامى من داخله .
ونوع آخر من التشبيط ضمن مفردات منهج ابن أبى وهو يستهدف
شق صفوف المسلمين ، وتشتيت وحدتهم ، يتمثل فى تشبيطه للأنصار رضوان
الله عليهم من الأوس الخزرج عن الاستمرار فى استيعاب المهاجرين رضوان
الله عليهم ، والدعوة إلى إيقاف الدعم المادى لهم ، والنكوص عن فتح
سبل المعيشة ، وتهيئة أسباب الحياة للمؤمنين القادمين من خارج المدينة .
وهو بهذا الأسلوب يقصد تخذيل رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
أملا فى تكوين وسائل ضغط تثمر إضعافا فى موقفه عليه الصلاة والسلام ،
وتحجيما لدعوته .

ذلك ماظهر جليا فى صنيع عبد الله بن أبى ، فى غزوة بنى المصطلق ،
أثناء عودة الجيش الإسلامى إلى المدينة ، وعلى رأسه رسول الله صلى الله
عليه وسلم .

فعن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال : "خرجنا مع النبى صلى الله
عليه وسلم فى سفر أصاب الناس فيه شدة ، فقال عبد الله بن أبى لأصحابه :
لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله ، وقال : لئن رجعنا
إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم ،
فأخبرته ، فأرسل إلى عبد الله بن أبى ، فسأله ، فاجتهد يمينه ما فعل ، قالوا
كذب زيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوقع فى نفسى مما قالوا شدة ،
حتى أنزل الله عز وجل تصديقى فى {إذا جاءك المنافقون} فدعاهم النبى صلى
الله عليه وسلم ليستغفر لهم فلووا رؤوسهم" (٢).

(١) ينظر : تفسير البغوى ٢/٢٩٩ ، تفسير القرطبي ١٠١/٨ .

(٢) رواه البخارى فى كتاب التفسير ، باب {وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم} ١٨٦٠/٤ -

١٨٦١ ، ومسلم فى كتاب صفات المنافقين ١٧/١٢٠ .

وفي رواية أخرى بيان للحادثة التي استغلها ابن أبي ليلى في مقالته .
 فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : "كنا في غزاة (١) ،
 فكسع (٢) رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار ، فقال الأنصاري : يالأنصار
 وقال المهاجري : ياللمهاجرين ، فسمعها الله رسوله صلى الله عليه وسلم .
 قال : ما هذا ، فقالوا كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار ، فقال
 الأنصاري : يالأنصار (٣) ، وقال المهاجري : ياللمهاجرين ، فقال النبي صلى
 الله عليه وسلم : دعوها فإنها منتنة (٤) .

قال جابر : وكانت الأنصار حين قدم النبي صلى الله عليه وسلم أكثر ،
 ثم كثرت المهاجرون بعد ، فقال عبد الله بن أبي : أوقد فعلوا ، والله لئن
 رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فقال عمر بن الخطاب رضي
 الله عنه دعني يارسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، قال النبي صلى الله
 عليه وسلم : دعه لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه (٥) .

وفي رواية ابن إسحاق أن هذه الحادثة كانت في غزوة بني المصطلق ،
 على ماء يقال له المريسيع .

قال ابن إسحاق : " .. فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك
 الماء ، وردت واردة الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار ،
 يقال له : جَهْجَاه بن مسعود يقود فرسه ، فازدحم جهجاه وسنان بن وبرة
 الجهني حليف بني عوف بن الحزرج على الماء ، فاقتتلا ، فصرخ الجهني :

(١) هي غزوة بني المصطلق كما في رواية ابن إسحاق ، وتسمى أيضا غزوة المريسيع ،
 وينظر : فتح الباري ٦/٦٧٨ .

(٢) أي ضربه على دبره ، من الكسع وهو ضرب الدبر باليد أو بالرجل . ينظر فتح
 الباري ٨/٨٣٧، ٨٣٩ .

(٣) "بفتح اللام ، وهي للاستغاثة ، أي أغِيثُونِي" . فتح الباري ٨/٨٣٨ .

(٤) "دعوها" أي دعوة الجاهلية ، و"منتنة" من النتن ، أي أنها كلمة قبيحة خبيثة .
 ينظر فتح الباري ٨/٨٣٨ .

(٥) رواه البخاري في كتاب التفسير ، باب قوله {يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ..}
 ٤/١٨٦٣ ، ومسلم في كتاب البر ، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما ١٦/١٣٨ .

يامعشر الأنصار ، وصرخ جَهَّجَاه : يامعشر المهاجرين ، فغضب عبد الله بن أبي ابن سلول ، وعنده رهط من قومه فيهم : زيد بن أرقم ، غلام حدث ، فقال : أوقد فعلوها^(١) ، وقد نافرونا^(٢) وكاثرونا في بلادنا ، والله ما أعدنا وجلايب قريش^(٣) إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم...^(٤).

وفي رواية عروة بن الزبير : "فانكفأ كل منافق إلى عبد الله بن أبي ، فقالوا : كنت ترجى وتدفع ، فصرت لاتضر ولاتنفع ، فقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل"^(٥).

وبشأن هذه الحادثة نزل قول الله سبحانه :

{هم الذين يقولون لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون . يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون}{^(٦).

(١) المراد "شركناهم فيما نحن فيه ، فأرادوا الاستبداد به علينا" . فتح الباري ٨/٨٣٨

(٢) أى فاخرونا . ينظر لسان العرب ٦/٤٤٩٩ .

(٣) جلايب : جمع جلباب ، وهو الإزار والرداء ، ويكنى به عن الفقر . ينظر النهاية ١/٢٨٣ .

(٤) رواه ابن إسحاق ، قال : حدثني عاصم بن عمر بن قتادة ، وعبد الله بن أبي بكر ومحمد بن يحيى بن حبان ، كل قد حدثني بعض حديث بنى المصطلق ، قالوا ... السيرة النبوية لابن هشام ٣/٢٣٣-٢٣٤ ، ورواه ابن جرير في التفسير من طريق ابن إسحاق به ٢٨/١١٥ ، وينظر : دلائل النبوة للبيهقي ٤/٥٢-٥٣ ، البداية ٤/١٧٩-١٨٠ .

(٥) رواه ابن أبي حاتم كما في الفتح ٨/٨٣٧ ، قال ابن حجر : وهو مرسل جيد .

(٦) سورة المنافقون : آية ٧-٨

لقد كشف ذلك الموقف ما يحمله صدر ابن أبي من الغل ، وما يتلى به من الحقد على المؤمنين ، وأظهرت تلك الحادثة كيد رأس النفاق ومكره ، في ضرب صفوف المسلمين من الداخل ، وإضعاف أمرهم ، وتفريق جمعهم ، ومن أجل ذلك يتابع ما يمكن أن يظهر من ثغرات ، ويتربص ما يقع من الأحداث ، ليجعل من بعض ذلك أساسا يعتمد عليه فيما يريد بثه من الدسائس والأراجيف .

لقد سارع ابن أبي إلى استغلال تلك الحادثة الفردية ، والخلاف العرضي ، لينشر سموم الفتنة ، وهو مطمئن إلى أن ما ينتفوه به سيكون - في أعين العامة - منطقيا له مبرراته ، وينطلق من الحرص على مصلحة البلد وأهلها الأصليين ، والاحتياط لحقوقهم ، والمحافظة على مكاسبهم من أن يهضمها الأعراب ، وكرامتهم من أن يصيبها الهوان .

وكأنه في مقولته يطالب القوم بالتحرك ، والعمل على إصلاح هذه الأوضاع ، وإعادة الأمور إلى نصابها ، وأن تكون لحظة العودة إلى المدينة هي البداية للتصرف المناسب ، لإعادة الكرامة المهذرة ، والحقوق المضیعة {يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل} وهو يريد بالأعز نفسه ومن يسلك منهجه ، وبالأذل محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين .

وواضح أنه يقصد نشر الأراجيف ، وإثارة النعرات العصبية ، والدعوات الجاهلية ، وتحريك النوازع المادية لدى المؤمنين من الأوس والخزرج خاصة ، ضد إخوانهم المؤمنين المهاجرين ، لتحصل الفرقة والتزاع ولذلك طالب بإزالة الآثار المادية السلبية - في زعمه - على أهل المدينة ، والتي يسببها المهاجرون الفقراء ، وهو في النهاية يستهدف القضاء على دعوة الإسلام نفسها ، بتفرق فئات من المؤمنين عنه صلى الله عليه وسلم {هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا} .

عن ابن عباس رضى الله عنهما فى الآية قال : "لاتطعموا محمدا وأصحابه حتى تصيبهم مجاعة فيتركوا نبيهم" (١).

فهى إذن خطة للتجويع ، وحصار معيشى ، يقترحه ويدعو اليه رأس النفاق عبد الله بن أبى ، حتى ينشغل الرسول صلى الله عليه وسلم والمهاجرون بهموم الطعام والمأوى والاستقرار ، فيخف الحماس لدعوة الله سبحانه بتفرق جماعات من المؤمنين بها ، ومن ثم يزول خطرهما ، وينتهى أمرها ، ولو بعد حين .

رابعا :

الولاء لأعداء الله من الكافرين ، والتآمر معهم ضد الدعوة وأهلها : كان أمرا طبيعيا أن يجد عبد الله بن أبى وشيعته فى اليهود حلفاء لهم ، يوالونهم ، ويتقربون إليهم ، ويشعرونهم بالود والمحبة ، ويعدونهم بالنصر والمؤازرة .

ذلك أن المنافقين واليهود تجمعهم روابط الكفر بالله سبحانه ، والمخالفة لدينه ، والمجابهة لرسوله صلى الله عليه وسلم ، والكرهية والبغض للمؤمنين .

ومن ثم فلا غرابة أن يتخذ المنافقون من اليهود أولياء لهم ، يلقون إليهم بالمودة ، ويكاشفونهم بأخبار المؤمنين ، وينقلون إليهم أسرارهم وخباياهم ، ويحرصون على توثيق العلاقة بهم . ذلك ماقرره الله سبحانه وتعالى فى قوله عز وجل :

{ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم...} (٢).

قال ابن جرير : "هم المنافقون تولوا اليهود وناصحوهم" (٣).

(١) تفسير الطبرى ١١١/٢٨ .

(٢) سورة المجادلة : من آية ١٤

(٣) تفسير الطبرى ٢٢/٢٨ ، وينظر تفسير البغوى ٣١١/٤ .

إن هؤلاء المنافقين يرون في بنى يهود سندا لهم ، ومصدرا للعون والحماية ، إذا اشتدت الأمور ، وضافت الأحوال ، ودارت الدوائر ، كما قال عز وجل :

{يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين . فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين} (١).

قال فى تفسير المنار عند قول الله تعالى : {فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم} : "اتفق رواة التفسير المأثور على نزول هذه الآية فى المنافقين فهم الذين فى قلوبهم مرض ، وكان عبد الله بن أبى زعيم المنافقين ذا ضلع مع يهود بنى قينقاع ، وكان غيره من المنافقين يمتون إلى اليهود بالولاء والعهود ، ويسارعون فى هذه السبيل التى سلكوها ، كلما سنحت لهم فرصة لتوثيق ولائهم وتأكيدهم ابتدروها ، فهم يسارعون فى أعمال موالاتهم مسارعة الداخل فى الشىء ، الثابت عليه ، الراغب فيما يزيد تمكنا وثباتا ، فما عذر هؤلاء الذى يرددونه فى أنفسهم ، ويقولونه عند الحاجة بألسنتهم؟ {يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة} أى نخشى أن تقع بنا مصيبة كبيرة مما يدور به الزمان ، أو من المصائب والدواهى التى تحيط بالمرء إحاطة الدائرة بما فيها ، فنحتاج إلى نصرتهم لنا ، فنحن نتخذ لنايدا عندهم فى السراء ، ننتفع بها إذا مست الضراء" (٢).

وشتان بين ما أعلنه عبادة بن الصّاميت رضى الله عنه فى هذا الشأن وما صرح به عبد الله بن أبى فقد جاء عبادة بن الصامت رضى الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، "فقال : يارسول الله ، إن لى موالى من

(١) سورة المائدة : آية ٥١-٥٢

(٢) تفسير المنار ٤٣١/٦ (مع اختصار يسير) وينظر : تفسير ابن كثير ٦٨/٢ ، تفسير القرطبي ١٤١/٦ ، تفسير البغوى ٤٤/٢ .

يهود ، كثير عددهم ، وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود ، وأتولى الله ورسوله ، فقال عبد الله بن أبي : إني رجل أخاف الدوائر ، لأبرأ من ولاية موالي^(١).

لقد أعلن رأس النفاق موالاته لخلقائه من يهود بني قينقاع ، بل وناصح عنهم ، واشتد في القيام دونهم ، وذلك حين حاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم - بعد إخلالهم بالأمن ونقضهم للعهد - حتى نزلوا على حكمه . إذ قام عبد الله بن أبي ابن سلول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحدث معه في شأنهم ، وكان مما قال : "يا محمد ، أحسن في موالي^(٢) أربع مائة حاسر^(٢) وثلاث مائة دارع ، قد منعوني من الأحمر والأسود ، تحصدهم في غداة واحدة ، إني والله امرؤ أخشى الدوائر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هم لك"^(٣).

تلك إحدى صور الولاء من أهل النفاق كابن أبي وأمثاله لأعداء الله سبحانه ، والوقوف في خندقهم ، والتواصل معهم ، والحرص على مصالحهم . وصورة ثانية يحكيها القرآن الكريم ، تكشف طبيعة العلاقة بين حزب النفاق وطائفة أخرى من طوائف اليهود ، هم يهود بني النضير^(٤) . يقول الله تعالى :

{ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولانطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتهم لننصركم..}{^(٥).

(١) رواه ابن جرير عن عطية بن سعد . تفسير الطبرى ٢٧٥/٦ ، ونقله ابن كثير في التفسير ٦٨/٢-٦٩ . وينظر رواية ابن إسحاق قال حدثني أبي عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت ، في السيرة النبوية لابن هشام ٣٧٠/٢ ، وينظر أيضا تفسير فتح القدير ٥٢/٢ .

(٢) الحاسر : الذى لادرع عليه . ينظر النهاية ٣٨٣/١ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٣٦٩/٢-٣٧٠ (مع اختصار) من رواية ابن إسحاق قال حدثني عاصم بن عمر بن قتادة ، ونقله ابن كثير في التفسير ٦٩/٢ ، والبداية ٥/٤ ورواه البيهقى من طريق ابن إسحاق . دلائل النبوة ١٧٤/٣ .

(٤) ينظر : تفسير الطبرى ٤٥/٢٨ ، تفسير ابن كثير ٢٣٠/٤ .

(٥) سورة الحشر : من آية ١١

وكان ذلك حين نقض يهود بني النضير عهودهم ، وحاولوا الغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها ، وأمهلهم لذلك عشرة أيام ، فتهيأت تلك الطائفة من اليهود للخروج في بداية الأمر ، إلا أنهم تلقوا من أهل النفاق بالمدينة رسالة يمنونهم فيها بالعون والمناصرة ، فغيروا حينها من رأيهم ، وقرروا التحصن في حصونهم ، وأعلنوا رفضهم مغادرة المدينة (١) .

قال ابن إسحاق : .. وقد كان رهط من بني عوف بن الحزرج منهم عدو الله عبد الله بن أبي ابن سلول ، ووديعة ومالك بن أبي قوئل ، وسويد وداعس ، قد بعثوا إلى بني النضير : أن اثبتوا وتمنعوا ، فإننا لن نسلمكم ، إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم" (٢) .

وفي رواية الواقدي أنهم "أخذوا في الجهاز ، فبينما هم على ذلك إذ جاءهم رسول ابن أبي ، أتاهم سويد وداعس ، فقالا : يقول عبد الله بن أبي : لا تخرجوا من دياركم وأموالكم ، وأقيموا في حصونكم ، فإن معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب ، يدخلون معكم حصنكم ، فيموتون من آخرهم قبل أن يوصل إليكم ، وتمدكم قريظة فإنهم لن يخذلوكم ، ويمدكم حلفاءكم من غطفان ، وأرسل ابن أبي إلى كعب بن أسد ، يكلمه أن يمد أصحابه ، فقال : لا ينقض من بني قريظة رجل واحد العهد ، فيئس ابن أبي من قريظة ، وأراد أن يلحم الأمر فيما بين بني النضير ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يزل يرسل إلى حبي حتى قال حبي : أنا أرسل إلى محمد أعلمه أنا لا نخرج من دارنا وأموالنا ، فليصنع ما بدا له ، وطمع حبي فيما قال ابن أبي" (٣) .

(١) ينظر : البداية ٨٦/٤ ، زاد المعاد ١٢٨/٣ ، السيرة الحلبية ٥٦١/٢ ، تفسير ابن كثير ٣٣١-٣٣٢ ، تفسير فتح القدير ٢٠٦/٥ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١٢٢/٣ .

(٣) المغازي ٣٦٨/١ .

وتشير الآيات الكريمة التي نزلت في شأن هؤلاء المنافقين إلى عمق الصلة بينهم وبين يهود ، وأنها بلغت مرتبة الأخوة الحميمة { ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب } ، ولاغرابة ، فإن الكفر يوحد بينهم ، والكراهية لهذا الدين تضمهم وتجمع شملهم . كما وضحت الآيات العهد الذي قدمه المنافقون ، والذي يتضمن وعودا ثلاثة لإخوانهم من يهود بني النضير .

أول تلك الوعود مناصرتهم إذا تحرك المسلمون لقتالهم ، وذلك بالمشاركة الفعلية معهم ، والقتال في صفوفهم ، وتقديم مايمكنهم من العون لهم .

وثانيها : عدم السماح لأحد بالتأثير على قرارهم في نصر اليهود والوقوف معهم ، وعدم الاستجابة لمن يدعوهم إلى خذلان اليهود أو قطع العلاقة معهم .

وثالثها : ربط المصير بهم ، وعدم التخلي عنهم بأي حال ، ومشاركتهم الخروج من المدينة لو اضطروهم المسلمون إلى هذا المصير . { لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولانطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم } .

وأهل النفاق يريدون بذلك إشعال الحرب ، بتأليب اليهود على المجابهة ، ودعوتهم إلى الثبات وعدم التفكير في التنازل أو الاستسلام ، وبث الحماس في نفوسهم ، ورفع معنوياتهم ، بتقديم الوعود المؤكدة بنصرتهم والوقوف معهم .

كل ذلك من أرباب النفاق ينطلق من أملهم الدائم في كسر شوكة المسلمين ، وتكثير أعدائهم ، وزيادة فرص المواجهة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لعل إحداها أن تثمر في تعويق دولة الإسلام ، وتصديق بنيانها . ولكن الرعب في القلوب ، والذلة في النفوس ، منعت المنافقين من تحقيق الوعود :

{... والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون} (١).

واستسلم يهود بنى النضير دون أن يجدوا النصره الفعلية الموعود بها من المنافقين ، وتم إجلاؤهم عن المدينة .

ومن المؤامرات أيضا ذات العلاقة بالعمالة لأعداء الله من الكافرين خارج المدينة ، ماقام به جمع من ركب المنافقين بالتنسيق مع عدو الله أبى عامر الفاسق ، من بناء مسجد لهم ليكون غطاء وستارا لمكرهم وكيدهم بالمؤمنين ، استعدادا للتصدي لرسول الله صلى الله عليه وسلم وليتولى الأمر فى المدينة أرباب الكفر ، وعلى رأسهم عدو الله أبو عامر الفاسق .

وفضح الله تبارك وتعالى تلك الخطة الآثمة من المنافقين ، وكشفها لنبيه عليه الصلاة والسلام بقوله عز وجل :

{والذين اتخذوا مسجدا ضارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون} (٢).

وقد أورد ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية خبر أبى عامر الفاسق ، ومشاركته كفار قريش فى قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه لما رأى أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فى ارتفاع وظهور ، ذهب إلى هرقل ملك الروم ، يستنصره على النبى صلى الله عليه وسلم ، فوعده ومناه ، وأقام عنده ، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب ، يعدهم ويمنهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويغلبه ، ويرده عما هو فيه ، وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ، ويكون مرصدا له إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فشرعوا فى بناء مسجد مجاور لمسجد قباء ، فبنوه وأحكموه ،

(١) سورة الحشر : من الآيات ١١-١٢

(٢) سورة التوبة : آية ١٠٧

وفرغوا منه قبل خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك وجاءوا فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي إليهم فيصلوا في مسجدهم ، ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته ، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية ، فعصمه الله من الصلاة فيه ^(١) إذ كان عليه الصلاة والسلام حينها يستعد للخروج إلى تبوك ، وبعد عودته منها كان الوحي الإلهي قد تنزل عليه صلى الله عليه وسلم يكشف هدف المنافقين الحقيقي من بناء المسجد ، وينهاه عليه الصلاة والسلام من الصلاة فيه ، وعلى إثر ذلك أمر صلى الله عليه وسلم بهدم ذلك المسجد وتحريقه ، ونفذ المهمة مالك بن الدخشم ^(٢) ومعن بن عدى رضى الله عنهما بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣).

وكان أبو عامر قد بعث إلى عملائه وأعوانه من المنافقين - كما في رواية ابن عباس رضى الله عنهما - أن "ابنوا مسجدكم واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح ، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم ، فأتي بجند من الروم ، فأخرج محمدا وأصحابه" ^(٤).

(١) تفسير ابن كثير ٣٨٨/٢ ، وينظر أسباب النزول ص ٢٦٠-٢٦٢ .

(٢) مالك بن الدخشم : بضم الدال وسكون الخاء وضم الشين . تهذيب الأسماء ٨١/٢ ، المغنى ص ١٠٠ .

(٣) ينظر : السيرة النبوية لابن هشام ١٥٦/٤-١٥٧ ، تفسير الطبرى ٢٣/١١ ، دلائل النبوة للبيهقى ٢٥٩/٥-٢٦٠ ، البداية ٢٧/٥ ، زاد المعاد ٥٤٩/٣ ، المغازى للواقدي ١٠٤٦/٣ ، تفسير البغوى ٣٢٦/٢ .

(٤) تقدم ص ٥٠٠ .

ومن خلال ماذكر بشأن تلك المؤامرة يمكن ملاحظة المعالم التالية :

* العلاقة الوثيقة بين معسكر النفاق داخل المدينة ومعسكر الكفر خارجها ، وعمالة هؤلاء المنافقين لأعداء الله ، ومنهجهم في المكر بالمؤمنين بأساليب تعتمد الخداع والتدليس ، وبذل المحاولات المستمرة لتهيئة الأوضاع بما يتناسب مع مخططات الكفر التي تستهدف القضاء على دولة الإسلام .

* أراد المنافقون - بتوجيه من عدو الله أبي عامر - أن يوجدوا لهم مكانا يتسنى لهم فيه التحرك بحرية ، والتخطيط بهدوء ، ويتمكنون فيه من التلاقى والاجتماع لتدبير أمورهم ، وترتيب أوضاعهم ، وتجميع كيدهم ، بلاضجيج أو إثارة أو لفت للأنظار ، ليطمئنوا بذلك على استمرار المؤامرة دون انكشاف ، فكان أن وقع اختيارهم على بناء المسجد ، والاعتبار الأول في هذا الاختيار هو كون المسجد في مجتمع المؤمنين واجهة بعيدة كل البعد عن احتمال الشك والريب ، بل إن المسجد هو شعار وحدانية الله سبحانه ، ومحل لذكره وعبادته ، وبالتالي فإن ظاهر ذلك البناء هو الخير للمسلمين ، وإشهار لمعالم الإسلام وشعائره ، كما أنه يمثل وعاء للدعوة إلى دين الله تعالى .

ومن ثم فقد رأوا في هذا الاختيار وسيلة ملائمة تمنع من انكشاف أمرهم ، وظهور تآمرهم ، وتسمح لهم بالعمل في دقة وروية .

وكانت خطوتهم التالية لبناء المسجد أن ينالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم اعترافا بصنيعهم ، وتشجيعا له وتأيدا ، ليصبح الأمر بعد ذلك طبيعيا في أعين الناظرين ، لاجال فيه لريبة ، خصوصا وأنه في ذات المنطقة التي أنشأ فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجدا أول وصوله المدينة : منطقة قباء ، فاتجه ممثلون لهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

وحادثوه في أمرين يتعلقان بذلك المسجد .

الأول منهما بيان الهدف من بنائه إذ ادعوا أنهم إنما بنوه لذي العلة والحاجة ، والليلة المطيرة والليلة الشاتية ، وهو في ظاهر الأمر هدف شرعى لاغراضة فيه ، إذ يتضمن تقديم الخير للمؤمنين في تلك المنطقة ، وتحصيل منفعة لهم ، ومراعاة ظروفهم ، وتهيئة الوضع الذى يعينهم في عبادة ربهم سبحانه ، وذلك ما يؤكدونه بألسنتهم {وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى} . هذا هو الظاهر ، أما في الحقيقة والواقع فما ذاك إلا استار لما تخفيه صدورهم من غايات يبغيون تحقيقها {والله يشهد إنهم لكاذبون} .

والثانى : دعوته عليه الصلاة والسلام للصلاة فيه .

وغرضهم من ذلك في حقيقة الأمر أن يتم اعتماده أمام المؤمنين ، وتثبيت وضعه ، ومن ثم تكون صلاته عليه الصلاة والسلام فيه حجة في وجه كل من يرد على خاطره شك في الأمر أو ريبة .

* فضحت الآية الكريمة أهداف المنافقين الحقيقية من هذا البناء ،

وذكرت لهم أغراضا أربعة تضمنها قول الله سبحانه :

{والذين اتخذوا مسجدا ضارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل ..} (١).

فالأول من هذه الأغراض هو الإضرار بالمجتمع الإسلامى بالمدينة ، وتلك كلمة جامعة تشمل ضرب الإسلام في معقله ، والتهوين من شأنه ، وتشمل المكر بالمؤمنين وبقيادتهم المتمثلة في رسول الله صلى الله عليه وسلم أملا في انتزاع مقاليد الأمر في المدينة لصالحهم ، كما تشمل كذلك الإضرار بالمؤمنين في منطقة قباء ذاتها والتي بنى فيها ذلك المسجد .

والثاني : إعلاء راية الكفر ، والعمل الدائب - من خلال واجهة المسجد - على الصد عن دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتهيئة الأوضاع وإعداد الخطة ، لانتصار مناهج الكفر ، وتأسيس بنيانه من جديد ، بأساليب الكيد الغالية في التخفى التي اعتادها وأتقنها المنافقون .

والثالث : تشتيت كلمة المؤمنين في تلك الجهة التي أقيم بها المسجد ، إذ أن المنافقين يزعمهم ويغيظهم أن يلتئم صف المسلمين ، وأن تجتمع كلمتهم ، ويتوحد أمرهم ، ومن ثم فقد استهدفوا من بناء ذلك المسجد - ضمن أهدافهم - التفريق بين المؤمنين ، وتفتيت وحدتهم ، وإفساد ذات بينهم ، إذ كان المسلمون في تلك الجهة يصلون في مسجد قباء ، وبإنشاء مسجد الضرار سيتفرقون بينهما ، فتشتت جماعتهم ، وتزول ألفتهم ، ومن ثم يمكن الانفراد ببعضهم من خلال مسجد الضرار ، والعمل على جذبهم إلى معسكر النفاق .

أما الغرض الرابع فهو إيجاد المعقل الآمن للاجتماع والتلاقي ، والتخطيط والتدبير ، واستقبال ما يبعثه أبو عامر من الرسائل والتوجيهات ، والتنسيق معه فيما يمكن عمله ، وكل ذلك منهم استعدادا وترقبا وانتظارا^(١) لأبي عامر الفاسق ، المحارب لله سبحانه من حين خروجه من المدينة قبيل غزوة بدر مفارقا للإسلام وأهله { وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل } حتى يقدّم بما وعدهم به من الجنود والرجال ، تنفيذًا للخطة الموضوعة في القضاء على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنهاء أمره .

ولكن الله تعالى حفظ دينه ، ونصر نبيه عليه الصلاة والسلام ، فأحرق مسجد الضرار وهدم ، ومات أبو عامر في الشام غريبا طريدا .